

الشهيد

اسم الله الشهيد يدل على ذات الله، وعلى صفة الشهادة بدلالة المطابقة وعلى ذات الله وحدها بالتضمن وعلى صفة الشهادة وحدها بدلالة التضمن، ويدل باللزوم على الحياة والقيومية والسمع والبصر، والعلم والإحاطة وغير ذلك من أوصاف الكمال، واسم الله الشهيد يدل على صفة من صفات الأفعال^١، فصفات الله تعالى متعددة لا يمكن حصرها لتعدد أسمائه وأفعاله التي لا يمكن للعقل البشري الوصول إلى عدّها، قال الله تعالى: {وَأِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} ^٢ فإذا كانت نعم المولى عز وجل لا تعد ولا تُحصى فكيف بأسماء وأفعال من أنعم علينا بهذه النعم؟

الشهيد "المطلع على جميع الأشياء. سمع جميع الأصوات، خفيها وجلّيها، وأبصر جميع الموجودات، دقيقتها وجليلها، صغيرها وكبيرها. وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده، وعلى عباده، بما علموه"^٣.

الشهيد هو الباقي الدائم في القبل والبعد، وفي الحياة والممات والبعث وفي الحساب توابا وعقابا وهو على كل شيء قدير.

الشهيد يرى ويسمع ويلاحظ ويحكم ويحيب ويقدر ويهيمن وهو بكل شيء محيط وعليم، والشهيد بالإضافة هو من يستمد صفات الشهادة الحميدة حتى تكون شهادته الحق والعدل. الشهيد دليل إثبات الشهادة، فلو لم يكن ما كانت، ولأنه الشهيد بالمطلق فهو يُشَاهِد ولا يُشَاهَد {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ} ^٤، وفي غير ذلك يكون الشهيد بالإضافة تحت المشاهدة والملاحظة، ولذا فالشهيد المطلق يشهد الظاهر والباطن ويعلم بالمطلق علم اليقين، والشهيد بالإضافة لا يشهد ولا يعلم إلا ظاهرا وفي دائرة الممكن يستتبط ويستقرأ.

الشهيد المطلق الله جل جلاله، وشهادة الله لا تقابلها غيبة، فلا غيب لديه، وعالم الغيب والشهادة بمعنى إنه يعلم ما يغيب عنّا وما نشهده، وعلمه يسع ما يعلمه جميع الخلق وما يغيب

^١ أسماء الله الحسنى ج١٩/ ص٩.

^٢ إبراهيم ٣٤.

^٣ شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج ١، ص ٥٨.

^٤ الأنعام ١٠٣.

عنهم، من علم ملائكي وجنّي وبشري وكائناتي، وغير ذلك من علم معلوم ومجهول، ومشهود ومحجوب، وغائب ومعّيب قال الله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}°، ويقول الله تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}٦ ويقول الله تعالى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}٧

فالشهيد: هو الذي لا يغيب عنه شيء وقيل: هو العالم الرائي فيرجع معناه إلى صفة العلم وصفة الرؤية^٨.

وهو سبحانه وتعالى - كما قلنا - عنده الشهادة المطلقة فلا يوجد عنده غيب فالغيب ما غاب عنا، ولا ينبغي أن نقول: إن عند الله غيب، فالغيب خلق من خلقه فكيف يغيب المخلوق عن خالقه، ولا أن نقول إن الشهيد مشتق من الشهادة، بل هو سبحانه وتعالى خالق الشهادة التي لغيره أما شهادته غير مخلوقة وهي ذاتية سرمدية بلا أولية ولا انتهاء لأنه الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية.

كما لا نقول: إن الشهيد مبالغة في الشهادة بل نؤكد: إن الشهيد جل جلاله له العلم المطلق الذي يليق به وبالكيفية التي يعلمها هو ولا نعلمها نحن على مر الأجيال والأجيال.

والشاهد الحاضر يقال شهدت الشيء وشهدت به وأصل قولهم شهدت به من الشهادة التي هي الحضور، واليوم المشهود يوم القيامة لأنه معلوم كونه لا محالة فكان معنى الشهيد العالم^٩.

° البقرة ٢٥٥.

٦ طه ١١٠.

٧ الحج ٧٥، ٧٦.

٨ الاعتقاد، ج ١، ص ٦٠.

٩ تفسير أسماء الله الحسنى ج ١/ ص ٥٣.

والشهادة لا تقتصر على فرد واحد بل تتعداه لجماعة وتتعداها لأمة بأكملها، فقد يكون الفرد شهيداً كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} ^{١٠}، فالرسول عليه الصلاة والسلام شهيداً أو الجماعة تكون شهيدة، لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} ^{١١}، فالشهادة هنا كي تكون مقبولة لابد أن يجتمع فيها أربعة شهداء كي يُعترف بها، إذاً فالشهادة في هذه الحالة تعدت الفرد الواحد إلى جماعة، لأنها أصبحت من شروط الإدانة في هذه الحالة اجتماع أربعة شهداء، ولا يقبل شاهد واحد فقط.

أو الأمة بأسرها قد تكون شهيدة كقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} ^{١٢}، فالأمة هنا في هذه الآية ستكون شاهدة على نفسها، ومن المعروف أن الأمة تشمل الكثير من الأفراد، فلا يمكن أن تدخل في إطار الجماعة.

والشهادة تكون دائماً ملازمة للحق، قال تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِرِئَاسٍ} ^{١٣} فشاهد الزور ليس بشهيد، لأنه لا يشهد بالحق بل هو مزيف للحقيقة كاذب يقلب الأمور حسب مصلحته.

الشهيد هو الحي القيوم:

لا يمكن أن تأتي الشهادة من غير الحي، فالحياة لازمة لحصول الشهادة لأن الحياة تدل على القيومية وهذا بالتالي يجعل من الحي المطلق شهيداً مطلقاً لا يمكن أن يغفل أو ينام وذلك كما

^{١٠} النساء ٤٠: ٤٢.

^{١١} النور ٤.

^{١٢} البقرة ١٤٣.

^{١٣} الفرقان ٧٢: ٧٧.

جاء في قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} ^{١٤}، فالشاهد المطلق هو من كان مطلق العلم بعباده وبما خلق لما تتطلبه الشهادة من متابعة ومراقبة وعلم وعدل وهذه الصفات لا تكون مطلقة إلا لدى الواحد الأحد الذي يشهد على كل صغيرة وكبيرة ويجعل من كل منها شاهدة على الإنسان في كتابه يوم تقوم الساعة فيقف بين يدي الحي القيوم كما في قوله تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} ^{١٥}، ولا يمكن أن تكون هذه الدقة وهذا النظام إلا بوجود شهيد دائم الحياة والقيومية لا يغفل ولا ينسى ولا ينام ولا يظلم، وفي تقديمه للصغائر عن الكبائر أكبر دليل على عدل شهادته ودقته وعلمه المطلق بكل شيء، فالغافل لا يمكن أن يدرك كل ما حوله والنائم لا بد أن تفوته الكثير من الأمور والميت تنتهي علاقته بكل شيء منذ ساعة موته، وهذا ينتفي مع صفات الله تعالى الذي يحاسب على كل شيء فكيف يحاسب الإنسان على أمر من غير أن يكون شهيداً عليه.

ولله المثل الأعلى إذ أنه لا بد لولي الأمر أن يكون دائم الانتباه والمراقبة على رعيته، بذلك فإنه سيكون شاهداً على أغلب ما يقومون به من أعمال وهذا لا يمكن أن يحصل إلا إذا كان قائماً عليهم منتبهاً لهم فلا يستطيع الرعية عند ذلك التحايل عليه وإيقاعه في الخطأ فيظلم بدون علم منه بوقوع هذا الظلم، فكيف يدرك ذلك وهو لم يكن شاهداً على ما حصل بسبب إهمال أو غفلة أو جهل؟

ونستطيع أن نمثل لذلك بحالة انفصال الزوج والزوجة عن بعضهما البعض فينشغل كل من الزوجين بأموره الخاصة دون الالتفات لوضع الأبناء النفسي الذي لا بد وأن يكون الطلاق له بالغ الأثر فيه، فغياب الأم مثلاً أو اضمحلال دورها وغفلتها عن ما يقوم به الأبناء بسبب ابتعادها عن البيت وبقاء الأبناء مع الأب ذلك من شأنه أن يجعل منهم معرضين للفساد الأخلاقي، مما يجعل

^{١٤} البقرة ٢٥٥.
^{١٥} الكهف ٤٩.

منهم ضائعين لا يجدون صدراً حنوناً يضعون رؤوسهم عليه عندما يشعرون بحاجتهم لذلك، وهذا الحرمان يولد أحياناً القسوة والعناد، فيكبرون بهذه النفسية دون شاهد عليهم يراقبهم ويراعيهم، وكذلك الحال في غياب الأب الذي له الدور الكبير في ردع الأبناء عن كل ما هو غير مرغوب بتعلمه.

فالوالد والوالدة لابد أن يكونا شاهدين على الأبناء كي يؤديا واجبهم بشكل كامل، ولابد لهما من يكونا على وعي تام بأهمية دورهما في حياة الأبناء، فلا يجعلنا من الأبناء شهداء على الانهيار الاجتماعي الذي قد يحدث بين الزوجين في كثير من الأحيان فبذلك يكون المجتمع ضعيفا مفككا لا يُرجى منه شيء.

لذلك فالشهادة ليست بالأمر الهين الذي يستطيعه الكل بل هي مسؤولية كبيرة ومهمة تصعب على الإنسان تحملها لأن عاقبتها لا تقتصر عليه فقط بل تمتد لتشمل الكثير ممن حوله، ولأن الشهادة أمرٌ عظيم كانت من أسماء الله تعالى الحسان وبالتأكيد لا يتصف الخالق إلا بعظائم الصفات والأفعال.

وكل شهيد بالإضافة مصيره إلى الفناء والموت حتى وإن كانوا رسل الله - صلوات الله عليهم وسلم- كما جاء في قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ الْهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^{١٦}، لذلك فإن شهادتهم تقتصر على فترة حياتهم وتتقطع بعد ذلك لعدم قيامهم على أمور قومهم، أما الشهيد المطلق فهو دائم الحياة فلا ينقطع عن عبادته ولا يغفل عما يقومون به ويفكرون فيه، فشهادته يوم الحساب أول شهادة على الإنسان كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا

^{١٦} المائدة: ١١٦: ١١٨.

بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا^{١٧}، ففي هذه الآية الكريمة دلائل تامة للشهادة المطلقة وهي:

أ- **الكفاية**: فالإكتفاء بالأمر يعني الاستغناء عن غيره، فشهادة المولى عز وجل تفصل بين الحق والباطل بشكل قطعي لا شك ولا رجوع فيه فتتحقق الكفاية بهذه الشهادة التي لا يمكن أن تكون إلا للشهيد المطلق سبحانه وتعالى.

والإكتفاء لا يتوفر إلا إذا كان الشهيد مطلق العلم والخبرة والعدل، والمولى عز وجل هو الشهيد المطلق بقيوميته الأزلية وبقائه الأبدي.

ب- **الخبرة بالعباد**: وهذا ما تستند إليه الشهادة الحق، فلا يمكن أن تكون شهادة الحق صادرة عن شاهد جاهل أو غافل بل لابد أن تكون عن وعي تام وخبرة تامة بالغير، فكيف بالله الخبير المطلق الذي خلق الخلق؟

بما أن الله تعالى قائم على أمور عباده عليم بما يسرون ويعلمون فهو الشهيد الحق عليهم، هذا بخلاف الخليفة الذي لا يستطيع التعمق في خفايا الصدور بل تتحكم به وبشهادته ظواهر الأمور، قال تعالى: {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ^{١٨}}

ج - **البصر المطلق**: البصر لدى الشهيد عز وجل يصل إلى ما تخفي النفوس وتسّر، فلا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فهو المطلع على أمور العباد خيرهم وشرهم صلاحهم وفسادهم، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٍ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ^{١٩}}، فالخالق تعالى بصير بمن خلق وبصره المطلق شاهد أزلي على خلقه.

^{١٧} الإسراء ٩٦.

^{١٨} الملك ١٣: ١٤.

^{١٩} التغابن ٢: ٤.

والخليفة يجب عليه أن يكون شهيداً على نفسه طالما هو حي على وجه الأرض، وأن يكون على ثقة تامة بأنه تحت الشهيد عز وجل الذي يحييه ويميته، فيراقب الشهيد في كل ما يفعل وما ينطق به فيجعل من نفسه مستحقاً للحياة بأن يكون داعياً للحق والصلاح، لأن شهادة الحق من شأنها أن تزرع الأمن والطمأنينة بين البشر لعدم ضياع الحقوق، فشهادة الخليفة تجعل منه حياً بضميره وإيمانه وخوفه من الشهيد بالمطلق، وعلى الخليفة أن يكون قائماً على أمر نفسه وأهله وعلى المسلمين، رادعاً للظلم والزور والخطأ.

وشاهد الزور هو إنسان ميت بالرغم من حياته، لأنه من فقد صلته بالله مات وهو على قيد الحياة، فمن يميت ضميره ويشهد زوراً وافتراءً فقد علاقه بالله لأنه من شأن هذه العلاقة أن تجعل المرء من اتباع الشيطان فيكون مأموراً بكل ما فاسد ومخجل.

الشهيد هو العدل:

الله تعالى هو العادل المطلق الذي فعله وقوله حق عز وجل، فحكمه عادل فلا جور ولا ظلم عند الشهيد العادل، إذ تنتفي المصالح الدنيوية عنده عز وجل، فلا قيمة لإنسان يوم القيامة إلا إذا كان ميزانه مليء بالخيرات مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾^{٢٠} فشهادة الله تعالى فعلية إذ يكون ميزان أعماله شاهداً على الإنسان نفسه، فلا تزوير ولا نقص ولا زيادة وكيف ذلك والحكم يومئذ للحكم العدل الشهيد؟

العدل في الدنيا لا يتحقق بوجود الظالمين والمتكبرين والعاصين والمنافقين، مع أن العادل بالإطلاق أمرنا بالعدل مع أنفسنا ومع من حولنا من أقرباء وغيرهم، وجعل من العدل منهجاً لحل الأزمات والوصول إلى النتائج المرضية، قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^{٢١}، ففي الآية الكريمة السابقة نجد أنه:

^{٢٠} الأعراف ٨: ٩ .
^{٢١} الحجرات ٩: ١٠ .

* من أساس طرق الحل والعلاج هو الإصلاح وعدم الإفساد.

* من وجوه العدل أن يُرد بالقوة على الظلم والاستبداد لردع الطغيان والظلم.

* العدل أساس الحق فلا إحقاق للحق دون عدل .

فالشهيد بالإطلاق هو العادل بالإطلاق في شهادته، فلا يظلم أحدا ولا يُنقص عمل إنسان، قال تعالى: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} ٢٢، فالشاهد لا يحتاج إلى سجل أو كتاب ليسجل فيه أعمال البشر ولكنه بالرغم من ذلك يجعل من كتاب أعمال الإنسان شهيدا عليه يوم القيامة كي لا تكون حجة لأي كافر أو جاحد على الله تعالى.

ومن عدله تعالى في شهادته أنه:

أ- لا يغفل عن صغيرة أو كبيرة لقوله تعالى: {وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} ٢٣، فالعدل الحق هو عدم إغفال صغائر الأفعال قبل الكبائر.

ب- عدم تجاوز الحد في العقاب كما في قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ} ٢٤.

ج- لا فرق بين العباد لديه إلا بالتقوى والعمل الصالح، كما جاء في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} ٢٥، فالفرقات الدنيوية بين البشر التي يصنعها المال أو اللون أو تصنعها القوة والسلطة

٢٢ ق ١٩: ٣٠.

٢٣ يونس ٦١.

٢٤ غافر ٤٠.

٢٥ الحجرات ١٣.

هي فروقات ظالمة، يلغيها العادل بالمطلق عندما يقف البشر بين يديه للحساب، فيكون شاهداً على الغني والفقير وعلى القوي والضعيف وعلى المسلم وغير المسلم وعلى البشر أجمعين حيث تتحقق العدالة التامة التي لا يستطيع البشر الارتقاء إليها بما في نفوسهم من ضعفٍ وغفلة، وبما للشيطان من سلطة على أتباعه.

لذلك فالشهيد عادل في شهادته على كل شيء وكيف لا يكون كذلك وهو الخالق العظيم القائم على أمور الخلق؟

وعلى الخليفة أن يثق أنه لا عدل مطلق إلا عدل الله الشهيد المطلق، فإذا حكم بحكمه تعالى كان العدل والحق، وإذا اتجه لغير حكم الله تحقق الجور والظلم، وعليه أن يلزم العدل في القول قبل الفعل مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^{٢٦} فهناك أمر في الآية الكريمة السابقة للمؤمنين بأن يعدلوا مع القريب والغريب، بل إن في هذه الآية منهجاً قوياً للطريق الصحيح وهو البدء بالنفس دائماً في الإصلاح فلا يمكن مثلاً أن نعدل مع من حولنا ونكون في نفس الوقت ظالمين لأنفسنا ، فالذي يظلم نفسه من المستحيل أن يعرف العدل طريقه لقلبه وعقله، ومن كان عادلاً مع نفسه فمن المستحيل أن يكون ظالماً لغيره جائراً عليهم.

فالإصلاح دائماً ينبعث من النفس فإنها إن صلحت صلح المجتمع وإن فسدت فسد المجتمع، لذلك بدأ الشهيد بالعدل مع النفس في البداية ثم مع الوالدين والأقرباء.

وعلى الخليفة في الأرض أن يلزم شهادته العدل فلا يظلم نفسه وغيره بقول الزور والكذب والافتراء الذي قد يصل إلى درجة الافتراء على الله تعالى كما جاء في قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمِ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَدُوٌّ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾^{٢٧} وهذا أسوأ درجات الكذب والافتراء الذي تكون نتيجته جهنم وبئس المصير.

^{٢٦} النساء ١٣٥ .
^{٢٧} يونس : ٥٩ ، ٦٠ .

الشهيد هو الرقيب:

إن الشهادة تحتاج إلى مراقبة مستمرة كي تكون شهادة حق، فلا يمكن أن تأتي الشهادة وصاحبها غائب أو غافل عما حوله، إذاً فالشهادة لا تكون إلا من حي وقائم ورقيب كي تكون شهادته شهادة عادلة وشهادة حق.

فالشهيد عز وجل على عباده هو الرقيب عليهم بالتأكيد، بل بمراقبته لهم تكون شهادته وعدله في جزائهم، وهذا من شأنه أن يجعل من الإنسان رقيباً على نفسه لشعوره بأن الرقيب بالإطلاق يبصره ويسجل أعماله ويشهد عليها، فسبحانه وتعالى لا يغفل عن صغيرة ولا عن كبيرة لقوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا} ^{٢٨} فلفظة (كل) هنا في هذه الآية تدل على جميع الأقوال والأفعال فلا يفلت من مراقبته أي شيء مهما صغر حجمه، فهو الرقيب على الأنفس لقوله سبحانه وتعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} ^{٢٩}، في الآية الكريمة السابقة تحذير من الله تعالى سببه مراقبته للأنفس وما تحمل الصدور وعلمه المطلق بما يدور في أنفسنا، فمراقبة الله وشهادته تتعدى الأقوال والأفعال لتصل إلى ما في النفوس البشرية، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} ^{٣٠}، والرقيب بالإطلاق هو الشهيد بالإطلاق على الخلق ومراقبته هذه لا تنقطع ولا تتغير كما جاء على لسان عيسى - صلى الله عليه وسلم - في قوله تعالى: {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} ^{٣١} ففي هذه الآية نجد أنه:

أولاً: الرسل صلوات الله عليهم وسلم هم شهداء بالإضافة لا يمكن أن تستمر شهادتهم لعدم استمرار حياتهم .

^{٢٨} الأحزاب ٥٢.

^{٢٩} البقرة ٢٣٥.

^{٣٠} المائدة ١١٦.

^{٣١} المائدة ١١٧.

ثانياً: المراقبة مهمة أكلها الله لخلفائه.

ثالثاً: اسم الله الرقيب يتفق مع اسمه الشهيد.

لذلك فعلى خليفة الله أن يكون أولاً رقيباً على نفسه، فلا يجعل منها مسكناً للفساد والشر بأن يكون على يقين بأن الشهيد هو الرقيب على الضمائر والأنفس فكيف الحال بما نفع أو نقول؟ في هذا اليقين عصمة للخليفة من الخطايا والشرور والردائل، بأن يخلص الله في السر والعلانية، فهذه المراقبة والشهادة تلزمان الإنسان بالسير على الطريق الصحيح الذي أمره المولى عز وجل بالسير عليه.

وعلى الخليفة أن يجعل من مراقبته مراقبة علم ونفع لتكون مراقبة إيجابية تعود بالنفع والخير على الخليفة نفسه وعلى من غيره ، ولا يجب أن تكون مراقبته لدافع سيء يعود بالضرر عليه وعلى غيره، كأن يراقب الجار جاره لمجرد الفضول .

وإذا داوم العبد على مراقبة نفسه وتيقن من اطلاع الله تعالى على خفاياه وظاهره فإنه يصل إلى خير نفسه وصلاح حاله، وتوصل إلى حالة من الود لله والخشية من الله توصله لأن يكون في مواجهة مع نفسه ومراقبة لذاته في كل لحظة وحين، فيراعي الشهيد والرقيب عليه في قلبه ولسانه، فيكون خالصاً لله تعالى عالماً بما يرضيه مبتعداً عن ما يغضبه.

فمراقبة الشهيد عز وجل هي عبادة تقرب العبد من ربه وتحفظه من وسوسات الشيطان الرجيم الذي لا سلطان له عليه كما في قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} ٣٢.

ومن شأن اسم الله الرقيب أن يجعل من العبد متيقناً بأن الشهيد قد وكل ملكين يحصيان أعماله وأقواله وأن حسابه يكون مكافئاً لهذه الأعمال والأقوال، فينعكس ذلك على حياته فيبتعد عن الباطل ولا يكون غافلاً عن وقته الذي يجب أن يستغله في طاعة الله وحبه، فيعمر قلبه بالإيمان بأن

الشهيد يراقبه ويشهد ما يقوم به دون انقطاع لأن الله يراه، فعندما سُئِلَ الرسول صلى الله عليه وسلم عن الإحسان قال: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ"^{٣٣}، فالشاهد يرانا ويراقبنا فطوبى لمن كان رقيباً شاهداً على نفسه جاعلاً من عقله وقلبه شاهدين عليه.

الشهيد هو الحافظ:

بما أن الله تعالى هو الشهيد كما أسلفنا القول على أقوالنا وأفعالنا وعلى إسرارنا وإعلاننا فهو بالتالي الشهيد الحق الرقيب على كل العهود والوعود التي تتم بين البشر بغرض حفظ الحقوق، فالله هنا هو الحافظ الشهيد أي الراعي لأي عهد أو اتفاقية أو دين أو معاملة أو عقد، ولو استحضرننا هذه الفكرة في أبسط مثال ألا وهي عقود العمل وعقود الزواج ففي حالة أن كل طرف من الأطراف المشتركة في العقد يضع نصب عينيه أن المولى عز وجل شهيداً على هذا العقد المبرم وأن يكون الشهداء على أي عقد مستحضرين هذا الاسم الكريم في أنفسهم لاستطعننا أن نصل بفكرنا لضرورة حفظ الحقوق وأنه يجب أن يوفي كل شخص بما يمليه عليه بنود هذا العقد الذي شهد عليه أو اتفق عليه مع الطرف الآخر وأن ينفذه بكل أمانة وإخلاص وصدق، قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلََّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَقَلُّوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"^{٣٤}، وبذلك تكون النتيجة رائعة بمراعاة كل طرف مرضاة وصون حقوق الطرف الآخر كما يمليه عليه العقد، وكذلك في حالة عقد النكاح الذي يتم بين طرفين ينويان الارتباط للشروع في تكوين أسرة ، ذلك الارتباط الشرعي

^{٣٣} صحيح مسلم ج ١، ص ٣٠.
^{٣٤} البقرة ٢٨٢.

الأساسي في تكوين المجتمع المسلم والذي يجب أن يقوم على أساس الاحترام والحب والمودة في أجمل صورها.

لذلك فلو أن كل إنسان وضع نصب عينيه أن الله هو الشاهد الأول في كل عقد لتوصل إلى صونه والحفاظ على حقوقه وحقوق الطرف الآخر حتى ولو تطلب ذلك بذل جهد وتضحية، فإذا كان هذا حال الإنسان فما بالك بالشهيد المطلق والحافظ المطلق والذي يوفق بين العباد كيفما يشاء، فهو مثلاً الذي يوفق الزوج للتواصل مع زوجته باحترام وحب وهو الذي يهبهم الأبناء أمانة كي يحافظوا عليهم بالتربية السليمة والرعاية الشاملة وبذلك نكون على قدر المسؤولية بأن نستطيع أن نكون أسرة نموذجية صحيحة نفسياً فالأسرة هي نواة المجتمع وبذلك نكون من المساهمين في تكوين مجتمع مسلم يرضى عنه الله تعالى، كما أَرَادَنَا الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} ^{٣٥}، فإذا توصلنا لتحقيق هذا المجتمع الذي أفراداه على هذا القدر من الوعي والالتزام والأمانة فسيكون قد توصلنا إلى معرفة أساس الخلق الذي يحفظ للمجتمع آدميته ويجعله مستحقاً لخلافة الأرض، هذا المجتمع الذي يبحث عنه الغرب بالوسائل والتقنيات والآليات.

ولا يوجد منه هو حافظ لكل شيء غير الحافظ المطلق الذي يحفظ بعلمه المطلق وشهادته المطلقة ما يشاء، وطوبى لمن كان في حفظ الله، قال تعالى: {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} ^{٣٦}، فهو الحافظ لنا برحمته وقدرته وبشهادته.

فهو الحافظ لنا من المرض برحمته، والحافظ لنا من النار بمغفرته، والحافظ لنا حقوقنا بشهادته، والحافظ لنا المال والبنون بكرمه.

فعلى الخليفة أن يكون حافظاً للتالي:

لحدود الله: قال تعالى: {وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} ^{٣٧}، فالله تعالى أعلم البشر بحدوده ومن يتجاوز هذه الحدود فإنه ظالم لنفسه، فلا حق لإنسان بتعدي حدود الله تعالى،

^{٣٥} آل عمران ١١٠.

^{٣٦} يوسف ٦٤.

^{٣٧} الطلاق ١.

والله بالتالي شهيد على من يحفظها وعلى من يتعدها، ومن أراد النجاة فما له إلا أن يبقى ضمن هذه الحدود حافظاً لها ، واسم الله الشهيد من شأنه أن يذكر الإنسان بالحفاظ على هذه الحقوق لأن من تجاوزها فإنه الله يشهد عليه بذلك.

والشهيد أعلم بالإنسان من نفسه لذلك فقد جعل عقاباً لمن تجاوز حدوده سبحانه وتعالى، وجعل ثواباً لمن حفظها، ولنا في رسلنا وأنبينا القدوة الحسنة في حفظهم لحدود الله، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْرُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- . فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- "أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ . ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَإِيمُ اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا"^{٣٨} .

فيجب أن نراعي حدود الله ونحفظها في أنفسنا وفي أهلنا وأقربائنا، فلا أعظم من أن نكون عادلين وحافظين لهذا العدل وهذا الحق.

وحافظاً لشهادته : فهو بالتالي حافظاً للحق من الضياع وحافظاً للعدل أن يسود ويعم النفوس البشرية التي تلجأ أحياناً لطمس هذا الحق، فلا يجب أن يترك المؤمن مؤثراً يؤثر عليه لتغيير شهادته لأن في ذلك ضياع للحقوق وعدم حفظ حدود الله تعالى.

حافظاً لنفسه

من يحفظ الله تعالى فقد حفظ نفسه من النار ومن سوء العقاب، فالله حافظ المؤمن من وسوسات الشيطان الرجيم، قال تعالى: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}^{٣٩} ، فمن أراد أن يكون

^{٣٨} صحيح مسلم ج٥/ ص ١١٤ .
^{٣٩} الحجر ٣٢ - ٤٢ .

في حفظ الله لابد أن يكون على يقين بأن الله شهيد عليه في كل لحظة فيراعي الله في كل ما ينطق به أو يفعله، بالتالي فهو يحفظ الشهيد في نفسه والشهيد يكون حافظاً له من الشيطان الرحيم.

حافظاً لصلة رحمه: قال سبحانه وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾^{٤٠}، فقد أوضح الله تعالى الحقوق المادية كما جاء في الآية السابقة لصلة أرحامنا، وكذلك أوضح الحقوق المعنوية لهم في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾^{٤١}، فهذه الحقوق المادية والمعنوية التي تؤدي كل منهما إلى الآخر من الأمور المهمة التي أمرنا الله بأن نكون حافظين لها وهو شاهد على من يحفظها ومن يضيعها.

فمن أثر اسم الله الشهيد أن يجعل منا حفظة لكل حدوده التي بينها لنا وأشهد عليها ملائكته ورسله ، فلا مهرب من مسؤوليتنا أمام الله عند تجاوز هذه الحدود وكيف ذلك وهو الشهيد على كل شيء؟

الشهيد هو الكريم:

الله سبحانه وتعالى هو الشهيد علينا وعلى الرسل والملائكة وعلى كل عملٍ نقوم به، فمثلاً وفي أبسط صورة حينما نقف للصلاة أو القيام بأي نوع من أنواع العبادات متذكرين أن الله تعالى شهيداً علينا لوجدنا انفسنا تهفو للمزيد من هذه الطاعات والقيام بها على أكمل وجه، وقد أكرم الله تعالى الإنسان محفزاً إياه للطاعة والعمل الصالح والزيادة في سعيه وراء الحسنات في قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^{٤٢}، وكذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ

^{٤٠} البقرة ٢١٥.

^{٤١} الإسراء ٢٣ - ٢٥.

^{٤٢} الأنعام ١٦٠.

مِنَّةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ^{٤٣}.

فالكريم يعطي الإنسان من أوسع أبوابه ويضاعف الحسنة بعشرة أمثالها ولا يكتب السيئة إلا بسيئة مثلها، وهو الشهيد فشهادته بمثابة فرحة عظيمة للإنسان المسلم الذي يجعل من هذا المسلم يسارع في فعل الخيرات لنيل جنة النعيم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾^{٤٤} وبذلك يكرمه الله بنجاته من النار ودخوله جنات عدن ، ونستطيع أن نتصور كيف ستكون همة الساعي لطاعة الله ونيل رضاه فهمة ستكون في أعلى مراتبها وأروع صورها وهذا يجعل من المؤمن مستشعراً بلذة السجود لله تعالى الشهيد عليه وعلى ما في قلبه، فليتنا نتخيل مدى الجمال الذي يتمثل في قمة العبودية له سبحانه وتعالى وهذا يكون انطباع المؤمن وإحساسه تجاه الله تعالى في لحظة سجوده لله تعالى وهو يشهد عليه بالإضافة إلى أن في سجوده هذا يتخلص من الكثير من الأعباء والهموم وقد أثبت العلم الحديث في دراسة جديدة أن الإنسان يتخلص من بعض الشحنات الكهربائية الزائدة والتي تساعد على الحصول على راحة نفسية لا يمكن وصفها.

والكريم هو الذي يعطينا الخير أما الشر فيأتي من أنفسنا، لأن الله رفع الحجة عن البشر ببعثه للرسل والأنبياء، وشهد على تبليغهم كلمات الله وهداه، وهذا كرم من المولى الذي لا يريد إلا الخير بنا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾^{٤٥}، فمن الآية الكريمة السابقة يتضح لنا أن الحسنة والخير من عند الله تعالى لأنه الكريم والكريم لا يمكن أن يبخل بالخير على غيره فكيف بالكريم المطلق؟ أما الشر والفساد فمن يد الإنسان نفسه بإتباعه خطوات الشيطان الرجيم الذي لا يدل إلا

^{٤٣} البقرة ٢٦١: ٢٦٣.

^{٤٤} المؤمنون ٦٠: ٦١.

^{٤٥} النساء ٧٩.

على المفسدة والمعصية، لم يكن الله تعالى ليشهد على كفر أو إيمان أي إنسان إلا بعد أن يكرمه بتوضيح طريق الحق من الباطل وبعد ذلك لا يكون للبشر حجة على الله في كفرهم وعصيانهم. ومن شأن الوصول إلى اليقين بأن السيئة تأتي للإنسان من نفسه أن يحاول على الفور الابتعاد عن كل ما هو سيء وفساد، فعلى الإنسان أن يبحث عن الخلل ويحاول إصلاحه ويساعده في هذا الإصلاح كل سبل الهداية من الكريم جل جلاله.

الشهيد هو الوكيل:

تتخلص الصلة بين اسم الله الشهيد واسمه الوكيل في هذه الآية: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُذُوبَ عِبَادِهِ خَبِيرًا} ^{٤٦} بما أن الله تعالى دائم الحياة وقائم على أمر العباد وبما أنه الحي فهو الشاهد على كل شيء، والشاهد على كل شيء لا بد أن يكون الوكيل عليهم، وإذا وصل المسلم لفهم هذه العلاقة لتوكل على الشهيد الذي لا يموت.

والوكيل المطلق هو الذي يشهد على حفظه ما وكله به عبده صغيراً كان أم كبيراً، وبعده المطلق يحفظ حقوق الخلق ولا يظلم المولى سبحانه وتعالى أحداً وهذا ما وصل إلى قلوب الخلفاء في قوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} ^{٤٧}، فالافتقار بتوكيل الله تعالى في أمورنا هو أساس الإيمان والطاعة للمولى جل جلاله.

ويتوكل على الله كل مؤمن بقدرته وبأنه شاهد على كل شيء، فما من حقٍ أو أمانة أو اتفاقٍ إلا وكان الله شهيداً عليه، الله هو الوكيل الذي يجب أن نتوكل عليه وحده ونثق ببعده وحكمه وقضائه، فلا تضيع الحقوق لديه عز وجل ولا تُكتم الشهادات عنده بل هو الحافظ لما وكلناه به الله شاهد بعلمه وقدرته المطلقين.

ولذلك فإن الخليفة من وكل أمره الله واثقاً به ومسلماً أمره له عز وجل، وهذا يجعل منه راضياً بما قدر له من تقسيم رزق، وأن يجعل من الله وكيل على كل ما يقول أو يفعل كما فعل سيدنا موسى - صلى الله عليه وسلم - في قوله سبحانه وتعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ

^{٤٦} الفرقان ٥٨.
^{٤٧} آل عمران ١٧٣.

يَسْفُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ^{٤٨}، ذلك بأنه الشهيد على القول والفعل سراً كان أو جهراً، والخليفة من يتبرأ من أمره ويفوضه للشهيد عليه، فهو يشهد حاجته ويعلم ما ينفعه وما يضره .

الشهيد هو العليم:

الشهيد عليمٌ بمن يراقبهم ويحفظ أعمالهم، فلا تكون شهادته بها نقصٌ أو عيب وهذا ما يتفق مع أنه تعالى منزه عن النقائص والعيوب، فعلمه عز وجل يحيط بكل شيء والإحاطة تتوفر في مراقبته عز وجل، وبهذه المراقبة هو الشهيد علينا .

وعلمه عز وجل لا يقتصر على ما ظهر من أعمال وأقوال بل يتعداه لما تخفيه الصدور لقوله تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِدَاتِ الصُّدُورِ}^{٤٩}، فبعلمه وخبرته يشهد على عباده فهو الذي لا يعزب ولا يغيب عنه أي شيء في الأرض أو في السماء، وكذلك علمه لا يتحدد بزمن أو وقت فهي يعلم ما كان وما سيكون.

فالعليم عز وجل شاهد على العباد بعد أن جعلهم مدركين عاقلين بما وهبهم إياه من نعمة العقل لكي يميزوا بين الحق والباطل، فقد جعل من الأرض والسماء شواهد على قدرة الله يخاطبان عقل

^{٤٨} الفصص ٢٣ - ٢٨ .

^{٤٩} التغابن ١ : ٤ .

الإنسان ويهديانه إلى قدرة الله تعالى لقوله عز وجل: {لَنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}° وأعلمهم بالخير بإرساله الرسل والأنبياء مبشرين ومنذرين، قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}° ففي الآية الكريمة السابقة نجد أنه:

- الله يعلم ما ينفع البشر وما يضرهم ويعلم مسبقاً بما سيكون في نفوس العباد.
- الله والملائكة يشهدون على الإنسان يوم القيامة .
- خطاب الله تعالى للرسول عليه الصلاة والسلام بأنه شهيد إنما المقصود به تأكيد للبشر على كفاية شهادة المولى عز وجل.

ولذلك فإن خليفة الله يجب أن يملك من العلم ما يرفع به خُلقه ويرقى به ليصل إلى استخلاف الأرض وإعمارها، فالعلم يكون شاهداً على صاحبه بالنفع والخير. الشهيد هو الحليم

بالرغم من أن المولى عز وجل شهيداً على عباده ويعلم العاصي والجاحد منهم إلا أنه لا يسارع في عقابهم لحلمه بهم، فلو عاجل الله تعالى العاصي والمذنب لما وجدنا تائباً أو مستغفراً، ولكن الله تعالى العليم بعباده وبضعفهم يمنحهم الفرصة تلو الأخرى كي يرجعوا للحق وهو شهيد عليهم ، فالله شهيد على المؤمن والكافر والتائب وهو أيضاً حليم بهم ومحيط بهم جميعاً عليم بما في صدورهم ، قال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}° فالحليم هو الشهيد على ما في النفوس فيحلم بأصحابها كي يرجعوا للحق والصواب.

° البقرة ١٦٤.

° النساء ١٦٥: ١٦٦.

° البقرة ٢٣٥.

وبالرغم من أن المولى عز وجل شهيد على خلقه إلا أنه لا يمسك فضله عن عباده عقاباً لهم على ذنوبهم، فلا يغضب لعصيان عاصي ولا لذنب مذنب بل إنه يحلم بهم ويجعل من حلمه بهم حافزاً لهم للتوبة والندم.

وحلمه على العباد شاهد على أنه سبحانه وتعالى قادر ورحيم في ذات الوقت، فهو يملك القدرة ولكنه يعاملنا بالرحمة والود، فهو الشهيد وهو الحليم الذي يؤخر عقابه بعلم وخبرة، قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} ٥٣.

لذلك فعلى الخليفة أن يحلم على غيره بكونه شاهداً عليهم فلا يغضب لأقل الأسباب ولا يجعل من شهادته رد للإساءة وعقاب لما آذاه، قال تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} ٥٤.

للشهادة مراتب منها:

أولاً: الشهادة بالمطلق:

وهذه الشهادة لا تليق إلا بالشهيد المطلق ولا تتحقق إلا فيه فهو الشهيد بالإطلاق الذي خلقنا وشهد علينا: قال سبحانه وتعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَّيْنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَىٰ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ} ٥٥، وكذلك قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا

٥٣ فاطر ٤٥

٥٤ الشورى ٤٠

٥٥ الحشر ١١ - ١٤

كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ^{٥٦}، فشهادته عز وجل هي الفاصل بين الحق والباطل، فلا تضيع حقوق العباد لديه وهو الشاهد عليها، فيشهد للظالم بظلمه ويعاقبه على ذلك ويشهد للمتقي بإيمانه ويكافؤه على ذلك، قال تعالى: {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيِّنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^{٥٧}، فشهادته تعالى تثبت للحقوق ورد للظالم ومكافأة لأحبابه، فلا يداخلها تزوير أو تحيز أو تفريق بين العباد، وكيف ذلك وهو العادل الواحد الأحد الرقيب الحسيب؟

فنحن نلاحظ أن في بعض القوانين التي وضعها البشر نقصٌ وعيوبٌ وثغراتٌ يستطيع الظالم أن يدخل منها لطمس حقوق الآخرين دون أن يكون عليه شاهد دنيوي من بني الإنسان فهنا القانون يكون غير عادل وخاصة إذا أخذ بأقوال شهداء الزور، ومن هنا كان شرع الله الشهيد على نفوس البشر أصلح منهاج للحفاظ على الحقوق لأن هذا الشرع يشهد عليه الشهيد بالإطلاق الذي لا يشوب شهادته أدنى شك لتتزيهه عن كل النقائص والعيوب.

ومن شأن الإيمان بذلك أن يتوكل الخليفة على مولاة عز وجل وهم مدرك أنه شهيد له وعليه، فيطمئن ويهدأ ويتيقن أن حقه في الدنيا وإن سلب فإنه سيرجع إليه يوم القيامة عندما يشهد الحق بذلك فلا يبقى حقٌ مسلوب ولا مظلمة إلا ويرجعها الشهيد لأصحابها.

ثانياً: الشهادة التي لا يتطرق إليها شك:

^{٥٦} يونس ٢٧ - ٣٠.
^{٥٧} النحل ٢٦ - ٣٢.

كشهادة الملائكة المكرمين والرسل الكرام الذين ينطقون بما أمرهم الله به ، وإذا كان هذا حالهم فكيف لا تكون شهادتهم شهادة صدق؟

فالملائكة لا تعمل ولا تقول إلا ما يرضي الله تعالى، وبالطبع لا يرضى الشهيد الحق تزوير الشهادات ولا يمكن أن ينطق بها من يعملون بأوامر الله قولاً وفعلاً مصداقاً لقوله تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} ^{٥٨}، وكذلك قوله تعالى: {لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} ^{٥٩}.

وكذلك الرسل والأنبياء الذين اصطفاهم الله تعالى للتبشير والتحذير ، فهم بهذا الاصطفاء لا يمكن أن يكونوا شهداء على الباطل فذلك يتنافى مع كونهم ينطقون بما يوحي إليهم المولى عز وجل قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} ^{٦٠}، فالله شهيد على أنهم شهداء على أقوامهم في فترة مكوثهم بينهم، وهذه شهادة لا يمكن أن يداخلها شك أو كذب أو افتراء مما يتنافى مع أخلاقهم وصفاتهم التي رباهم الله عليها، قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} ^{٦١}، فمن وصفه ربه بأنه على خلقٍ عظيم لا يمكن أن يتطرق الشك في شهادته التي هي أمر من الله لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام مصداقاً لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا} ^{٦٢}، وهذه الشهادة تشمل جميع الرسل ، قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا} ^{٦٣}.

ثالثاً: الشهادة التي تداخلها الشك:

^{٥٨} النحل ٤٩ ، ٥٠ .

^{٥٩} النساء ١٦٦ .

^{٦٠} المائدة ١١٦ : ١١٧ .

^{٦١} القلم ٤ .

^{٦٢} الأحزاب ٤٥ : ٤٦ .

^{٦٣} المزمل ١٥ .

بما أن الإنسان خلق ضعيفاً فإنه متعرض للغفلة والوهن مما يجعل منه متذبذباً بين الحق والباطل، يخضع أحياناً هذا الإنسان لنداء ضميره وأحياناً يقع تحت وسوسة الشيطان الذي لا يقود إلا للهلاك والضياع، لذلك فإنه شهادة هذا الإنسان يتطرق إليها الشك، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ} ^{٦٤}، فشهادة الإنسان يتداخلها شك فكان لابد من مستند تستند عليه وهو أن الله الشهيد الحق، وفي هذا تذكير للإنسان الذي سيؤدي اليمين بأن الله شهيد على شهادته.

وبالرغم من ذلك نجد بعض النفوس البشرية الضعيفة التي تلجأ للحصول على مال اليتيم الذي نهانا الله عن القرب منه بغرض اختلاسه وسلبه من أصحابه، قال تعالى: {وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} ^{٦٥}، وقد يجلب هذا الإنسان الطماع بعض من يشهد معه زوراً على سلب هذا الحق مقابل قدر من المال، وكان كل منهما على ثقة بأن لا أحد يدرك ما يصنعان أو يتآمران عليه، في حين أن الشهيد المطلق يكشف حتى ما في النفوس قبل الخروج منها، قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} ^{٦٦} ولهذا فعلى الخليفة أن يراعي الله الشهيد في كل ما ينطق به أو يقوم بفعله، وإذا كان في موضع لأن تؤخذ شهادته يجب أن يتذكر بأن الشهيد يراقبه ويكتب شهادته فيكون معتدلاً غير متحيز لقرابة أو علاقة بل يجب أن تكون علاقته بالشهيد من أول الأمور التي تكون في حسابه عند الشهادة.

وقد جعل الله من الإنسان شاهداً على نفسه، بالرغم من شهادة الشهيد عليه ولكنه جعل من جسده وأعضائه التي هي أقرب شيء فيه شاهدة عليه يوم الحساب مصداقاً لقوله تعالى: {وَيَوْمَ يُحْشَرُ

^{٦٤} النور ٦: ١٠.

^{٦٥} الأنعام ١٥٢.

^{٦٦} التغابن ٤.

أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكَ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَاِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ^{٦٧} فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ السَّابِقَةِ نَجِدُ أَنَّهُ:

* الله العليم الصبور على عباده حدد وقت شهادة الإنسان على نفسه في أصعب الأوقات التي لا يمكن أن ينكر فيها المرء ما نطقت به أعضائه.

* الإنسان يميل إلى إنكار الحقيقة والشهادة بها لذلك فقد أنطق الشهيد كل ما شهد على الإنسان من نفسه.

* ما أضعف الإنسان إذ أنه لا يملك حتى السيطرة والتحكم في أعضائه ! فهي تعمل بما أمرها الله تعالى به فهو خالقها ومالك أمرها.

ما العلاقة بين الشهادتين (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) وبين اسم الله الشهيد؟

هاتان الشهادتان فيهما أكثر من معنى ، فالمعنى الأول فيها هو الشهادة لله بالوحدانية متضمنة شهادة بالعبودية لله من قبل هذا المتشهد، والمعنى الثاني اليقين بأن محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتم الأنبياء والمرسلين، والمعنى الثالث أن الإنسان مسؤول عن مراعاة هذه الشهادة التي أقرها في قلبه قبل النطق بها بلسانه.

فالإيمان ينحصر في العمل ضمن هاتين الشهادتين، فلا عمل يُقبل دون الإقرار والتصديق بهما، وفي النطق بالشهادة رجاء من الإنسان إلى الشهيد بالإطلاق كي يشهد على ما شهد على نفسه، أي أن الإنسان المؤمن يحب أن يكون الله شهيداً عليه ، فهو لن يُظلم أن يُفترى عليه من عند الله جل جلاله الذي نزه نفسه عن كل العيوب والنقائص.

^{٦٧} فصلت ١٩: ٢٤.

كما إن اسم الله الشهيد يعلّم الخليفة درساً في القوة والانتصار، لأن الشهيد بالإطلاق هو القوي الذي يملك أن يكون شهيداً وحده وعلى كل شيء وفي كل وقت، والخليفة بما أنه يستمد صفاته من صفات المولى عز وجل فإن من شأن اسم الله الشهيد أن تصل بالشهيد بالإضافة إلى قوة اليقين بالله الواحد الأحد فننطق بالشهادتين بقوة إيماننا بهما وبالتالي فإن ذلك الإيمان يمنحنا القوة التي نفتقدها في زمننا هذا، فلو رجعنا إلى زمن بعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالهدى والقرآن المنير نجد أن قلة من العرب الذين أسلموا بذلك وصدّقوا به وبالرغم من ذلك فقد واجهوا الكفر بطغيانه وجبروته ودخلوا في حروب مع أهل الكفر والجهل بشكل غير متكافئ إذا قارنا بين المسلمين والكفار من جهة العدة والعتاد، وقد كانوا يواجهون ملوك الفرس والروم هاتان القوتان اللتان كان يخشاهما العرب أجمع ومع ذلك كله استطاع المسلمون القلة أن ينتصروا على كل أولئك، يا ترى كيف نعجز الآن نحن المسلمين من رد أي أذى عن بلد مسلم أو حتى في صون كرامتنا كمسلمين؟

السبب بسيط جداً يتلخص في مدى صدق النطق بالشهادتين، وبمدى يقيننا بأن الله هو الشهيد على ما نشهد به له من وحدانية له وعبوديتنا له عز وجل فنستمد منه هذه القوة التي نستطيع بها أن نحيا أعزاء وأحرار كما أرادنا الله تعالى.

فالشهادتان لا يمكن أن تكونا مجرد جملتين نرددها بين الحين والآخر بل لابد أن تكون مركز القوة والطاقة التي تمدنا بالقدرة على كل شيء في الحياة، فقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يجعل من الصحابة ومن معه من المسلمين يصلون بأنفسهم إلى جوهر هذا المعنى فكانوا جبلاً في الطاقة والقوة المعنوية والنفسية والقدرة على التحمل، لأنهم كانوا يضعون الشهيد بالإطلاق نصب أعينهم عند النطق بالشهادة فيستشعر بواجبه تجاه هذه الشهادة أمام الشهيد سبحانه وتعالى، فنجحوا في إرساء دعائم المجتمع المسلم القوي والصحيح .

وقد تجل أيضاً صدقهم مع الشهيد عليهم حتى في معاملتهم مع الكافرين وأهل الكتاب فما الذي كان يجبرهم على احترام العهود معهم والتزام حسن الخلق في التعامل معهم؟

ما كان شيء يجبرهم إلا علمهم أنهم تحت الشهيد الذي يشهد ما يفعلونه، فالإحساس لدى كل مسلم بأن الله تعالى يراقبه يجعله قوياً صابراً متوكلاً مكتفياً بشهادة الشهيد على كل قول أو فعل يصدر منه، وهذا بحد ذاته أكبر رادع للإنسان المسلم كي يحسن التصرف والكلام فيشعر بالخجل بما تفوه به من رذائل الكلام كالنميمة والكذب والسخرية كما نهانا الله تعالى في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} ^{٦٨} ، فلا يصل الإنسان إلى هذا الخلق الكريم الذي يرقى بآدميته إلا إذا كان مدركاً بأن الشهيد معه في كل همسة وكل فعل صغر أو كبر، فيراعي الشهيد في كل أمر من أن يقوم بما لا يرضيه عز وجل.

الشهيد هو الحق وكل من كان شاهد حق هو شهيد، فالذي يشهد الزور هو مانع للخير والصلاح فلا يعتبر شهيداً على الباطل.

الشهادة لها حقوق علينا ألزمتنا الشهيد المطلق بها وهي:

١- عدم تزوير الشهادة:

عند اللجوء إلى شهادة شاهد في أمرٍ ما فإن هذه الشهادة تحتل الحقيقة أو تزييف هذه الحقيقة وهذا يرجع إلى ضمير الشاهد ودرجة إيمانه، فمن كانت نفسه مطمئنة بحبها لله وذكره فإنها لن ترضى إلا بشهادة الحق، وإن كانت النفس تحت سيطرة الشيطان فإنه بالتأكيد سترضى بشهادة الزور، قال تعالى: {وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا} ^{٦٩} ، والسوء هنا يقع تحته كل ما هو قبيح وفساد ومن ضمن ذلك شهادة الزور، على عكس من اتبع الله وخاف عقابه فهو لاء لا

^{٦٨} الحجرات ١١: ١٢.
^{٦٩} النساء ٣٨.

يرضون بغير الحق وشهادة الحق ، فشهادة الحق من صفات المؤمنين الذين قال تعالى عنهم:
{وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا} ٧٠.

فمثلاً نجد في بعض قضايا الطلاق يلجأ أحد الطرفين لتزييف الحقيقة بهدف مادي يحلم أحد الطرفين بالحصول عليه ولا يهم الأسلوب الذي يتبعه للوصول لهدفه، وهذا الطمع المادي يُخسِر الإنسان رضا ربه الشهيد على ما يفعل بل إنه يتناسى ويغفل عن الشهيد المطلق الذي لا ينام ولا يغفل .

٢- عدم كتم الشهادة:

إذا كتمت شهادة حق فاعلم أنك بالتأكيد قد أضعت حق إنسان وأن الله شهيد عليك فيها، لأنه حين نكتم شهادة حق معنى ذلك الظلم قد وقع على إنسان قدر لك الله أن تكون شاهداً في أمره كتم الشهادة من شأنه أن ينشر الفساد والظلم بين البشر، وفيه طمس للحق وإظهار للباطل، ومن يكتم شهادته يكون في غفلة عن الله الشهيد عليه وعلى ما في نفسه، فإنه كتمها عن البشر فكيف يكتمها عن الشهيد بالمطلق الذي أمره بقولها لما فيها من نفع وحفاظ على الحقوق والمصالح، قال تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُهَا يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ٧١.

٣- عدم انقاصها:

بل يجب أن تكون كاملة لا نقص ولا زيادة فيها لأن الحق لا يحتمل النقصان أو الزيادة، فمن الطبيعي أن يكون في نقص الشهادة إنقاص للحق، وهذا لا يمكن أن يرضي الشهيد بالمطلق الذي أمرنا بأداء الشهادة كما هي كي نتجنب الظلم والفساد والضياع.

والشاهد المطلق شاهد على نفسه قبل أن يكون شهيداً علينا ، قال تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا

٧٠ الفرقان ٧٢.
٧١ البقرة ٢٨٣ : ٢٨٤.

اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد^{٧٢}.

والشهادة في الدنيا تكون اختيارية ، فقد يشهد المرء بالحق وقد لا يشهد وذلك يرجع كما أسلفنا القول إلى إيمانه وخوفه من الشهيد بالإطلاق، أما في الآخرة فهي إجبارية لا يتحكم فيها الإنسان بل الذي شهد عليه في الحياة الدنيا مصداقاً لقوله تعالى: {وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْءَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ^{٧٣}.

وشهادة الحق تؤدي إلى:

إظهار الحق: بما أن الإنسان مخلوق ضعيف قابل للفساد والمعاصي فإنه متعرض للذنوب والأخطاء ولكن عند الأمر بشهادة الحق فإنه من شأن ذلك أن تظهر الحق على الباطل ، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ^{٧٤}.

إعادة الحقوق:

أحياناً بشهادة حق واحدة ينطق بها لسان بشري يخاف الله خالقه ومولاه يرجع بها حقاً مسلوباً أو يرفع بها ظلماً واقعاً على شخص ما، فترد الحقوق النفسية والمادية الضائعة لأصحابها بهذه

^{٧٢} آل عمران ١٨ : ٢٠ .

^{٧٣} فصلت ١٩ : ٢٥ .

^{٧٤} النور ٦ : ٩ .

الشهادة التي تحي الحق وتميت الباطل، إنها شهادة إن نطق بها لسان الإنسان أصبح مسؤولاً عنها وإن كتمها أن علمها فهو أيضاً مسؤول عنها، فلا بد أن يراعي حق ربه وحق نفسه وحق غيره فيها.

ردع للفساد والظلم:

لا يأمر الشيطان إلا بالفساد والشور والظلم، لذلك كان لا بد من شهداء حق على الحقيقة كي يحاربوا اتباع الشيطان ويمنعوهم من نشر الظلم والرزائل على الأرض التي هي مسؤولية كل من عليها إذ أنها أمانة نحن مستخلفون فيها، فإذا زُيفت الحقيقة وتزيفت ضاع الحق وتاه وسط هذا الفساد والباطل، ولأن الله جعل من شهادة الحق رادعاً للظالمين والفاستين الذين يريدون أن تعم الفاحشة بين البشر.

فإذا عمت شهادة الزور وشملت النفوس واستوطنت فيها فإن ذلك يكون باعث لتقشي الرذيلة دون خوف أو رادع.

الشهادة تتطلب:

الأمانة:

الأمانة في الشهادة هي أن تؤدي بكاملها فلا نقص يعتريها ولا زيادة ولا كتمان ، قال سبحانه وتعالى: **لَيَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا وَاللَّائِي يَبْسُتْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ**

اللَّهِ يَجْعَلُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا^{٧٥}.

والشهاد بالإنطلاق عندما استخلف الإنسان في الأرض وضَّح له طريق الحق والهداية، ومن ضمن ذلك أنه في اسم الشهيد يعلم الإنسان الأمانة ، فالإنسان كفرد لا بد أن يكون شاهداً على نفسه أميناً فيها قبل كل شيء، فلو وصل كل مسلم لهذه الدرجة من الأمانة لعم الخير والصلاح، لأنه إذا كان أميناً مع نفسه وحدث خلل لديه مع نفسه لوجد غيره ممن يحيطون به يساعدونه على لمس هذا الخلل سواء كان أبا أو صديقاً أو قريباً، فالأمانة مع النفس سبباً قوياً لإحقاق الحق ولتكوين مجتمع أمين سليم مطمئن.

فعلى الخليفة أن يكون أميناً داعياً للأمانة بين العباد الأمر الذي يبعث الراحة والطمأنينة في نفوس العباد، إذ أن الخيانة أساس كل الرذائل وأصل كل المفاصد ومن شأنها أن تنزع الثقة من النفوس.

الصدق:

فمن صفات شهداء الحق الصدق ، ومن كان صادقاً مع نفسه كان صادقاً مع ربه ومع غيره ، ومن شأن الإنسان الصادق أن يكسب ثقة من حوله وهذا يؤدي إلى أن تكون شهادته شهادة صادقة لا يداخلها التزييف والافتراء الذي يتنافى مع أخلاق الإنسان الصادق، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَلَمْ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^{٧٦} في الآية الكريمة السابقة توضيح بأن الصادق في الدنيا هو الصادق في الآخرة حيث يشهد الله تعالى بأنه صدقه وصدق

^{٧٥} الطلاق ١: ٥ .
^{٧٦} المائدة ١١٦ ، ١٢٠ .

رسله، وهذا هو المكسب الكبير، وقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - من صفاته الصدق والأمانة إذ كان يلقب بالصادق الأمين وهو خير أسوة لنا نقتدي به ونسير على منهجه، فإذا اجتمع الصدق والأمانة فقد اجتمعت مكارم الأخلاق الذي بعث الله تعالى سيدنا محمد عليه السلام كي يتمها بين البشر.

وإذا عم الصدق وانتشرت الأمانة بين المسلمين لما لاحظنا هذا الارتفاع الكبير في نسبة الجريمة وهذا الفساد الذي عم السواد الأعظم من النفوس المسلمة، لذلك فهذه مهمة الخلفاء كي يسيروا داعين لها عاملين بها.

لذلك فإنه من المستحيل أن يكون من بين الخلفاء من هو كاذب أو خائن أو مفترى، لأن ذلك ينتافى مع رسالته التي عرضها له الله تعالى لصالح الأرض وخيرها، فالصدق يجعل من الخليفة موضع ثقة واحترام مع نفسه ومع من حوله.

العدل:

في حال انتشرت الأمانة في أداء الشهادة يتحقق العقاب للذي يستحقه فلا يُظلم أحد من وراء شهادة كاذبة، لأن الشهادة هي التي تحدد نوع العقاب وعلى من يستحقه، ولا بد كي يتحقق العدل بين الناس أن لا يكون لدى القانون مستويات للبشر كالغنى والفقير والقوة والضعف ، فإذا كان هناك فرق وتمييز لبعض الأفراد عن البعض الآخر فلن تفيد شهادة الحق طالما هناك تمييز بين البشر.

لذلك على ولى الأمر أن يكون عادلاً في حكمه وعادلاً في سماعه للشهادة وعادلاً في قوله لها مهما كانت الظروف، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ

الظَّالِمِينَ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَسْمِعُوا لِلَّهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} ^{٧٧}.

القوة:

لا تأتي شهادة الحق إلا من إنسان قوي بالله وبحبه له تعالى فيكون هذا الحب هو الدافع له لكل عمل خير يقوم به، فلا يضعف تحت تأثير مالٍ أو جاهٍ أو سلطة، فالمتوكل على الله والواثق بأنه شهيد عليه وعلى كل ما يقوم به سيشعر بالخلج من أن يزيغ شهادته وسيخاف من عقاب الشهيد عليه.

الإيمان:

درجة الإيمان في صدر كل إنسان تتحكم في تصرفاته وأفعاله، وأشدّها هو أن يصل الإنسان إلى حد الإحسان وهو أن تدرك وتتأكد من أن الله يراك في كل لحظة وكل طرفة عين، بذلك يراعي الله في كل حركاته وسكناته، أما إذا نقص الإيمان في قلب الإنسان فسوف يكون معرضاً للفساد والهلاك وإتباع طريق الشيطان الذي لا يعد الإنسان الذي يتبعه إلا بالسوء والفاحشة. فالإيمان الحق يجعل من الإنسان مستحضراً للشهيد في نفسه في كل لحظة وكل حين، وهو الذي يصل بالإنسان إلى قناعة أن الشهيد دائم الشهادة عليه .

العلم:

العلم يجعل من صاحبه مدركاً لخطورة مجريات الأمور من حوله، أما الجاهل فسوف يخلط الأمور بعضها ببعض فلا يدرك عواقب الأمور، لذلك كلما كان المرء على درجة من الوعي والفهم والإدراك لارتقى بنفسه من رذائل الأمور التي تهين آدميته وتُلقي به إلى الهاوية، وتقع على عاتق الإنسان المتعلم مسؤوليات عدة أكثر بكثير من الإنسان الأمي الذي لا بد أن يكون للمتعم دور في نشر مفاهيم صحيحة تعين هذا الأمي على السير الصحيح تجاه الخالق عز وجل، فلا يكون معرضاً ضعيفاً تحت أي ضغط ، أو ساذجاً من السهل التحايل عليه.

الحرية:

^{٧٧} المائدة ١٠٦ : ١٠٨ .

والمقصود بالحرية هنا هو عدم تحكم شخص في الشاهد بأي شكل من الأشكال، لأنه يجب أن يكون حر الرأي وأن تكون الشهادة خالية من أي استعباد لها من طرف آخر، وأن يكون الشاهد يملك من قوة الشخصية وبعد النظر ما يكفي لأن يكون حر نفسه، لا يتبع سلطان المال أو الشهوة أو غيرهما.

وللشهادة أطراف وهي:

شاهد: من شهد الفعل أو القول بنفسه، فيكون ملزماً بأداء هذه الشهادة على أتم وجه لأنه منذ أن شهدها أصبح مسؤولاً عنها، فإظهارها أو طمسها يكون مرتبطاً بمدى أخلاق الشاهد، قال تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ} ٧٨.

مشهود عليه: الشخص الذي شهد له أو عليه، فكل أمر يتطلب الشهادة لابد أن يكون هناك طرف على حق وطرف آخر على باطل.

مشهود به: الفعل.

وفي اسم الشهيد تحذير للعباد من أن الله تعالى يراقبهم ويحصي أعمالهم خيرها وشرها، فهو الشهيد على ما يفعله البشر وبذلك لن يفلت إنسان إطلاقاً من هذه الشهادة، ولكن بالرغم من هذا التحذير يغلب أحياناً طبع الإنسان المغرور على عقله، حتى أن أهل الكتاب أنفسهم بعد أن من الله تعالى عليهم بالكتاب كفروا وازدادوا غرورا وفجورا رغم أن لديهم الدليل والبرهان الذي يقطع أي حجة على الله تعالى، وبالرغم من علمهم أن الشهيد يراهم ويكتب ما يعملون كما جاء قوله سبحانه وتعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ

^{٧٨} يوسف ٢٣ - ٢٤.

تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُوتَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ^{٧٩} فلو تدبر كل مسلم الآية الكريمة السابقة والسؤال الذي فيها لاستشعر فيه التحذير ورد الحجة على أصحابها بعدم العلم، بالرغم من أن الشهيد بالإطلاق قدّم لهم الدليل المادي للإيمان به والخوف منه وهو الشهيد عليهم، لكن الذي حصل هو ازدياد كفرهم وعنادهم.

والله هو الشهيد على عباده لأنه يحبهم وهو الكمال والعدل بذاته، وهو الشهيد عليهم كي يترك في نفس الإنسان الإحساس بأنه يرتبط بالله ولا يمكن أن تنقطع هذه الرابطة سواء كان مؤمناً فهو الشهيد عليه أو كان كافراً فهو الشهيد عليه أيضاً، وهذا يترك انطباعاً في نفس المؤمن بأنه على اتصال بربه لأنه تعالى مطلع عليه ليلاً ونهاراً، وقد منحنا الله تعالى صورة وافية لكي نصل إلى هذه القناعة حيث أنه قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ^{٨٠}، ففي هذه الآية دافعاً لأن نكون ممن أحبهم الله ورضي عنهم فيغفر لهم ويرحمهم.

وبما أن الشهيد المطلق هو شهيد على كل شيء فإنه يُعفي الإنسان المؤمن بهذا الاسم من التفكير بأن يُسلم لله تعالى الذي يعلم ما في قرارة نفسه وهذا من شأنه أن يزيح عن كاهل هذا المؤمن عبء التفكير وانتفاء حاجته لمن يطلعه على ما في نفسه، لأنه بذلك يكون قد وصل إلى مرحلة من الارتباط بالشهيد القريب منه باستمرار والمحيط بكل ما فيه، فلا يحاول شرح ما فيه لأحد ولا يتعب من البحث عن مستمع أمين، وهذا يجعل من المؤمن يشعر بالراحة والاطمئنان لأن الشهيد عليه هو الودود والرحيم والقريب والسميع والبصير، فالله بعظمته وكبريائه وبجلاله شهيداً على أفعالنا وأقوالنا فإننا نصل إلى أنه أيضاً الغفور الذي يعلم سيئاتنا ولو أننا سترناها عن كل الخلق، فشهادته عز وجل علينا لا تمنع رحمته ومغفرته فالحمد لله الذي كان شهيداً علينا غفوراً رحيماً بنا.

^{٧٩} آل عمران ٩٨ ، ٩٩ .
^{٨٠} الأحقاف ٦ : ٨ .

لذلك فلا يجب على الخليفة عندما يكون شهيداً على أحد أن يطغى ويتجبر وأن يسرع في الشهادة بل عليه أن يتأنى ويتحرى الحق ثم الحق وهنا نجد أن شعوراً بالطمأنينة يسكن نفس المؤمنين بما في ذلك من إيجابيات ينعكس على سلوكهم من ثقة ومودة واحترام، فيتكون لدينا مجتمعاً مؤمناً واثقاً يملأ نفسه الطمأنينة لبعضهم البعض إذ يكون المؤمن شهيداً على أخيه المؤمن فلا يزور ولا يخون ولا يكتم ما يجب أن يظهر من الحقائق .

ولو تمعنا في هذا الاسم الكريم لوجدنا فيه حلاً للكثير من مشاكلنا الاجتماعية وأمراضنا النفسية، التي تحتاج إلى راحة وطمأنينة لا تتحقق إلا إذا اتصفنا بالأمانة والصدق في الشهادة.

والله تعالى في هذا الاسم يبعث لنا تحذيراً لنتحرى الطريق الصحيح في تصرفاتنا وأفكارنا وسلوكياتنا، وأيضاً إنذاراً لنا قبل أن نغادر هذا الحياة الدنيا لننجو من عذاب الحريق بالتخلي بكمكارم الأخلاق التي تتضمن شهادة الحق والابتعاد عن قول الزور، قال تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا^{٨١} .

ومن شأن الإيمان بهذا الاسم أن يعلم المؤمن الصبر والتحمل في حالة ضياع حقه في الدنيا، إذ أنه قد يتعرض أي فرد فينا للظلم فيأتي هنا اسم الشهيد ليبرد نار الظلم التي تشتعل في النفس البشرية بأن هناك الشهيد العادل الذي يرد كل حق ويسجل كل شيء فيعلم أن هذا الحق وإن لم يستطع أخذه في الدنيا فإن هناك الوكيل الذي يجب على المؤمن أن يوكل أمره إليه، وأن يتيقن أن هذا الحق سيرد إليه إما في الحياة الدنيا أو في الآخرة عندما يقف بين يدي الشهيد على حقه الضائع.

اللهم يا الشهيد نشهد إنك أنت الله وإنك على ما نعمل شهيد ونسأل أن تكون أعمالنا خير شاهد على استخلافنا في الأرض وفوزنا في الجنة إنك بنا رؤوف رحيم.

^{٨١} الفرقان ٧١ : ٧٦ .

اللهم يا الشهيد إنك على كل شيء شهيد، نية تكمن في الصدور، أو تذكر لماضي، أو تفكر في مستقبل، أو قول ينطقه اللسان في الحاضر أو عمل تؤديه الحواس فاجعل كل ذلك خالصا لوجهك الكريم يا الشهيد يا الله.

اللهم يا الشهيد اجعلنا شهداء بالحق ولا تجعلنا من الشاهدين بالباطل، واجعلنا مؤمنين بقول الحق والشهادة به ولو كان على أنفسنا، اللهم إنك أنت خير شاهد فإن نسينا أو أخطأنا فاغفر. اللهم إن الشهادة بك تحق الحق فنشهد أنك أنت الحق شاهدا سبحانك.

اللهم يا الشهيد إنك جعلت علينا ألسنتنا شاهدة وأيدينا شاهدة وأرجلنا شاهدة فلا تجعلنا من مرتكبي المعاصي والزلات والخطايا والذنوب والعيوب والكبائر حتى تكون ألسنتنا وأيدينا وأرجلنا شاهدة لنا لا شاهدة علينا يا الله.

الْحَقُّ

الحق من أسماء الله تعالى، والحق اسمه المنزهة من الباطل، ولأنه اسم من أسمائه الحسنى فهو صفة ذات.

الحق هو "الذي ليس له مثل في ذاته وصفاته وجميع أفعاله"^{٨٢}. ولذا فإن الحق هو الذي لا يلبسه الباطل.

الحق واحد لا يتعدد^{٨٣}، ولهذا فإن المستخلفين فيها هم الذين يهدون إلى الحق، ويرشدون إلى الصراط المستقيم^{٨٤}.

وعلى الخليفة أن يتقي الحق في قوله وعمله وأن يبين الحقيقة، ويميز الحق من الباطل، فينهى عن دعاء غير الله، وينفي عن الخلق القدرة على النفع والضرر المطلق، ويوضح أن من دعا غير الله، ورجا منه النفع المطلق، ودفع الضرر فقد أشرك^{٨٥}

الحق: "هو المستحق لأن يعبد ويطاع ويعظم، لا إله غيره ولا رب سواه"^{٨٦}.

^{٨٢} جامع الرسائل، ج ١، ص ١٧.

^{٨٣} قصيدة ابن الأشعث، ج ١، ص ٦٢.

^{٨٤} الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة، ج ١، ص ٢٧.

^{٨٥} رسالة التوحيد، ج ١، ص ١٠٤.

^{٨٦} بيان التوحيد الذي بعث الله به الرسل جميعا وبعث به خاتمهم محمدا عليه السلام، ج ١، ص ١١.

إذا الحق هو قول الحق. ولهذا فالله هو الحق وقوله هو الحق قال تعالى: {قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ} ^{٨٧}.

وعلى مستوى المستخلفين في الأرض، قال الشاعر:

يا نفس فاز الصالحون بالتقى ... وأبصروا الحق وقلبي قد عمي

يا حسنهم والليل قد جئهم ... ونورهم يفوق نور الأنجم

ترتموا بالذكر في ليلهم ... فعيشهم قد طاب بالترثم

قلوبهم للذكر قد تفرغت ... دموعهم كلؤلؤ منظم

أسحارهم بهم لهم قد أشرقت ... وخلع الغفران خير القسم ^{٨٨}

وعليه فالحق يستوجب القول فهو شهادة لا تكتم. قال تعالى: {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ

يَكْتُمهَا فَإِنَّهُ أَتَمَّ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} ^{٨٩}، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنْ

الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} ^{٩٠}

ولأنه صفة تنزيهه قال تعالى: {وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا

تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ

تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} ^{٩١}. (وامنوا بما أنزلت مصدقا) الذي أنزله هو الحق، وهنا يعد

الحق فعل وصفة لموصوف بالفعل المسمى به. ثم جاء الأمر في قوله: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ

وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ

أَفَلَا تَعْقِلُونَ)، هذه الآيات الكريمة السابقة جاءت دالة على الحقوق الآتية:

. الصلاة حق .

^{٨٧} سبأ ٢٣ .

^{٨٨} اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملاء الأعلى، ج ١، ص ١٤ .

^{٨٩} البقرة ٢٨٣ .

^{٩٠} البقرة ١٥٩ .

^{٩١} البقرة ٤١ . ٤٤ .

. إيتاء الزكاة حق.

. الركوع للحق حق.

. إتباع البر حق.

. تلاوة الكتاب حق.

. العمل بما جاء في الكتاب حق، مصداقا لقوله: (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أي أفلا تدركون الحق وهو بين بين أيديكم كما نزل، ومن يدرك الحق ليس له بد إلا أن يعمل به، أي أن تبيانه لأجل الأخذ به قول وفعل وسلوك وتشريع.

ولأن الكتاب جاء به الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه تنزيل من الحق العزيز، فإن ما جاء به الرسول هو الحق الواجب أخذه، قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} ٩٢.

نعم الحق هو الله وهو أيضا أمر النبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الحق وهو القرآن الكريم، أما أهل الباطل فقد كذبوا بالقرآن وهو كلام الله الحق وكذبوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو الحق، ويمثل أهل الباطل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم اليهود ومن شاكلهم ويمثلهم الآن من سار على نهجهم في رفض الحق بطرا وحقدا من عند أنفسهم فيقول الحق تعالى في كتابه الحق: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ اتَّامِرُونَ النَّاسَ بِالْبُرِّ وَتَتَسَوَّنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهم مَلَاقُوا رَبِّهم وَأَنَّهم إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} ٩٣.

وأهل الباطل من أهل الكتاب رفضوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم لأجل المال والسلطة الدنيوية وقد قال الله عز وجل في كتابه لهم: {وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا

٩٢ الحشر ٧.

٩٣ البقرة ٣٩ . ٤٦ .

أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} ^{٩٤}، ولكن هذا الموقف الراض للحق لم يكن له مبرر منطقي يبرره إلا الحقد والحسد اللذين هما منطق الضعيف الذي لا حجة له، مع تمنيه أن يعود أصحاب الحق وأهله عن حقهم ويرتدوا إلى الجهل والباطل الذي يتمثل في الشرك بالله وعبادة أحجار وأصنام وخلقٍ من خلق الله لا ينفعون أنفسهم ولا يضررون غيرهم، قال تعالى: {قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ} ^{٩٥}. وهكذا فهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين، قال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} ^{٩٦} نعم هو الحسد ولا غيره كما قال الله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ^{٩٧}.

وفي معركة الإيمان ضد الكفر معركة الحق ضد الباطل يقذف الله بالحق على الباطل فيزهقه ويبطله، وأساس هذه المعركة ومن أول أسبابها أن قال أهل الباطل زورا وبهتانا إن

^{٩٤} البقرة ٤١، ٤٢ .

^{٩٥} الأنبياء ٥٩ . ٦٩ .

^{٩٦} الأنفال ٣٠ . ٣٣ .

^{٩٧} البقرة ١٠٩

الله زوجة أو ولداً أو أن له شريكاً في الملك والإلهية وكل ذلك باطل يرده الله بقوله الحق فيقول تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَهَوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ} ٩٨ .

الحق لا يحقه إلا الحق، والباطل لا يسنده إلا باطل، ولذا فالفرق كبير بين من يتصف بالحق حتى يسمى به ويتصف وبين من يرتكب الباطل حتى يتصف به، وإذا أوضحنا ذلك فإن (الحق لا يحقه إلا الحق) يعني:

. الحق الأولى في الجملة السابقة: يدل على التصاق الفعل بفاعله.

. والحق التالية في الجملة السابقة، يدل على المصدر الذي يُستمد الحق منه.

. وكلمة التوسط بين الحقين (لا يحقه) تدل على أن الحق لا يستطيع إحقاقه هو كما هو إلا الحق الذي استمد منه.

وفي المقابل لما ذكرنا جاءت الجملة التالية: (الباطل لا يسنده إلا الباطل)، وهذه الجملة هي الأخرى حق، ولكنها ليست الحق الذي جاء بالحق، فالباطل الأولى في جملة ما بين القوسين السابقين، هي الباطل هو كما هو في ذاته. والباطل التالي للباطل في ذات الجملة، هو: الفاعل للفعل الباطل، وهو الذي لا تسنده حجة حق.

وقوله عز وجل: (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لآعبيين) معناه ما سويها هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب للعب واللهو، وسويهاها لفوائد منها التفكير في خلقها وما فيها من العجائب والمنافع التي لا تعد ولا تحصى (لو أردنا أن

نتخذ لهواً) الله ضياع الوقت في غير ما يجب، (لاتخذناه من لدنا) من عندنا باعتبار كل شيء بيده فهو يستطيع أن يفعل ما يشاء كما يشاء، ولكنه فعل كل شيء لغاية ولهذا لم يكن لا عبا بالشيء المخلوق من عنده، وهناك من فسر هذا الأمر في اتجاهات أخرى كما هو حال ابن عباس، ونحن لا نفسره بذلك، وهناك من فسره بما في معناه لو كان ذلك جائزاً في حقنا لم نتخذه بحيث يظهر لكم بل نستتر، ذلك حتى لا تتطلعوا عليه، وذلك أن النصارى لما قالوا، في المسيح وأمه ما قالوا رد الله عليهم بقوله لاتخذناه من لدنا لأنكم لا تعلمون أن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده لا عند غيره (إن كنا فاعلين) يعني ما كنا فاعلين، وقيل ما كنا ممن يفعل ذلك لأنه لا يليق بالربوبية بل يعني دع ذلك الذين قالوا فإنه كذب وباطل، (نقذف) يعني نرمي ونسلط (بالحق) يعني بالإيمان الذي لا يُبطل دليلاً وحجة (على الباطل) يعني على الكفر بالحق، وقيل الحق قول الله أنه لا ولد له والباطل قولهم اتخذ الله ولداً (فيدمغه) فيهلكه والدمغ هنا ليس مادي حتى يسيل الدم منه، ولكن تشبيهه بليغ بين قوة الحجة وفعل صاحبها في دحض الباطل الذي لا يقدر الصمود في مواجهة الحق، ولذا فالمتصف بالحق متصف بالقوة القاهرة للباطل فلا يخاف، والحق لا بد أن يحق.

(فإذا هو زاهق) الزهق إبطال والزاهق هو المتولي، والفار من الاستمرار في المواجهة، واللعنات تلاحقه من كل جانب، والمعنى أن الله يبطل كذبهم بما يبين من الحق حتى يذهب ويضمحل ولا يبقى في ميادين المقارعة إلا الحق ثابت لا تهزه الرياح ولو أتت من كل جانب ومهما عنت فإن الحق باق.

ثم أوعدهم على كذبهم فقال تعالى (ولكم الويل) يا معشر الكفار والمشركين (مما تصفون) الله بما لا يليق من عدم القدرة أو الصحابة والولد (وله من في السموات والأرض) يعني عبيداً وملكاً وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم (ومن عنده) يعني الملائكة وإنما خص الملائكة وإن كانوا داخلين في جملة من في السموات لكرامتهم ومزيد الاعتناء بهم وهم الذين بإيمانهم به وأحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له شريك في الملك (لا يستكبرون عن عبادته) يعني لا يتكبرون ولا يتعظمون عنها (ولا يستحسرون) يعني لا يراودهم الندم

في أنفسهم من طاعة الحق وعبادته فهم لا يعيون ولا يتبعون، وقيل لا ينقطعون عن العبادة ثم وصفهم الله تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) لا يضعفون ولا يسأمون ولا ينقصون شيء في عبادتهم له وتسبيحهم بأسمائه وصفاته الحسان، وذلك أن تسبيحهم متصل دائم لا يفتر في جميع أوقاتهم لا تتخلله فترة بفراغ أو شغل آخر قال كعب الأحمار التسبيح لهم كالنفس لبني آدم {أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ} ٩٩ يعني الأصنام من الحجارة والخشب وغيرهم مما يتخذون شركاؤهم يعتقدونها تقربهم إليه زلفى قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} ١٠٠ وقال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} ١٠١.

وقوله: (هم ينشرون) يعني يحيون الأموات إذ لا يستحق الإلهية إلا من يقدر على الإحياء والإيجاد بأبلغ وجوه النعم، وهو الله عز وجل (لو كان فيهما) في السماء والأرض (آلهة إلا الله لفسدتا) بالتأكيد لو كان هناك شريك أو شركاء لكان لكل شريك حصة، وله في كل

٩٩ الأنبياء ٢١.

١٠٠ سبأ ٣٤ . ٣٩.

١٠١ الزمر ٢ . ٤.

حصة رأي، مما يظهر الخلاف، ويؤدي إلى الخصام والنزاع وهذه الصفات صفات بشرية لا علاقة لها بالصفات الربانية، والحق دائماً وأحد أحد لا يمكن أن يكون أكثر من ذلك، فإن زاد عن الواحد ظهر الخصام، والواحد الأحد لم يكن طرفاً في مواجهة آخرين بل هو الواحد الذي خلقهم جميعاً والحمد لله إنه الواحد الأحد الذي لم يكن له شريك في الملك، ولم تكن له صاحبة والولد.

كل أمر صدر عن الاثنين فأكثر لم يجر على النظام المطلق، والحق جل جلاله في قوله مطلق وفي فعله مطلق وفي وحدانيته مطلق، وفي هذا الأمر قال الإمام فخر الدين الرازي: "القول بوجود إلهين يفضي إلى المحال، فوجب أن يكون القول بوجود إلهين محالاً، وإنما قلنا إنه يفضي إلى المحال لأننا لو فرضنا وجود إلهين، فلا بد وأن يكون كل واحد منهما قادراً على كل المقدرات، وهذا محال" ١٠٢.

وابطال الحق يكون بكلمة صغيرة لا قيمة لها يتلقفها أهل الباطل فيغرسونها في أرض الزور والبهتان والكذب وهذه لا يمكن أن تنبت شجرة مثمرة، ومن ينتظر ثمارها فليس له من المجاعة والفاقة فك، ولا من الموت مفر، وهذا الأمر الذي يفضي إلى نشر الباطل ومحاربة الحق قد نبه الله عليه في كتابه الكريم بقوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَا كَثِيرِينَ فِيهِ أَبدًا وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا} ١٠٣.

نعم فقد كبرت كلمة الباطل وتعاضم إفكها وزورها وكذبها، لذلك قد وضّح النبي صلى الله عليه وسلم خطورة قول الكذب والزور وجعله من أكبر الكبائر: فعن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر

١٠٢ تفسير الخازن، ج ٤، ص ٣٩٢.

١٠٣ الكهف ١-٥.

ثَلَاثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَكِنًا فَقَالَ
أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ قَالَ فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ" ١٠٤.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ، قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ
قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَكَانَ مُتَكِنًا فَجَلَسَ فَقَالَ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ
أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ لَا يَسْكُتُ" ١٠٥.

فأكبر الزور نما من كلمة صغيرة من أفواه أهل الباطل بأن ادعوا للرحمن ولدا، وصاحبة،
وغير ذلك من الإفك والكذب، ومن الزور كتمان الحق، وقلنا أن الله الحق هو الواحد في
ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

والله أرسل الرسل لتصحيح الزور ونقض الباطل الذي أعلاه الكفر والشرك وجاءت رسالة
الإسلام لتعيد البشرية إلى الفطرة السليمة بإعلان أن الله واحد أحد وهذا يظهر من أول ما
يبدأ به الإنسان بالدخول في الإسلام فإنه يقول: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد
رسول الله) وهذا قول الحق وذروته، ثم يتأتى الاعتراف والإقرار بباقي الحقوق التي منها أن
الأنبياء حق والموت حق والساعة حق والملائكة حق، ولكن من أكبر الزور والافتراء الكذب
على الله والكذب على الأنبياء، قال الحق تبارك وتعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا
يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ
كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} ١٠٦.

قال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَيَوْمَ
نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شُرَكَائِكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا

١٠٤ صحيح البخاري - ج ٩ ، ص ١٣٦.

١٠٥ صحيح البخاري، ج ١٨ ، ص ٣٧٢.

١٠٦ الأنعام ٢٠، ٢١.

أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} ١٠٧.

وعليه فإن أشد الناس عناداً وأخطوهم فعلاً وأعظمهم كفراً من اختلق على الله كذباً فزعم أن له شريكاً من خلقه وإلهاً يعبد من دونه كما قال المشركون من عبدة الأصنام، أو ادعى أن له صاحبة وولداً كما قالت النصارى أو كذب بآياته، التي تعد حجة حق على أمر واقع، كما كذبت اليهود بمعجزات الأنبياء وقيل معناه أو كذب بآيات القرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم (إنه لا يفلح الظالمون) أنه لا ينجح القائلون على الله الكذب والمفترون على الله الباطل ١٠٨.

وفي ذات السياق يقول الحق جل وعلا: لِيَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا آيُنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} ١٠٩.

ومدلول "حق" لها معان عدة ومن ذلك ما ورد في الكتاب الكريم، في قوله تعالى: (قال الذي حَقَّ عليهم القول) أي ثبت، وقوله تعالى (ولكن حَقَّتْ كلمة العذاب على الكافرين) أي وجبت وثبتت وكذلك (لقد حَقَّ القول على أكثرهم) وحقَّ الأمر يحقُّه حقاً وأحقَّه كان منه على يقين تقول حَقَّقْتَ الأمر وأحقَّقْتَهُ إذا كنت على يقين منه ١١٠.

١٠٧ الأنعام ٢٠ . ٢٦.

١٠٨ تفسير الخازن - ج ٢ ، ص ٣٧٨.

١٠٩ الأعراف ٣٥ - ٣٧.

١١٠ لسان العرب، ج ١٠، ص ٤٩.

والحق في معناه ما يعاكس معنى الباطل دلالة وإرشادا، وفي التنزيل: {ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ} وقوله تعالى: {وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ}، الحق لا يعرف إلا بأنه الحق، سواء أسمى أو صفة أو فعل، ولهذا فالحق دائما الصفات الحسان، والحق أيضا يتوحد مع الذات ويتوحد مع القول ويتوحد مع العمل ويتوحد مع السلوك ويتوحد مع الفعل، وعندما يتم التوحد به يأخذ المتوحد به صفة الحق الذي لا يتبدل (هو كما هو) ولذا فإن الله الحق مطلق، وقوله مطلق وفعله مطلق، وقوله تعالى (وجاءت سكرة الموت بالحق) معناه جاءت السكرة التي تدل الإنسان أنه ميت بالحق بالموت الذي خلق له، وروي عن أبي بكر رضي الله عنه وجاءت سكرة الحق أي بالموت والمعنى واحد وقيل الحق هنا الله تعالى وقول حق ووصف به كما تقول قول باطل، وقوله تعالى: (ذلك عيسى بن مريم قول الحق) إنما هو على إضافة الشيء إلى نفسه، وفي الحديث أنه أعطى كل ذي حق حقه ولا وصية لوارث أي حظّه ونصيبه الذي فرض .

وكل ما كان في القرآن من تكرات الحق أو معرفته أو ما كان في معناه مصدراً فوجه الكلام فيه النصب كقول الله تعالى وَعَدَّ الْحَقُّ وَوَعَدَ الصِّدْقُ.

والحقيقة ما يصير إليها حق الأمر ووجوبها وبلغ حقيقة الأمر أي بلغ اليقين في الحقيقة¹¹¹. والحقيقة تعني ظهور الحق بشكل جلي ولذلك لا يبلغ المرء الحقيقة إلا بحب الحق وقول الحق وعمل الحق والإيمان بالحق.

والحقيقة هي كما هي كاملة قد لا يكون بلوغها بالكمال ولكن بلوغها وفقا لدائرة النسبية، وفي الحديث: "لا يبلغ المؤمن حقيقة الإيمان حتى لا يعيب مسلماً بعيب هو فيه" وهذا يدل على خالص الإيمان ومحضه وكُنْهَهُ وعن حقيقة الإيمان مما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الكثير لأن الإيمان الحق يصل بالمرء إلى معرفة الحق و من قول النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك: عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "كُلُّ شَيْءٍ

¹¹¹ المصدر السابق.

حَقِيقَةٌ وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ^{١١٢}.

عن عطاء بن يسار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قال حين يمسي: رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا، فقد أصاب حقيقة الإيمان"^{١١٣}.
وعن ميمون أبي عمر، قال: "لا يصيب عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المرء، وإن كان محققاً"^{١١٤}.

وعن عمرو بن الحمق قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا يحق العبد حقيقة الإيمان حتى يغضب الله ، ويرضى الله ، فإذا فعل ذلك فقد استحق حقيقة الإيمان ، وإن أحبائي وأوليائي الذين يذكرون بذكري ، وأذكر بذكرهم »^{١١٥}
قال الحسن: "ابن آدم كيف تكون مؤمناً ولا يأمنك جارك؟ ابن آدم كيف تكون مسلماً ولا يسلم الناس منك؟ ابن آدم لن تصيب حقيقة الإيمان في قلبك حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك، حتى تبدأ بإصلاح ذلك العيب، فإذا فعلت ذلك لم تصلح عيباً إلا وجدت آخر، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة بدنك، وخير عباد الله من كان كذلك"^{١١٦}.
و قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله وأن لا يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار"^{١١٧}.

^{١١٢} مسند أحمد - ج ٥٦ ، ص ٢٦ .

^{١١٣} مصنف ابن أبي شيبة - ج ٧ ، ص ٤٢ .

^{١١٤} الإبانة الكبرى لابن بطة - ج ٢ ، ص ١٥٧ .

^{١١٥} المعجم الأوسط للطبراني - ج ٢ ، ص ١٦١ .

^{١١٦} شعب الإيمان للبيهقي - ج ١٤ ، ص ٢٨٠ .

^{١١٧} صحيح مسلم ج ١ ، ص ٤٨ .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ثلاث من كن فيه فقد ذاق طعم الإيمان من كان لا شيء أحب إليه من الله ورسوله ومن كان أن يحرق في النار أحب إليه من أن يرتد عن دينه ومن كان يحب الله ويبغض الله"^{١١٨}.

عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خمس من الإيمان من لم يكن فيه شيء منها فلا إيمان له التسليم لأمر الله والرضا بقضاء الله والتفويض إلى أمر الله والتوكل على الله والصبر عند الصدمة الأولى ولم يطعم امرؤ حقيقة الإسلام حتى يأمنه الناس على دمائهم وأموالهم فقال قائل: يا رسول الله أي الإسلام أفضل قال: من سلم المسلمون من لسانه ويده علامات كمنار الطريق شهادة أن لا إله إلا الله وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحكم بكتاب الله وطاعة النبي الأمي والتسليم على بني آدم إذا لقيتهم"^{١١٩}.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث من كن فيه استوجب الثواب واستكمل الإيمان خلق يعيش به في الناس، وورع يحجزه عن محارم الله، وحلم يرده عن جهل الجاهل"^{١٢٠}.

وحقيقة الرجل ما يلزمه حفظه ومنعه ويحق عليه الدفأ عنه من أهل بيته، والعرب تقول فلان يسوق الوسيقة وينسل الوديقة ويحمي الحقيقة فالوسيقة الطريدة من الإبل سميت وسيقة لأن طاردها يسبقها إذا ساقها أي يقبضها والوديقة شدة الحر والحقيقة ما يحق عليه أن يحميها وجمعها الحقائق.

والحقيقة في اللغة ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه والمجاز ما كان بضد ذلك وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلاثة وهي:

١ . الإتساع.

٢ . والتوكيد.

^{١١٨} المعجم الأوسط للطبراني، ج ١١، ص ١٣٣.

^{١١٩} مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج ١، ص ٦٣.

^{١٢٠} مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - ج ١، ص ٢٧.

٣ . والتشبيه فإن عِدِم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة

ومن اللغة ودلالاتها يمكن أن نقول "الحق اسم من أسماء الله تعالى وصفة من صفاته وتجلُّ من تجلياته على كل شيء يريد أن يؤكد - سبحانه وتعالى - أنه حق، فالقرآن الكريم حق وهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يأتيه الباطل لأنه قول الله الحق المنزل على الرسول الحق المتعبد به تعبد الحق، وهو منهج الأمة التي لا تبغي إلا الحق وتؤمن بالحق في دار الاختبار ودار الاعتبار.

وعليه فإن الحق المطلق مختص بالله، والحق بالإضافة نسبي وصاحبه هو الخليفة الذي يؤمن بالحق رباً أعلى، ومن خلال الإيمان بالحق رباً يتأتى الإيمان بالنبى - صلى الله عليه وسلم - رسولا حقا من لدن الحق العلي، ثم يتأتى الإيمان بالحق كتابا ومنهجاً، ثم الإيمان بالحق غيباً نعيماً وجحيماً ، جنا وملائكة، وبالعموم غيباً وشهادة.

- الله سبحانه هو الحق المطلق في الدنيا وفي الآخرة وَسْتَرَدُّ إِلَيْهِ الْأَعْمَالُ وَأَصْحَابُهَا فيحكم بينهم بالحق لأنه أسرع الحاسبين ولا يظلم من لديه مثقال ذرة أو أصغر لأنه الحق يقول الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ لَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} ^{١٢١} ، فعندما تقبض أرواح الخارجين عن المنهج الحق ويعرضون على الله الملك الحق المبين الذي ليس في ظهور استحقاقه لملكه منازع يحكم بين الجميع بالحق ليحق الحق بكلماته {وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ أَحَدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} ^{١٢٢} . وعد الله هو الحق، وذلك لثبوت

^{١٢١} - الأنعام ٦٠ - ٦٢ .

^{١٢٢} الأنفال ٧ - ٨ .

حدوثه، في الزمان والمكان المحددين له، فعندما يأتي حقه يحقه ولو كررها ذلك الحق المجرمون،

ومن الآيات السابقة يتبين أن خليفة الاسم الحق يؤمن بالآتي:

- ١- الحق إرادة الله سبحانه وتعالى.
- ٢- الله يمكن ويهيئ لأصحاب الحق الوصول إلى مبتغاهم.
- ٣- إرادة الله سبحانه وتعالى متحققة لا محالة لأنه {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ١٢٣.

ولا راد لإرادته ومشيئته فهو سبحانه قد خلق الخلق من دون معين ولا شريك إبداعا لا على مثال سابق، وأنزل الإنسان على الأرض لحكمة وهي تعميمها بالحق لا بالباطل وهذه إرادته ولا يعجزه فيه أحد لأنه القائل الحق: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}، الذي بيده الأمر والملك بطبيعة الحال إذا أراد شيئا أن يكون حركة وزمانا يكون في الحال مع فعل الأمر (كن) الذي لا يحدث إلا بمشيئة الخالق محق الحق جل جلاله، ولأن إرادته متحققة فهو سبحانه وتعالى يسعد فريق الحق ويشقي فريق الباطل بما قدمت أيديهم وهنا لا ينفعهم باطلهم من فكرة باطلة ومن آلهة باطلة التي كانوا يتخذونها من دون الله وفي هذا إنذار لمن يبتعد عن منهج الحق ويحيد عنه، وفي ذلك القول الحق دليل دامغ يؤكد أن المؤمن بالحق سيلقى جزاء عمله سعادة مقيمة في يوم يجمع الله فيه الفريقين ويكون الشقي بعمله الإفسادي والسعيد برحمة الله والعمل الصالح، وهذا اليوم الحق الذي يبرز فيه الحق ويختفي فيه الباطل، وهذه إرادة الله وهي نافذة لا راد لها، ويبين ذلك بشكل جلي قول الله تعالى: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ وَكَذَلِكَ أَخَذَ الرَّبُّ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجْلِ مَعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ

شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ فَأَمَّا الَّذِينَ شَفُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ^{١٢٤} ويقول تعالى: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}^{١٢٥}.

٤- يريد فريق الباطل أن يفسدوا في الأرض وهؤلاء هم الكافرون المجرمون الذين قال الله فيهم: (لِيَحِقَّ الْحَقُّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ).

٥- الهدف الذي يسعى إليه المتحقق والمتخلق بمنهج الحق يتمثل في:
أ . إحقاق الحق في كافة صورته.

ب . القضاء على الكافرين المجرمين بالحق.

والحق الذي يريد الله أن يحقه هو الإسلام بمعنى التسليم لله والانقياد له بطاعة أوامره واجتناب نواهيه وإتباع سنن أنبيائه المشمولة في سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم منها قرآنيا وتنفيذا محمديا وإتباعا صادقا، وبهذا يتحقق الحق في كافة صورته لأن الإسلام ما ترك قضية إلا ووضع لها حلا، وبهذا يقوم الحق وتكون الخيرية في الخلافة المتمثلة في خير أمة أخرجت للناس التي يشهد عليها قول الله تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ وَإِنْ يَقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ}^{١٢٦}.

فقوله الحق يتعدد في هذه الآيات الكريمة:

١ . (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) إنه الحق.

^{١٢٤} - هود ١٠١-١٠٨.

^{١٢٥} - البروج ١٢-١٦.

^{١٢٦} آل عمران ١٠٩-١١١.

٢ . (وَالَى اللَّهُ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) إنه الحق .

٣ . (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) إنه الحق .

٤ . (تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) إنه الحق .

٥ . (وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ) إنه الحق .

٦ . (منهم المؤمنون) إنه الحق .

٧ . (وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) إنه الحق .

٨ . (وَإِنْ يُقَاتِلُواكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ) إنه الحق .

ولأن الحق بين والباطل بين، جاء قوله لا إكراه لأبي إنسان في أن يتبع أو يُتبع بالإكراه، والحق في أساسه ليس في حاجة لمدافعين عنه، الحق هو خير من يدافع عن حاله، ولكن الحق في حاجة لمن يظهره ويبشر به وينذر ويحرض، ولكل من هذه القيم والفضائل الإنسانية أسباب ودواعي تستوجب مراعاة الزمان والمكان المناسبين للقول والفعل والسلوك، قال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} ^{١٢٧} . بعد أن بين الله قوله في رسالته الخاتمة وأظهره على العالمين به فسيظل في اللوح المحفوظ الذي لا يدخله الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه، ولذا فقد نهى الحق عن الإكراه في الدين الحق، الذي لم يعد خافيا على أحد من العالمين، ولهذا فالمستمسكين بالحق هم على حق، والمستمسكين بالباطل هم على باطل، ولكل ثوابه، أو عقابه. ولا تزرروا وزرارةً وزر أخرى قال تعالى: {قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} ^{١٢٨} .

^{١٢٧} البقرة ٢٥٦ .

^{١٢٨} الأنعام ١٦٤ ، ١٦٥ .

فأمة الحق يطمئنها ربُّها بالحق الذي لا يقبل جدالا ولا نزاعا بأن السموات والأرض له وحده دون شريك، والأمر كله يرجع له عز وجل ويلخص الأمر في الآتي:

١- لله أمر السموات والأرض بالحق وإليه يرجع أمر الخلق جميعا ثوبا على طاعتهم واتباعهم المنهج الصحيح وتعميرهم الأرض ومحاربتهم الباطل في كل أشكاله، وعقابا لأهل الباطل الذين حاربوا الحق وأهله.

٢- الأمة التي تتبع الحق هي خير أمة، مصداقا لقوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} ^{١٢٩}، وهذه الخيرية التي هي لخير أمة لها تستوجب من المستخلفين في الأرض أن لا يغفلوا عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومن أعظم الأمر بالمعروف: الإيمان بالله وأحدا أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وهذا هو حق الله على العباد، كما أن لهم على الله حق إن هم أدوا حق الله وهذا ما وضحه سيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم فعَنْ مُعَاذِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "كُنْتُ رَدَفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ فَقَالَ يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ قَالَ لَا تُبَشِّرُهُمْ فَيَتَّكِلُوا" ^{١٣٠}.

^{١٢٩} آل عمران ١١٠ . ١١٢ .

^{١٣٠} صحيح البخاري - ج ٩ ، ص ٤٥٩ .

ولبُّ الحق عبادة الله وحده دون سواه والانصراف قلبا وقالبا عما سواه فلا يعتقد الإنسان في حجر ولا شجر ولا يتوجه بالعبادة والدعاء إلا لله وحده لأنه لا نافع بحق إلا الله ولا ضار بحق إلا الله ولا حكيم بحق إلا الله وهكذا فهو الحق في أسمائه وصفاته وأفعاله.

ولكن فريق الباطل لم يدرك حق الله على العباد ولم يؤده فعبدوا من دون الله أربابا باطلة لا تملك من أمر نفسها شيء فكيف تملك من أمر غيرها؟! وهذا الصنف الذي قال الله فيه من خلال خطابه الناس جميعا: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسئَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} ١٣١.

فالباطل الذي هو نقيض الحق له أتباع يحاولون أن يقلبوا الموازين ليبطلوا الحق ويحقوا الباطل ولأن ما يعبدون من دون الله باطل فالله سبحانه وتعالى يتحداهم بأن يخلقوا خلقا من اضعف خلق الله- سبحانه في قدرته- وهذا المخلوق على ضعفه إلا إنه لا يستطيع أهل الباطل أن يخلقوا مثله لأنهم على ضلال، ولأنهم على ضلال فالله يتحداهم بأن يخلقوا ذبابة، والله يعلم أنهم عاجزون لأنهم لا يملكون من أمر أنفسهم شيئا فكيف يملكون من أمر غيرهم؟! أما المستخلفون فيها بالحق فهم يؤمنون بأن الخلق من عند الحق تبارك وتعالى، وبالتالي لا يراودهم شك في ذلك.

ويبلغ التحدي الإلهي مبلغا آخر وهذا التحدي يثبت العجز التام للباطل فيقول الله لهم: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْنَاهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَآ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ} ١٣٢.

والإيمان بالله واحداً واحداً من أهم ما يؤكد خليفة الحق وإثبات أن الله وأحد في ملكه وأن دعوته وولايته حق وأنه كما قال في كتابه الحق: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَآ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَآ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} ١٣٣.

ومن هنا فالولاية الحقيقية المطلقة لله الواحد الحق لأن الذي يدعوه ربا يدعو بالحق ويعلم أن دعوته غير مردودة، لأن الله عز وجل هو الذي دعاه لذلك بدعوة الحق، ومن هنا فخليفة الحق يعمل جاهدا لإحقاق الآتي:

١ . الله سبحانه وتعالى هو الحق المبين وهو جل وعلا سيوفى الجميع بما عمل ثوابا وعقابا: وكلمة المبين تعني الواضح الذي لا لبس فيه {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ

١٣٢ الحج ٧٣.

١٣٣ - الرعد، ١٤ - ١٨.

وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ}١٣٤.

٢- دحض فريق الباطل الذي يحارب الحق و يدعو من دون سلطان أو حجة دامغة. قال تعالى: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}١٣٥، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ}١٣٦.

٣- تأكيد أن الحكم الحق والقضاء الجد الذي لا هزل فيه من خصوصية الحق ، لذا فإن الله الحق يدعو نبيه الحق صلى الله عليه وآله وسلم، ومن أراد أن يتخلق بالحق ويحقق خلافة الحق بقوله: {إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ}١٣٧.

أما فريق الباطل فقد نعته الله بالموت يعني الموت المعنوي فهم إن كانوا أحياءً جسداً فهم أموات لأنهم لم يستطيعوا التمييز بين الحق والباطل، كما نعتهم بالعمى لأنهم بإتباعهم الباطل أرادوا أن يثبتوا الباطل ويدحضوا الحق وهذا يؤكد قول الله جل في علاه: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ}١٣٨.

وفريق الباطل قالوا للحق لما جاءهم: {وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ

١٣٤ -النور ٢٣ . ٢٥.

١٣٥ غافر ٣٥.

١٣٦ غافر ٥٦ . ٥٨.

١٣٧ النمل ٧٩.

١٣٨ النمل، ٧٨-٨١.

أَعْلَمَ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^{١٣٩} فمن سار ضد الحق فهو فاقد للدراية وبهذا وكأنه ميت وذلك بأسباب غفلة العقل والقلب والسمع والبصر والبصيرة، وهذا الصنف من البشر لا فائدة ترجى منه لأنه أعمى البصيرة في الدنيا وأعمى البصر والبصيرة في الآخرة، وذلك بإعراضه عن الحق في الدنيا، والحق في الدنيا متمثل في:

١ . التوحيد الخالص لله عز وجل: قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ^{١٤٠}، وقوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^{١٤١} .

٢ . اليقين بالقلب بهذه الوجدانية: قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ^{١٤٢}، وقال تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ^{١٤٣} .

٣ . متابعة اليقين القلبي بالقول الثابت أي بالنطق بكلمة الحق ألا وهي "لا إله إلا الله محمد رسول الله". قال تعالى: ﴿يُنَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ

^{١٣٩} الأحقاف ٧ . ١٤٠

^{١٤٠} الإخلاص ١ . ٤٠

^{١٤١} الحديد ٢ ، ٣ .

^{١٤٢} الحجر، ٩٨ . ٩٩

^{١٤٣} التكاثر، ٣ . ٨ .

وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ^{١٤٤}.

٤ . الحق ثابت عال مثل الشيء النافع الذي يثبت في الأرض ويثبت الله لينفع الناس مصداقا لقوله تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْأَمْثَالَ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ^{١٤٥}.

٥ . لا فائدة من الباطل وإن أخذ صورة نافعة فهو هاو لا أساس له ويذهب وينتهي سريعا دون فائدة، قال تعالى: (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً).

٦- أهل الحق لهم الثواب العظيم والبشرى بالمغفرة والجنة وهذا ثابت بقول الله تعالى: (لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ).

٧- فريق الباطل جزاؤه من جنس عمله لأنهم لم يؤمنوا بالحق وكذبوه وأرادوا أن يدحضوه بعدم استجابتهم للحق ودعوته وهؤلاء لا ينفعمهم يوم القيامة أموالهم ولا أبنائهم ليفتدوا بهم من عذاب الجحيم، فهم لهم سوء الحساب وسيكون مصيرهم جهنم (وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ).

والخليفة يعلم أن الله هو الحق وأن دينه الحق فهو يستشعر الحق ويعمل على ظهوره ويزوجه وإذ كان إحقاق الحق من الله الحق بكلماته التي جعل فيها قدرته وإرادته لأنه

^{١٤٤} إبراهيم، ٢٧ . ٣٠ .

^{١٤٥} الرعد ١٧ ، ١٨ .

سبحانه إذا قال للشيء كن فيكون فهو، {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ١٤٦.

والله هو الحق ودعوته الحق يقول الله تعالى: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} ١٤٧.

ولسان حال الخليفة الذي يسير على منهج الحق يقول كما ورد في كتاب الحق: لَوْ بَا قَوْمٍ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} ١٤٨.

فالباطل ليس له أساس في الدنيا ولا في الآخرة، أما الحق فله الدعوة الصادقة لأنه كما سبق أن بينا فإن الحق راسخ في القلب يقينا ثابتا بالقول والفعل وذلك لأن الله خلق السموات والأرض بالحق، والحق أن يعبد وحده دون شريك من صنم أو حجر أو عقل ضال قاصر أو إتباع شيطان من شياطين الأنس والجن، والله سبحانه وتعالى لما خلق السموات والأرض بالحق وجعل الإنسان في الأرض ليخلفه فيها ليعمرها بالحق فتفرق الإنسان إلى فريقين:

أ. فريق الحق يتبع الحق قلبا، ولسانا، وعملا. قال تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنََّّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} ١٤٩.

١٤٦ - البقرة ١١٧.

١٤٧ الرعد ١٤.

١٤٨ غافر ٤١ - ٤٤.

١٤٩ الحجرات، ١٤، ١٥.

ب . فريق الباطل الذي وجد في نفسه ضعفا واتبع الشيطان أو اتبع أهل الباطل فلم ينفعه ذلك إلا بالخزي في الدنيا والعذاب والخسارة في الآخرة و مثل الحق والباطل في هذا الموقف مثل الكلمة الطيبة التي هي كلمة الحق والتوحيد والصدق ومثل كلمة الباطل التي هي نقيض الحق وهذه الصورة يلخصها الله في قوله تعالى مخاطبا النوع الإنساني من خلال خطابه للنبي صلى الله عليه وسلم: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ يُنْبِتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصَلُونَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْآنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ }^{١٥٠}.

الكلمة الطيبة هي كلمة الحق، وطيبة لأنها تاركة للأثر الذي به تطمئن الأنفس، والكلمة الطيبة لا تمت ستظل مع الحق عبر العصور، وكل شيء يتغير إلا هي ثابتة صامدة في مواجهة الكلمة الظالمة التي دائما اللعنات تلاحق قائلها أو المستشهادين بها أو المحتكمين بها. قال تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ} ١٥١.

إذن الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة تؤتي أكلها كل حين، متى ما يستشهد بها أو يحتكم بها تكون حجة حاقة للحق وزاهقة للباطل، والشجرة التي تؤتي أكلها كل حين، ذات منافع كثيرة، ففي دائرة الممكن من منافعها الآتي:

١ . عندما تكون شجرة طيبة وتؤتي أكلها كل حين يستظل بظلها، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} ١٥٢، وعندما تكون الكلمة طيبة يحتاج بها حتى تدخل الطمأنينة في القلوب. قال تعالى: {مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا} ١٥٣. أما عندما

١٥١ آل عمران ،

١٥٢ إبراهيم ٢٤ . ٢٧ .

١٥٣ النساء ٨٥ ، ٨٦ .

تكون الشجرة خبيثة فإن الأمر يختلف، فهي لا تؤتي أكلها وإن أتت فيكون ذا ضرر مثلها مثل الكلمة الخبيثة التي تفرق بين المرء وزوجه وتفسد في الأرض وقد تؤدي إلى سفك الدماء فيها بغير حق.

٢ . الشجرة الطيبة النافعة يؤكل من ثمارها، وهي في شبه كبير بالكلمة الطيبة النافعة التي بها يتم تقصي الحقائق وتتبع مكامنها في ميادين البحث العلمي والازدياد المعرفي فتضيف الجديد النافع. والشجرة الخبيثة ثمارها كالحنظل وهي المحرمة على المستخلفين فيها قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^{١٥٤}، وعليه فالشجرة الطيبة قول الله لآدم: (اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)، وقوله تعالى: (فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)، والكلمة الخبيثة ما قالوه إبليس لأبونا آدم وأمنا حواء (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ)، وقوله تعالى: { كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلنَّاسِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ }^{١٥٥}.

٣ . يخرس منها في أماكن أخرى، وهي في التشبيه كالسنبله التي تتضاعف من حبة واحدة مصداقا لقوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

^{١٥٤} البقرة ٣٤ . ٣٧ .

^{١٥٥} الحشر، ١٦ .

لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ^{١٥٦}. ولذا فالكلمة الطيبة هي كلمة الحكمة مصداقا لقوله تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}^{١٥٧}، إما الكلمة الخبيثة فهي التي تبطل الصدقات قال تعالى: (لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ).

ولأن الكلمة الطيبة كلمة حق، فهي باقية مثل كلمة التوحيد، واحد أحد، الأول والآخر، الملك الحق، لا إله إلا هو، محمد رسول الله، كلمات تامة غير منقوصة، كما حال كلمات الكفر والشرك بالله، ومثل كلمات النفاق والكذب والبهتان.

وكلمة الحق ثابتة كالشجرة الثابتة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، ولهذا في المقارنات كلام الله الذي أنزله على عباده الصالحين وأرسل به الرسل مبشرين ومنذرين هو كلام باقى يسمع في الأرض ويسمع في السماء، ولهذا مهما بلغ حجم الشجرة المباركة المشبه بها فإن الكلمة المباركة ذات ظل أكبر وأعظم وإنها ذات امتداد عظيم، ولهذا فإن كلمة الحق تتصف المظلوم لتعيد إليه حقه وهذا أكبر ظل يمكن له أن يستظل به، الحكم العدل والوزن بالقسطاس قال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ

^{١٥٦} البقرة ٢٦١ . ٢٦٤ .

^{١٥٧} البقرة ٢٦٩ .

بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا^{١٥٨}. وفي مقابل ذلك الكلمة الخبيثة التي قال عنها تعالى: (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا). أي كل ما يخالف ما جاء في الآيات الكريمة السابقة هو في محل الشجرة الخبيثة وهي التي عند الله مكروهة.

والخليفة من يدعو لظهور الحق عاليا بالدعوة الصادقة لله ليعينه على ذلك امتثالا لقوله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ^{١٥٩}. فالثواب والعقاب بيد الله وهذا هو الوعد الحق لمن سار على المنهج الحق أو خالفه والمنهج الذي يسير عليه خليفة الحق فيه الآتي:

١- إقامة الصلاة: الصلة علاقة ورابطة عندما تكون بين الخليفة وربه تكون بالحق على الحق وطاعة للحق، ومن أهم العلاقات صلة بين الخليفة وربه جل جلاله، هي الصلة بالصلاة ركوعا وسجودا لله وتسليما خالصا بالرسول صلوات الله وسلامه عليه مع إتياء الزكاة وحج البيت والصوم في الشهر الكريم الذي انزل فيه الحق القرآن الكريم تكريما له وتكريما للصائمين، ولذا فإن هذه العبادات تربط الصلة بين الخالق والمخلوق الذي هو على الطريق المستقيم. قال تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ

^{١٥٨} الأحقاف، ٣١ . ٣٨.

^{١٥٩} يونس ١ . ٤.

رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} ^{١٦٠}، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} ^{١٦١}.

٢- تدبر الكتاب: الذي يحوي المنهج الصحيح والفكر المستنير. قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَاعَوْا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} ^{١٦٢}، وقال تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} ^{١٦٣}.

٣- تحري الصدق: الكذب هو القول الفاقد للمصداقية، أي أنه خالٍ من الحقيقة، وهو تعدد لتجنبها، وقد يترتب على القول الكذب فتنة أو اقتتال قال تعالى: {قُلْ إِنْ الَّذِينَ يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} ^{١٦٤}، قال تعالى {وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ

^{١٦٠} البقرة ٣ . ٥ .

^{١٦١} البقرة ٢٧٧ .

^{١٦٢} النساء ٨٢ ، ٨٣ .

^{١٦٣} محمد ٢٠ . ٢٤ .

^{١٦٤} يونس ٦٩ ، ٧٠ .

عَظِيمًا^{١٦٥}، وقال تعالى: {إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ^{١٦٦}}.
وعليه فإن الخليفة هو متحري الصدق في كل الأحوال لأنه لا حق دون صدق وجزاء

الصدق القبول عند الله تصديقاً لقوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ^{١٦٧}}.
٤- **التوكل على الحق:** ومن يتوكل على الله فهو حسبه {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^{١٦٨}، وباليقين يكون الحق غالب والباطل زاهق مدحور لا محالة تصديقاً لقوله تعالى: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ^{١٦٩}}.
٥. **الحكم بالعدل:** العدل أسم الله، وصفته الحسنة، وفعله الحق، والعدل من عمل به عمل بكلمات الله التامة، ومن لم يعمل به فقد ضل، والحكم العدل هو الذي لا مظالم فيه ولهذا لا يقوم به إلا خليفة قال الله تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا^{١٧٠}}.
٦. **إيفاء الكيل والميزان:** الإيفاء بالكيل والميزان اعتراف بإحقاق الحق ومخافة من باطل، ولهذا من يتبع ذلك يجد نفسه في طاعة ما أمر به الحق تعالى: {وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا

^{١٦٥} النساء ١١١ . ١١٣ .

^{١٦٦} النحل ١٠٥ .

^{١٦٧} الأحقاف ١٦ .

^{١٦٨} الأنفال ٤٩ .

^{١٦٩} آل عمران ١٦٠ .

^{١٧٠} النساء ٥٨ ، ٥٩ .

قُلْتُمْ فَأَعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} ١٧١ .

٧ . أن لا يزنى: الزنا عمل من أعمال الشيطان به تختلط الدماء فتختلط المحرمات مع الحلائل وفي هذا إثم كبير ، وفيه من الأمراض ما يسبب العلة والموت وفيه فتنة بين من يكتشف أمرهم مع المحرمات، قال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} ١٧٢ ، وقال تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخْوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ يَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} ١٧٣ . ولذلك فمن يستعصم يفوز فوزا كبيرا قال تعالى: {قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيَسْجَنَنَّ وَيَلْكَوَنَنَّ مِّنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} ١٧٤ .

٨ . أن لا يسرق: الخليفة هو الذي يستمد صفاته من صفات مستخلفه في الأرض ولذا من يسرق لا صفة له من صفات مستخلفه في الأرض، ولهذا نهى الحق تبارك وتعالى عنه وأوجب حكما مصداقا لقوله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} ١٧٥

١٧١ الأنعام ١٥٢ ، ١٥٣ .

١٧٢ الإسراء ٣٢ .

١٧٣ النساء ٢٣ .

١٧٤ يوسف ٣٢ . ٣٤ .

١٧٥ المائدة ٣٨ ، ٣٩ .

٩ . أن لا يوقد نار الفتنة: الفتنة اشد من القتل فهي تؤدي إلى الفرقة والعداء بين الأقارب، وكذلك بينهم وبين الأبعد، ولهذا فالخليفة هو من يصلح ويفلح ولا يوقد نار الفتنة في الأرض التي استخلفه الله فيها، فمن يوقدها لا يكون من المستخلفين فيها، وذلك لأن نار الفتنة تفسد ولا تصلح وتؤدي إلى سفك الدماء، قال تعالى: {لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} ١٧٦، وقال تعالى: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِئَكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُوْضِعُوا خِلَالَكُمْ بِيَعُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ} ١٧٧ .

١٠ . أن لا يشرب مسكرا: الخليفة دائما على الحق، وهو للظلم من الكارهيين، ولهذا لا يشرب مسكرا حتى لا يفقد صوابه الذي به اهتدى إلى الحق والطريق المستقيم، إنه الذي يتجنب كل ما من شأنه أن يؤدي به إلى فقدان عقله أو ذاكرته التي بها يميز بين الخبيث والطيب والحلال والحرام قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} ١٧٨، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} ١٧٩ .

١١ . أن يعمل على إحقاق الحق وإزهاق الباطل: الحق هو دائما في مرضاة الله، ومرضاة النفس المطمئنة، ولهذا فالخليفة بإقدامه على القول الحق والفعل الحق يرضي ربه عز وجل ويرضي نفسه وضميره، فأحقاق الحق لا يترتب عليه ندم، إما أفعال الباطل فيترتب عليها

١٧٦ التوبة ٤٨، ٤٩ .

١٧٧ التوبة ٤٦، ٤٧ .

١٧٨ البقرة ٢١٩ .

١٧٩ المائدة ٩٠، ٩١ .

الندم الشديد، وقد تضيع فرصة الندم فلا يتمكن الإنسان من الاستغفار في الوقت المناسب له، قال تعالى: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} ١٨٠. ولذا عندما يفوت وقت الاستغفار يظل الحكم بالعقاب أمراً لا مفر منه والحمد لله رب العالمين الذي يمهل ولا يهمل. ولهذا فالمستخلفين فيها هم الذين يعملون على إحقاق الحق وإزهاق الباطل بكل ما يكسبون ويستطيعون. قال تعالى: {لَقَدْ ابْتِغَوْا النِّفْتَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَنْتَبِهْ أَلَا فِي النِّفْتَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} ١٨١، وقال تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} ١٨٢، وقال تعالى: {تَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} ١٨٣.

ومن يخالف ذلك المنهج هو من فقد الصواب وعميت بصيرته وموقفه في الآخرة يوضحه الله في قوله تعالى الذي يقص علينا قصة الحق وصراعه ضد الباطل منذ البداية فلنرى ماذا يقول ربنا جل في علاه فيقول تعالى لفريق الباطل الذي اعتمد على الشيطان لينصره، والشيطان قد يكون إبليس نفسه أو فكرة خاطئة أو اعتماد على مال أو جاه أو غير ذلك من دون الله عز وجل ولكن الشر الأكبر متمثل في الملعون الذي يُزَيِّن الباطل، فيقول الله تعالى: {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ

١٨٠ التوبة ٨٠.

١٨١ التوبة ٤٨، ٤٩.

١٨٢ الإسراء ٨١.

١٨٣ الأنبياء ١٨.

وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ
لِّلْعَبِيدِ {١٨٤} .

والله أعلى - من كيد الشيطان وفريق الباطل - علوا كبيرا لأنه الملك الحق، ويقص الله علينا قصة الصراع الذي لا ينتهي إلا بنهاية الكون قصة الحق والباطل فيقول تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنِ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ {١٨٥} .

هي القصة بعينها... الحق والباطل في صور متعددة، وأصلها أن الله أراد أن يستخلف خليفة لتعمير الأرض، فاعترض الشيطان على الخليفة وعصى أمر الله سبحانه وتعالى، فتشعب الأمر إلى شعبتين حق وباطل ... هدي وضلال ... صدق وكذب ... نور وظلام ...جنة ونار.

والحق والهدي والصدق والنور في المنهج الذي يحض على الصلة بالله عز وجل للوصول إلى الحق والله هو القائل لنبيه صلى الله عليه سلم: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ

١٨٤ الأنفال، ٤٨-٥١.

١٨٥ طه، ١١٤-١٢٧.

يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا^{١٨٦} فكان صلى الله عليه وآله وسلم يقوم الليل بهذه الكلمات فإنها مأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قيامه للتهجد "اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وأسرفت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها اللهم أهدني لأحسن الأعمال لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت أسألك مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء المفتقر الذليل فلا تجعلني بدعائك رب شقياً وكن بي رعوفاً رحيماً يا خير المسئولين وأكرم المعطين.

وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها "كان صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل افتتح صلاته قال: اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون أهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم"^{١٨٧}.

والحق كما ورد على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتمثل في: الله الحق ومنك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنشور حق والنبيون حق ومحمد صلى الله عليه وسلم حق.

ونعود للغة التي تؤكد معاني الحق التي تكلمنا فيها فقد جاء معنى الحق على النحو الآتي:

^{١٨٦} الإسراء ٧٨ - ٨١.

^{١٨٧} - السنن الكبرى للنسائي، ج ١، ص ٤١٧.

الْحَقُّ: تَقْبِضُ الْبَاطِلِ^{١٨٨}.

- والله حق وما دونه الباطل فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أصدق كلمة قالتها العرب:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل!

وكل أناس سوف تدخل بينهم... دويهة تصفر منه الأنامل!

وكل امرئ يوماً سيعلم سعيه... إذا كشفت عند الإله الحصائل^{١٨٩}.

والحديث كما في الصحيح نصه "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةٌ لَبِيدٍ أَلَّا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ"^{١٩٠}.

ومن معاني "الحق اللغوية" بَلَعْتُ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ: أَي يَقِينُ شَأْنَهُ^{١٩١} وهذا اليقين في بلوغ الحقيقة ما وجدناه في القرآن الكريم معبراً عنه بقوله تعالى: {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}^{١٩٢}.

(إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) بقمعهم وإهلاكهم. قيل كانوا خمسة من أشرف قريش: الوليد بن المغيرة، والعاص ابن وائل، وعدي بن قيس، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، يبالغون في إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم والاستهزاء به فقال جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أكفيكمهم، فأوماً إلى ساق الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظماً لأخذه، فأصاب عرقاً في عقبه فقطعه فمات، وأوماً إلى أخص العاص فدخلت فيه شوكة فانتفخت رجله حتى صارت كالرحى ومات، وأشار إلى أنف عدي بن قيس فامتخط قيحاً فمات، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل

^{١٨٨} - المحيط في اللغة - ج ١ ، ص ١٥١.

^{١٨٩} - ديوان المعاني - ج ١ ، ص ٤٦.

^{١٩٠} صحيح البخاري - ج ١٢ ، ص ٢١٢.

^{١٩١} - المحيط في اللغة - ج ١ - ص ٣٤٦.

^{١٩٢} الحجر ، ٩٥ - ٩٩.

ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات، وإلى عيني الأسود ابن المطلب فعمي والحمد لله رب العالمين.

وقوله (الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) عاقبة أمرهم في الدارين.

(وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَكْبُحًا لِمَا يَقُولُونَ) من الشرك والطعن في القرآن والاستهزاء بك (فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) فافزع إلى الله تعالى فيما نابك بالتسبيح والتحميد يكفك ويكشف الغم عنك، أو فنزهه عما يقولون حامداً له على أن هداك للحق (وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) من المصلين الخاشعين لله وحده، وعنه عليه الصلاة والسلام "أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة" (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) أي الحقيقة التي تبحث عنها وتريد معرفتها فالله عليم كريم وحكيم فلا تستغرب أن أظهرك على شيء من الحقيقة أو أظهرك عليها فاحمده واشكره كثيراً. ولذلك فاعبده ما دمت حياً ولا تخلّ بالعبادة لحظة (إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ) الذي لا شك ولا ظن من ورائه فهو الحق الذي لا يتبدل ولا يتغير ولو كره الفاسقون والكفرة والمجرمون.

ونرى أن عين اليقين هو اليقين الذي لا لبس فيه، واليقين لا يظهر إلا بالحق ومن هنا فالحق يكشف ما كان غائبا حتى ينكشف الغطاء وتبرز الحقيقة ويتحول البصر إلى آلة حادة في الإبصار فيري الإنسان ما لم يكن قادرا على رؤيته من قبل، وحتى نبسط الأمر أكثر من ذلك نعود إلى قول الله الحق في كتابه الحق الذي يقول فيه: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} ١٩٣.

قال تعالى: (لقد كنت في غفلة من هذا) الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقيقة الأمور و سهو يعتريه من قلة التحفظ والتيقظ، والمعنى يقال له يوم القيامة أو وقت النشور أو وقت العرض: لقد كنت أيها الشخص في الدنيا في غفلة من هذا اليوم وغوائله. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الغفلة من عاقبة الكفر ومن السائق والشهيد. وخطاب الكل

بذلك لأنه ما من أحد إلا وله غفلة، وقيل الخطاب للكافر وقرئ كنت بكسر التاء على اعتبار تأنيث النفس وكذا الخطابات الآتية (فكشفنا) أي أزلنا ورفعنا (عنك غطاءك) الذي كان على بصرك ولغطاء الحجاب المغطى لأمر المعاد وهو الغفلة والانهماك في المحسوسات والألفة بها وقصر النظر عليها والغطاء ما يجعل فوق الشيء من لباس ونحوه كما إن الغشاء كذلك وقد استعير للجهالة قال تعالى فكشفنا الآية. (فبصرك اليوم حديد) أي نافذ ثاقب لا ستار يحول بينه وبين ما تود النظر إليه. تبصر ما كنت تنكره وتستبعده في الدنيا لزوال المانع للإبصار ولكن لا ينفعك وهذا كقوله أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا يقال حددت السكين رقت حدها ثم يقال لكل حاذق في نفسه من حيث الخلق من حيث المعنى كالبصر والبصيرة حديد فيقال هو حديد النظر وحديد الفهم ويقال لسان حديد نحو لسان صارم وماض وذلك إذا كان يؤثر تأثير الحديد وفي الآية إشارة إلى أن الإنسان وان خلق من عالمي الغيب والشهادة فالغالب عليه في البداية الشهادة وهي العالم الحسي فيرى بالحواس الظاهرة العالم المحسوس مع اختلاف أجناسه وهو بمعزل عن إدراك عالم الغيب فمن الناس من يكشف الله غطاءه عن بصر بصيرته فيجعل بصره حديدا يبصر رشده ويحذر شره وهم المؤمنون من أهل السعادة ومنهم من يكشف الله عن بصر بصيرته يوم القيامة يوم لا ينفع نفسا إيمانها وهم الكفار من أهل الشقاوة.

ومن كلمات أمير المؤمنين على رضي الله عنه: (لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا)، يعنى إن عين اليقين الحاصل لأهل الحجاب في الآخرة حاصل لأهل الكشف في الدنيا فإنهم ترقوا من علم اليقين إلى عين اليقين في هذه الدار فطابوا وقتا فكائنهم في الجنان في الحال وكل يوم لهم يوم المزيد^{١٩٤}.

^{١٩٤} - تفسير حقي ج ١٤ ، ص ١٣٠.

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} ١٩٥.

الحق واحد لا يتغير ولا يبلى ولا يزول ولا يتعدد وهكذا الحقيقة واحدة لا تتجزأ فإن قبلت للتجزئ فلا علاقة لها بالحقيقة، ولذا ففريق الحق يصدق بالحق ولهم حسن الثواب، يقول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} ١٩٦.

يقول الله سبحانه وتعالى في فريق الحق:

{وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} ١٩٧.

ويقول في فريق الباطل: {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّكَّعِينَ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنََّّهُمْ إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} ١٩٨.

ووجهة الحق واحدة لذا نقول في القول الشائع أن الحقيقة لها وجه واحد ، ولما أراد الله أن يجمع الخلق على جهة الحق اعترض أهل الباطل بالزور والسفاهة وضيق الأفق، وهم ما زالوا إلى الآن يشككون في وجهة الحق فقد طلعت علينا إحدى الفضائيات التي تهاجم رسول الحق ودعوة الحق لتشكك في قبلة الحق وتقول هل الله في جهة واحدة أو أنه غير قادر على رؤية من يصلي له في الجهات الأخرى؟ وكأنهم لا يعلمون من الأمور أبسطها

١٩٥ التوبة ١١١.

١٩٦ النساء ١٥٠ - ١٥١.

١٩٧ النساء ١٥٢.

١٩٨ البقرة ٤٢ . ٤٦.

أن الله أراد أن يجمع الإنسانية على جهة واحدة هي جهة الحق وعلى رسول واحد هو رسول الحق، الذي بالصلاة والسلام عليه تصلي على جميع الأنبياء والرسول، أي أن الصلاة على محمد والسلام على محمد صلاة وسلام على جميع الرسل مصداقا لقوله تعالى: {أَمَنَّ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} ١٩٩ ولهذا الدين الواحد له رب واحد وجهة واحدة ورسول واحد، والله قد وصف هؤلاء ورد على أسلافهم بقوله: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَعُوفٌ رَحِيمٌ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ} ٢٠٠.

ويرد الله على أهل الكتب الخارجين عن الحق الذين يعرفون أن النبي حق وينكرون تلك الحقيقة بقوله تعالى:

{الَّذِينَ اتَّبَعُوا الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيُّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ

١٩٩ البقرة ٢٨٥.

٢٠٠ البقرة ١٤٢-١٤٥.

وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأْتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} ٢٠١.

والحق هو الحق له سبيل واحد كما قال الله على لسان النبي صلى الله عليه وسلم في الكتاب الحق: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} ٢٠٢.

الدعوة (على بصيرة) يعني على يقين ومعرفة والبصيرة هي المعرفة التي بها يتم التمييز بين الحق والباطل (أنا ومن اتبعني) من آمن بي وصدق بما جئت به أيضاً يدعو إلى الله ، ويذكر بالقرآن وقيل تم الكلام عند قوله أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ثم استأنف على بصيرة أنا ومن اتبعني بعدي أنا على بصيرة ومن اتبعني أيضاً على بصيرة قال ابن عباس إن محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا على أحسن طريقة وأفضل هداية وهم معدن العلم وكنز الإيمان وجند الرحمن.

ولقد صدق من قال:

الطرق شتى وطرق الحق مفردة والسالكون طريق الحق أفراد

لا يعرفون ولا تدري مقاصدهم فهم على مهل يمشون قصاد

والناس في غفلة عما يراد بهم فجلهم عن سبيل الحق رقاد ٢٠٣

وعلى الجملة فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق لطباعهم فإن الحق مر والوقوف عليه صعب وإدراكه شديد وطريقه مستوعر ولاسيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن

٢٠١ البقرة ١٤٦ . ١٥٣ .

٢٠٢ يوسف ١٠٨ .

٢٠٣ إحياء علوم الدين - ج ١ ، ص ٨٣ .

الأخلاق المذمومة فإن ذلك نزع للروح على الدوام، وصاحبه ينزل منزلة الشارب للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء وينزل منزلة من جعل مدة العمر صومه فهو يقاسي الشدائد ليكون فطره عند الموت^{٢٠٤}.

وصراع الحق ضد الباطل من صورته مسألة كلمة الباطل التي قال بها من أشرك بالله من أهل الكتاب واختلفوا في حقيقة سيدنا عيسى عليه السلام روح الله وكلمته التي أرسلها إلى السيدة العذراء عليها السلام: لا يوضح الحق ويظهره في هذه القضية إلا كتاب الله وسنختار منه آيات على سبيل المثال لا الحصر فيقول وهو أصدق القائلين:

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فَاَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ

^{٢٠٤} إحياء علوم الدين - ج ١ ، ص ٨٤.

وَلِيِّ الْمُؤْمِنِينَ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ {٢٠٥}

ويقول الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {٢٠٦}.

أما موقف الذين آمنوا منهم فلسان حالهم يقول كما أخبرنا الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأْتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ {٢٠٧}.

اللهم ثبتنا على الحق وقونا بالحق واجعلنا من أهل الحق وعلى دين الحق ونقول كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم

"يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك" قالوا أو تخاف يا رسول الله؟ قال "وما يؤمنني والقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقبله كيف يشاء" {٢٠٨}.

٢٠٥ - آل عمران ٥٣-٧٠.

٢٠٦ آل عمران ٧١-٧٧.

٢٠٧ المائدة ٨٣-٨٦.

٢٠٨ تخريج أحاديث الإحياء - ج ٦ ، ص ٣٠٤.

اللهم يا الحق لك الحمد كما ينبغي لك، أنت ولينا في الدنيا والآخرة توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين، اللهم إنا أمانا بكتابك الحق، وبكل ما نزل فيه، فالجنة حق، والنار حق ولقاؤك حق، فأغفر لنا يا الحق ما بدر منا من الذنوب والزلل والخطأ والتقصير والعصيان، وألهمنا الحق الذي ينقلنا لطاعتك ومحبتك ورضاك، نحن آمانا بك، أنت ربنا مالنا رب سواك يرحمنا ويغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا، وما أسررنا وما أعلننا، اللهم يا الحق نور بصائرنا بالحق فلا نرى فيها إلا رحمتك ومغفرتك وكرمك وعطفك، فنحن الفقراء وأنت الغني، ونحن الضعفاء وأنت القوي، تباركت وتعاليت يا الحق، يا محق الحق ومزهق للباطل، اللهم إن رسولك محمد حق عليه نصلي ونسلم كما صليت يا حق على سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

الوكيل

الحمد لله مدبر الملك والملكوت، المنفرد بالعزة والجبروت. رافع السماء بغير عماد، المقدر فيها أرزاق العباد. الذي صرف أعين ذوي القلوب والألباب عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب، ورفع همهم عن الالتفات إلى ما عداه والاعتماد على مدبر سواه، فلم يعبدوا إلا إياه علماً بأنه الواحد الفرد الصمد الإله، وتحقيقاً بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا يبتغي عندهم الرزق، وأنه ما من ذرة إلا إلى الله خلقها، وما من دابة إلا على الله رزقها؛ فلما تحققوا أنه الرازق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا عليه فقالوا: {حسبنا الله ونعم الوكيل} ^{٢٠٩}.

الْوَكِيلُ "هُوَ الْمُوَكَّلُ وَالْمُفَوَّضُ إِلَيْهِ" ^{٢١٠}.

الوكيل بالمطلق هو الموكل إليه الأمور بالمطلق ^{٢١١}.

^{٢٠٩} - آل عمران ١٧٣

^{٢١٠} الأسماء والصفات للبيهقي، ج ١، ص ٢١٢.

^{٢١١} المقصد الأسنى، ج ١، ص ١٢٩.

الوكيل هو "المتولي لتدبير خلقه، بعلمه، وكمال قدرته، وشمول حكمته. الذي تولى أوليائه، فيسرهم لليسرى، وجنبهم العسرى وكفاهم الأمور. فمن اتخذه وكيلاً كفاه"^{٢١٢}

الْوَكِيلُ الْكَفِيلُ وَنِعْمَ الْكَفِيلُ بِأَرْزَاقِنَا، وَ(حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) كَافِيْنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْكَافِي كَقَوْلِكَ رَازِقِنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الرَّازِقُ، وَالْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ كَافِلٌ رِزْقَهُ وَأَمْرَهُ فَيَرْكَنُ إِلَيْهِ وَحَدَهُ وَلَا يَتَوَكَّلُ عَلَى غَيْرِهِ، وَقَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ: وَكَلَّ بِاللَّهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَاتَّكَلَّ اسْتَسَلَّمَ إِلَيْهِ^{٢١٣}.

فأول ما يقع في نفس المتأمل لهذا الاسم أنه من أسماء الكمال التي تحوي الجمال والجلال الإلهيين في الذات والصفات والأفعال.

فمن الجمال:

الوكيل رحيم بمن وكل أمورهم، حافظ لمصالحهم، دؤوب على راحتهم، مدافع عن لجأ إليه، يحلُّ محل الجميع ولا يحلُّ محله أحد.

ومن الجلال:

الوكيل يكفي من انتصر به فلذلك يقول المتوكل عليه عند الشدائد كما قال من أقيم الدين على أكتافهم: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}^{٢١٤}.

فماذا تغني قوة العالم أمام قوة من انتصر به وتوكل عليه؟.

والله الذي لا إله غيره لا تقدم ولا تؤخر قيد أنملة، لأنه يملك جنودا لا حصر لها في العدد، ولا وصف لها في القوة، فليجمع الناس ليرهبوا المتوكل على الوكيل، وما على المتوكل على الوكيل المطلق إلا أن يقول: "حسبي الله ونعم الوكيل" نعم أنا المتوكل عليه، الآخذ بأسبابه، المنتصر باعتماذي عليه، لا يخيفني جموع أهل الباطل من مفسدين حاقدين، ولا

^{٢١٢} شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج ١، ص ٨٨.

^{٢١٣} لسان العرب - ج ١١، ص ٧٣٤

^{٢١٤} السابق، ص ٧٣٤.

يرعيني عددهم، فعددهم بدد، وجند ربي لي مدد {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} ٢١٥.

فمن اعتمد عليه أعزه ومن اتخذه وكيلا نصره، فجنوده يملؤون الزمان والمكان، وهو القوي العزيز الذي لا يحتاج لجنود ينصرونه، ولكن على سبيل طمأنة المتوكل عليه حتى لا يدخل قلبه أقل من ذرة شك من أن الوكيل يتركه لتوهم أن الوكيل ينسأه فهو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادون إيماناً بأنه الوكيل ولا يرتابون ولا يقع في قلوبهم الخشية من قوة الظلم مهما أعدّ لأنه ضعيف بتدبيره وعاجز في تفكيره ومهما جمع فهو قليل بجمعه ذليل بما يتوهم أن فيه العز قال تعالى: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} ٢١٦، فتعالوا يا أهل الذل الذين جمعتهم لأهل العز، أجيئوا علينا:

- هل تعلمون عددا لجنود الوكيل؟.

- هل تعلمون مقدارا لقوة جند الوكيل؟.

- هل لديكم عزة الوكيل التي يهبها للمتوكل عليه؟.

- هل لديكم القدرة في الجمع بين العزة والحكمة كما هو الحال فيمن نتوكل عليه (وكان الله عزيزا حكيما)؟.

إن إجابتكم بالقطع ستكون بالنفي: لا نعم ... لا نعم ... لا نعم.

أما نحن المتوكلين عليه فنعلم عدد جنوده، فهي فوق العد وخارج حدود الإحصاء، لذا فنحن مطمئنون بتوكلنا عليه ونعلم أن جنود ربنا لا يعلم عددها إلا هو. {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} ٢١٧.

٢١٥ -الفتح ٧.

٢١٦ لسان العرب، ج ١١، ص ٧٣٥.

٢١٧ المدثر ٣١

وجند ربنا الوكيل قد ترى، وقد لا ترى فهي متعلقة بقوة الله الذي لا تتركه الأبصار ولا تحيط بقدرته البصائر، فمن جنده المدركة بصرا الريح قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا^{٢١٨}

ومن غير المشاهدة:

{وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا}^{٢١٩}.

فالريح تحس ويرى أثرها في إطفاء النار أو انتشارها أو في نقل السحاب أو تفرقه وفي نقل اللقاح للثمار أو في خلع الأشجار وهدم البنايات أو في تحريك السفن أو في إغراقها، فهي جنود مطيعة تفعل ما تؤمر فهي للسلام والتعمير وقد ذكرها الله في كتابه فقال: {فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ}^{٢٢٠}.

فالريح الرخاء من جند الله لنشر الخير ولجلب المسرة في النفوس بم تتركه من أثر طيب لدى المستفيد منها.

وقد تكون ريح ساكنة ولكنها مدمرة فتمنع حركة السفن في البحار وتجعل الموج راكدا، فهل من محرك لها من دون الله؟ قال تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}^{٢٢١} فجند الله جند مستعدون لأداء ما يطلب منهم في أي وقت وبأي كيفية وفي أي مكان في الأرض والبحر والجو لأنه سبحانه المهيم على ملكه الحافظ لمن يتوكل عليه بتسخير جنوده له كيفما شاء.

ومع فرضية إمكانية النجاة من الريح العاصف والوصول على البر، فهل النجاة في البر مضمونة؟! بالتأكيد لا، لأن من يملك الريح في البحر يملك الريح في البر فيرسلها إلى البر فيحدث التصدعات فيهلك من على البر أو يرميهم بريح حاصب ترميهم بالحصباء أي بالحجارة، فبالله هل ينفع معها مصدات للريح؟ أو مضادات للحجارة؟ سؤال إجابته كسابقه!!

^{٢١٨}الأحزاب ٩.

^{٢١٩}الأحزاب ٩.

^{٢٢٠}ص، ٣٦.

^{٢٢١}الشورى ٣٣.

فهل يفهم من استخلف في الأرض؟ ويتوجه قلبا وقالبا للوكيل فيتوكل عليه وينطلق في ركب الخلافة فيكون خليفة الله متوكلا عليه، أو سيقف متكاسلا خذولا لا يأخذ بالمبادرة في الحفاظ على دوره في خلافة الله وتعمير الأرض ومحاربة المفسدين مستعينا بالوكيل الذي عنده جنود السموات والأرض والبحر وما غاب عنا أكثر.

وعليه فالوكيل: هو من يتولى الأمر، وهو من يرجع الأمر إليه، وهو من يتوكل بأمر من يوليه أمره رعاية وعناية وحسن عاقبة.

والوكيل هو دائما وكيل أمر ووكيل حال، أي وكيل للرعاية والعناية الكاملة، وكذلك وكيل حسن تصرف وفقا لكل حالة وحال ووفقا لكل مكان وزمان سبحانه إنه الملك المتعال جل جلاله.

فمن يقف أمام حركة الكون الطبيعية لا يملك إلا أن يتقهقر وينزوي ويذوب ويذهب أثره، وهذا لا محالة حال من يفسد في الأرض الذي ضلت دعوته وضاعت كلمته وتبدد أثره فلم يجد وكيلا يتوكل عليه فتوجه داعيا للباطل من وثن وصنم، وفكر فاسد لا يضر ولا ينفع، مع العلم الذي لا يرقى إليه شك أن المنجي هو الله الذي ينجيهم برحمته إلى البر قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُكُمْ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيْنَا بِهِ تَبِيْعًا} ٢٢٢ وعند النجاة إلى البر هل يتحقق الأمن من خسف؟ أو من ريح حاصب؟ أو الانتصار بأي وكيل غير الله؟.

فلا منجي إلا الله ولا وكيل بحق غير الله فهو ينصر من ينصره ويتكفل بمن ألقى إليه همّه وألجأ إليه ظهره فهو بحق نعم الوكيل.

ومن جند الله الريح العقيم التي لا تبقي على شيء إلا وجعلته كالريم الذي لا حياة فيه سيء الشكل كريه الرائحة وقد سخر إليه هذا الجند على قوم من الظالمين وهي في خزائن ملكه في

كتائب جنده تعمل بأمره وتدمر بحكمته وتتدفع بمشيئته لنصرة من يتوكل عليه ولناخذ العبرة من قوم عاد ولنستلهم العظة من قوم تركوا حقهم في الخلافة معتمدين على قوة واهية وجند مغلوبين لا محالة لأنهم وقفوا ضد حركة الكون وإرادة الله في تحقيق الخلافة على الأرض قال تعالى: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ} ٢٢٣ وما تزال الريح العقيم موجودة لا يمنعها إلا رحمته، وهي من أدوات الوكيل لنصرة المتوكل عليه.

وحتى لا نطيل على المتتبع لتجليات الاسم الوكيل نقول إن الوكيل يكفي عبده المتوكل عليه من كل معلوم ومجهول وصدق الله في قوله: {الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ} ٢٢٤ بلى الله كاف عبده في أي وقت، فهو قد كفى آدم عليه الصلاة والسلام وذريته من الخلفاء الذين تحققت فيهم الخلافة وأرادوا الإصلاح في الأرض من إبليس ووعيده بأنه سيحتنك آدم وذريته فيدمرهم ويهلكهم ويقودهم إلى الهلاك وذلك لأن الله قد اختار آدم عليه الصلاة والسلام للخلافة ومن توفرت فيه شروطها من ذريته وأول ما كان من أمر ذلك الاختيار السجود لآدم طاعة لأمر الله وتكريما للخليفة، فكان طاعة ومعصية، طاعة من المجبولين على الطاعة، ومعصية لمن حقت عليه اللعنة فهدد وتوعد قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا} ٢٢٥ ولكن الله الوكيل من تكفل بآدم وبحقه في الخلافة لم يترك مكفوله فصرف عنه الشر متمثلا في إبليس ومن سار على نهجه، وأنذره بجند من جند الله، أنذره بالنار التي سيكون لكل معترض على الخلافة والخليفة نصيب وافر من عذابها فقال سبحانه وتعالى: {قَالَ أَذْهَبُ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَقْرَزُ مِنْ

٢٢٣ الذاريات، ٤١ - ٤٢

٢٢٤ الزمر ٣٥.

٢٢٥ الإسراء ٦١، ٦٢

اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} ٢٢٦.

فالغرور من الشيطان الذي يعد المغبون الملعون بسلب الخليفة حقه ومن يدفع طريد الهداية المتسريل بالضلال المحتمي بالظلم المستتير بالظلام للفساد في الأرض التي أصلحها الله كرما منه لبني آدم فقال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} ٢٢٧ فضل الله بني آدم بالخلافة في الأرض على الجن والملائكة الذين كانوا في حضرة السجود وفضلهم على الملعون الذي طرده من رحمة الله غروره وصلفه، وكرمهم بأن تكفل ووكل أمرهم ومنحهم شرف عبادته وكفاهم من سلطان الشر والفساد فقال الله تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا} ٢٢٨.

فلا مجال للوصول بشر إلى أهل الخلافة لأنه لا سلطان لأحد عليهم لأنهم قد آثروا الحق على الباطل والعمار على الفساد والخير على الشر وهؤلاء خلاصة العباد أخلصهم لنفسه ووكل أمرهم واستثناهم دون بني آدم فقال سبحانه وتعالى: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ} ٢٢٩.

ومن عباد الله المخلصين الأنبياء والصالحين والأولياء ومن كانوا في خفاء برحمة الله فلا يعلمهم إلا الله مثلهم كمثل اللؤلؤ في الأصداف لا يُعْرَفُونَ والله يعرفهم. وعباد الله المخلصون قد آمنوا بالذكر فذكروا وأخلصوا فأخلصوا وانتصروا به فانتصروا وغالبوا له فغلبوا به، فوكل الله أمرهم وكفاهم، أما من تركوا وكالته وابتعدوا عن ذكره فكفروا

٢٢٦ الإسراء ٦٣، ٦٤

٢٢٧ الإسراء ٧٠

٢٢٨ الإسراء ٦٥

٢٢٩ الحجر ٣٩-٤٣

وسوف يعلمون عاقبة كفرهم، مع نفاذ إرادة الله في نصر من توكل عليه، وغلبة من اعتمد على أسبابه، ويوضح السياق القرآني هذا في قول الله تعالى في بيان حال المبعدين والمخلصين قال تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾^{٢٣٠}.

فالمبعدون يتمنون لو أن لهم ذكر من الأولين الذين أخلصهم الله، ولكنهم لما اتاهم الذكر كفروا به وشككوا في آيات الله، وهم لا يخفون على الله الذي يعلم ما تخفي الصدور وما تصدر وما يهمس الخاطر وما يهمهم اللسان فهو العليم البصير، وجزاء هؤلاء المبعدين نار جهنم فلا يجدون أمنا لأن الأمن للمؤمنين الذين آمنوا فأمنوا مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^{٢٣١}.

والمخلصون آمنوا بالذكر وبرسل الله عليهم الصلاة والسلام فكفاهم الله ونصرهم وأمدهم بجنده وجنده منصورون لأن مددهم من العزيز الغالب.

ومما تقدم نقول بفضل الله وتوفيقه إن اسم الله الوكيل له معان عدة منها:-

الأول: المقيم على شئون الخلق.

الثاني: الكفيل برزق العباد.

الثالث: حفيظ لخلقه بتقدير أمر محياهم ومماتهم وبعثهم ونشورهم وحسابهم.

الرابع: الكافي الذي يكفي عباده هم الدنيا وما فيها وهم الآخرة وما خفي منها بما لا

يعلمه إلا هو.

الخامس: الرب صاحب المالك الذي لا يملك أمر خلقه أحد سواه.

^{٢٣٠} الصافات ١٦٨ - ١٧٢

^{٢٣١} فصلت ٤١، ٤٢

والوكيل بالإضافة وهو ما نبحت فيه ونبذل جهدنا لاستجلاء دور الخليفة لله من خلال التخلق بأسمائه فيأتي بمعنى (المتوكل) الذي يأخذ بالأسباب متوكلا على ربه خالقه وخالقها، والمتوكل في الجانب المشرق أو في الجانب الفاعل الإيجابي. والمتواكل الكسول الذي غرته الأمانى فأخذ إلى الهوى ومال عن طريق الحق ففقد نصيبه في الخلافة، هذا المتخاذل في الجانب المظلم الفاسد السلبي.

وسنربط بين الاسم الوكيل وما ورد فيه من معان بين دفتي كتب اللغة والتراث وبين الطرح الذي ننطلق منه وهو تحديد العلاقة بين الاسم والخليفة، وبين الاسم ومن تنازل عن حقه في الخلافة.

أولاً:

في أسماء الله تعالى الوكيل ما ورد في كتب اللغة وهو:

- "المقيم الكفيل بأرزاق العباد وحقيقته أنه يستقلُّ بأمر الموكول إليه وفي التنزيل العزيز: {أَنْ لَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً} ٢٣٢ قال الفراء: يقال: "رَبًّا" ويقال: "كافياً" ٢٣٣. ومن تجلي الله الوكيل إنه مقيم أي قائم على شئون خلقه ومن مظاهر هذا التجلي الآتي:

- ١- أنه القائم على شئون العباد في أحوالهم كافة برعايته لهم في كل زمان ومكان.
- ٢- هو الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، لأنه لو أخذته السنة أو النوم لما كان مقيماً. ومن لا تأخذه سنة ولا نوم فهو المقيم، ومن تأخذه السنة والنوم فليس بمقيم سبحانه جل جلاله.
- ٣- والمقيم هو المدبر لأمر الخلق بالتساوي في وقت واحد.
- ٤- والمقيم هو الذي يضع من يشاء على الطريق القويم الذي لا عوج فيه.
- ٥- والمقيم هو القائم على كل نفس بما كسبت مصداقاً لقوله تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِيْظَاهِرٍ

٢٣٢ الإسراء ٢.

٢٣٣ لسان العرب، ج ١١، ص ٧٣٤

مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ لَهُمْ
عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ{^{٢٣٤}.

الثاني:

- و الوَكِيلُ الحافظ^{٢٣٥}.

الثالث:

-والوَكِيلُ في صفة الله تعالى الذي تَوَكَّلَ بالقيام بجميع ما خَلَقَ^{٢٣٦}.

الرابع:

- و الوَكِيلُ الكفيل ونِعَمَ الكَفِيلِ بِأَرْزَاقِنَا^{٢٣٧}.

و في قولهم: (حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ): كَافِينَا اللهُ وَنِعْمَ الكَافِي كَقَوْلِكَ رَازِقِنَا اللهُ وَنِعْمَ الرَّازِقِ
الوَكِيلِ بِمَعْنَى الرَّبِّ^{٢٣٨}.

وأول ما يلقانا من معان أن الوكيل مقيم على شؤون الخلق لذا سنطلق العنان في البحث
والتفكر في هذا المعنى، فالوكيل المقيم لأنه:

١-الملازم على فعل الشيء بانتظام دون خلل ولا كلل ولا ملل.

ومن أمثلة الانتظام دون كلل أو ملل:

- سقوط المطر في مواسمه إلا إذا منعه الله فهو جند من جنده يُسْتَعْدَمُ رحمة وعذابا ثوابا
وعقابا. {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا
لَكُمْ}{^{٢٣٩}.

^{٢٣٤} الرعد ٣٢ - ٣٤

^{٢٣٥} لسان العرب، ج ١١، ص ٧٣٤

^{٢٣٦} لسان العرب، ج ١١، ص ٧٣٤

^{٢٣٧} لسان العرب، ج ١١، ص ٧٣٤

^{٢٣٨} لسان العرب، ج ١١، ص ٧٣٤

^{٢٣٩} إبراهيم ٣٢.

- تسخير الفلك التي تجري في البحر بأمره وبقدرته ولا يجريها إلا جند من جنوده (الريح)، فإذا وثب علينا من يقول: أن هناك المحركات والنفط والطاقة النووية والشمسية فلا حاجة للريح الآن، نقول له وبكل بساطة أيها الظالم لنفسه المغرور بعقله الضال بعلمه إن ما تقول هو من جند الله وقد منحك العقل لتسخيره فلا تدفع بنفسك إلى الهلاك كمن قال: {إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي} ^{٢٤٠}، لا فهو الذي سخر الفلك والأدوات التي تجريها في كل زمان ومكان {وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِنَّ يَدِيهِ} ^{٢٤١} ويا لروعة النص الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فيعقب قضية تسخير حركة الفلك بحركة الزمن الذي يعلم من الشمس والقمر.

- تسخير الشمس والقمر بصفة مستمرة لا يعثرها خلل أو اضطراب فقال الله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} ^{٢٤٢}.
فلأنه الوكيل الذي إليه أمور الخلق فقد خلق السموات والأرض بالحق لكي يستفيد منها الخليفة في تحقيق الخلافة، وهذه الاستفادة لا بد لها من أدوات تساعد على تيسيرها لذا فقد حفظ ماء الحياة في السموات وينزله بقدر موزون في الوقت الذي يراه مفيدا لخلقه دون تمييز إلا إذا أراد من ذلك الماء أن يغير وظيفته من النفع إلى الضرر لحكمة يعلمها هو عز وجل.

وفي حالتنا هذه فهو الذي ينزل ماء السماء لإخراج كنوز الأرض الزراعية من ثمار وحبوب رزقا لجميع الخلق، وحتى تعم الفائدة سخر الفلك لنقل هذه الثمار من مكان إلى آخر، كما سخر الماء بنوعيه المالح والعذب لمهمة النقل: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ) نعم تجري بأمره هو لا بأمرنا نحن لأنه لو أراد أن يعطل حركة الفلك

^{٢٤٠} القصص ٧٨

^{٢٤١} إبراهيم ٣٢.

^{٢٤٢} إبراهيم، ٣٢، ٣٣

لأوقف الريح التي تسيره ولأوقف الحركة التي أمرها بالمطلق بيده سبحانه لا إله إلا هو مالك الأمر والملك.

والله خلق الأرض وما فيها لغرض تحقيق الخلافة وقد تكفل بنعيم مقيم للذين يتوكلون عليه فلا ينظرون إلى متاع زائل يمنعهم من أداء دورهم السامي وهذا النعيم لا ينفد ولا يزول قد أعده الله للذين على ربهم يتوكلون، والذين على ربهم يتوكلون هم المعتدون عليه في حركتهم وسكونهم وفي صحوتهم ومنامهم وفي حياتهم ومماتهم وفي بعثهم يوم يبعثون، وينبه الله المنوط بهم أمر الخلافة إلى أن متاع الحياة الدنيا لا قيمة له لذا لم يعقبه بوصف مثل الغرور أو لقليل لأنه أقل من أن يوصف في مقابل نعيم الله فيقول الله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ٢٤٣﴾.

والله الوكيل القدرة المطلقة على خلقه لأنه قائم وكيل على مصالحهم:

- فهو سبحانه الذي خلق السموات والأرض.

- خلق الخلق في الأرض ونشرهم في عموم الأرض ولا يفعل ذلك إلا القائم على شؤون الخلق المتصرف في أمورهم الوكيل عليهم بهيئته على السموات وما فيها والأرض وما عليها وما تحويه في باطنها.

- ما يصيب الإنسان من ضرر على الأرض إنما هو من صنع يديه ومن فساده هو ومن كسب يديه لا من النظام الذي وضعه القائم على الخلق الوكيل عليهم وصدق الله إذ يقول: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٢٤٤﴾.

٢٤٣ الشورى ٣٦ - ٣٩

٢٤٤ ٤١ الروم

فتقب الأوزون وارتفاع حرارة الأرض والأعاصير والجفاف والجذب وانتشار أمراض ما عرفت من قبل وغير ذلك الكثير والكثير يمكن رده وبسهولة إلى ما كسبت الأيدي الشريرة الآثمة في تدخلها بالفساد في الأرض وهذا الفساد هو محك السؤال الذي سألته الملائكة لله سبحانه وتعالى وهو سؤال لاشك للاستفسار لا للاستنكار قال تعالى: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ٢٤٥، فالله حين قال: (إذ قال ربك إني جاعل في الأرض خليفة) فالخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي به ختمت الرسالات وفي رسالته أجمع بلاغ للناس وأوضح بيان، والخطاب فحواه تبليغ الثقلين والملائكة الكرام، بحقيقة الخلافة وهي جعل خليفة في الأرض يخلف الله في تنفيذ أحكامه من أمر بمعروف ونهي عن منكر وإصلاح في الأرض والأخذ على يد كل مفسد وإن كان المفسد من ذرية الخليفة الأول آدم عليه الصلاة والسلام وذلك لأن المفسد قد تنازل عن حقه في الخلافة ببعده عن منهج الحق وتخليه عن الوكالة التي أنيطت به ليؤديها. والهدف من الخلافة تنفيذ أحكام الله في الأرض وبهذا يكون الوكيل بالإضافة أو المتوكل على الله الوكيل المطلق، وبيان ذلك أنه إذا أخذ منه حق أو قهر من ظالم بالاعتداء أو بالحيلة أو بشهادة الزور فماذا يصنع؟.

يتوجه إلى الله بالدعاء بأن يبسر له أخذ حقه، ثم يتوجه للخليفة ليساعده لنيل حقه فإن أعانه ذلك المسؤول فقد حقق الخلافة أما إن أهمله ولم يعنه لأخذ حقه فقد تنازل عن حقه في الخلافة، ومرد كلامنا هذا إلى القول الفصل كلام الله تعالى إذ يوضح تلك القضية مع نبي الله داود عليه الصلاة والسلام فيقول تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} ٢٤٦.

٢٤٥ البقرة ٣٠

٢٤٦ ص ، ٢٦ .

يا داود (إنا جعلناك خليفة في الأرض) الخلافة هنا نيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف والمنوب عنه حاضر لا يغيب يختبر ويبتلى الخليفة، وهو حي لا يموت دائم دواما سرمديا قديماً أزلياً، قادر مقدر لا يعجزه شيء، وعلى هذا فيكون الوكيل المطلق الذي لا يغيب ولا يموت ولا يعجز عن فعل شيء يكون وكيلا على غائب وميت وعاجز وهذا الإطلاق لله، والإضافة للخليفة وعلى هذا الرأي الذي نركن إليه استخلف الله أوليائه في الأرض فالخليفة ينفذ الحكم الإلهي وهو من كان متبعا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وسنته. والاستخلاف على الملك في الأرض والحكم فيما بين أهلها بم أمر الله وفق إرادته التي خلق الناس لها.

فالخلافة الحقيقية ليست كسباً للإنسان وإنما هي هبة من الله يؤتيها من يشاء كما قال تعالى: (إنا جعلناك خليفة) والجعل هبة وعطاء لا كسباً وعملاً.

- إن استعداد الخلافة مخصوص بالإنسان كما قال تعالى: (وجعلكم خلائف الأرض) ولا يصل إليها إلا المتوكل على الله الآخذ بأسباب الخلافة.

وعلى ذلك فقدرة الله المطلقة تحيط بمن يتوكل عليه تشمله وتكفله وترعاه ولا يستطيع أي خارج عن منهج الله أن يفر أو يخرج عن إرادته لا بالجدل أو بالفرار، وهنا نعود لما استشهدنا به من قول الله تعالى في المتاع الذي لا قيمة له والمتاع المقيم الدائم، لنستبين صفات من صفات المتوكلين على ربهم، فما ملك الناس في الدنيا فهو متاع زائل لأن المتاع الحقيقي يكمن في طاعة الله في الدنيا والفوز برضاه في الآخرة وهذا الفوز خير وأبقى ولا ينال هذا النعيم المقيم إلا المتوكلون على الله فيقول الله تعالى: {وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} ٢٤٧.

وهؤلاء المتوكلون من صفاتهم:

- (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ).

- (وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ).

- (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ).

- (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ).

- (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ).

- (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ).

- (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ).

ولأن هذه صفات المتوكل فهو "يعلم أن الله كافل رزقه وأمره فيزكّن إليه وحده ولا يتوكل على غيره"^{٢٤٨}. وهنا ننتقل إلى الجزئية التالية التي صدرنا بها البحث في الاسم الوكيل.

المعنى الثاني:

- إن الله وحده الوكيل الذي تكفل برزق العباد.

فهو وكيل وكفيل وضامن لرزق من يتقيه في حركاته وسكناته وأنفاسه وخواطره ونيته وسره وجهه، فيجعل مخرجاً للنقي من كل ضيق وفرجاً من كل كرب، ويسرا من كل عسر، ويكفيه كفاية شمولية تبلغ به إلى ما أراد الله من تنفيذ أمر واجتناب نهْي، ولأن التوكل عمل وجهد يعقبه رزق وكفاية فقد جعل الله لكل شيء سبباً دفعا لعباده المتوكلين عليه للأخذ بالأسباب فقال الله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}^{٢٤٩}.

ومنهج الله شمل الزمان والمكان على العموم والإطلاق، فبالإضافة إلى السياق الأول لنزول الآية نقول:

إن المتوكل على الله هو الذي يتقي الله في السر والعلن ويكون جزاء ذلك:

^{٢٤٨} لسان العرب، ج ١١، ص ٧٣٤

^{٢٤٩} الطلاق ٢-٣

- (يَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) ومسألة الرزق واسعة، فمن الرزق ما هو مادي وما هو معنوي، والمادي كما في قوله تعالى:

قال الله تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} ^{٢٥٠}، فرزق الدنيا المادي بالعمل والسعي ورزق الآخرة برحمة الله تعالى وهذا الرزق يشبه رزق الدنيا في الاسم لا في الجوهر والحقيقة.

وعلى سبيل المثال قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} ^{٢٥١}.

ودخول الجنة برحمة الله للذين آمنوا وكانوا على ربهم يتوكلون ومن التوكل الأخذ بالأسباب بالعمل الصالح من صلاة وصيام وإنفاق في سبيله بالقول والفعل وبذل النفس لإحقاق الحق وإزهاق الباطل ونشر العدل والسلام والمساواة بين الناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأديانهم، ولأن المؤمن قد أخذ بأسباب التوكل فقد نال ما لم ينله المتوكل.

المتوكل: هو الذي غرته الدنيا ونعيمها الزائل فقد أخذ إلى هواه واعتقد من وهمه وضلاله أن الله كما أنعم عليه في الدنيا سينعم عليه في الآخرة وقد تناسى أنه قد فشل في اختبار الخلافة وتنازل عن حقه فيها وهذا هو لب القضية التي خلق من أجلها الإنسان، فيقول ذلك المغرور كما اخبرنا الله جلت قدرته في كتابه: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ آتَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا وَنَرِيهِ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا} ^{٢٥٢} فالذي كفر بآيات الله ومنها البعث يعتقد أنه سينال الآخرة بما ناله في الدنيا فاغتر بماله وولده ولم يأخذ بأسباب النعيم الدائم فضاع منه شرف الأخذ بأسباب الخلافة في الدنيا وشرف الفوز بثواب الله عنها في الآخرة، "وقد نزلت الآية في العاص بن

^{٢٥٠} البقرة ٢٥٠.

^{٢٥١} محمد، ١٢.

^{٢٥٢} مرق، ٧٧-٨٠.

وائلٍ وكان لخبّابِ بنِ الأرتِّ عليه مالٌ فاقتضاه فقال: لا حتى تكفرَ بمحمد، قال: لا والله لا أكفرُ به حياً ولا ميتاً ولا حين بُعثتُ، قال: فإذا بُعثَ جنني فيكونُ لي ثمةً مالٌ وولدٌ فأعطيك^{٢٥٣}. فهذا العاص قد اعتمد على ماله وولده ووكل أمره لهما وهما ليسا له بل عليه لأنهما ابتلاء واختبار، فليعرف من أراد الخلافة هذا فإن المال والولد سببان لشكر الله وتنفيذ منهجه لا للكفر ومعاداة أوليائه وخلفائه الذين يصلحون في الأرض معتمدين عليه آخذين بالأسباب ذاتها لتحقيق الخلافة المثلى على الأرض، ومثل آخر ضربه الله في كتابه للمؤمن الذي يتوكل على الله وينتصر به، والكافر الذي يعتمد على الهوى والغرور ولا ينتصر بالله لأنه لم يتخذه وكيلاً قال الله تعالى: لَوْ اضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كَلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا^{٢٥٤}.

فرجل مغرور بماله قد أعطاه الله له للاختبار فكفر بربه وظن ظن السوء بأنه لن يزول ناسياً قدرة الله عليه وأنه خلقه من نطفة لا قيمة لها وسواه رجلاً ليعرف طريق الهداية ولكنه ضل بمال ليس له وبقوة ليست منه وغرته أوهامه بأنه سينال عند الله ما ناله في الدنيا بالرغم من صلفه وعنته وكفوره، فهذا حال من أحوال المتواكل المغرور بالقوة الفانية من مال وولد، أما المؤمن المتوكل على الله فقد أيقن أن الله هو الرازق المانح الكفيل بأن ينعم في الآخرة كما أنعم في الدنيا إن شكر الإنسان وأقر بأن المنعم المتفضل هو الله، فلا يكفر الخليفة بربه ويرد ما لديه من قوة إلى المصدر الأول لها ولا يغتر ولا يفتخر ولا يتعالى بل يزداد توكلاً على الله سبحانه وتعالى.

^{٢٥٣} تفسير أبي السعود ، ج ٤ ، ص ٣٢٨

^{٢٥٤} الكهف ٣٢ . ٣٨ .

وفي الحقيقة فإن الكافر لا متعة له لأنه يتمتع متعة حيوانية مثل الأنعام وهو بذلك قد اختار متعة زائلة عن نعيم مقيم يقول الله تعالى:

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَمْتَحُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} ٢٥٥ .

وما أشد الفرق بين المؤمن والكافر، بين المتوكل والمتوكل، بين الذي على بينة من ربه وهدى ونور وبين الذي على الضلال واتبع سوء عمله مصداقا لقوله تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} ٢٥٦ .

فالذي على الهدى هو الذي أخذ بأسباب الهداية وعمل للنعيم المقيم وتوكل على الله فجزاه الله برحمته النعيم الدائم الذي لا يحول ولا يزول وقد ضرب الله لذلك النعيم مثلا على سبيل التقريب لا على سبيل الوصف المماثل، ثم أردف بالتعجب من حال الكافر الذي سيخلد في النار ولا يشرب إلا الماء الحميم الذي يقطع الأمعاء، فقال عز وجل: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} ٢٥٧

وما سبق من أمثلة الرزق المادي والمعنوي الذي يرزقه الله للمتوكل، ويغتر به المتوكل الذي يسعى للمتعة الحيوانية ولا يأخذ بأسباب الرزق الحقيقي الذي يحفظ الجسم للتعمير والإصلاح ويسمو بالروح إلى المأ الأعلى، وهذا ما يسعى له الخليفة السمو بالروح والسمو بالجنس الإنساني من البهيمية الحيوانية إلى الروحانية المتمثلة في أن يكون خليفة في الأرض ولا فض الله فاه القائل:

إني أسوم الروح إلى مأل علا غيري يسوق بهيمة الأنعام ٢٥٨ .

٢٥٥ - محمد ، ١٢

٢٥٦ محمد ، ١٤

٢٥٧ - محمد ، ١٥

٢٥٨ ديوان الإمام فخر الدين البر هاني، ص٧٦

فالخليفة هدفه السمو بالروح إلى المعاني السامية والأغراض النبيلة وممالا شك فيه أن من تلك المعاني السامية والأغراض النبيلة تحقيق الخلافة من تعمير وإصلاح وبناء وتعليم وزراعة وكفاية لحقوق من كرمهم الله وأراد أن يكونوا خلفاء وهذا من الرزق المادي الذي يعد أساساً من أسس السمو بالروح.

وغير الخليفة من الذين يتمتعون ويلهون متعة بهيمية ويلهون لهوا حيوانيا يسوقون أجسادهم لمتع زائلة كما تساق البهائم من الأنعام.

و الرزق المادي في الدنيا غير مرفوض ولا يُنهي عن الأخذ بأسباب استخراجها ولكن المهم في كيفية الانتفاع به واستخدامه وهذا دور الخليفة الذي يدعو إلى أخذ الأسباب من توكل على الله والعمل والكد باستخراج ما في الأرض من خيرات.

ومن التوكل على الله الجمع بين الصبر والتوكل فيكون ضمان الرزق من الله قال تعالى: {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} ٢٥٩.

فقد ذكر الله الصبر والتوكل وفي الأمرين استغراق للزمن الماضي والحاضر والمستقبل، فالماضي لا ندرکه ولا قدرة لنا على استرجاعه والعمل فيه ولا يؤمر الإنسان فيه بشيء، فبقي الحاضر ويصلح معه الصبر وبقي المستقبل ويصلح معه التوكيل، ومن هنا فالخليفة يصبر على ما يصيبه من الأذى في الحاضر، ويتوكل على الله فيما يحتاج إليه في المستقبل، ولأجل ذلك علينا أن نتوقف قليلاً عند الزمن الذي يحتوي في تقسيماته الماضي والحاضر والمستقبل لنتبين الأمر، ولنتبين ذلك الأمر علينا بالتوقف عند (الآن) التي هي المكون الرابط في كل زمان.

يقول ابن سينا: (الآن) هو (دائماً وصل بين قبل وبعد، وهو قبل ما بعده، وبعد ما قبله) ٢٦٠. فالآن كالعلامة على الزمان ويشار به إلى الوقت الحاضر الذي يربط الزمنين الماضي

٢٥٩ العنكبوت، ٥٩، ٦٠

والمستقبل اللذين هما الآخرين علامتين على الزمان، والزمان متصل غير منفصل، أما الوقت الذي هو المتكون من الماضي والحاضر والمستقبل فمتجزئ بأحداثه، وعندما نقول الزمان في تشبيهه كالحبل على البكرة، فالذي تم سبجه منه أصبح في الوقت الماضي، وما هو على البكرة هو في وقت الآن، وما لم يسحب بعد يقع في الوقت المستقبل، ولهذا تجزأ الوقت ولم يتجزأ الحبل (الزمان) فالحبل متصل لأنه حبل واحد، أما الوقت فلم يكن واحداً. الآن إذاً هو الظاهر في الحاضر، والكامن في الماضي، والمتناهي في المستقبل. الآن البداية:

هو الذي لم يكن كما قال عنه ابن سينا (الآن دائماً وصل بين قبل وبعد)^{٢٦٠}، بل الآن البداية هو بداية التوأم (الزمان والحركة) فلا زمان إلا من بعده ولا حركة إلا من بعده، ولا حياة إلا من بعده، وذلك لعدم وجود ماضٍ سابق على وجوده، ولهذا الآن البداية هو دائماً بداية لما بعده.

الآن الأوسط:

هو الذي ينطبق عليه ما قاله ابن سينا بأنه (دائماً وصل بين قبل وبعد، وهو قبل ما بعده، وبعد ما قبله)، ولكن ليس بالضرورة أن يكون هو الوسط الحسابي بحيث تتعادل أطرافه، فإذا اعتبرنا الآن في هذا اليوم نقطة وصل بين الماضي من البداية، والمستقبل إلى النهاية، فهل نحن متأكدون بأن ما قضيناه من الزمان يساوي ما تبقى منه؟ الآن النهاية:

هو دائماً بعد ما قبله، وليس وصل بين قبل وبعد، فإذا كان للحجرة باب، فالآن هو المفتاح الذي أُقفلت به الحجرة. ولهذا الآن النهاية هو دائماً نهاية لما قبله. الآن الماضي:

^{٢٦٠} إبراهيم العاتي، الزمان في الفكر الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، دار المنتخب العربي، ١٩٩٣م،

ص ١٨٣.

^{٢٦١} المرجع السابق ١٨٣.

هو المستوعب للتجارب التي وقعت أو التي حدثت بموجبها وسالبتها، وهو الذي يكتمل بعد حدوث الفعل أو الانتهاء من التجربة، ويتصل مع كل حاضر بالنقطة الآن. الماضي هو الوقت الذي سجلت فيه الأحداث والأفعال والتجارب في الزمان والحركة، وهو القابل للاستدعاء كأحداث وغير قابل للاستدعاء كزمان وحركة، والسبب هو الأفعال الماضية إلى جانب كونها تسجل في الزمان والحركة، فهي أيضاً تسجل في العقول المدركة التي عندما تحاور بالأسلوب العلمي تتمكن من أن تستدعي ما سجل لديها من مخزون الماضي. أما الزمان الماضي والحركة الماضية فلا يمكن استدعاؤهما مع الأحداث الماضية إلا كمواقيت ودلائل لتسجيل الأحداث والمواقف والمواضيع والظواهر، ولذلك لا يمكن استدعاؤهما مجردين مع أنهما يتكرران وفقاً للدورة الفلكية المنتظمة. ولذلك نلاحظ تكرار الزمان والحركة، ونلاحظ اختلاف المحتوى، بمعنى أن اليوم يتكرر كل أربع وعشرين ساعة، ولكن مضمون اليوم ومحتواه قد لا يتكرر، فعلى سبيل المثال: قد نجد اليوم درجة الحرارة أكثر أو أقل من حرارة يوم أمس، أو أنها أكثر أو أقل من حرارة اليوم المماثل لهذا اليوم من العام الماضي، مع أن هذا اليوم يماثل يوم العام الماضي من حيث الزمان والحركة، ولهذا يختلف المضمون والمحتوى لكل وقت سواء من حيث الكم أو الكيف، ولكن بالنسبة إلى الحركة الذاتية والزمان الذاتي لا يختلفان بين هذا اليوم ويوم العام الماضي، فيوم ٢٣ يوليو من هذا العام لا يختلف عن يوم ٢٣ يوليو من العام الماضي، باعتباره أطول أيام السنة نهائياً، ولكن من حيث المضمون والمحتوى فقد لا يكون بينهما تماثل، وهكذا يكون يوم الفاتح من سبتمبر من هذا العام لا يختلف عن يوم الفاتح من سبتمبر من العام القادم من حيث الزمان والحركة. إذاً الماضي كأعمال لها مضمون ومحتوى يمكن استدعاؤها في الوقت الآن، والآن هو لحظة بداية ولحظة نهاية، ولهذا يقع الآن في الزمان كما يقع الزمان في الحركة، فلا حركة بدون الآن، ولا الآن بدون زمان، فالماضي لا يبدأ إلا به ولا ينتهي بغيره (بغير الآن)، وهكذا الحاضر هو الآخر بدايته الآن ونهايته الآن، وكل مستقبل لا يكون إلا به، فهو أمر البداية والنهاية، فسبحان ربي إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، ولذلك قال الله تعالى: لو وجدوا

ما عملوا حاضراً ولا يظلم ريك أحداً^{٢٦٢} فالأعمال التي وقعت في الماضي ستكون في المستقبل كما هي أمام مرتكبيها، ولهذا استدعاء الماضي ممكن، ولكن إعادة الزمان والحركة بالنسبة إلى المخلوقات غير ممكنة.

الآن المستقبل:

المستقبل هو الوقت المنتظر الذي يحتوي على الآمال وهو غير قابل للتذكر ولكنه قابل للتفكير، والتفكير لا يهتم باستدعاء المعلومات الجاهزة، بل هو المتطلع إلى ما هو متوقع، نتيجة استنتاجه واستقرائه لمضمون الماضي الذي تكمن فيه المعلومات والتجارب وتتراكم فيه الخبرة، ولذلك يستمد المستقبل تطوره وتجديده من الماضي الذي يرتبط به في الآن، ولذلك تتداخل المعلومات كما يتداخل الزمان مع الحركة، مما يجعل الحياة نسيج الأفعال في الزمان والحركة، فلا زمان بلا حركة، ولا حركة بلا زمان ولا حياة بدونهما.

المستقبل لا يحصى، وذلك لعدم تسجيله بعد في سجلات التاريخ، مع أنه مسجل كوقت في الزمان والحركة، ولهذا سيأتي بالقوة الفاعلة من خلال قوة الزمان والحركة الفلكية، فيما أن اليوم قد دخل والحركة مستمرة إلى النهاية مع الزمان، فبالضرورة سيأتي غد لا محالة، وغداً قد يكون نهاية لما سبق وقد يكون استمراراً له، وهذه بالنسبة إلينا غير معلومة مع أنها متوقعة.

المستقبل هو الذي سيأتي بعد كتابة هذه الكلمة في حالة مواصلي الكتابة، وهو الفكرة التي ستأتي بعد ما أفكر فيه، وهو الزمان الذي فيه طموحاتنا وما نتوقع، والذي من أجله نتنفس، ونشرب، ونأكل، ونفكر، ونتعلم، ونعمل، ونتصدق، ونصلي، ونحب، ونتزوج، ونُدَّخر وفق حاجاتنا، ونؤمن على أرواحنا وممتلكاتنا، ونخاف، وهو نهاية البداية وثبات الحركة، وعليه كل حركة من أجل المستقبل.

تتحرك الأرض والكواكب والنجوم بالأمس، فكان اليوم، وتستمر في حركتها من أجل أن يأتي غداً، وهكذا تكون الحركة إلى النهاية، وعندما تأتي النهاية يكون الثبات، وإذا كانت الحركة

^{٢٦٢} الكهف، ٤٩.

تتضمن وجود طاقة، فإن المستقبل يتضمن زمان ومجال توليدها، وهكذا تستمر الحركة والمستقبل، فلا حركة إلا لمستقبل، ولا مستقبل بدون حركة، ومنهما يحدث التغير، سلباً أو إيجاباً.

يتكوّن كل من المستقبل والحركة من زمان، وفعل (محتوى ومضمون). وعليه لا يمكن أن يتحقق المستقبل بدون زمان وفعل، ولا يمكن أن تكون الحركة بدون زمان وفعل، وعندما تصل الحركة إلى لحظة النهاية، يكون العدم، وينتهي المستقبل بالنسبة إليها مادامت في حالة عدم، وعليه يستمر المستقبل كلما كانت هناك حركة، وتستمر الحركة كلما كان هناك مستقبل.

ولو لم يكن هناك مستقبل ما كان هناك أمل، ولا أمان، وما فكرنا فيما ينبغي أن نفكر فيه وهو ما يشغلنا. وبناء على ذلك ينبغي أن تكون مناهجنا مستقبلية، لكي نعرف من نحن، وما يجب علينا القيام به، ونعرف من أجل ماذا نفكر، ومن أجل ماذا نتعلم؟ ومن أجل ماذا ندرس، ونحلل، ونعالج؟ ولماذا طرحت هذه الأسئلة؟ وهل ينبغي أن يتجاوز تفكيرنا الزمان، أم يقتصر عليه؟ إذا كانت الإجابة بتجاوزه فإننا نفكر، وإذا كانت بالاقتران عليه فإننا نتذكر ونتنظر، نتذكر الماضي، ونتنظر حتى يأتي الغد في لحظة الآن المستقبلية، أي نعطل قدراتنا ومواهبنا ولا نفكر، لأن الغد لم يأت بعد. كل هذه وتلك الأمثال تجعلنا كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^{٢٦٣}، ويقول تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^{٢٦٤}.

^{٢٦٣} الحشر، ٢١.

^{٢٦٤} الأعراف، ١٧٥-١٧٨.

المستقبل يكمن في الزمان والحركة كما تكمن الشجرة في البذرة، مما يجعل الشجرة تكمن في الزمان المستقبل في البذرة الآن، مع أن هذه البذرة كانت في الماضي من الشجرة، وعندما تصبح البذرة شجرة مثمرة تكون البذرة في الماضي، وتكون الشجرة في الآن، وتكون الثمار في المستقبل. وهكذا في التقاء الأحبة الآن بين الحيوان المذكر مع البويضة يكمن المستقبل الذي تكمن فيه هو الآخر معاني الأمومة والأبوة والأخوة بين البشر عندما تأتي الآن المستقبلية في وقت النضج العقلي والعاطفي والوجداني للبشر من مرحلة الطفولة المبكرة إلى مرحلة الشيخوخة المتأخرة.

إن ما وقع في الآن الماضي سيكون بالضرورة حاضراً في الآن المستقبل، ولهذا لا يمكن أن يكون الماضي ولا المستقبل إلا في الآن، فالمؤمن الذي يعمل صالحاً في دنياه يعمل في حقيقة الأمر من أجل المستقبل، ومستقبله سواء أكان سالبا أو موجبا، هو ما كان له حاضرا في الماضي. إذن الماضي كأحداث وأفعال سيكون حاضرا في المستقبل (الحاضر المستمر) ويُسأل صاحبه عليه حتى يعاقب أو يجازي به، فيقول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^{٢٦٥}.

تؤكد هذه الآية على أن كل عمل ماض هو من أجل المستقبل، وهكذا عمل الحاضر الذي هو الآخر سيقع في الزمان الماضي إلى أن يجد نفسه في الزمن المستقبل، وذلك لأنه لم يكن من أجل الماضي، بل أنه العمل الذي قد تم من أجل المستقبل، ولذلك يكون الماضي كالخزينة المملوءة التي لم تفتح بعد الفتحة النهائية، بل إنها في الحياة الدنيا لا تفتح إلا بمقدار استدعاء المعلومات التي يمكن أن تفيد في صنع تاريخ قريب، ولهذا ينبغي أن نعمل في حاضرننا خيراً لكي يكون لنا مستقبلاً خيراً. وكل الأعمال التي تقع في الزمن الآن تسمى في الماضي وتصبح على خير المستقبل، وحتى إن نسيها أصحابها فلا يضيع منها شيء بالنسبة إلى سجل الزمان والحركة، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ

والله على كل شيء شهيد^{٢٦٦}. تؤكد هذه الآية على أن كل شيء وجد يمكن إحصاؤه، ولكن لقصور القدرات البشرية عن ذلك عجزت عن إحصائه مع أنه محصى من قبل الخالق عز وجل، ولهذا كل عمل قد حدث سيكون حاضراً في المستقبل لتتم المسألة ويتحقق له الجزاء.

الوقت منتظم في الزمان كانتظام حبات المسبحة في خيطها، وبالتالي يمكن التعرف على الأوقات وحصرها وعدّها، ولكنه من غير الممكن عد الزمان، فعندما تعد واحدة من حبات المسبحة المتكونة من المائة حبة تصبح هذه الأولى في الماضي، وتكون الحبة الثانية الواقعة بين أصابعك في الآن، وتكون ٩٨ حبة واقعة في المستقبل، ولكن إذا قررت أن تكرر التسبيح أو عد حبات المسبحة أكثر من مرة واحدة، تكون الحبة التي وقعت في الزمان الماضي هي الأخرى واقعة في المستقبل وذلك لأنها هي الأخرى سيتم عدّها أو التسبيح بها مرة ثانية، وفي هذه الحالة لن يكون عدد الحبات المتبقية للتسبيح كما سبق وأن ذكرنا هي ٩٨ حبة، بل يكون عدد الحبات المتبقية ٩٩ حبة، وعلى هذا النحو يكون عدد الحبات في جميع الدورات هو ٩٩ حبة عندما تكون الاستمرارية في التسبيح على أن تكون في كل دورة تسبيحية حبة واحدة في الآن بين الأصابع، ولا يكون العد التناقصي إلى الصفر إلا في الدورة التسبيحية الأخيرة، وعليه كل الماضي هو واقع في المستقبل المعلوم بما أنه سيكون حاضراً، مصداقاً لقوله تعالى في سورة آل عمران: (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوءٍ تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد).

إذاً كل ما قمنا به من أعمال سيكون حاضراً في المستقبل ونكون نحن مساعلين عنه، ولهذا لن ينتهي الماضي بعد، لأن نهايته هي في الآن المستقبلية وليست في الآن الماضية التي كنا نعتقد بأنها النهاية. ويكون قولنا إن الزمان كالخيط والأوقات منظومة عليه كحبات المسبحة هو المثال القريب لتوضيح أحداث الماضي التي وقعت في الآن الحاضرة وأصبحت في الماضي وفق دورة الحركة والزمان فلكياً. وستكون جميعها في المستقبل قبل المساءلة

^{٢٦٦}المجادلة ٦.

والمراجعة، وتكون بالضرورة في المستقبل عند بدء المراجعة، وكل حاضر منها سيكون هو الآخر في الماضي بعد إتمام عملية المراجعة أو المساءلة. فعند دراسة الحالات الفردية من الناحية السلوكية والاجتماعية والصحية. تتطلب بالضرورة مراجعة سجل الماضي الذي يتعلق بالحالة، والذي يتضمن الأحداث والأفعال والظروف التي أثرت في السلوك أو أثرت في الحالة الصحية، أي دراسة الماضي لمعرفة الأسباب والعلل التي تحتويها الحالة مما يجعل هذه الحالة بالنسبة إلى الباحث أو الأخصائي قبل بدء الدراسة هي في المستقبل، وفي أثناء التشخيص والتحليل تكون في الحاضر، وبعد العلاج تصبح الحالة في الماضي.

ومع أن الزمان لم يكن له شكل ولا صورة كما هو حال الأجسام الأخرى المتحركة، إلا أنه هو الآخر في حالة حركة، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾^{٢٦٧}. ولو لم يكن هناك ليل ونهار ما كانت الأيام ولا كانت الشهور ولا السنون والدهور، ولا كانت هناك حركة، أي لم يكن لدينا ما نعد من الزمان ونحن على سطح الأرض، أما رواد الفضاء عندما يخرجون عن قوانين حركة الأرض فقد تناسبهم مقاييس فيزيائية أخرى لا تعتمد على حركة الأرض، ولذلك لم يقل الله عز وجل لتعلموا عدد الزمان بل قال: ﴿لتعلموا عدد السنين﴾، ولهذا قلنا الزمان والحركة لا يعدان، بل الذي يعد هو المتحرك الأرض والقمر والشمس وبقية الكواكب كل في فلكه، وهذه جميعها قابلة للمشاهدة والملاحظة، وهكذا حال الليل والنهار والفجر والمغرب كمواقيت تشاهد وتلحظ وبالتالي فهي تعد. والفارق بين الأجسام والمواقيت هو أن الأجسام قابلة للمس المادي، أما المواقيت الزمنية كالليل والنهار والفجر فلا يمكن لمسها مادياً، ولهذا من الممكن الاحتفاظ بشيء ما من الأجسام المادية كالأهلة والساعات الذرية في قوارير المعامل والمختبرات، ولا يمكن الاحتفاظ بشيء ما من المواقيت الزمنية في قوارير المعامل والمختبرات. وعليه لو لم يكن الزمان في حالة حركة ما كان الليل والنهار، وما كان الفجر والمغرب، وما عرفنا عدد السنين والحساب،

^{٢٦٧}الإسراء ١٢.

وما عرفنا الوقت الذي تستغرقه الكواكب والنجوم والأجسام في حركتها الذاتية في مجال فلکها الذي تسبح فيه أو تمتد إليه.

والحركة والزمان شيئان لا يمكن مشاهدتهما مع أنهما يلاحظان بسهولة ويسر، فالذي يشاهد هو المتحرك وليست الحركة، الكواكب تلمس وتشاهد وتلحظ حركتها، أما الليل والنهار والفجر والمغرب فمع أنها تشاهد وتلحظ إلا أنها لا تلمس، ومع ذلك كل ما يشاهد يعد حتى لو لم يلمس كالليل والنهار، وذلك لأن لكل منهما بداية ونهاية يمكن رصدتهما وتحليلهما وتسجيلهما.

الحركة والزمان كما سبق وأن وضحنا لا يمكن مشاهدتهما ولا لمسهما ولا نوقهما ولا شمهما مع أنهما يلاحظان، ولذلك يمكننا التمييز بين الحركة والمتحرك، وبين الحركة والامتداد. فالامتداد هو مجال حركة الجسم أو الشكل، فالمثلث هو امتداد بين نقاط زواياه الثلاث، ولو لم يحدث بينها امتداد ما كان للمثلث صورة أو شكل متصل، وهكذا مجال تكوين الشكل الدائري أو الرباعي أو أي شكل من الأشكال الهندسية، فالامتداد يكون في تكوين الشكل وفي تحديد اتجاه حركة الشكل، كاتجاه حركة الأرض في دورانها حول نفسها، ودورانها حول الشمس، فهي لا تمتد إلا في مجالها الفلكي، ولهذا فالامتداد هو الذي يرسم شكل الدائرة، أما الحركة فهي الطاقة التي بها يمتد المتحرك سواء أكان المتحرك قلماً لرسم مستقيم أو منحني أو أي شكل، أو حركة كوكب، أو حركة كائن من الكائنات.

الزمان والحركة متناهيان حيث أنهما محصوران بين قوة الأول والآخر الذي خلقهما وجعل لهما امتداداً، ولذلك فهما المخلوقان في الآن والمكان الواحد، مما يجعل لهما أجلاً واحداً (نهاية واحدة) ولو لم نؤمن بأن الزمان متناه فكيف نؤمن إذاً باليوم الآخر؟ فالיום الآخر هو الذي لا يكون فيه الليل والنهار والفجر والمغرب (المعروفات) في حساباتنا، والتي بها تعد أيامنا وشهورنا وأعوامنا ودهورنا، والتي جميعها ستنتهي ليكون اليوم الآخر، واليوم الآخر هو الذي لم يكن مثل يومنا هذا الذي نعرفه، ولأنه الآخر فهو المختلف بالضرورة عما عرفناه في يومنا الأول. وبما أن للزمان بداية وللحركة بداية إذاً ممّا لا شك فيه ستكون لهما نهاية.

حركة الزمان تماثل حركة الأجسام في قوتها وانتظام سرعتها، ولهذا تنتظم حركة المواقيت وتترامن مع حركة الكواكب، فلا يأتي الليل مرتين في اليوم الواحد، ولا تتأخر حركة الأرض عن ميقاتها ومكانها ليتأخر الشروق عن النهار ويتضاعف زمن الليل، بل الكل في فلك يسبحون وفق سرعة ثابتة ومدارات ثابتة. فاليوم هو اليوم في كل دورة للأرض حول نفسها وحول الشمس، وذاك اليوم من العام الماضي لا يختلف عن هذا اليوم الذي يماثله من عامنا هذا، الاختلاف بينهما في المحتوى الذي تتضمنه الأيام، فمحتوى هذا اليوم قد لا يماثل محتوى العام الماضي من حيث درجة حرارته أو برودته أو من حيث الأحداث التي وقعت فيه، وعليه زمن اليوم لا يختلف وفق كل دورة سنوية، والمحتوى اليومي مختلف بين الحين والآخر، فاليوم الذي ولد فيه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو اليوم الذي توفي فيه، ولذلك قلنا اليوم واحد والمحتوى مختلف.

الزمان دائرة متصلة يتواجد فيها الماضي جنباً إلى جنب مع الحاضر والمستقبل، ولو عدنا إلى الماضي البعيد إلى أن نصل إلى النقطة الآن فلا نجد ماضياً على الإطلاق، بل نجد الاثنين معاً الآن والمستقبل، ولا نجد الماضي، وذلك لعدم تكوّنه بعد، وبعد أن قُضيت الآن أصبحت ماضياً وحدها، وكل ما عداها مستقبل، ولهذا كان المستقبل هو الأكثر والأوفر الذي لا يقارن بأي وقت آخر، لا بالماضي الذي في تعداده إلا الآن الواحدة، ولا بالحاضر الذي لا يمتلك إلا اللحظة الآنية، وعليه بداية الحياة مستقبل ونهايتها مستقبل، فالمستقبل الأول هو المتكون من الحياة الدنيا، والمستقبل الآخر هو المتكون من نهايتها، ممّا يجعل نهاية الحياة الدنيا بداية للحياة الآخرة، والتي يكون فيها كل الماضي كمحتوى هو المستقبل الحسابي لمن وجد في اليوم الأول (الحياة الدنيا)، ولهذا لا يتم الاتفاق مع أرسطو ومؤيديه بأن كل ما هو ماضٍ قد فسد، فالزمان الماضي لم يفسد بل إنه في السجل المحفوظ الذي فيه حسابنا ما ثقل وما خف منه.

وعليه من مستوجبات نجاح الخليفة في ممارسة حقوقه وأداء واجباته وحمل مسؤولياته أن يراعي الزمن ولا يهدره فيما لا يرضي الوكيل، الذي به آمن وأولى أمره إليه، وهذا لا يعني أن

يترك أمره للوكيل وهو على حالة من الاتكالية، فالوكيل قال أعملوا وانتم متوكلون فيما تعملون على الله الذي بيده الأمر والملك. {وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ إِنْ مَا تُوعِدُونَ لِآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} ^{٢٦٨}، وقال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} ^{٢٦٩}، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} ^{٢٧٠}، وقال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا

^{٢٦٨} الأنعام ١٣٢ . ١٣٥ .

^{٢٦٩} التوبة ١٠٥ ، ١٠٦ .

^{٢٧٠} الكهف ١١٠ .

عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمِيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} ٢٧١ .

والمتموكل على الله صبور ولهذا فالصبر والتوكل صفتان لا تجتمعان إلا مع العلم بالله وقدرته والعلم بما سوى الله وضعفه، فمن العلم بالله يعلم الخليفة أنه تعالى الرازق ذو القدرة المطلقة على الرزق في كل مكان وكل وقت، وعالم بما سوى الله فغير الله زائل وهذا يجعل الأمر يهون عليه، فيلزم الصبر على الزائل الذي لا يدوم، ومن يؤدي في مكان ما ويضيق عليه رزقه فليخرج صبرا وتوكلا على الله لذلك الناس قسمان:

- قسم قادر على الخروج وهو متموكل على ربه، يترك الأوطان ويفارق الأهل والأخوان طلبا للرزق بصبر وتوكل، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} ٢٧٢ ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الْبِلَادُ لِلَّهِ وَالْعِبَادُ عِبَادُ اللَّهِ فَحَيْثُمَا أَصَبْتَ خَيْرًا فَأَقِم) ٢٧٣ .

والإقامة برفق لأنه لا رزق بغلظة، فروي في الإحياء "البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فأى موضع رأيت فيه رققا فأقم" ٢٧٤ .

- وقسم خانع خاضع عاجز وهو يصبر بتواكل لا بتوكل. قال تعالى: ﴿لَوْ كَأَنَّ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} ٢٧٥ .

٢٧١ الفرقان ٥٨ . ٧٧ .

٢٧٢ النحل ١٢٦ . ١٢٨ .

٢٧٣ مسند أحمد ، ج ٣ ، ص ٣٥٥

٢٧٤ تخريج أحاديث الإحياء ، ج ٢ ، ص ٢٨٤

٢٧٥ العنكبوت ٦٠ .

وفي الجمع بين الصبر والتوكل (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) ذكر ما يساعد على التوكل وهو بيان حال الدواب، ويأتيها كل يوم برزق جديد، والمطلوب منا أن نتخطى درجة الدواب فنسعى صبرا وتوكلا بالعمل على الله الوكيل.

والرزق يتطلب الشكر والشكر فيه الزيادة فيضا من الله على الشاكر المتوكل على الله سبحانه، قال تعالى: {كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ} ٢٧٦.

ويوضح الله تعالى إن الرزق المعنوي أفضل من الرزق المادي، والرزق المعنوي عند الله، فقد خلق الرزق المادي للاختبار في دار الفناء، قال الله تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} ٢٧٧.

ولهذا أخبر تعالى أن المال والبنين، زينة الحياة الدنيا، أي: ليس وراء ذلك شيء، وأن الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره، الباقيات الصالحات، وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة والمستحبة من حقوق الله، وحقوق عباده، من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وتسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر والدين، وقيام بحق الزوجات، والماليك، والبهائم، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق، وكل أعمال الخير والإصلاح في الأرض والإعمار فيها، وكل هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خير عند الله ثوابا وخير أملا فتوابها يبقى، ويتضاعف، ويؤمل أجرها وبرها ونفعها عند الحاجة، فهذه التي ينبغي أن يتنافس عليها المتنافسون، ويستبق إليها العاملون، ويجد في تحصيلها المجتهد، و ضرب الله مثل الدنيا وحالها و ذكر أن فيها نوعين:

- نوع من زينتها، يتمتع به قليلا ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربما لحقته مضرته وهو المال والبنون.

-نوع يبقى وينفع صاحبه على الدوام وهو (الباقيات الصالحات).

٢٧٦ سبأ، ١٥

٢٧٧ الكهف، ٤٦.

ولمقارنة المادي بالمعنوي يقول الله تعالى: {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا} ٢٧٨

فالله يزيد المهتدين بالإيمان به والتوكل عليه بما ينزل عليهم من الآيات والدلائل التي تؤدي إلى تمسك المؤمن بما انزل الله والعمل بما أراد ليحقق الخلافة على الأرض، مع العلم واليقين ببقاء الأعمال والأقوال الصالحة التي يرجو بها الخليفة طاعة ربه (والباقيات الصالحات) لأنها بلا أدنى شك (خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا) في الدنيا وفي الآخرة .
ومن التوكل على الله تسليم الأمر إليه وحده والاعتماد عليه في كل شيء من أمر الدنيا والآخرة لذا فنحن نعيش في نعمة الله الوكيل لأننا مسلمون له قد أسلمنا أمرنا لله "وهذا المعنى في كتب اللغة، وَكَلَّ بِاللَّهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَاتَّكَلَّ اسْتَسَلَّمَ إِلَيْهِ" ٢٧٩ .

ومن التوكل في أبهى صورته ما جاء على لسان أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم قال الله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ وَارِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَالِاهُ أَبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} ٢٨٠ .
فإن من يرغب (عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ) أبي الأنبياء بعد ما عرف من فضله لأنه الداعي الى التوحيد والتسليم لله والتوكل عليه (إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ) ومن السفاهة الجهل بحقيقتها التي

٢٧٨ مريم ٧٦ .

٢٧٩ لسان العرب، ج ١١، ص ٧٣٤

٢٨٠ البقرة ١٢٧--١٣٣

خلقت من أجلها، فالنفس لا تطمئن إلا بالرجوع إلى ربها ومن الرجوع: رجوع اختياري في الدنيا فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

ورجوع إجباري بدعوة الله لها بأن ترجع إليه ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتِي﴾^{٢٨١} .

وهذه الدعوة الطيبة لا تتأتى إلا من خلال توجه الإنسان للهدف الذي خلقه الله من أجله وهو التسليم والتوكل عليه، لا بجهل قيمة نفسه وامتهانها بالبعد عن منهج الخلافة من تسليم وتوكل على الله، كما أنه لا أرشد ولا أكمل ممن رغب في ملة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي اختاره الله في الدنيا.

(وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا) فأسلم لله وتوكل عليه لذلك قد أثناه في الآخرة (وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) الذين لهم أعلى الدرجات بتوكلهم على ربهم.

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِم) وهذا أمر الله لمن يريد الثواب في الدنيا والفوز في الآخرة، والجواب بما قاله نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي قال: امتثالاً وطاعة لله رب العالمين (أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) أسلمت إخلاصاً، أسلمت توحيداً، أسلمت محبة، أسلمت إنابة، أسلمت توكلًا عليك يا رب فأنت حسبي ونعم الوكيل، ثم أورث ذلك اليقين والتوكل والتسليم في ذريته، ووصاهم بالإسلام والتوكل على الله رب العالمين، وجعلها كلمة باقية في ذريته، وتوارثت فيهم، حتى وصلت لنبي الله يعقوب فوصى بها بنيه، وتكررت الدعوة إلى الإسلام بترك الأمر لله والتوكل عليه والخروج من الحول والقوة والحسب والنسب إلى حول الله وقوته وأمره وحكمه لأنه سبحانه وتعالى صاحب الأمر ف (لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ)^{٢٨٢} ، ولأنه صاحب الأمر فهو الوكيل الذي يلجأ الكل إليه ويسلمون أمرهم له لأن إرادته أن يسلم له الخلق، فجعل دينه الإسلام ولا خلاف على ذلك ولا حجة إلا القول (أسلمت وجهي لله) وهذه الدعوة للعالم بان يعودوا إلى الانقياد لله والتوكل عليه كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ

^{٢٨١} الفجر ٢٧-٣٠

^{٢٨٢} - الروم ، ٣

الإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ
بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ {٢٨٣} .

ومن التوكل على الله والتسليم له والانقياد لأمره و اليقين بأن الله تعالى ما سكن في الليل،
وتحرك في النهار، وهذا يدل على الاستغراق الزمني والمكاني، وبما أن له أمر ما سكن فله
بالتالي أمر المتحرك في الزمان والمكان كما سبق أن أوضحنا، وحال المؤمن المتوكل على
الله يقول في عجب: هل أتخذ من دون الله وليا وهو خالق السموات والأرض؟ وهو يطعم
الخلق جميعا، الساكن والمتحرك، ولا يطعمه أحد فيحفظ الخلق لأنه وكيل عليهم حافظ لهم،
وهو جلت قدرته لا حاجة له فيهم إلا نفعهم، ونفعهم في عبادته، وهذا ما جاء في قوله
تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنْ
اللَّهُ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} {٢٨٤} ومن يعرف ذلك لا بد وأن يسلم لله ويعلم انقياده التام له
ويبتعد عن الشرك به ولا يتخذ من دونه وكيلًا، تصديقا لقوله تعالى: {أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي
وَكِيلًا} {٢٨٥}، ويظهر ذلك التسليم في قول الله تعالى: {وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي
أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} {٢٨٦} .

والمراد هو المنع من اتخاذ غير الله تعالى ولياً ووكيلاً. لأنه فاطر السماوات والأرض وهو
الذي يطعم ولا يطعم. ومتى كان الأمر كذلك امتنع اتخاذ غيره ولياً وكيلاً. أما بيان أنه فاطر
السماوات والأرض، فلأن ما سوى الواحد ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يقع موجوداً إلا
بإيجاد غيره، فنتج أن ما سوى الله فهو حاصل بإيجاده وتكوينه. فثبت أنه سبحانه هو الفاطر
لكل ما سواه من الموجودات. وأما بيان أنه يطعم ولا يطعم فهذا لأن الإطعام عبارة عن

٢٨٣ آل عمران، ١٩، ٢٠.

٢٨٤ الذاريات، ٥٦-٥٨.

٢٨٥ الإسراء ٢

٢٨٦ الأنعام، ١٣-١٦.

إيصال المنافع، وعدم الاستطعام عبارة عن الانتفاع. ولما كان هو المبدئ لكل ما سواه من المخلوقات، كان لا محالة هو المبدئ لإيصال جميع المنافع. ولما كان واجباً لذاته كان لا محالة غنياً ومتعالياً عن الانتفاع بشيء آخر فثبت بالدليل القاطع صحة أنه تعالى فاطر السماوات والأرض، ولهذا امتنع في العقل اتخاذ غيره ولياً لأن ما سواه محتاج في ذاته وفي جميع صفاته وفي جميع ما تحت يده إلى الله الغني القوي. والله سبحانه وتعالى هو الغني لذاته الجواد لذاته، وترك الغني الجواد، والذهاب إلى الفقير المحتاج ضرب من مخالفة العقل والمنطق.

فقوله تعالى: (قل أغير الله أتخذ ولياً) يمنع القرب من غير الله تعالى. وهذا يقتضي ممن أراد الخلافة تنزيه القلب عن الالتفات إلى غير الله تعالى فلا يجعل في قلبه يقينا إلا بالله، وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى. ثم قال تعالى: (قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم) ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم سابق أمته في الإسلام لقوله {وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين} ^{٢٨٧}.

والنبي صلى الله عليه وآله وسلم أول المتوكلين المسلمين لله أمره ربه بقوله: {قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} ^{٢٨٨} وهذه الآية الكريمة تدل على أنه - عليه الصلاة والسلام - مؤدّي العبادة مع الإخلاص، وأكد الله ذلك بقوله تبارك وتعالى: لَا شَرِيكَ لَهُ، وهذا من أقوى الدلائل على أن شرط صحة الصلاة أن يؤتى بها مقرونةً بالإخلاص، والإخلاص على وجهين:

-الإخلاص في الحياة بأن يكون الهدف منها طاعة الله بالإسلام له والتوكل عليه، واستنفاد العمر كله في جعل كلمة الله هي العليا وكلمة الباطل هي السفلى ولا يتأتى ذلك إلا بالعمل الصالح.

^{٢٨٧} الأنعام ، ١٦٣

^{٢٨٨} الأنعام ١٦٢.

-الإخلاص في الممات بالخروج من الدنيا والقلب غير متعلق بها وقد استفرغها المؤمن من قلبه بالكلية، وملاً قلبه بطاعة الله، فلا يتوجه إلا لله في الصلاة والحياة والممات والنسك والفروض والنوافل.

ومن التوكل على الله ما ورد في حشد من الآيات نذكر منها قوله تعالى: **لَوْ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً** أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا^{٢٨٩}، وهي دعوة صريحة للجوء إلى الوكيل الناصر وهو فعل أمر واجب التنفيذ يا مريد الخلافة هلا اتخذت المنهج وتدبرت تفاصيله الذي لا يوجد فيه اختلاف لأن هذا المنهج من لدن حكيم خبير.

ولأنه الوكيل المطلق، فلا توكل إلا عليه جل جلاله، ومن يتوكل على غيره يُذَلَّ حيث لا اعتماد إلا على الوكيل المطلق، فالبشر هم في دائرة النسبية، متقلبون إلا من آمن بالوكيل المطلق فلا يسلم أمره لغيره، ولذا لا وكالة بالمطلق إلا للحق المطلق، والوكيل هو المهتم بالأمر دون مقابل لحاجة، إنه الخلاق الرزاق ذو العرش المجيد.

- وفي التوكل الكفاية لأنه الكافي الذي يكفي من توكل عليه.
- ومن التوكل تدبر القرآن لأنه المنهج الأمثل للمتوكل، لأنه من لدن حكيم خبير وليس من فعل بشر أو من تلقين معلم لذا فلا مجال لنقص فيه من خلاف وتعارض.

ويقول الله تعالى: **لَوْلِ اللَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً** (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا^{٢٩٠}).

(ولله ما في السموات وما في الأرض) وذلك لكونه غنيا عزيزا لا يجب العوز والحاجة في صفاته، و جميع المخلوقات تذلل بحاجتها إلى غناه، وتدل بهذه الحاجة إنه الغني المطلق، ولهذا لا يجب التوكل إلا عليه (وكفى بالله وكيلًا) في تدبير أمور الخلق في كل الأمور فلا

^{٢٨٩} النساء، ٨١، ٨٢..

^{٢٩٠} النساء، ١٣١-١٣٤ .

بد من أن التوكل عليه لا على أحد غيره، وهذا ما يقوم به الخليفة المتخلق بالاسم الوكيل فلا يعرف اعتمادا ولا استنادا إلا عليه.

ويخبر تعالى عن ملكه العظيم الواسع المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف قدرا وشرعا، فتصرفه الشرعي أن وصى الأولين والآخرين من أهل الكتب السابقة ومن اللاحقين -أمة الإسلام- بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بأليم العذاب، ولهذا قال: (وَإِنْ تَكْفُرُوا) بأن تتركوا تقوى الله والعمل بكتابه والإسلام له والتوكل عليه، وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا، فإنكم لا تضررون بذلك إلا أنفسكم، ولا تضررون الله شيئا ولا تنقصون من ملكه، وله عبيد خير منكم وأعظم وأكثر، مطيعون له خاضعون لأمره. ولهذا ترتب على ذلك قوله تعالى: (وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا) فله الجود الكامل والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته التي لا ينقصها الإنفاق ولا يغيضها نفقة، سحاء بالليل والنهار، لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض أولهم وآخرهم، فسأل كل واحد منهم ما بلغت أمانيه ما نقص من ملكه شيئا، ذلك بأنه جواد واجد ماجد، إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون. وهذا ما ذكره النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيم يرويه عن رب العزة: "عَنْ أَبِي ذَرَّعِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعَمُونِي أَطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَنْفَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ

مَسْأَلَتُهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ
أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أَوْفِّيكُمْ أَيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا
يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ^{٢٩١}.

ومن تمام غناه أن له الكمال المطلق إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه، لكان فيه نوع
افتقار إلى ذلك الكمال، بل له في كل صفة من صفاته الكمال المطلق فيها، ومن ذلك فهو
الغني المطلق والوكيل المطلق، ومن تمام غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولا شريكا في
ملكه ولا ظهيرا، ولا معاونا له على شيء من تدابير ملكه لأنه لا يتوكل على أحد فالكل فقير
إليه ويتوكلون عليه لأنهم يحتاجون إليه وهو لا يحتاج إلى أحد^{٢٩٢}.

وهو الوكيل على كل شيء، القائم على شؤون خلقه بتدبير أمورهم على وجه الكمال والتمام
بما تقتضيه حكيمته البالغة وعلمه المطلق، وقدرته النافذة لأنه له جنود السموات والأرض و
ذلك من كمال الوكالة، فإن الوكالة تستلزم العلم بما هو وكيل عليه، وامتلاك القوة والقدرة
على التنفيذ والتدبير، ولكون ذلك التدبير على وجه الحكمة والمصلحة بمنافع من يتوكلون
عليه، فلا ينقص من مصالحهم شيء لأن الوكيل هو الله والله تعالى منزه عن كل نقص.

ومن النص المقدس الذي يرشدنا إلى شرف التوكل على الله ما ورد في قضية الصراع
الذي لا ينتهي إلا بصرف المؤمن إلى الجنة والكافر إلى النار، الصراع بين الحق والباطل،
الحق بتولي الله له والتعهد بأن يكون وكيلا عنه، والباطل الذي مازال يعمل على ظهور
الباطل ومحق الحق، وهي القصة التي تثير البحث وتدفعه نحو القضية المحورية التي يركز
عليها الخلافة المثلى على الأرض وهنا تهب علينا نفحات من الاسم الوكيل وفيه يتجلى
بفرض وكالته على عباده والذي منهم الخليفة بلا شك فهو الرب صاحب الملك الكافي لعباده
شر ما يهمهم ويؤرقهم ويؤلمهم قال الله تعالى: ﴿وَأذِ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا
إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ

^{٢٩١} - صحيح مسلم، ج ١٢، ص ٤٥٥

^{٢٩٢} تفسير السعدي، ج ١، ص ٢٠٧.

الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا
وَاسْتَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَاعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ
وَكَيْلًا} ٢٩٣ .

والله هو الوكيل والرب والمهيمن على الكون وما فيه فيقول للنبي صلى الله عليه وسلم
والحديث في الوقت ذاته للخليفة ولمن أراد أن يحقق الخلافة نفسه أو في الآخرين: يَا أَيُّهَا
النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ
رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكَيْلًا} ٢٩٤ .

قوله عز وجل: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً) للرسول بالتبليغ شاهداً على الخلق كلهم يوم
القيامة (ومبشراً) لمن آمن بأنه سيدخل الجنة (ونذيراً) لمن كذب بالرسول وبحق الله في العبادة
وبأنه الواحد الأحد فسيكون مصيرهم النار (وداعياً إلى الله) داعياً إلى توحيدده وطاعته
والتسليم له والتوكل عليه (بإذنه) بأمر الله وإرادته (وسراجاً منيراً) سراجاً منيراً لأنه صلى الله
عليه وسلم نوره جلا ظلمات الشرك واهتدى به الضالون كما يجلى ظلام الليل بالسراج
المنير، وقد أمد الله بنور نبوته نور البصائر كما يمد بنور السراج نور الأبصار ووصفه
بالنور لأن من السراج ما لا ينير. وسماه سراجاً، ولم يسمه شمساً والشمس أشد إضاءة من
السراج وأكثر نورا، لأن نور الشمس لا يمكن أن يؤخذ منه مقدارا ويوضع في شيء آخر
بخلاف نور السراج فإنه يؤخذ منه أنوار كثيرة (ويشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً)
ولأنه البشير طلب منه صلى الله عليه وسلم أن يبشر المؤمنين بزيادة فضل الله عليهم
والفضل هو الثواب وتفضيل الأمة المحمدية على سائر الأمم (ولا تطع الكافرين والمنافقين
ودع أذاهم) في ما يقولون ويفعلون واصبر عليهم حتى تعد لهم العدة وتتصر عليهم (وتوكل

٢٩٣ - الإسراء، ٦١ - ٦٤ .

٢٩٤ الأحزاب، ١- ٣ .

على الله وكفى بالله وكيلاً) واعتمد عليه وانتصر به وله واكتفى بقوته وقدرته فهو الحافظ لك ولمن اتبعك الذي يملك القوة المطلقة وهو الرب الذي يعتمد عليه.

ومن معاني الوكيل كما بدأنا في أول البحث في هذا الاسم الشريف، الرب صاحب الملك ومالكة والمتصرف فيه، ويتجلى ذلك في أم الكتاب في قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} ٢٩٥، فهو رب العالمين ومن يتوكل عليه ويجعل اعتماده مستندا إليه لا يخاف من معلوم أو مجهول لأنه رب العالمين العالم بالمرئي وغير المرئي، ولا يخشى المتوقع ولا غير المتوقع لأنهما جميعا في دائرة ملكه، ومن يعيش وهو يعلم أنه في ملكه يكن أسعد الخلق لأنه يعتمد ويتوكل على رب العالمين.

ورب العالمين من ملكه الواسع رحمته الواسعة التي وسعت كل شيء فلأنه رب العالمين فهو عالم الشهادة الذي نعيش فيه وعالم الغيب الذي لا نعرف عنه إلا ما أخبرنا الله به، ومن الذي أخبرنا به إنه مالك يوم الدين فهنيئاً لمن يتخذه وكيلاً في الدنيا فيكفيه ويحميه ويهديه للعمل الصالح النافع وهنيئاً لمن يتخذه وكيلاً فيرحمه برحمته في يوم لا يملك فيه أحد أن يتكلم إلا بإذنه لأنه رب السموات والأرض وصاحبهما: {رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَدِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا} ٢٩٦. ولا ينجو في ذلك اليوم إلا من عرف أنه مالك يوم الدين وقال وعمل: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} فنحن نعبدك ونوحدك بتخصيص العبادة لك لأنك رب العالمين مالك الدنيا والمتصرف فيها والمتوكل عليك والمعتمد عليك في الدنيا والمرجوة رحمتك في الآخرة والذي لا استغناء عن جودك وكرمك ورحمتك في عالم الشهادة وفي عالم الغيب ونقول كما قال المصطفى صلى الله

٢٩٥ الفاتحة، ١ - ٧.

٢٩٦ النبأ، ٣٧-٣٩.

عليه وسلم في الدعاء الجميل العذب الذي ينسال خشوعاً وخضوعاً لرب العالمين بعدما تعرّض صلى الله عليه وسلم لأذى الكفار في ثقيف لما أراد هدايتهم فأبوا إلا الكفر فلجأ عليه الصلاة والسلام إلى الرب الوكيل العظيم، وهذا ما ورد في سيرته العطرة (السيرة النبوية) فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم، فيما ذكر، إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا على. وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيذئروهم ذلك عليه. فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم وبصيحون به حتى اجتمع عليه الناس والجووه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه. فعمد إلى ظل عنب فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما يلقى من سفهاء أهل الطائف. فلما اطمأن قال فيما ذكر: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟! إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل علي سخطك، لك العتبي حتى ترضى، لا حول ولا قوة إلا بك" ٢٩٧.

وفي نص آخر به زيادة "وقلة حيلتي:

فَلَمَّا اطمأنَّ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكَو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكَلَّنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوِّ مَلَكَّتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أَبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سُخْطُكَ لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ" ٢٩٨.

٢٩٧ ابن كثير - ج ٢، ص ١٥٠

٢٩٨ سيرة ابن هشام - ج ١، ص ٤٢٠

ومن تمام التوكل على الوكيل لجوء المكروب المضطر إليه فيكفله الوكيل ويحميه، وقد علمنا الرسول الأعظم أن نلجأ إلى الوكيل عند الشدة ومن ذلك تعليمه لنا كلمات المكروب فيقول:

"اللهم رحمتك أرجو، فلا تكني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت" ٢٩٩.

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في دعاء المضطر "اللهم رحمتك أرجو فلا تكني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت"، وقال في حديث آخر: "إنك إن تكني إلى نفسي تكني إلى ضعف وعورة وذنب وخطيئة، وإني لا أثق إلا برحمتك فاغفر لي ذنوبي كلها إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وتب علي إنك أنت التواب الرحيم" ٣٠٠.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم للسيدة الزهراء عليها السلام، عن أنس بن مالك قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أو تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكني إلى نفسي طرفة عين" ٣٠١.

ومن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد: "يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، اكفني كل شيء ولا تكني إلى نفسي طرفة عين" ٣٠٢.

ومن التوكل على الله الانتصار به وله، ومن توكل عليه حفظه ونصره وهذا ما حدث في بدر وحدث في مواطن كثيرة وسيحدث إن شاء الله في مواطن يحتاج إليها المتوكلون عليه.

قال الله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ النُّقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ الَّذِينَ قَالُوا

٢٩٩- مصنف ابن أبي شيبة - ج ٧ ، ص ٢١

٣٠٠- شعب الإيمان للبيهقي - ج ٢ ، ص ٣٢٢

٣٠١- السنن الكبرى للنسائي - ج ٦ ، ص ١٤٧

٣٠٢- الأحاد والمثاني لابن أبي عاصم - ج ٨ ، ص ٢٧٦

لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} ٣٠٣.

وكانت قريش أعلى الناس شجاعة وأوفاهم قوة وأعرقهم أصالة فكانوا كأنهم جميع الناس، فكان التعبير بصيغة في قوله: (الذين قال لهم الناس) أي نعيم أو ركب عبد القيس (إن الناس) يعني قريشاً (قد جمعوا لكم فآخشوهم) أمدح للصحابة رضي الله عنهم من التعبير عن أخبرهم ومن جمع لهم بخاص اسمه أو وصفه.

ولما كان الموجب لإقدامهم على اللقاء بعد هذا القول الذي لم يشكوا في صدقه ثبات الإيمان وقوة التيقن قال تعالى: (فزادهم) أي هذا القول إيماناً لأنه ما تهاهم عن طاعة الله ورسوله، وقالوا، ازدراء بالخلائق اعتماداً على الخالق (حسبنا) أي كافينا الله، أي الملك الأعلى في القيام بمصالحنا. ولما كان ذلك هو شأن الوكيل وكان في الوكلاء من يذم قال: (ونعم الوكيل) أي الموكل إليه المفوض إليه جميع الأمور؛ روى البخاري في التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "هذه الكلمة قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: إن الناس قد جمعوا لكم. وقال: كان آخر كلمة قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار: حسبي الله ونعم الوكيل". ولما كان اعتمادهم على الله سبباً لفلاحهم قال: (فانقلبوا) أي فكان ذلك سبباً لأنهم انقلبوا، أي من الوجه الذي ذهبوا فيه مع النبي صلى الله عليه وسلم (بنعمة) وعظمها بإضافتها إلى الاسم الأعظم فقال: (من الله) أي الذي له الكمال كله (وفضل) أي من الدنيا ما طاب لهم من طيب الثناء بصدق الوعد ومضاء العزم وعظيم الفناء والجرأة إلى ما نالوه. عند ربهم حال كونهم (لم

يمسسهم سوء) أي من العدو خوفوه ولا غيره (واتبعوا) أي مع ذلك بطاعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بغاية جهدهم (رضوان الله) الذي له الجلال والجمال فحازوا أعظم فضله والله الذي لا كفاء له عظيم في الدارين على من يرضيه، فستظنون فوق ما تؤملون، فليشر المجيب ويغتم ويحزن المتخلف، ولعظم الأمر كرر الاسم الأعظم كثيراً، ولما جزاهم سبحانه على أمثال ذلك بما وقع لهم من فوزهم بالسلامة والغنيمة بفضل من حاز أوصاف الكمال وتنزه عن كل نقص بما له من رداء الكبرياء والجلال، ورجبهم فيما لديه لتوليهم إياه، أتبع ذلك بما يزيدهم بصيرة من أن المخوف لهم من كيدته ضعيف وأمره هين خفيف وإهٍ سخيف وهو الشيطان، وساق ذلك مساق التعليل لما قبله من حيازتهم للفضل وبعدهم عن السوء بأن وليهم الله وعدوهم الشيطان فقال التفاتاً إليهم بزيادة في تنشيطهم أو تشجيعهم وتثبيتهم: (إنما ذلكم) أي القائل الذي تقدم أنه الناس (الشيطان) هو الطريد البعيد المحترق^{٣٠٤}.

ومن آيات الله يمكن أن نستخلص بعضاً من صفات الوكيل بالإضافة كما يقول الله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} ^{٣٠٥}.

-الإيمان بالله ربا واحدا مالكا للملك وكيلا معيناً.

-الخوف من الله الذي سيحاسب الإنسان على ما قدمت يداه، ويراقبه من الميلاد حتى الوفاة في مدة الاختبار والابتلاء، فيستشعر الخليفة هذا المعنى العظيم فيخاف منه حبا فيه لأنه سبحانه لا يستحق المعصية بعدما أوجد الإنسان وسخر له الأرض وما فيها وما عليها ليقيم الخلافة الإلهية عليها.

-التوكل على الله في كل شيء لأنه الحافظ القيوم الرازق القوي المتين.

^{٣٠٤} نظم الدرر للبقاعي - ج ٢ ، ص ١٤٣

^{٣٠٥} الأنفال، ١ . ٤ .

- إقامة الصلاة، فهي الصلة بين الإنسان وربه دون حجاب ودون واسطة فيها ينتقل المرء من عالم الملك على عالم الملكوت وتسمو روحه وتحلق في أنوار لا حصر ولا وصف لها .
- الإنفاق من رزق الله الذي وكلهم عليه ومن ذلك حسن التوظيف للمال و توجيهه لمساعدة المستحق للمساعدة، وتتعدد جوانب الإنفاق حسب الحاجة، لأنه بعدم الإنفاق يكون الهلاك للبخل الممسك وللفقير المحتاج وصدق الله في قوله: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} ٣٠٦ .

عن ابن عباس: "ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة"، قال: ليس التهلكة أن يُقتل الرجل في سبيل الله، ولكن الإمساك عن النفقة في سبيل الله" ٣٠٧ .

وسبيل الله في مصارف عديدة، ومن هنا فالبخل هلاك للنفس وللغير، للنفس بحرمانها من طيبات الله في الدنيا ومن نعيم الله في الآخرة ، فمن يملك المال في مكان ما ويكنزه مع حاجة المكان لبناء مدرسة أو مستشفى أو مسجد أو مصنع أو مسكن ويقصر في ذلك بحجب المال ومنعه بكنزه أو بالانتفاع الشخصي به فهو قد أهلك نفسه وغيره.

-وجزاء من يؤمن بالله ويخافه وينفق في سبيله ولا يبخل بالنفس والمال رزق من الله ومغفرة. وفي مجال الإنفاق فقد جعل الله الغني وكيفا على المال بشرط عدم البخل على الفقراء لأنهم عيال الله أي عائلته المسئولون منه لذا فقد جعل الثواب الجزيل للمنفق في سبيل الله في صور الإنفاق المختلفة.

والوكيل بالإضافة الذي يعلم تمام العلم أن الرزق بيد الله فلا يخشى بأس أحد أو ظلم أحد فيأخذ في أسباب السعي للحصول على الرزق وهذا من صور التوكل التي عرفنا إياها الحبيب صلى الله عليه وسلم فقال: "لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا" ٣٠٨ .

٣٠٦ البقرة، ١٩٥ .

٣٠٧ تفسير الطبري - ج ٣ ، ص ٥٨٤

٣٠٨ سنن ابن ماجه - ج ١٢ ، ص ١٩٩

لذا التوكل هو الأخذ بالأسباب" وقال الله تعالى: {وتزودا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} ٣٠٩ .
 أَي تَزَوَّدُوا وَاتَّقُوا أَدَّى النَّاسَ بِسُؤَالِكُمْ إِيَّاهُمْ وَالْإِثْمَ فِي ذَلِكَ، وَالتَّوَكَّلُ لَا يَكُونُ مَعَ السُّؤَالِ وَإِنَّمَا
 التَّوَكَّلُ الْمَحْمُودُ أَنْ لَا يَسْتَعِينِ بِأَحَدٍ فِي شَيْءٍ، وَهُوَ قَطْعُ النَّظَرِ عَنِ الْأَسْبَابِ بَعْدَ تَهْيِئَةِ
 الْأَسْبَابِ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ "اعْقَلْهَا وَتَوَكَّلْ" ٣١٠، ولذا تؤخذ الأسباب بالتوكل على
 الله الوكيل المطلق جل جلاله الذي آمن به المستخلفون في الأرض وأولوه أمرهم طاعة تامة
 لا شريك له بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

نعم فمن التوكل المحمود عدم الاستعانة إلا بالله فنحن نقول (إياك نعبد) فأنت الوكيل علينا
 ولما كنت أنت الوكيل علينا فقد سلمنا لك أمرنا إليك و (إياك نستعين) عليك لا على غيرك
 مع الأخذ بالأسباب كما أمرتنا، فنلقي البذرة في الأرض بعد حرثها وتهيئتها ونرويها بالماء
 ونتوكل عليك في إخراجها وكذا في كل أمور حياتنا إخلاصاً في العبادة وإفراداً في التوكل
 والاستعانة.

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "أَنَّ دَاوُدَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا
 مِنْ عَمَلِ يَدِهِ" ٣١١ .

وعن ابن عباس، قال: "كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحْجُونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا
 قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {وتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} . تزودوا فلا تؤذوا الناس
 بسؤالكم إياهم، واتقوا الإثم في أذاهم بذلك .

وفيه: إن التوكل لا يكون مع السؤال، وإنما التوكل على الله دون استعانة بأحد في شيء،
 ويبين ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، وهم الذين لا
 يسترقون، ولا يكتون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون" . فهذه أسباب التوكل وصفاته ٣١٢ .

٣٠٩ البقرة ١٩٧

٣١٠ فتح الباري لابن حجر - ج ٥ ، ص ١٦١

٣١١ فتح الباري لابن حجر - ج ٦ ، ص ٣٨٢

٣١٢ شرح ابن بطال - ج ٧ ، ص ٢٢٥

وَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بغيرِ حِسَابٍ قَالُوا وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ هُمْ الَّذِينَ لَا يَكْتُمُونَ وَلَا يَسْتَرْفُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فَقَامَ عُكَّاشَةُ فَقَالَ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ أَنْتَ مِنْهُمْ قَالَ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهُ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ".

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) اِخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْعُلَمَاءِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ فِي حَقِيقَةِ التَّوَكُّلِ، فَحَكَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَا يَسْتَحِقُّ اسْمَ التَّوَكُّلِ إِلَّا مَنْ لَمْ يُخَالِطْ قَلْبَهُ خَوْفٌ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ سَبْعِ أَوْ عَدُوٍّ حَتَّى يَبْزُكَ السَّعْيُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ ثِقَةً بِضَمَانِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ رِزْقُهُ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: حَدَّهُ الثَّقَّةُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَالْإِتْقَانُ بِأَنْ قَضَاءَهُ نَافِذٌ وَاتِّبَاعُ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السَّعْيِ فِيمَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالتَّحَرُّزِ مِنَ الْعَدُوِّ كَمَا فَعَلَهُ الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ: وَهَذَا الْمَذْهَبُ هُوَ اِخْتِيَارُ الطَّبْرِيِّ وَعَامَّةُ الْفُقَهَاءِ.

وَلَا يَصِحُّ التَّوَكُّلُ مَعَ الْإِلْتِقَاتِ وَالطَّمَأْنِينَةِ إِلَى الْأَسْبَابِ، بَلْ فِعْلُ الْأَسْبَابِ سُنَّةُ اللَّهِ وَحِكْمَتُهُ وَالثَّقَّةُ بِأَنَّهُ لَا يَجْلِبُ نَفْعًا وَلَا يَدْفَعُ ضَرًّا وَالْكَلِّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَحَدَّهُ. قَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ الْفُشَيْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: اِعْلَمْ أَنَّ التَّوَكُّلَ مَحَلُّهُ الْقَلْبُ، وَأَمَّا الْحَرَكَةُ بِالظَّاهِرِ فَلَا تُنَافِي التَّوَكُّلَ بِالْقَلْبِ بَعْدَ مَا تَحَقَّقَ الْعَبْدُ أَنَّ الثَّقَّةَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنْ تَعَسَّرَ شَيْءٌ فَبِتَقْدِيرِهِ، وَإِنْ تَيْسَّرَ فَبِتَيْسِيرِهِ^{٣١٣}.

التوكل طاعة:

وفي هذا قال الله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}^{٣١٤}.

والتوكل على الله طاعة لله ولرسوله لأن الله قد عرفنا في كتابه أن لكل شيء سبب فلا

ننصرف عن التوكل بالتواكل.

ونأخذ بأسباب النصر بإعداد الجيوش.

^{٣١٣} السابق

^{٣١٤} الأنفال - ٤٦

وبأسباب الشفاء بإعداد الدواء.

وبأسباب الطعام بشق الأنهار وتعمير الأرض وزراعتها.

وبأسباب القوة في كافة أشكالها بإعداد الإنسان الخليفة.

ونستلهم قول الله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكْنَأُ لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا} ٣١٥.

فالتوكل على الله هداية، وعدم التوكل على الله ضلال، لأنه الخالق المالك الذي يملك النفع والضرر، ولا يملك كشف الضرر سواه، ولا يملك رحمة بخلقه سواه، لذا فإن الله هو الكافي الذي لا كافي غيره وهو ملاذ وملجأ المتوكلين، ومن يتوكل على الله فإله كافيه وهذا قوله تعالى لنبيه وبشراه لكل من يتخذه وكيلًا ويصدق بكلامه وأنبياؤه: {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} ٣١٦

وسنختم بحثنا في اسم الله الوكيل وعلاقته بمعنى الخلافة وأن الخليفة هو من يتوكل عليه والاعتماد عليه مع الأخذ بأسباب النجاح وهذا ما تمثل في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في حياته بشكل عام وفي الهجرة بشكل خاص، مع إننا نجد التوكل في أسمى صورته في كل لمحة من ملامح حياته ومواقفه صلى الله عليه وسلم، ففي الهجرة صور الله لنا هذا التوكل في قوله تعالى في الحوار بين الصديق والحبيب بقوله تعالى: {إِلَّا تَتَّصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} ٣١٧.

٣١٥ الكهف ٨٣ - ٨٥

٣١٦ الزمر ٣٧ - ٣٨

٣١٧ التوبة ٤٠ -

فمعية الله في التوكل عليه والأخذ بأسبابه، فلا حزن لمن كان الله معه، ولا هزيمة لمن كان الله ناصره، ولا فقر لمن كان الله رازقه، والسكينة لمن يستأنس به، والكفاية لمن يكتفي به، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

اللهم يا الوكيل على كل شيء في هذا الكون الكبير لا توكل علينا من لا يخافك ولا يخشاك واجعل اللهم يا وكيل الخير وكيلا فينا على الشر فلا يعتري أفعالنا نقص أو تقصير أو ضعف أو ظلم أو أي تصرف من التصرفات التي لا ترضيك واجعلنا يا الوكيل ممن وكتلتهم على الأرض بالخلافة فيها لا للإفساد.

وسدد يا الوكيل أمرنا إلى ما فيه خيرنا وخير البلاد والعباد ولما فيه عزة ورفعة الإسلام والمسلمين في كل مكان واجعلهم ممن ينصرون دينك الحنيف ضد الشرك والمشركين. اللهم يا الوكيل أعزنا بعزك وانصرنا بنصرك ولا تكلنا لأحد غيرك.

اللهم يا الوكيل بك آمنا وعليك توكلنا وأولينا أمرنا إليك فاجعلنا ممن تحققوا بمعنى الخلافة فأقاموها متوكلين عليك منيبيين إليك مقتدين بكتابك عاملين بسنة نبيك مخالفين من خالفك موالين من والاك، اللهم يا الوكيل لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك اللهم يا نعم المولى ونعم الوكيل والنصير تولنا في الأمور كلها، إنك ولينا والحمد لك.

اللهم يا الوكيل إننا نركع ونسد لك فلا تجعلنا من الراكعين والساجدين لغيرك، إنك ولينا لا إله إلا أنت خالق كل شيءٍ نعبدك وأنت على كل شيءٍ وكيلٌ لا تدركك الأبصارُ وأنت تدرك الأبصارَ خالق الأشجار والليل والنهار وعالم الأسرار إنك الواحد القهار وأنت اللطيف الخبير وإنك بنا وكيل.

القوي

القوي هو الذي لا مكان للضعف فيه، وهو القادر بقوته على أن يفعل ما يشاء متى شاء وكيف ما يشاء، ولذا فالقوي المطلق يمتلك معطيات القوة في ذاته، يغلب ولا يُغلب، يقهر ولا يُقهر، يكيّد ولا يكاد، ويمكر ولا يُمكر به. قال تعالى: ﴿لَوْ مَكَرُوا وَاللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ﴾^{٣١٨}.

القوي: "من أسمائه ومعناه: الموصوف بالقوة"^{٣١٩}.

القَوِيُّ: "قَدْ يَكُونُ بِمَعْنَى الْقَادِرِ، وَمَنْ قَوِيَ عَلَى شَيْءٍ فَقَدْ قَدَرَ عَلَيْهِ، وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَاهُ التَّامُّ الْقُوَّةَ الَّذِي لَا يَسْتَوَلِي عَلَيْهِ الْعَجْزُ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَالْمَخْلُوقُ وَإِنْ وُصِفَ بِالْقُوَّةِ، فَإِنَّ قُوَّتَهُ مُتَّاهِيَةٌ، وَعَنْ بَعْضِ الْأُمُورِ قَاصِرَةٌ"^{٣٢٠}.

القوي "هو الكامل القدرة على الشيء تقول هو قادر على حمله فإذا زدته وصفا قلت هو قوي على حمله وقد وصف نفسه بالقوة فقال عز قائلًا إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين"^{٣٢١}.

القوي اسم من أسماء الله الحسنى والقوة صفة لازمة للذات الإلهية وهي صفة أزلية أبدية مطلقة اختص بها الله سبحانه وتعالى وهي من متممات القدرة القاهرة التي يسير بها الكون وما فيه من أجرام وكواكب سيارة وما في السماوات والأرض من مخلوقات صامتة وصائتة. فالمخلوقات الصامتة كالجبال والبحار والرياح والسحاب والأرض وما أقلت والسماء وما أظلت وما بينهما من أمطار وعواصف وأعاصير وهذه الكوكب ومداراتها والنجوم ومساراتها

^{٣١٨} آل عمران ٥٤.

^{٣١٩} شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج ١، ص ٢٢.

^{٣٢٠} الأسماء والصفات للبيهقي، ج ١، ص ١١٧.

^{٣٢١} تفسير أسماء الله الحسنى، ج ١، ص ٥٤.

وتقلب الليل والنهار إن هي إلا مُسَيَّرَةٌ بِقُدْرَةِ الْقَوِيِّ الَّذِي أَنْزَلَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ قَوْلَهُ: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} ٣٢٢ وأما المخلوقات الصائتة فالإنسان والحيوان والطيور وما دبَّ على الأرض وما طنَّ في السماء وما انساب في الماء بإذن ربِّه فهي قوة نسبية سخرها الله لمخلوقاته لقضاء حوائجهم وإعمار الأرض وإقامة الدين سواء أكانت قوة مادية تتجلى في الجهد والسعي والعمل أم قوة معنوية كالعقل والفكر والتأمل التي تدرك بها قوة الله المطلقة وعظمته وبقية صفاته جلَّ شأنه حتى يعلم الإنسان أن الله ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير. فهو جلَّ شأنه ليس كمثلته شيء لا في العلم ولا في السمع ولا في الإبصار ولا في القوة بل ولا في جميع صفاته التي يكون العلم بها عن طرق ثلاثة هي الحس والعقل والخبر.

١ . الحس: وهو الشعور بالحرارة والبرودة وسير الرياح وشدتها.

٢ . العقل: الذي يدل على أن وجود الموجود لا بد له من واجد.

٣ . الخبر: وهو النبوءات التي جاء بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهذه أدلة قطعية على إدراك القوة المطلقة لله تعالى، سواء أدرك البشر ذلك أم لم يدركوا لأن صفات الله تعالى ثابتة لا تتوقف على العلم بها ومن هنا نستطيع القول أن العقل ليس أصلاً لإثبات صفة من صفات الذات الإلهية، ولا معطياً لها صفة لم تكن، ولا مفيداً لها صفة كمال، وهذا يعني أن صفة القوة مطابقةً للمعلوم المستغنى عن العلم به تابعة له ليست مؤثرة فيه، ولهذا فإن علم الله صفة لازمة غير مؤثرة على عكس القوي التي هي صفة لازمة مؤثرة مدركة وإن جردها الجاحدون أو لم يعلموا بها؛ ذلك أن عدم العلم ليس علماً بالعدم وإنما هو جهل بالعلم.

فالله سبحانه وتعالى دلل على وجوده وقوته بآياته التي خلقها للناس من أجل التفكير والتدبر للوصول الى حقيقة الوجود الإلهي أولاً ومن ثم إدراك قوة الله تعالى من خلال هذه الآيات قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} ٣٢٣ .

ومن هنا فمظاهر القوة الإلهية متعددة وتظهر في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} يدل على السموات والأرض وما هما عليه من إبداع مع ما فيهما من أعاجيب العبر وبدائع الصنع تعجز عن فهمها عقول البشر وهي دلالة أيضاً على قوة الله وقدرته في إبداع خلقه، لاسيما إذا علمنا أن الإبداع هو الخلق على غير مثال يحتذى، فهو لا ينقل عن سابق ولا يقلد مثالا ولا يشاور عاقلا ولا يستشير برأي، وإنما يبدعه فيكمل خلقه على أحسن صورة لهذا الخلق المراد، لأن أي تبديل أو تغيير أو تحوير أو تطوير أو تجميل فإنه سوف يكون ناقصاً لا محالة من جانبيين:

- ١- جانب الخلق المتكامل من حيث الشكل والصورة أي من الناحية الجمالية لهذا الشكل، فأني نقص سيكون تعطيلاً للمهمة أو لجزء من هذه المهمة التي أبداع من أجلها هذا الخلق.
- ٢- ولهذا فإن الله تعالى أعطى كل شيء خلقه فأحسن إبداعه وتصويره، وكان في أعلى مراتب الخلق حيث قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} ٣٢٤ وأحسن تقويم هو تقويم الشخص أو الإنسان نفسه وليس المقصود هو عملية مفاضلة بين إنسان وإنسان أو بين رجل ورجل أو بين امرأة وامرأة، وإنما هو الشخص نفسه في الهيئة التي خلقه الله عليها من الشكل والصورة واللون والبنية والطول وتناسب الأبعاد، فإن طراً على هذا الشكل طارئ

٣٢٣ آل عمران ١٩٠ .

٣٢٤ التين ، ٤ .

تغيرت هذه الأبعاد والنسب مما يؤدي الى تشويه الصورة التي جعلها الله في أحسن تقويم لها، وسواء أكان هذا الطارئ طبيعياً كقطع يد أو جرح أنف أو فقيء عين، أم كان مقصوداً مثل ما نشهده في هذه الأيام من عمليات التجميل، لا لعلة مرضية وإنما لتغيير خلق الله تعالى بإتباع الشيطان وأمره مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيَّتْهُمْ وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلِيَبْتِغَنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرَّتْهُمْ فليُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾^{٣٢٥}

إن الآيات تدل المتأملين والمنفكرين على قوة الله وعظمته في الخلق والتمييز بين أنواع هذه المخلوقات وجواهرها ومعادنها وما لهذه المخلوقات من تباين حتى في اللفظ، فقد جمع السموات وافرد الأرض، لأن كل سماء ليست من جنس الأخرى، ولذا فلك كل واحدة غير فلك الأخرى والأرضون كلها من جنس واحد وهو التراب، واختلاف الليل والنهار، أي في تعاقبهما في الذهاب والمجيء يخلف أحدهما صاحبه إذا جاء أحدهما جاء الآخر خلفه أي بعده وفي الزيادة والنقصان والظلمة والنور وهذه الفلك التي تجري في البحر لا ترسب تحت الماء وهي ثقيلة كثيفة والماء خفيف لطيف وتقبل وتدبر بريح واحدة أي تجري مصحوبة بالأعيان والمعاني التي تنفع الناس فإنهم ينتفعون بركوبها والحمل فيها للتجارة فهي تنفع الحامل لأنه يريح والمحمول إليه لأنه ينتفع بما حمل إليه فهذه سمات ومظاهر القوة المطلقة التي اتصف بها الله تعالى ولا يمكن السؤال عن أسبابها لأنه ينتقي فيها الكم والكيف على عكس الخليفة الذي يختاره الله لإعمار الأرض فيجب أن يكون قويا وأن يأخذ بأسباب القوة لنصرة الحق وإقامة العدل فإن عارضه معارض أو عانده معاند كان معذورا إن انتفض لإعادة الأمور إلى نصابها ووضع الموازين في أفساطها إذ أنه من حق الخليفة أن يستنهض جميع أسباب القوة المادية والمعنوية لأن يردع كل من خرج عن طاعة الله سبحانه ولو بإعلان الحرب واستحضار القوة التي منحها الله تعالى للخليفة من أجل إقامة العدل وبسط

^{٣٢٥}النساء ١٧-١٨

سلطانه، ودحر الظلم والجور وإزهاقه، وبهذا يكون الخليفة قد أدى ما عليه من حق الله تعالى في إطاعة أوامره باستخدام هذه القوة بما يحبه الله ويرضى عنه ويرضى هو عن نفسه بإقامة العدل وإعمار الأرض وصلاح العباد ونشر الأمن والطمأنينة في نفوس البشر وفي ديارهم وبلدانهم، وبهذا يكون أدى ما عليه من حق هذه القوة المستمدة من قوة القوي العزيز بالكلمة والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن تم الأمر بهذه الوسائل فقد كفى الله المؤمنين القتال، وإن كان غيره فبالقوة القاهرة وإعلان الحرب حتى يعود الحق إلى نصابه.

و ليس شيء أجل من الحرب، لأنه يبين فيها فضل القوة والتدبير، وفضل الرأي وفضل الحزم، وفضل الاحتياط، وفضل التعبئة، وفضل المكيدة، وفضل الاحتراس، وفضل النجدة، وفضل البأس، وفضل الجلد، وفضل الشجاعة، وفضل جميع ما ذكر من الشرائع لأن جميع هذه الصفات والقيم إنما تعبر عن شكل من أشكال القوة، فمن عدم من شيء من هذا عرف موضع تقصيره لأن خطأها لا يستقال، والعجز فيها متلف للمهج، والجهل مبيح للحمى، وترك الحزم ذهاب الملك، وضعف الرأي جلب للعطب، والتقصير سبب الهزيمة، وقلة العلم بالتعبئة داعية الانكشاف، وقلة المعرفة بالمكيدة تهور إلى الهلكة، وترك الاحتراس نهضة للعدو، فإن أصاب ظفر وإن أخطأ هلك، فمن أخذ بهذه الأسباب فقد امتلك مجامع القوة ورأس هذا كله وعموده الذي يقوم عليه هو قوة الإيمان ولهذا يجب أن يكون الخليفة قوياً يستمد قوته من إيمانه بصاحب القوة العزيز الجبار الذي أوكله بإعمار هذه الأرض والدفاع عنها ومنع المارقين من إظهار فسادهم في الأرض وإن اقتضى ذلك أن يجمع لهم الجموع وأن يسير لهم الجيوش وذلك من أجل منع الإفساد في الأرض وقهر الذين يحاربون الله ورسوله فهذا من أوليات مهام الخليفة القوي ذي السطوة على أعداء الله الذين لا يريدون للأرض إصلاحاً ولا للعباد صلاحاً قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ

تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^{٣٢٦} ومن هنا يمكن أن نستنتج أن المحاربة مع الله تعالى غير ممكنة فيجب حمله على المحاربة مع أولياء الله، والمحاربة مع الرسل ممكنة، فلفظة المحاربة إذا نسبت إلى الله تعالى كانت مجازاً، لأن المراد منها المحاربة مع أولياء الله، وإذا نسبت إلى الرسول كانت حقيقة فلذلك استمد الخليفة القوة والسلطان من صاحب القوة حتى يقيم العدل ويبسط الأمن في الحفاظ على مصالح الرعية الدنيوية والدينية في الأولى والآخرة ويعمر الأرض بهذه القوة وهي قوة مسخرة لفعل الخيرات ودحر المنكرات وإعلاء كلمة التوحيد ورفع راية الإيمان وبسط سلطان العدل الذي أمر به القوي المتين والذي جعل من قوته عوناً لأولياءه وحرباً على أعدائه: **لَوْلِيَيْنُصَرَّنَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**^{٣٢٧}

وانظر إلى قوة القوي العزيز في إيضاح القوة المتنامية لخلقه بالتدرج من الأدنى إلى الأعلى حتى تبلغ الأوج والقمة، بحيث لا تكون هذه القوة الممنوحة للخلق دفعة واحدة، وإنما هو الذي يتولاها وبرعاها وبعد ذلك تأخذ بالإنحدار حتى تتلاشى وتعود إلى خالقها ومانحها، ويقرب الله تعالى لنا هذه الصورة بأن ضرب مثلاً من الأرض الهامدة حتى إذا ما أصابها الماء اهتزت وهذا الإهتزاز إنما هو قوة مصداقاً لقوله تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**^{٣٢٨}

فمن مظاهر القوة التي يضيفها الله على مخلوقاته بث الحياة في أنواع النبات الذي يقوم على سوقه خضراً نضراً من الأشجار والزررع على وجه الأرض ثابتاً قوياً يصمد في وجه

^{٣٢٦} المائدة ٣٣ - ٣٤ .

^{٣٢٧} الحج ٤٠

^{٣٢٨} الحج ٥

الرياح والعواصف وبث فيها هذه الحيوانات المتنوعة من كل دابة ومن كل حيوان يدب على وجهها من العقلاء وغيرهم وهو إن بث الدواب يكون بعد حياة الأرض بالمطر لأنهم ينمون بالخصب ويعيشون بالمطر حالهم حال هذه النباتات والزررع وكذلك تصريف الرياح بهذه القوة العجيبة أي في قلبها في مهاها إقبالا وإبارا وشمالا وجنوبا وفي كيفيتها حارة وباردة وفي أحوالها عاصفة ولينة وفي آثارها عقمًا ولواقح وفي إتيانها تارة بالرحمة وتارة بالعذاب وهذا من أعظم مظاهر قوة الله وقدرته أنه جعل السبب الواحد أصلا للمتناقضات فقد قال الله تعالى: {وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ} ٣٢٩.

ومن مظاهر القوة التي يمد بها الله خلفاءه في الأرض وأوليائه وعباده الصالحين موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه عندما بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن قوما يفضلونه على أبي بكر الصديق فوثب مغضبا حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال: "أيها الناس سأخبركم عني وعن أبي بكر أنه لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب ومنعت شاتها وبغيرها فأجمع رأينا كلنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن قلنا له يا خليفة رسول الله إن رسول الله كان يقاتل العرب بالوحي والملائكة يمدنه الله بهم وقد انقطع ذلك اليوم فالزم بيتك ومسجدك فإنه لا طاقة لك بقتال العرب فقال أبو بكر: أوكلكم رأيه على هذا؟ فقلنا نعم. فقال والله لئن أخر من السماء فتخطفني الطير أحب إلي من أن يكون رأيي هذا ثم صعد المنبر فحمد الله وكبره وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت أيها الناس أئن أكثر أعدائكم وقل عددكم ركب منكم الشيطان هذا المركب؟ والله ليظهرن الله هذا الدين على الأديان كلها ولو كره المشركون قوله الحق ووعد الصديق {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ

فَيَدْمَعُهُ فَإِذَا هُوَ رَاهِقٌ^{٣٣٠} وقال تعالى: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}^{٣٣١}. أيها الناس والله لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه واستعنت عليهم الله والله خير معين^{٣٣٢}. فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه خليفة الله في الأرض وخليفة المسلمين الذي كان يسمع نشيجه من شدة البكاء عند تلاوة القرآن من خلف صفوف المصلين رقة وضعفا وخشية ورحمة ينتفض طودا عاليا وبحرا عاتيا قويا صلبا لا تأخذه في الحق لومة لائم مستمدا قوته من القوي العزيز.

ومن مظاهر قدرة الله إبراز تلك القوة في زلزلة الساعة وما فيها من قوة تأخذ بالعقول وتذهب بالأبصار وتحير كل ذي لب في رسم مشاهد يوم القيامة من تصوير ذلك الهول العظيم وشدة الموقف وذهول الخلائق من قوة الله وقدرته وبطشه وجبروته حتى يذعن الخلق لإرادته فقد جسد ذلك في قوله جل جلاله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَتُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهَيْجٍ^{٣٣٣}.

إن من أعظم مظاهر القوة والقدرة في امتلاك الشأن والأخذ بنواصي جميع المخلوقات العاقل منها وغير العاقل والأرض والجبال والبحار والسموات والكواكب والأجرام والنطف المخلقة وغير المخلقة ولا يرد بأس الله عن خلقه إلا رحمته سبحانه وتعالى وتقوى من اتقى وخشي

^{٣٣٠} الأنبياء ١٨.

^{٣٣١} البقرة ٢٤٩.

^{٣٣٢} تهذيب الكمال، ص ٨.

^{٣٣٣} الحج ٥.

الرحمن بالغيب لأن التقوى منجاة من بطش الله وجبروته التي تتمثل في صفة القوي باجتتاب محارمه والإقبال على طاعته ففي هذا دليل على أن الإنسان يكون قويا بطاعته لله ضعيفا بمعصيته له وعلى هذا فإن التقوى من أبواب القوة التي منحها الله للعبد.

واعلم أنه تعالى أمر الناس بالتقوى فدخل فيه أن يتقي كل محرم ويتقي ترك كل واجب وإنما دخل فيه الأمران، لأن المتقي إنما يتقي ما يخافه من عذاب الله تعالى فيدع لأجله المحرم ويفعل لأجله الواجب، فإذا تصور زلزلة الساعة يكون أشد خشية لله وأكثر تقوى له وهو بالتالي أشد قوة في تمسكه بالإيمان رغبة ورهبة من زلزلة الساعة وخاصة أن هذه الزلزلة تكون في الدنيا وهي التي يكون معها طلوع الشمس من مغربها. وقيل هي التي تكون معها الساعة. وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الصور "إنه قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعقة، ونفخة القيام لرب العالمين، وإن عند نفخة الفزع يسير الله الجبال وترجف الراجفة، تتبعها الرادفة، قلوب يومئذ واجفة، وتكون الأرض كالسفينة تضربها الأمواج أو كالقنديل المعلق ترججه الرياح"^{٣٣٤} فالقوي هو القادر على الفعل العظيم، ويقوى على الفعل حقا من غير عجز ولا ضعف، ويقدر على غيره من الأفعال الكبيرة شأنا وقدرًا.

والله تعالى هو القويُّ حقا: لأنه هو القادر النافذ أمره ولا معنى للعجز وللضعف في ساحة قدسه وملكه في حال من الأحوال، والله تعالى له القدرة المطلقة التي لا تحد ولا تأخذه سنة ولا نوم، فهو القوي والقادر على كل شيء ولا يعجزه شيء لا في تكوين خلقه ولا في هدايته وإيصال نعمه له مما يقويه، ولا في إتمام حجته البالغة على عباده، ولا ضد يمنعه، ولا عظيم خلق ودقة يعجزه عن إيجاده ونفوذ أمره فيه، وهذا كل شيء في الوجود مجرات وكواكب وسماوات وأرضين وما فيهما من الخلق الكبير والصغير حتى الذرة وما فيها من خلقه يشهد له بوجوده وبكل صفاته وأفعاله إن خالقه هو الله القوي القدوس ومالك الملك. فالله تعالى وحده لا شريك له هو القوي وذو القوة المتين: لأنه له العلم والقدرة

^{٣٣٤} تفسير ابن حاتم، ج ٥، ص ١٣٦.

والخبرة والحكمة في خلق كل شيء وهدايته ومدّه بنعمه وتقويته ليبقى ويفعل لغاياته، ومع دقة الصنع والمتانة المتناهية، في إحكام وجود كل شيء. ومن منحه الله القوة وتجلي عليه بالاسم الحسن القوي بالتجلي الخاص يكون له الهمة المتعالية النافذة في معرفة هدى الله وبإيمان راسخ لا يزيله شيء، وعنده الدليل المحكم على تنفيذ أقوى الشبه، ويكون قوي بتطبيق دينه وإطاعة ربه لا يعجز ولا يضعف عن كثرة العبادة لله تعالى، كما تكون له قوة بدنية لا يطيقها أحد ولا يستطيعها أحد لأن هذه القوة من الله القوي من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل ودحره بحول الله وقوته حيث لا حول ولا قوة إلا بالله القوي المتين.

والخليفة: قوي في دينه له إيمان راسخ لا يزول، وقوي في تطبيق تعاليم الله وإقامة العبودية لله وبإطاعته بكل أوامره، وقوي في مقاومة الشبهات عن معرفة، وقوي في مقاومة الشهوات والمغريات عن يقين، وقوي في مقاومة زينة الحياة الدنيا وقوي في جهاد أعداء الله، وبهذا يُعرف أنه قد تجلى عليه اسم الله القوي، وإلا من يرى في نفسه ضعف إيمانٍ أو عجزٍ في تعلم دينه ومعارفه، أو عنده تساهل في تطبيق الدين والطاعة والعبودية لله وأمام أعداء الله؛ عليه أن يتوجه لله القوي ويتوسل باسم الله القوي القادر حتى يقويه في دينه وبدنه ليخلص له العبودية والدين، كما لا بد أن يتعلم من الأقوياء في دينهم وطاعتهم لرب العالمين ويتدبر بأقوالهم بأنه الله القوي هو صاحب القدرة التامة البالغة الكمال غالب لا يغلب فقوته فوق كل قوة والحمد لله رب العالمين.

القوي: ورد في قوله تعالى: {إن ريك هو القوي العزيز} ٣٣٥.

ومعناه: ذو القوة التامة الذي لا يلحقه العجز في حال من الأحوال.

الله تعالى له القدرة المطلقة، إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل. وهذا ليس لأحدٍ سواه سبحانه وتعالى القوي المتين.

القوي المتين من أسماء الله تعالى جل شأنه، وورد في الحديث النبوي الجامع لأسماء الله الحسنى وفي أكثر من آية قرآنية.

والقوي المتين اسمان من الأسماء الجلالية لله تعالى والتي تشير إلى معاني السلطان والعظمة والجبروت والقهر والغلبة والقوة، وجميعها تذكر لله تعالى على سبيل الإطلاق، فلا حدود لها ولا قيود عليها. والجمع بينهما فيه تأكيد؛ لأن الله - عز وجل - القوة المطلقة والمتانة المطلقة والقدرة المطلقة والتي بها يدبر الله أمر الكون وينظم حركاته وسكناته وظواهره، الجليل منها والدقيق.

فالله تعالى هو وحده الذي خلق كل ما في الكون وبيده وحده الأمر كله، لا يشاركه في ملكه أحد ولا ينازعه فيه أحد، فلا بد أن يكون قويا متينا قادرا على كل شيء؛ لأنه إله واحد وخالق واحد ومدبر واحد، وهذا كله ليس لأحد غير الله - سبحانه وتعالى - القوي المتين الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. فإذا أراد شيئا ما كبر أم صغر فإنه يقول له كن فيكون؛ لأن له القدرة والقوة المطلقة الشاملة لكل شيء والخارقة التي عجز الواصفون عن وصفها والمتانة المطلقة التي بها يخلق ما يشاء كيفما يشاء.

والقوي يدل على القدرة التامة، والمتين يدل على شدة القوة، والجمع بين الاثنين يدل على العظمة اللامتناهية، فالله تعالى من حيث انه بالغ القدرة تامها قوي، ومن حيث انه شديد القوة متين. وذلك كله يرجع إلى عدة معان من أهمها القدرة، وكذلك معاني السلطان الأعظم والجبروت الأكبر والقهر الأجل والكبرياء المطلق والعزة السامية والجلال المحكم، وهي جميعها ليست إلا لله وحده على سبيل الإطلاق والانفراد، فالله القوي المتين انفرد بقوته وقدرته وسلطانه وتنزهه عن كل مخلوق، فهو قدوس سبح رب الناس والملائكة خالق الإنس والجن ومسير الكون بما فيه.

ولكي نفهم معنى القوي المتين لابد من أن نفهم معنى القدرة وهي عبارة عن المعنى الذي به يوجد الشيء مقدرًا بتقدير الإرادة والعلم، فالله تعالى قوي متين قادر إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل.

القوي المتين. هذان الاسمان بينهما مشاركة في أصل المعنى، القوة تدل على القدرة التامة، والمتانة تدل على شدة القوة والله القوي صاحب القدرة التامة البالغة الكمال، والله المتين شديد القوة والقدرة والله متم قدره وبالغ أمره واللائق بالإنسان أن لا يغتر بقوته، بل هو مطالب أن يظهر ضعفه أمام ربه، كما كان يفعل عمر الفاروق حين يدعو ربه فيقول: (اللهم كبرت سني وضعفت قوتي) لأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، هو ذو القوة أي صاحبها وواهبها، وهذا لا يتعارض مع حق الله أن يكون الخلفاء في الأرض أقوياء بالحق وفي الحق وبالحق.

هو تعالى كامل القوة عظيم القدرة شامل العزة قال تعالى: {إن العزة لله جميعاً} ^{٣٣٦} وقال تعالى: {إن ربك هو القوي العزيز} ^{٣٣٧} فمعاني العزة الثلاثة كلها كاملة لله العظيم.

١- عزة القوة الدال عليها من أسمائه القوي المتين، وهي وصفه العظيم الذي لا تتسب إليه قوة المخلوقات وإن عظمت. قال الله تعالى: {إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} ^{٣٣٨}، وقال: {والله قدير والله غفور رحيم} ^{٣٣٩} وقال عز وجل: {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض} ^{٣٤٠} وقال تعالى:

^{٣٣٦} يونس ٦٥

^{٣٣٧} هود ٦٦

^{٣٣٨} لذاريات ٥٨

^{٣٣٩} الممتحنة ٧

^{٣٤٠} الأنعام ٦٥

{وكان الله على كل شيء مقتدرًا}^{٣٤١} وقال عز وجل: {إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر}^{٣٤٢}.

٢- وعزة الامتناع فإنه هو الغني بذاته، فلا يحتاج إلى أحد ولا يبلغ العباد ضره فيضرونه، ولا نفعه فينفعونه، بل هو الضار النافع المعطي المانع.

٣ - وعزة القهر والغلبة لكل الكائنات فهي كلها مقهورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته، فجميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرك منها متحرك ولا يتصرف متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا به. فمن قوته واقتداره أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وأنه خلق الخلق ثم يميتهم ثم يحييهم ثم إليه يرجعون: {ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة}^{٣٤٣} وقوله تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه}^{٣٤٤}.

ومن آثار قدرته أنك ترى الأرض هامدة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ومن آثار قدرته ما أوقعه بالأمم المكذبين والكفار الظالمين من أنواع العقوبات وحلول المثالات، وأنه لم يغن عنهم كيدهم ومكرهم ولا جنودهم ولا حصونهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك، وما زادهم غير تنبيي، وخصوصاً في هذه الأوقات، فإن هذه القوة الهائلة والمخترعات الباهرة التي وصلت إليها مقدره هذه الأمم هي من إقدار الله لهم وتعليمه لهم ما لم يكونوا يعلمونه، فمن آيات الله أن قواهم وقدراتهم ومخترعاتهم لم تغن عنهم شيئاً في صد ما أصابهم من النكبات والعقوبات المهلكة، مع بذل جدهم واجتهادهم في توقي ذلك، ولكن أمر الله غالب، وقدرته تتقاد لها عناصر العالم العلوي والسفلي. ومن تمام عزته

^{٣٤١} الكهف ٤٥

^{٣٤٢} القمر ٥٥

^{٣٤٣} لقمان ٢٨

^{٣٤٤} الروم ٢٧

وقدرته وشمولهما: أنه كما هو الخالق للعباد فهو خالق أعمالهم وطاعاتهم ومعاصيهم، وهي أيضاً أفعالهم، فهي تضاف إلى الله خلقاً وتقديراً وتضاف إليهم فعلاً ومباشرة على الحقيقة، ولا منافاة بين الأمرين، فإن الله خالق قدرتهم وإرادتهم، وخالق السبب التام خالق للمسبب، قال تعالى: {والله خلقكم وما تعلمون} ^{٣٤٥}.

ومن آثار قدرته ما ذكره في كتابه من نصره أوليائه، على قلة عددهم وعددهم على أعدائهم الذين فاقوهم بكثرة العدد والعدة، قال تعالى: {كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله} ^{٣٤٦} ومن آثار قدرته ورحمته ما يحدثه لأهل النار ولأهل الجنة من أنواع العقاب وأصناف النعيم المستمر الكثير المتتابع الذي لا ينقطع ولا يتناهى. فبقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبّرها، وبقدرته سواها وأحكمها، وبقدرته يحي ويميت، ويبعث العباد للجزاء، ويجازي المحسنين بإحسانهم والمسيء بإساءته، وبقدرته يقلب القلوب ويصرفها على ما يشاء الذي إذا أراد شيئاً {أن يقول له كن فيكون} ^{٣٤٧}

والقوي خلاف الضعيف، وهو الذي يَغلب ولا يُغلب، والقوي المستمر بالقوة دون تعب أو نقصان مما يجعل قوته عز وجل مغالبة لكل قوة.

والقوي هو اسم من أسماء الله الحسنى، يثبت لله كمال القدرة على الشيء فلا يستولى عليه العجز في حال من الأحوال، وهو إحدى صفات العظمة والكمال الدالة على القوة والجبروت ولقد سمى الحق تبارك وتعالى نفسه القوي فقال تعالى: {وهو القوي العزيز} ^{٣٤٨} فإن حملنا القوة في حق الله تعالى على كونه كامل التأثير في الممكنات كان معنى القوة هو القدرة، وإن حملنا القوة في حق الله تعالى على كونه غير قابل للأثر من غيره كان معنى قوته هو كونه واجب الوجود لذاته، وذلك لأنه كلما كان واجب الوجود لذاته كان واجب الوجود من جميع

^{٣٤٥} الصافات ٩٦

^{٣٤٦} البقرة ٢٤٩

^{٣٤٧} يس ٨٢.

^{٣٤٨} الشورى ١٩.

جهاته، وكل ما كان كذلك لم يقبل الأثر من غيره البتة، لا بتحصيل شيء فيه كان معدوماً، ولا بإعدام شيء كان موجوداً، فكمال حال الشيء في أن يؤثر يسمى قوة، وكمال حال الشيء أن لا يقبل الأثر من الغير يسمى أيضاً قوة فهو اسم يوحى بالغلبة والمنعة والسلطان التام، ونفاذ الأمر في جميع المخلوقات بلا رد، ولا معارضة، ولا تعقيب وقد ورد اسم القوي في القرآن الكريم مقترناً ومصاحباً لاسمه تعالى المتين قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنْ اللَّهُ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾^{٣٤٩}.

وهذه المصاحبة تؤدي معنى ثبات هذه القوة ودوامها، فهو يؤثر ولا يتأثر، يغير ولا يتغير، مع الرفعة والتتزه وقد ورد مصاحباً لاسمه تعالى العزيز في عدة مواضع، يقول تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾^{٣٥٠} وقال تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^{٣٥١}.

وقال عز وجل: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^{٣٥٢} إلى غير ذلك من الآيات التي ورد فيها اسم القوي مصاحباً لاسم العزيز، وهي مصاحبة تدل على القوة القاهرة لا يعترها وهن ولا يلحقها فتور، فهو قوي بنعمته، قوي بنصرته، قوي بعلمه، قوي بنفاذ إرادته. ومن اسم القوي يعلم العباد ممن يستمدون قوتهم المادية والمعنوية وممن يبتغون العزة قال تعالى: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾^{٣٥٣}.

والقوي في اللغة صفة مشبهة للموصوف بالقوة، وقد قَوِيَ وتقَوَّى فهو قَوِيٌّ يقال: وقَوَّى الله ضعفك أي أبدلك مكان الضعف قُوَّةً، فالقُوَّةُ نقيض الضعف والوهن والعجز، وهي الاستعداد الذاتي والقدرة على الفعل وعدم العجز عنه عند القيام به، قال تعالى لموسى عليه الصلاة و

^{٣٤٩}الذاريات ٥٦-٥٨

^{٣٥٠}الشورى ١٩

^{٣٥١}الحج ٧٤

^{٣٥٢}المجادلة ٢١

^{٣٥٣}النساء ١٣٩

السلام عن التوراة والألواح: {فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها} ^{٣٥٤} أي خذها بقوة في دينك وحجتك وقال ليحيى عليه الصلاة والسلام: {يا يحيى خذ الكتاب بقوة} ^{٣٥٥} أي خذ الكتاب بجد وعون من الله تعالى. والقوي في أسماء الله معناه أنه الموصوف بالقوة، وصاحب القدرة المطلقة، لا يغلبه غالب ولا يرد قضاءه راد، ولا يمنعه مانع ولا يدفعه دافع، وهو القوي في بطشه القادر على إتمام فعله، له مطلق المشيئة والأمر في مملكته، والقوي سبحانه قوي في ذاته لا يعتريه ضعف أو قصور، قيوم لا يتأثر بوهن أو فتور، ينصر من نصره كما قال: {ولينصرنَّ الله من ينصره إن الله قوي عزيز} ^{٣٥٦} وكتب الغلبة لنفسه ولرسله بقوته وعزته فقال سبحانه: {كتب الله لأغلبنَّ أنا ورسلي إن الله قوي عزيز} ^{٣٥٧}.

فمن قوته واقتداره أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وأنه خلق الخلق ثم يميتهم ثم يحييهم ثم إليه يرجعون، {ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة} ^{٣٥٨} وكذلك قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ^{٣٥٩}.

ومن قوة الله تعالى تأييده لرسله بالمعجزات الخارقة التي يكون فيها إظهار الحق ودحض الباطل التي لا تخضع لقانون السبب والمسبب مما اعتاد عليه العقل بالمنطق والحجة المقنعة.

ذلك أن قوانين الواقع الطبيعي نسبية غير مطلقة، ولكن هذه الخوارق والمعجزات لا تعني بالنتيجة احتمال سبب مبدئي لا مسبب له، ولكن هذه الخوارق تحدث أشياء بغير أسبابها التقليدية، ويصعب على العقل أن يضع لها قانونا ينسحب على منطق الأشياء، ولا يمكن أن

^{٣٥٤} الأعراف ١٤٥.

^{٣٥٥} مريم ١٢.

^{٣٥٦} الحج ٤٠.

^{٣٥٧} المجادلة ٢١.

^{٣٥٨} لقمان ٢٨.

^{٣٥٩} الروم ٢٧.

نكتشف قانونا منطقيا يضع نتائج هذه الخوارق ضمن ذلك الإطار لأنها خاضعة للقوة الإلهية التي اختص بها الله تعالى، حيث أبطل فعل النار الذي خلقت له، وهي الدفاء والمنفعة والعذاب، إلى برد وسلام على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ومع كونها حارقة ولا خلاف في ذلك. قال تعالى: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ} ^{٣٦٠} ومهما اجتهد مجتهد على أن يبرر إبطال فعل النار وفق القوانين الطبيعية لكان من الكاذبين ذلك أن عدم إحراق النار لمن يجلس في وسطها لا مبرر له سوى القدرة الإلهية التي هي جزء من القوة المطلقة التي اتصف بها سبحانه وتعالى وكانت من أسمائه الحسنى ألا وهو القوي المتين.

فإذا أخذنا الأمر بالتدرج نزولا من القوي صاحب القوة المطلقة إلى القوي نسبيا الذي أضيفت عليه قوة من القوي مطلقا، مقارنة مع أقرانه من بني البشر لبزهم جميعا بقوته التي استمدها من إيمانه بالله تعالى أنه هو القوي صاحب القدرة، ولهذا أصبح إبراهيم عليه الصلاة والسلام قويا في نفوس وقلوب من شهد عملية إحراقه وأن النار لم تعمل به عملها مع بقية المخلوقات فكانت قوته مدعاة لأن يؤمن به الناس أنه نبي، وكان قويا في نفسه عندما حمل الرسالة فقد أيقن أنه خليفة الله في الأرض فاستنهض همته وحزم أمره وشحذ عزيمته معتمدا على قوة الإيمان وقوة الله فانطلق من العراق إلى فلسطين مرورا بمكة قبل أن يستقر به المقام في مصر لفترة ثم قفل راجعا إلى مكة وأودع زوجته وابنه بواد غير ذي زرع وهذا بفضل ما يتمتع به من قوة قال تعالى: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} ^{٣٦١} فالذي يترك زوجته وابنه بواد غير ذي زرع ولا ضرع ولا مؤنس ولا أنيس فإنما هو معتمد على قوته التي يستمدها من إيمانه. فهو قوي بقوة الله وحوله، وقوي بثقته بالقوي العزيز، وقوي بعقله وتفكيره بأنه لا يسلمه إلا لخير لأنه معتمد على القوي المتين صاحب

^{٣٦٠} الأنبياء ٦٧ - ٧٠

^{٣٦١} إبراهيم ٣٧.

السلطان الأسمى والقوة الأسنى والسلطة الجامعة المانعة، وبهذه الثقة انطلق يصلح الأرض بعد أن أفسدها المفسدون سلباً ونهباً في إفشاء الظلم وأكل الحقوق واستعباد الناس، وبإيمانه بقوة الله وقدرته علم أن الله تعالى يدفع عنه ما سوف يراوده من الوسوسة فيما يبتغي من الحق وإظهاره والعدل ونشره وهو يدفع الضد بال ضد أي دفع الضد الضار بال ضد النافع، فالعدل ضد الجور والحق ضد الظلم والرحمة ضد العذاب، وهذا ما أيقن به إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام عندما تمتع بقوة الخليفة المكلف في إعادة الحق إلى نصابه، فلأنه قوي يستطيع أن ينصر الحق ويدفع الظلم، ولأنه قوي يستطيع أيضاً أن يبسط سلطان العدل ويطوي بساط الجور الذي بسطه المضلون في أذى الناس وضرهم من أجل استعبادهم، ولأنه قوي فإنه حتماً سيكون رحيماً ولا يرضى بالشقاء للضعفاء والمساكين، لأنه هو نصيرهم والمدافع عنهم وهو الذي إليه يأوون والحصن الذي به يمتنعون ومن اتكل على القوي العزيز وهو ينشر الفضائل ويدحر الرذائل ويبسط العدل ويسحق الظلم، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويعمل الصالحات وينهى عن السيئات خشية من القوي الحي القيوم فإنه لا يخشى غوائل الدهر ولا يخاف عواقب ما يقترفه المبطلون قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾^{٣٦٢} إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد أيقن بكأنيته حقيقة القوي ومعرفته حيث تخللت المعرفة جميع أجزائه من حيث ما هو مركب فلم يبق جوهر فرد إلا وقد حلت فيه معرفة ربه عز وجل فهو عارف به بكل جزء منه لأنه آت بالأعمال الصالحة على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفي مستلزم لحسنها الذاتي ولمعرفته اليقينية بقوة الله وقدرته فقد أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له لا يعرف لها رباً ولا معبوداً سواه، ولما كانت قوة إبراهيم مستمدة من قوة الله تبارك وتعالى فكانت لفظة الخليل معبرة عن إرادة الله تعالى في اصطفاؤه واختصاصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله، وهذا على مراتب القوة البشرية التي يمنحها الله تبارك

^{٣٦٢}النساء ١٢٤، ١٢٥.

وتعالى لأنبيائه وأوليائه وعباده الصالحين، لأنه يعلم سرائرهم ويعلم أنهم مسخرون لما خلقوا له من فعل الخير بقدرته جلّ شأنه وتعالى عزه وعظم سلطانه تبارك وتعالى عما يقولون علوا كبيرا.

وكما أن الله سبحانه وتعالى خصّ بعض البشر بنوع من القوة الإلهية كذلك خص بعض الملائكة بقوة تتناسب مع معدن خلقهم وجوهرهم، فقد خلق الجان من مارج من نار وخلق الإنسان من صلصال كالفخار أو من سلالة من طين وخلق الملائكة من نور، ولتفاوت أصل الجوهر ومعدن الخلق للمخلوقات المكافئة فقد تفاوتت أنواع القوى التي منحها الله تعالى لمخلوقاته المتفاوتة في معدن الخلق، ولما كانت الملائكة مخلوقة من أجسام نورانية شفافة كانت القوة التي أكرمهم الله بها تتناسب مع أصل الجوهر الذي خلقوا منه، ولما كانت سرعة الضوء الذي هو جزء من النور تساوي ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة، فلا بد لقوة الملائكة أن تتناسب مع أصل جوهرهم الذي يتصف بخواص تفقدها بقية مخلوقات الله تبارك وتعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثَلَاثَ وَرَبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ^{٣٦٣} فقوة الملائكة قياسا إلى طبيعة خلقهم وجوهر النور الذي خلقوا منه يتناسب تماما مع القوة التي خصهم بها الله سبحانه وتعالى.

ومن مظاهر القوة التي منحها القوي العزيز لمخلوقاته من أجل تسخيرها في إعمار الأرض ونشر الهدى والدعوة إلى سبيل الرشاد ما سخره الله سبحانه وتعالى لنبيه سليمان عليه الصلاة والسلام حيث قال تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ

الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ فَلَمَّا حَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ { ٣٦٤ .

لقد اختص الله تعالى بالقوة وجعلها اسما من أسمائه الحسنی جل شأنه وتفضل على بعض خلقه بأن منحهم من هذه القوة ما يقيمون به الدين والدنيا فيما أمر به تعالى سواء لإظهار قدرة الله بالمعجزات على أيدي الأنبياء ودعوة الناس إلى الطريق المستقيم وسبيل الهدى والرشاد ليخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه أم لقضاء حاجاتهم التي يعجزون عنها بالقوة التقليدية أم لإظهار عجز الآخرين أمام قوة الله تعالى على الرغم من القوة الهائلة التي منحها لهم، حيث أن الجن أوتوا القوة النسبية ومع ذلك فهم ضعفاء أمام قوة الله وقدرته حيث نجد قوتهم الهائلة من خلال قوله تعالى: {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنَّ أَنَا أَتَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} ^{٣٦٥} ذلك أن سليمان عليه الصلاة والسلام يعرف قوة الجن وقدرتهم على القيام بأعمال، فطلب من الحضور ممن يمتلك القوة التي تمكنه من أن يأتي بعرشها، فقال أحدهم أنا آتيتك به قبل أن تقوم من مقامك وهذا يعني أنه يمتلك قوة هائلة وسرعة شديدة على القيام بهذا العمل، غير أن الذي عنده علم من الكتاب وهو المؤمن الصالح قال أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك حتى رآه مستقرا عنده. فإذا تأملنا الحوار الذي دار بين سليمان عليه الصلاة والسلام وبين الحضور من الجن والصالحين منهم ومن غيرهم فالذي عنده علم من الكتاب لم تتضح صفته سوى قدرته على امتلاك القوة الأسرع، ولهذا لم نجد فاصلا زمنيا يفصل بين القول والفعل لأنه رأى عرش بلقيس مستقرا عنده حقيقة، وهذا يعني انعدام الزمن بين القول والفعل لعظم القوة ولشدة القدرة الطاوية للسرعة والسبب، ونستنتج من هذا أن العلم أعلى

^{٣٦٤} سبأ ١٢ . ١٤ .

^{٣٦٥} النمل ٣٩ ، ٤٠ .

مراتب القوة، إذن فالعلم قوة، ومن يمتلكه يمتلك القوة، ولهذا فالخليفة دائما قوي بما أنه المؤمن بالحق وإحقاقه ولو كره المجرمون والمنافقون.

ولكي لا يغتر مخلوق بقوته تبقى قوة القوي العزيز هي القوة المطلقة التي تسيّر كل شيء وتسيطر على كل شيء، وحتى لا يعلو أحد من الخلق على الآخرين بما أوتي من قوة بالتكبر والجبروت والطغيان تبقى قوة الله هي القاهرة المسيطرة وفق نظام هذا الكون الذي قدره الله تقديرا ويضرب الله الأمثال في ذلك لتتعظ جميع مخلوقاته وتعلم أنها مهما أوتيت هذه المخلوقات من القوة وأسبابها تبقى ضمن قوة الله وإرادته التي يريد لها هذه المخلوقات من إنسها وجننها وحيوانها وطيرها والملائكة التي تتفاوت فيما أوتيت من قوة لتبقى ضمن إطار القانون الإلهي حتى لا يبغى بعضها على بعض وقد رأينا القوة التي أتت بعرش بلقيس، ومع هذا فقد أراهم الله حجم قوتهم أنها لا تفيدهم شيئا ولا تقدم لهم منفعة ولا تدفع عنهم ضرا إلا بمشيئة الله وإرادته، فكل تلك القوة التي كانوا يتمتعون بها هي قوة نسبية وليست مطلقة، ولهذا ضعفت قوة الجن أمام الذي عنده علم من الكتاب، وحتى الذين عندهم علم من الكتاب سيظلون ضعاف أمام قوة القوي المطلق جل جلاله، ويظلون هم في حاجة لقوة من قوته تمدهم وتتاصرهم على إظهار آياته العظام وإحقاق الحق في الأرض التي استخلفهم فيها، ولذا فالجن لم يعلموا أن سليمان عليه الصلاة والسلام قد مات حتى أذن لهم الله أن يعلموه عن طريق أضعف مخلوقاته وهي حشرة الأرضة قال تعالى: {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ} ^{٣٦٦} وهنا دليل على أن قوة الله فوق كل قوة وأن عظمة سليمان وتسخير الريح والروح له بين أنه لم ينج من الموت، وأنه قضى عليه الموت، تنبيهاً للخلق على أن الموت لا بد منه، ولو نجا منه أحد لكان سليمان أولى بالنجاة، ولذا فالموت مظهر من مظاهر إظهار القوة التي لا تواجهها قوة. وهذا يعني أن مآل القوة جميعا ومرجعها إلى الله تعالى لأنه هو الذي وهبها وهو الذي يقبضها، ومن أي صنف كان هذا القوي مؤمنا

أو كافرا إنسيا أو جنيا، نبيا أو غير ذلك وطائعا كان أم عاصيا فإنه لا مرد لقضاء الله في استرجاع وديعته مهما كان نوع هذه الوديعة من مال أو روح أو قوة، ومهما يكن صاحب هذه القوة على درجة من الطاعة والإيمان حيث كان سليمان عليه الصلاة والسلام يقف في عبادة الله ليلة كاملة ويوماً تاماً وفي بعض الأوقات يزيد عليه، وكان له عصا يتكئ عليها واقفاً بين يدي ربه، ثم في بعض الأوقات كان واقفاً على عادته في عبادته إذ توفي، فظن جنوده أنه في العبادة وبقي كذلك أياماً وتمادى شهوراً، ثم أراد الله إظهار الأمر لهم بإظهار قوته في من يعتقدون أنه ضعيف لا يقدر على شيء مما حدث شاهداً أمام أبصارهم وهم ينظرون، فقدر أن أكلت دابة الأرض عصاه فوقع وعلم حاله، وهذا يعني أن قوة الجن المادية والعلمية محدودة ضمن ما أراده الله لهم من العلم والقوة حيث كانت الجن تعلم ما لا يعلمه الإنسان فظن أن ذلك القدر علم الغيب وليس كذلك، بل الإنسان الذي لم يؤت من العلم إلا قليلاً فهو أكثر الأشياء الحاضرة علماً، قال تعالى: {أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ أَلْفُ لَيْسَانَ اسْتَفْتَىٰ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ إِنْ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعْنَّ بِالْنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} ^{٣٦٧} بطبيعة الحال من يقرأ باسم ربه يقرأ خيراً كثيراً، ومن يقرأ باسمه فلن يجد للقوة سبيلاً، أي من قرأ مما علمه الله كانت له مكرمة من عنده جل جلاله، أي أنه يقرأ الحق بالحق، وهذه عين البيّنة، إما أولئك الذين غفلوا عن ذلك كفرا وطغيانا يجدون أنفسهم وما يقولون أو يقرؤون في حالة وهن وضعف، ولأن الإنسان قوة فهو القوي بالإضافة الذي يعلم أن وراء كل ظاهر باطن وسر، ووراء كل سرٍ ظاهر يمكن أن يشاهد، ومن هنا يمكن لبني آدم أن إدراكه واستقراءه واستنباطه، والجن لا تعلم إلا الأشياء الظاهرة وإن كانت خفية بالنسبة إلى الإنسان، وتبين

لهم الأمر بأنهم لا يعلمون الغيب إذ لو كانوا يعلمونه لما بقوا في الأعمال الشاقة ظانين أن سليمان عليه الصلاة والسلام حي لم يمت.

إن أعلى مراتب القوة التي يمنحها الله تبارك وتعالى لعباده إنما هي خاضعة لقانون القوة الإلهي وقد خص الله تعالى قسما من عباده بهذه القوة وهم الأنبياء والأولياء والصالحون والملائكة فهو يعلم سرائرهم وأنهم مسخرون لما خلقوا له من الأفعال التي يريد الله تعالى أن يمضي بها مشيئته لأجل مسمى، وهم مترفعون عن الماديات إلى الروحانيات في عملية التسامي والتجرد عن الواقع إلى عالم الفضيلة التي أمر بها الله تعالى، والتسامي والترفع لا يكون إلا لذي قوة قد اصطفى الله بها نوعا من الخلق لأمر يريد نفاذه بمشيئته فيسخر من يشاء من عباده ويجعلهم أسبابا لهذه المشيئة فهؤلاء يتمتعون ببصيرة نافذة وذهن متقد وقوة عظيمة وأخلاق فضيلة وبهذا يحمل من يمتلك هذه القيم صفة الخليفة الذي يخلف الله في الأرض لإقامة العدل وإظهار الحق ونشر الرحمة وبسط الخير، وأعلى درجات القوة هي الصبر حيث قال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَعَلَّ بِهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ} ^{٣٦٨}. ويراد بأولو العزم بعض الأنبياء قيل هم نوح صبر على أذى قومه وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه، وإبراهيم على النار وذبح الولد، وإسماعيل على الذبح، ويعقوب على فقدان الولد وذهاب البصر، ويوسف على الحب والسجن، وأيوب على الضر، وموسى الذي قال له قومه كما جاء في الكتاب العزيز: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزَلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ وَأُنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} ^{٣٦٩}.

^{٣٦٨}الأحقاف ٣٥.

^{٣٦٩}الشعراء ٦١-٦٨.

إن كل الرسل أولو عزم ولم يبعث الله رسولاً إلا كان ذا عزم وحزم، ورأي ورجاحة عقل، وهذا أمر من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بقوله اصبر كما صبر الرسل من قبلك على أذى قومهم، ووصفهم بأولي العزم لصبرهم وثباتهم، ومن أعطي نعمة الصبر فقد أعطي العزم ومن ملك العزم فقد ملك القوة التي هي مصدرها الصبر، ولهذا فإن الصبر من أعلى مراتب القوة، لذلك كان أمر الله تعالى لنبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصبر هو مدعاة للقوة حيث ثبته بهذه القوة على المضي لما قلده من عبء الرسالة، وثقل أحمال النبوة، وأمره بالعزم على النفوذ لذلك والافتداء بأولي العزم من قبله من رسله الذين صبروا على عظيم ما لُقوا فيه من قومهم من المكاره، ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد، لذلك كان الخطاب بالأمر بالصبر على ما أصابه صلى الله عليه وسلم في الله من أذى مكذّبيه من قومه الذين أرسله الله إليهم بالإنذار فقال: (كَمَا صَبَرَ أَوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) على القيام بأمر الله، والانتهاة إلى طاعته من رسله الذين لم ينههم عن النفوذ لأمره، ما نالهم فيه من شدة. و إن أولي العزم منهم، هم الذين امتحنوا في ذات الله في الدنيا بالمحن، فلم تزدهم المحن إلا جدًّا في أمر الله.

ولا تتجلى قوة الله القوي بشكل من الأشكال ولا بمثل من الأمثال ولا بصورة من الصور، وإنما هي قوة جامعة مانعة لكل مظاهر القوة التي نعلمها والتي لا نعلمها من أنواع القوة التي لم يطلع الله تعالى عليها أحداً من خلقه، غير أننا ندرك قوة الله تعالى في جميع آياته ومخلوقاته، لأنه سبحانه وتعالى وصف نفسه بأنه {ليس كمثله شيء} ٣٧٠.

وقوة الله تعالى وإن جردها الجاحدون فهي تتجلى في جميع مخلوقاته التي تعطي الأدلة الكافية على إثبات هذه القوة التي ذكرنا منها صوراً تجسد قوته عز وجل، فإننا هنا سنعمد إلى بعض الأدلة الظنية الترجيحية والأدلة القطعية اليقينية التي لا تدع مجالاً للشك فيما نقول وفق قاعد جلية في المنهج العلمي خاصة وفي نظريات المعرفة بصفة عامة، وهو ضرورة الملازمة بين الدليل والمدلول، حتى يصح لنا أن نستدل بوجود الدليل على وجود

المدلول، وذلك مثل التلازم الضروري بين وجود الشمس ووجود النهار، ومثل دلالة وجود الابن على وجود أبيه، ودلالة وجود الكتابة على وجود الشخص الكاتب، ففي هذه الأمثلة وغيرها نجد نوعاً من التلازم الضروري بين وجود أحدهما ووجود الآخر، فإذا انتفى أحدهما انتفى الآخر، بمعنى إذا انتفى السبب انتفى المسبب، وهذا يساوي تماماً وجود الخلق فإنه يستلزم بالضرورة وجود خالق بالقوة، وهذا يعني ضرورة وجود صفات الخالق من القوة والقدرة والمشية والإرادة والتصوير لتكوين هذا الخلق، ولما كان وجود الخلق يستلزم وجود الخالق كانت أول آية من القرآن تلت نظر الإنسان إلى هذا الدليل القطعي، حيث قال تعالى: {أَفَرَأَى بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلْقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} ^{٣٧١}.

وقضية الخلق من الخالق بقوته وقدرته وخاصة خلق الإنسان فإنه من أعظم آيات الله التي تدل على القوة والقدرة معا التي ضرب بها المثل حيث قال تعالى: {سُنُرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْلَمْ يُكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} ^{٣٧٢}. ورؤية هذه الآيات تدل على قوة الخالق وعظمته في الآفاق والنواحي أي سنريهم آياتنا في النواحي عموماً من مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها، وفيه أن هذه الرؤية كائنة لا محالة حق لا يحوم حولها ريبة، وأن نطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون ومن خفايا أنفسهم على السواء. فقد كشف العلم عن أمور كثيرة عن الأرض وما عليها، وعن النظام الشمسي وما فيه، وأن هذه الأرض وما حولها ما هي إلا ذرة صغيرة تابعة للشمس، التي هي وما حولها ذرة صغيرة تسبح في هذا الكون الفسيح، وعرف الناس عن الجسم البشري وتركيبه وخصائصه وأسراره الشيء الكثير، وأن كل هذه المعلومات والاكتشافات التي وقف الإنسان على حقيقتها، تسلم بهذه القوة التي أبدع الله بها هذا الكون وبقوته عز وجل و أحكم سيطرته عليه، لأن هذه الآفاق هي أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم وما يترتب عليها من الليل والنهار والأضواء والظلال والظلمات ومن النبات والأشجار والأنهار وفي

^{٣٧١}العلق ١ . ٢ .

^{٣٧٢}فصلت ٥٣ .

أنفسهم من لطيفِ الصنعةِ وبديعِ الحكمةِ في تكوينِ الأجنةِ في ظلماتِ الأرحامِ وحدثِ الأعضاءِ العجيبةِ والتركيباتِ الغريبةِ من العقلِ والدورةِ الدموية والشبكةِ العصبيةِ وما إلى ذلك مما لا نعلم.

فمظاهر قوة الله تتجلى في آياته ومخلوقاته فالله تعالى الذي خلق السموات والأرض بقوته، فهو بهذه القوة جل شأنه يمسكها أن تقع قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} ٣٧٣.

إن الله تعالى يحفظ السموات والأرض أن تزولا فهو الذي قضى بإمكان وجودهما، وهما محتاجتان للموجد لإخراجهما من الممكن بقوته وإرادته وهذا دليل على واجب الوجود، لذلك فإن الممكن كما يحتاج إلى الواجب سبحانه حال إيجاده يحتاج إليه حال بقاءه، بمعنى أن المخلوق الممكن إيجاه فهو بالضرورة محتاج لمن يوجد في عالم الوجود، وهذا يعني أن الواجد هو واجب الوجود ضرورة وبالقوة، وكما احتاج الموجود للموجد، فهو أيضا محتاج له لبقائه وديمومته واستمراره، ومن هذا نستنتج أن القوي، قوي أبدأ، قبل إبداعه الخلق وأثناء الخلق وبعد وجود الخلق وبهذه القوة يمنعها من أن تزولا، أي يمنع سبحانه زوال السموات والأرض، و الزوال بالانتقال عن المكان أي أن الله تعالى يمنع السموات من أن تنتقل عن مكانها فترتفع أو تنخفض ويمنع الأرض أيضا من أن تنتقل.

إن إمساك السموات والأرض يبين لنا يد الله القوية القادرة كيف تمسك بالسموات والأرض أن تزولا وكيف تحافظ على ثباتها وبقائها على الحالة التي أمرها الله بها، أي أمرها أن تبقى على هذه الحالة وهذه الهيئة بالقوة الإلهية، وليس بمعنى الإمساك المعروف من قبلنا نحن بني البشر، لأننا إذا أمسكنا بالشيء فإننا نحتاج إلى الممسك حتى نسيطر على الممسوك، وهو حالة مادية كاليد للأشياء الصغيرة، أو ما نصنعه ليكون معينا على الإمساك بالأشياء التي هي أعظم من قدراتنا، وهذا يتطلب عملا وجهدا ومشقة وتكلفة، أما الإمساك من قبل الذات الإلهية فهي قوة بمعنى القدرة والإرادة، لأنه سبحانه وتعالى مريد، وإرادته جل شأنه

يمتع العمل والجد والمشقة والتكلفة والزمن حيث قال تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ^{٣٧٤} فمتى تعلقت إرادته بوجود شيء أوجده. وهو خالق هذا العالم بسمائه وأرضه وكل هذا الكون وما فيه وجد بكلمة (كن) وهي الكلمة القوة بالمطلق، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن بالقوة، و إيجاده ذلك الخلق كله لم يتوقف على سبق مادة ولا آلة ولا إجابة فكرة ولا طول روية ولا عدم كما يظن البعض، كما قدر على الإيجاد ابتداء بقوته وجب أن يكون قادراً على الإعادة بتلك القوة قال تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} ^{٣٧٥}.

إن إمساك السموات والأرض أن تزولا لهو قوة قاهرة لا يتصورها عقل بشري لما في هذه السموات من النجوم والكواكب السيارة التي لا تتوقف أبدا وهذه المجرات الكونية التي تتألف كل مجرة منها من مليارات النجوم والكواكب التي تسير على مداراتها فأية قوة هذه التي تحكم سيطرتها على هذا الكون بما فيه، ولنا أن نتصور قوة الله القوي العزيز عندما اكتشف علماء الفلك أن هناك ثقبا في الكون تندفع إليه ملايين من هذه الكواكب والنجوم وهو يسحبها بقوة هائلة إلى داخله لا يعلم مستقرها إلا الله، علما أن هذا الذي سموه ثقبا لبعده مسافته حيث يقع على بعد أربعمائة سنة ضوئية من الأرض، فإذا كانت الوحدة الضوئية الواحدة وهي المسافة التي يقطعها الضوء من الشمس إلى الأرض تساوي مائة وخمسين مليون كيلو متر في ثماني دقائق فما هو الزمن المستغرق للوصول إلى ذلك الثقب الذي يبتلع المجرات، وهذا مصداق لقوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ} ^{٣٧٦}. فبنيان السماء من القوي المتين كان ولا يزال بقوة وشدة عظيمة لا يقدر قدرها أحد ولا يعلم مبتدائها ولا منتهاها أحد، ولما كانت السماء أليق لعظمتها وطهارتها بصفات الإلهية وذكر القوة والقدرة على الإتساع اللامتاهي وهو القوي القادر على خلق سعة لا

^{٣٧٤} النحل ٤٠.

^{٣٧٥} الأنبياء ١٠٤.

^{٣٧٦} الذاريات ٤٧، ٤٨.

تتناهى بأيدي أي بقوة، والقوة هنا بمعنى القدرة فان القوة عبارة عن شدة البنية وصلابتها المضادة للضعف، والله تعالى منزه عن ذلك، فله الأسماء الحسنى التي نعلمها وله أسماء حسنى قد لا نعلمها.

وأما الأسماء التي لا نعلمها فقد ورد في الحديث قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ وَحَزَنٌ اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أُمَّتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِي حُكْمِكَ عَدْلٌ فِي قَضَائِكَ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَثُورَ صَدْرِي وَجِلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا"^{٣٧٧}.

فقوله صلى الله عليه وسلم: أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، لهو دليل على أن الله تعالى أسماء حسنى لا نعلمها، لأنه جل جلاله استأثر بها في علم الغيب، ولأنه مطلق الصفات والأفعال فهي بطبيعة الحال لا تعد ولا تحصى، أي أن المطلق لا يمكن إحصاءه ولا عده عدا، إضافة إلى ذلك فجميع الخلق لا تحسن الثناء عليه عز وجل كما أثنى هو على نفسه، وهذا فيه دليل على أننا لا نمتلك من مفردات الحمد والتمجيد ما يرقى إلى الذي أثنى به على نفسه، فأنزل تسعا وتسعين اسما نمجده بها ونحمده بها ونسبح ونشكر ونذكر ما شاء الله أن نفعل ذلك، واستأثر بباقي الأسماء رحمة منه لنا ورأفة بنا وشفقة علينا، فهو رؤوف رحيم، وهو قوي بالرأفة وقوي بالرحمة وقوي بالرزق حيث قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}^{٣٧٨}.

وهنا نجد أنه تعالى قرن الرزق بالقوة والمتانة ذلك أن الرزق لبني البشر يحتاج منهم إلى السعي والجهد والعمل من أجل تأمين هذا الرزق ولكنه سبحانه هو الذي يرزق كل مفقر إلى الرزق لا غيره سبحانه استقلالاً، أو اشتراكاً ويفهم من ذلك استغناؤه عز وجل عن الرزق لأنه

٥٥ . مسند احمد، مجلد ٨، ص ٦٣ .

٣٧٨ الذاريات، ٥٦ . ٥٨ .

ذو القوة المتين، "لأن من يطلبه يكون عاجزاً لا قوة له فكأنه قيل: ما أريد منهم من رزق لأني أنا الرزاق وما أريد منهم من عمل لأني قوي متين، لأن المقام يقتضيه ولذا جيء بالمتين بعده ولم يكتف به عن الوصف بالقوة؛ و لما كان المقصود تقرير ما تقدم من عدم إرادة الرزق وعدم الاستعانة بالغير جيء بوصف الرزق على صيغة المبالغة لأنه بدونها لا يكفي في تقرير عدم إرادة الرزق وبوصف القوة بما لا مبالغة فيه لكفايته في تقرير عدم الاستعانة فإن من له قوة دون الغاية لا يستعين بغيره لكن لما لم يدل ذو القوة على أكثر من أن له تعالى قوة ما زيد الوصف بالمتين وهو الذي له ثبات لا يتزلزل، و أن القوي أبلغ من ذي القوة والعزة أكمل من المتانة وقد قرن الأكمل بالأكمل وما دونه بما دونه" ٣٧٩.

إن قوة الله العزيز لا تتجلى بشكل من الأشكال أو بمثل من الأمثال ولا بصورة من الصور، وإنما هي قوة جامعة مانعة ندركها في جميع آيات الله ومخلوقاته لأنه سبحانه وتعالى وصف نفسه بأنه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ولأنه تبارك وتعالى ليس له شبيه ولا مثيل ولا نظير، فلذلك لا يمكن أن يبلغ مدحته القائلون ولا يؤدي حقه المجتهدون ولا يحصي نعماءه العادون ولا يدرك قوته المتأملون حيث فطر الخلائق بقدرته ونشر الرياح بقوته ووتد بالجمال ميدان أرضه، فمن أراد أن يدرك قوة الله تعالى ويعلمها فعليه معرفته، وأول المعرفة بتمام الدين والإيمان، وتمام هذه المعرفة يكون بتصديق آياته، وكمال التصديق هو الإخلاص له، وكمال الإخلاص له توحيده جل شأنه، وكمال توحيده نفي الصفات عنه، فمن وصفه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن عدّه فقد جزّاه، ومن جزّاه فقد كفر، وهو الذي وصف نفسه سبحانه وتعالى ليس شيء مثله لا في الكمال و لا في التمام ولا في القوة و لا في الرحمة ولا في الجبروت ولا في السطوة ولا في السلطان والمطلقية.

لذلك عندما يضرب الله الأمثال للناس فإنها تكون بمستوى استيعاب العقل بقدر ما أوتي هذا العقل من التأمل في استيعاب الصورة الذهنية الناتجة عن التخيل، لأن صفات الله تعالى مجردة عن الواقع إلا في حال تقريب الصورة إلى الواقع حتى يتسنى لهذا العقل أن ينطلق

٣٧٩ تفسير الألبوسي، ص ٥٢٣.

من التجريب والمشاهدة إلى التجريد، ومن الواقع إلى التسامي حتى يغادر الدنيا في عملية التأمل وصولاً إلى الآخرة مما صورته القرآن الكريم من مشاهد يوم القيامة، أو مما وصف الله تعالى به نفسه من صفات لا نستطيع إدراكها إلا من خلال صورة واقعية ننطلق منها إلى صورة ذهنية مجردة عن الواقع ويتضح هذا في قوله تعالى: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ٢٤٠.

فقد وصف نفسه عز وجل بأنه نور السموات والأرض، ولكن كيف يستطيع الإنسان إدراك هذا النور الإلهي، ومهما أوتي من شدة البصر لا يستطيع أن يرى مسافة مسير ساعة من نهار، فقرب الله تعالى هذه الصورة بما هو مألوف لنا ومعروف لدينا فقال: مثل نوره ولم يقل مثله _ كأنه ثريا هائلة ركب فيها مصباح عظيم، وهذا مما هو معلوم لنا فتنزل بالصورة من التجريد الغيبي الذي لا نعلمه إلى التجريب الواقعي الذي نألفه حتى ندرك أوليات هذا النور، وهذا المصباح الذي ذكره، جعله في زجاجة، والزجاج هو البلور وهو أشد المعادن التي تعكس الضياء والنور حتى تكاد تتوهج وهذه الصور المفردة جمعها كلها في صورة مركبة من تلك الصور وجعلها كوكبا دريا، ومعدن الدر في بريقه ولمعانه يضاهي البلور أضعافا كثيرة، ذلك أن البلور معدن شفاف فإذا سقط عليه الضوء، فإن قسما منه ينفذ من الجهة الأخرى ولا ينعكس نوره، بيد أن الدر معدن غير شفاف، فكل ما يسقط عليه من الضوء سوف ينعكس نورا، ولما كان في عرف الناس أن النور لا يأتي إلا من مصدر حراري وطاقة ناتجة عن ذلك المصدر الذي يتقد نارا، ذكر أن الإِتقاد من أجل التوهج يكون من شجرة مباركة كثيرة الخير تنزيها لله تعالى، وضرب الزيتون مثلا لما فيه من منافع للناس، فهو كثير الخير كثير البركة لأن منه ما يكون طعاما من الحب نفسه ومن الزيت بعد عصره، ويكون هذا الزيت دواء وعلاجاً واستخداماً للإنارة، فبه تسرج السرج والمصابيح، فقرب

الصورة لواقع الذهن والعقل البشري من أجل استيعاب المثل لنور الله تعالى، ثم قال إن هذه الزيتونة لا هي شرقية ولا هي غربية، وإنما هي قوة وقدرة إلهية من القوي القادر الذي يكون نوره وضياؤه لآعن مصدر حراري ولا عن نار متقدة ولا ينسب لأحد، ولكنه نور على نور، ثم جعل هذا النور هداية لمن يريد الهدى، فمن عرف نور الله تبارك وتعالى، فقد عرف القوي العزيز وقد اهتدى إلى النور وخرج من الظلمات، وهكذا يضرب الله الأمثال للناس، فجلت قوته وجلت عظمته وجلت قدرته {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا} ^{٣٨١}.

وبناء على ما تقدم: فإن جدلا قد يدور بالقوة بين محققات التطور ومحققات الموانع، وخير ما ندرجه للحوار بالقوة هو الذي به يتم كل حوار وهو العقل الذي ميز الله به بني آدم عن غيرهم مما خلق جل جلاله.

العقل قوة الاستخلاف في الأرض:

من خلال معرفتنا العامة يقال أن الإنسان خطأ، ولكن بالمعرفة العلمية من الذي سيخطئ؟ هل هو الإنسان العاقل مالك القوة، أم غير العاقل فاقدتها؟.

العاقل هو المعرض للأخطاء، أما غير العاقل فإن خطأه أمر طبيعي. وبما أن العاقل هو الذي قد يخطئ، إذن الذي يفكر بالقوة قد لا يخطئ، بمعنى لو فكّر العاقل في النتائج المترتبة على الموضوع الذي يفكر فيه، قد لا يخطئ، ويحقق أهدافا. أما غير العاقل فهو (الحر) الذي لا يعرف الخطأ، وحتى إذا اتُّهم به نال البراءة.

ولهذا إذا انحرف العاقل عن اتجاه عقله تحرر من اتجاهه. فنحن الذين خلقنا بعقل، ونحن الذين سجنّا به. إذن السجن ليس الجدران والقضبان، بل أنه العقل الذي يفكّر. ولهذا كل من لا يفكر حر بطبعه. ولكن هل العقل قيد (سجن) في حد ذاته أم أن القيود خارجة عنه؟. إذا أجبنا بأن القيود خارجة عنه قد يسأل البعض: لو كان الإنسان غير عاقل، فهل يمكن أن يفكر في وضع قيود عليه؟ إذا كانت الإجابة بلا، إذن الإنسان العاقل هو الذي قيد نفسه

^{٣٨١}الإسراء ٤٣.

بالقوة العاقلة. وهو الذي نقل لنا ما في ذهنه من موانع إلى صور وأشكال مادية سميت بالسجون المحاطة بالجدران والقضبان الحديدية والحراس المزودين بالهراوات والأسلحة الحديثة. ولأن الإنسان العاقل قد يتهرب من ضميره كضابط عام فوضع لنفسه قانونا لضبطه، وشرطة تقبض عليه متى ما خالف ذلك، وبعد تنفيذ القانون عليه أحس بأنه قد وضع على نفسه ضميرا ورقيا خارجا عنه وقيدا عليه، فبدأ يفكر بالقوة في كيفية خداعه والتهرب منه، مما جعل العلاقة بين البوليس والمواطن الذي تنازل عن ضميره علاقة عدم ثقة ومطاردة، ولهذا لم يؤت من العلم إلا قليلا، ولو أُوتى علما كثيرا لعرف بأن التنازل عن الضمير هو تنازل عن العقل والحرية، ولذلك لم يتطور إلا بالقليل. فالطفل ولد كغيره من الكائنات الأخرى حرا يصرخ متى يشاء ويصمت متى يشاء، ولا يخاف أحدا، ويبول وهو عار ومتى يشاء على كل من يحمله بين يديه إذا شاء، دون خشية أو حشمة حتى من والديه، ولكن لماذا كل ذلك؟ لأنه ولد والحرية فيه والعقل لم ينضج بعد.

وهذه النتيجة قد تجرنا إلى سؤال آخر هو: هل ينبغي أن ننمى في الطفل معطيات الحرية، أم معطيات العقل؟ إنه خيار صعب، خيار بين أن تكون إنسانا قويا كما أراذك الله تعالى، وبين أن تكون حرا. فإذا أردت أن تكون إنسانا قويا، عليك أن تتمسك بعقلك الذي يميزك عن غيرك، وإذا أردت الحرية عليك أن تقبل التنازل عن عقلك لتفعل ما تشاء ومتى تريد، وحينها تعرف إن للحرية ثمنا مقابل نيلها، وإذا أردت الاثنين معا فعليك أن تقبل بحياة المساجين الأحرار التي يشار إليها بالقضية الآتية:

كل أليست أ .

وقد يتساءل البعض: هل هناك قيود أخرى تعيق حركة الإنسان الحر إلى التطور؟. قبل أن نحكم على مواضيع أو قضايا من وجهة نظرنا بأنها قيود، ينبغي أن تطرح هذه المواضيع والقضايا للنقاش، هل هي قيود أم لا؟ فإذا اتفقنا بأنها قيود حينها تصدر بها الأحكام بالقوة ويحق لنا الاستشهاد بها أو البرهنة عليها. وبعض هذه الأسئلة هي :

هل الدين قيد على الحرية، أم دعم لها؟.

هل القانون قيد على حرية العقل أم لا؟.

هل الأمومة والأبوة والمجتمع قيود على حرية العقل أم لا؟.

هل كلمة لا قيد على الحرية أم لا؟.

هل السجون قيد من أجل الحرية أم قيد عليها؟.

هل الحكومة قيد على المحكومين أم لا؟.

وهل يمكن أن تتحقق الحرية إذا اعتبرنا هذه قيودا؟.

وبناء على هذه الأسئلة أتساءل: متى سيتحرر البشر، وكيف؟.

لا إجابة إلا بالعقل القوة الذي به يتم الاستخلاف والذي يفكر ويتذكر ويميز بين الحق والباطل. فلولا العقل ما عرفنا المرغوب والممنوع والحلال والحرام، ولولاه ما استعملنا كلمة قف، وسر، ولا، ونعم.

نعم لما نريد، ولا لما لا نريد.

وعليه ينبغي أن يكون الإنسان في عقله لكي يكون حرا، وإذا خرج منه سيوضع فيه من قبل الآخرين بالقوة، وعليه أن يفكر. وإذا كان العقل سجنا فهل يمكن أن يحقق التطور؟.

السجن درجات، منه الانفرادي ومنه الجماعي ومنه الاجتماعي. في الدول التي تهدف إلى التقدم لا يسجن المجتمع، بل يسجن الأفراد والجماعات الذين يحاولون إعاقة حركة المجتمع إلى التطور والتقدم من أجل الجميع بالقوة، أما في الدول المتخلفة فيسجن المجتمع بكامله تحت الأوامر والنواهي التي تعيق حركته إلى التطور.

إن العقل الذي يحقق التطور هو العقل العام، والعقل العام هو عقل المنافع الفردية والجماعية والمجتمعية، أما العقل الذي لا يفكر في محيطه فهو أناني، ولهذا لا يحقق التطور.

وإذا عُدتنا مرة ثانية للإجابة على السؤال السابق كيف يكون العقل سجنًا بالقوة ويحقق التطور؟. إذا سلمنا بأن العقل هو الذي قيّد نفسه، ألا نسلّم بأنه قادر على فك قيده؟. إذا كانت الإجابة بنعم، هل يمكن أن يعيش الإنسان الحرية ويمارسها بكامل عقله، ويكون مخلوقًا ومنتدنا ومطيعًا في وقت واحد؟.

في اعتقادنا أن الإنسان بطبعه يغضب وبطرب، ويقبل ويرفض، ولهذا يكون عنده لكل شيء حدود، وفي هذه الحالة قد يصعب الالتزام بالحدود، وبما أنه من الصعب الالتزام بها، فإنه من الصعب أيضا ألا يسجن. ولذلك يتأكد لنا بأن العقل سجن وعلينا احترامه لكي لا نُسجن. ومع ذلك لو كان تفكيرنا في مستوى واحد يجوز ألا نختلف، ولكن لوجود فروق فردية بيننا اختلفنا، ولهذا بدأ البعض يخالف البعض، وبدأ الجدل وبدأ الصراع. الصراع على السلطة والثروة والسلاح، والصراع بين الرجل والمرأة، والصراع بين المتعلم وغير المتعلم، والصراع بين الفقير والغنى، والصراع بين البشر المحكومين وبين الحكام، ومحاولات السيطرة على مصادر الثروة، وجاء الاستعمار، ورُفض الاستعمار، والسبب في كل ذلك العقل الذي يتذكر ماضيه، ويفكر في حاضره ومستقبله إلى النهاية من أجل أن يتحرر ويتطور.

وبالعقل يستقيم السلوك الإنساني وبه ينحرف، به يصدق وبه يكذب، ولنا قصة على ذلك بعنوان:

(سرقتم الليمونة مع أنها لازالت في الشجرة)

قرر مجموعة من اللصوص سرقة الليمونة من الشجرة، كل وفق الفرصة التي تمكنه من النجاة بها.

فالأول قرر السرقة ونفذ قراره. وقبض عليه متلبسا في حالة سرقة وجُرم وفق القانون بالقوة. والثاني قرر السرقة ولكنه لم ينفذ قراره، وبالتالي لم يتهم بالسرقة. ولكن بما أنه قرر سرقة الليمونة وهو عاقل، ألا يعد بالنسبة للعقل سارقا؟.

مضمون القصة هنا تأثر بالزمن وحدث المتغيرات. أنه قرر السرقة والوقت كان منتصف النهار تقريبا، وفي قراره أنه سيسرق الليمونة في الليل، وعندما جاء المساء علم بأن الأول قد قبض عليه أثناء قيامه بسرقة الليمونة المستهدفة، وبالتالي الليمونة التي يود سرقتها قد سرقت، مما جعله لا ينفذ قراره. إنه في هذه الحالة ووفق المدركات العقلية مثله مثل السارق الذي قبض عليه، مع أنه لم يتهم بالسرقة لعدم قيامه بها. ولا فرق في هذه الحالة بين السارق الأول والثاني، إلا أن الأول قد نفذ قراره ولم ينج، والثاني لم تتح له فرصة التنفيذ فجا من القبض، وقد يعتقد البعض أنه خال من عيوب السرقة. ولكن لو لم ينفذ الأول قراره في ذلك اليوم، يجوز أن يكون الثاني هو السارق الذي قبض عليه.

أما الثالث فهو الذي قرر سرقة الليمونة من شجرة الجيران، وفق خطة تتضمن بدائل لتنفيذ عملية السرقة. الخطوة الأولى: يقوم بسرقة الليمونة عندما يكون جيرانه خارج المنزل، وهذه تتطلب منه مراقبة الجيران عند خروجهم من المنزل. والبديل الثاني: إذا لم يخرج الجيران جميعهم من المنزل قرر أن يكون علاقة مع الحارس والكلب الذي قد يعيقه أثناء تنفيذه قرار السرقة. والبديل الثالث: أن يقتل الحارس والكلب.

كل هذه العملية الحسابية عملية عقلية، وغير عفوية، لأنها وفق خطة وإصرار على دخول المخاطرة، وب عقل مدبر. وما التنفيذ إلا خطوة من خطوات الخطة، ولهذا لم تكن المشكلة في فعل السرقة، بل المشكلة في العقل الذي قرر السرقة ووضع لها خطة. وعليه ينبغي أن يستهدف الإصلاح والعلاج العقل.

والرابع قرر سرقة الليمونة، ولكنه تراجع نتيجة خوفه من أن يقبض عليه. في هذه الحالة لا يختلف عن سابقه. إنه سارق ولكن الخوف حال بينه وبين ارتكاب فعل السرقة، والخوف قوة، لأنه مولود منها أي (أنه مولود العقل القوة). لم تمنعه الأخلاق، ولا القيم والأعراف، ولا الدين، بل شيء آخر أنتج الخوف. إنه العقل المدبر الذي يقرر، ويخطط، ويغير قراراته وخطته وفق المواقف، والظروف، والمتغيرات.

وبهذا تعد الليمونة في كل الحالات مسروقة، وتعتبر سرقت منذ أن اتخذ قرار سرقتها، وما التنفيذ إلا خطوة لاحقة لذلك. هذه القصة تذكرني بقصة أخرى بعنوان (ذبح الخروف ليلا وأصبح بخير).

ذبح الخروف ليلا وأصبح بخير

حضر الضيف إلى المدينة، واتصل بصديقه من الفندق، ليبلغه بوصوله، فدعا الصديق المقيم صديقه الزائر إلى وجبة الغذاء ليوم الغد. وقرر ذبح الخروف الذي اشتراه يوم أمس لهذه الضيافة. وصدر قرار ذبح الخروف ليلا، على أن ينفذ صباحا لتتمكن الزوجة من إعداد وجبة الغذاء في وقتها المناسب. في هذه الحالة يعد الخروف مذبوحا وفقا لقرار ذبحه، سواء بالنسبة للخروف أو لمالكه، ولكن من الناحية التنفيذية لازال الخروف على قيد الحياة. إن التنفيذ في حقيقته ما هو إلا تأكيد على اتخاذ القرار.

في الصباح الباكر اتصل الصديق الزائر بصديقه يعتذر له عن عدم حضوره وجبة الغذاء التي اتفقا عليها نتيجة ظروف طارئة اضطرته إلى المغادرة في الحال. إنه متغير تابع أثر على تنفيذ القرار المتخذ بشأن ذبح الخروف. وعليه مع أن العقل قد قرر ذبح الخروف، إلا أن الظروف جعلته لا يزال حيا، ولهذا ذبح الخروف ليلا وأصبح بخير.

لم يذبح الخروف بالرغم من قرار ذبحه ذلك بأسباب القوة المطلقة التي لم تقرر ذبح الخروف في ذلك اليوم، ولهذا لا تقارن القوة إلا بقوة تماثلها، والقوي المطلق لا مثيل ولا شبيه له سبحانه جل جلاله.

تطور الفكر بين القوة والإرادة:

الفكر المجرد هو نتاج القدرات العقلية من استقراء وتأمل واستنباط، مما يجعله غير قابل للمشاهدة، وقابل للملاحظة من خلال عمليات التغيير الطارئة على الأحوال والظروف. أما الفكر الإنساني فهو نتاج عام يتطور بجهود مشتركة تكون فيها مكانة للقوة والإرادة. ولهذا أتساءل: هل الوجود بالقوة أم بالإرادة؟.

فلو كان بالإرادة، هل بإرادتنا وجدنا؟ هل بإرادتنا اخترنا لوننا، أو جنسنا (النوع)؟ وهل كان لنا رأي في اختيار لوننا، أو جنسنا حتى ولو لم يؤخذ به؟، ومع أننا نعرف بأن أبانا واحد، وأمنا واحدة، إلا أننا نحتاج إلى معرفة لماذا اختلفت ألواننا؟ هل لأن أحد أبويننا أبيض، والآخر أسود، أم أن لونهما واحد، ونحن الذين اختلفنا، ولماذا؟. وبما أن أبانا آدم وأمنا حواء، فلماذا ينادي البعض بالترقة بيننا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا؟ أي لماذا وجد الحاكم والمحكوم بين أفراد الأسرة الممتدة من أب واحد وأم واحدة؟، وهل كانت هناك وصية تحرم بعض الأبناء من حق التملك مما جعل بين أفراد الأسرة الواحدة غنيا وفقيرا، وقويا وضعيفا، وحاكما ومحكوما؟.

إن لا مكان للإرادة في وجودنا كل شيء بالقوة، ولهذا أتساءل: ما علاقة القوة بالإرادة؟.

لا إرادة إلا بالقوة، فمن لا قوة له لا إرادة له، أمام من يمتلك القوة والإرادة. والقوة فكرية عقلية ومادية، وقد تتوحدا في الكائن الحي، وقد تنفصلا، ومن يمتلك القوة والإرادة، قد يشكل خطراً على من لا يمتلكهما، أو يمتلك الإرادة فقط، والعلاقة أيضا بينهما أنهما يتحدان في القدرة، فلا قوة إلا بقدرة، ولا إرادة إلا بها، ولهذا خلقنا بالقوة، والقادر هو المستخدم لها والمتحكم فيها. وإذا تساءل أحد على سبيل المثال: هل للمثلث أو للمربع أو للمستطيل، أو أي شكل إرادة في وجوده؟.

فالجواب إن كل الأشكال لم توجد بإرادتها بل وجدت بالقوة القادرة وبما فيها الإنسان.

ومع أن شخصية الإنسان تتكون من الشيء ونقيضه إلا أن للتربية دور هام في صقلها وتكوينها. فالشخصية الواحدة تنام وتصحو، تغضب وتطرب، تحب وتكره، تصدق وتكذب، تفشل وتنجح، تضحك وتبكي، ترفض وتقبل، وإلى النهاية تتكون شخصية الإنسان من الشيء ونقيضه، مما يجعلها تتغير وتتطور بين الحين والآخر، ولكل نقيض أهمية في حياتنا. للفرحة أهمية وللحزن أهمية، والحمد لله الذي جعل بينهما توازنا لتستهدفه المجتمعات في تربية أجيالها، لأنه إذا تغلب الشيء على نقيضه انهزمت الشخصية وانهدم البناء

الاجتماعي والإنساني. وإلا هل يمكن أن يكون البشري إنسانا إذا لم يغضب (الغضب من العار، ومن أجل الشرف ومن أجل الكرامة)؟ ولهذا فالغضب قوة موجبة عندما يكون في محله. وهل يمكن أن يكون البشري إنسانا إذا لم يحب (يحب الأبوين والأخوة والأبناء والزوجة وكل حبيب وحببية، ويحب الوطن)؟، ومن أجل الحب نغضب ونثور ونحزن ونتألم، وإلا من أجل ماذا يحدث كل ذلك عندما يمرض لنا حبيب أو يموت، أو عندما يستعمر الوطن؟، ولهذا يكون للحب معنى وأهمية، ولولا الحب ما حزنا، ولولا الحزن ما أحببنا، ونتيجة ذلك أصبح الحزن واجبا بين المحبين فقط.

ومن أجل الحب يستمر الصراع بين البشر إلى النهاية، نهاية البشر أو نهاية الموضوع المتصارع عليه، ولهذا الحب قوة تمد الإنسان بالكرامة والشهامة والغيرة على النفس والوطن والدين والعرض، ولكن بما أن البشر يحبون البشر، إذن فلماذا يستمر الصراع بينهم إلى النهاية؟.

نعم إنهم يحبون بعضهم البعض، ونعم إنهم يختلفون مع بعضهم البعض. يحبون بعضهم عندما يتوحدون معا في الموضوع الحق، ويتصارعون مع بعضهم عندما يختلفون عليه فيميل البعض عن الحق، والحب ليس هو عواطف ومشاعر مجردة فقط، بل هو مصير ومستقبل، منه الأمل وإليه الطموح. فلا حب لمن يريد أن يقيد حريتك، ولا حب لمن يريد أن يحتكر سلطتك، ولا حب لمن يحتكر ثروتك ويحرمك من حق التملك، ولا حب لمن يمتلك السلاح ليُخيفَكَ به ويُحرمَكَ من امتلاكه. ولهم الحب جميعا عندما يشاركونك في كل أمر يتعلق بك وبهم. ولهم الحب عندما يراعون خصوصيتك التي تميزك عن غيرك، كما هم يتميزون عنك بخصوصياتهم التي تستوجب منك التقدير.

ولأن العقل هو القوة الكبرى التي يمتلكها الإنسان، إذن توجيه القوة هو الذي يحدد نوعها وفوائدها ومضارها ولنا في ذلك على سبيل المثال: الحرب والجهاد أمران مهمان في حياة المستخلفين في الأرض، إذ لا حرب ولا جهاد إلا في سبيل قضية. وبرغم ذلك، فإن الدين

الإسلامي لم تكن الحرب وسيلته في الانتشار. أما الجهاد وهو بذل الجهد الذهني والعضلي وتحمل المشاق في سبيل قضية فيرتبط بانتشار الرسالة.

والجهاد يشمل الحرب، والحرب لا تشمل الجهاد، لأن نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيمان بعض العرب المسلمين به في مكة لم يكن بالقوة القتالية، بل كان بقوة الحجة، ولهذا كل من آمن به آمن بالقتال دونه. وعليه لو كان إسلام الناس بالقوة والإكراه، ما تكونت عندهم الشخصية القتالية دونه، وما استمر التبشير به في المدينة قبل الهجرة من قبل قلة آمنت به عند لقائها بمحمد صلى الله عليه وسلم وبايعته عند العقبة (البيعة الأولى)، وبعثت له فريقاً آخر بايعه عند العقبة (البيعة الثانية)^{٣٨٢}.

لقد خاض المسلمون معارك عدة، منها ما انتصروا فيها ومنها ما انهزموا فيها قتالياً. وبرغم ذلك لم يتوقف الدين الإسلامي عن الانتشار لأن القتال كان من أجل الدفاع عن النفس والأرض والدين، ولم يكن من أجل إكراه الناس على الدين حيث {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي}^{٣٨٣}.

وإذا نظرنا اليوم إلى خريطة العالم، نلاحظ أن الدين الإسلامي منتشر في آسيا، وأفريقيا، وأوروبا، والأمريكتين، وأستراليا، فأى قوة نشرته إذن؟ هل دخل المسلمون بقوتهم العسكرية الجرارة إلى هذه القارات الخمس؟ لقد انتشر الدين بقوة العقيدة (قوة الحجة) عند المبشرين بها وبقوته الفكرية والروحية بالدعوة والتبشير لا بالقوة العسكرية، فكل ما ينتشر بالقوة العسكرية يزول بزوالها مثله مثل الاستعمار. والجهاد هو نتيجة الإيمان بصدق الرسالة التي توحد العقيدة مع السلوك عندما تتجسد في النفس. أما الحرب فهي التي يدخلها المقاتل كرها لأنها تهديد للوجود وتدمير للحق ولا مفر من ذلك إلا أن تخاض دفاعاً عن النفس البريئة.

^{٣٨٢} سيادة البشر ، عقيل حسين عقيل، ص ٢٠٣.

^{٣٨٣} البقرة ، ٢٥٤ .

الجهاد أمر يخص كل من يحرص على معتقده ومصيره مما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يستشير المسلمين في أمرهم، وكان يأخذ برأيهم حول كل أمر في السلم أو في الحرب. فعندما سمع الرسول صلى الله عليه وسلم أن كفرة قريش كانوا يستعدون لمحاربة رسالته والمؤمنين بها قبل غزوة بدر جمع الناس وأخبرهم بالأمر، فكان من بين المتكلمين أبوبكر الصديق وعمر بن الخطاب والمقداد بن عمرو الذي قال: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، مما جعل المسلمين يقررون بأجمعهم قتال الأعداء الذين يعدون لهم العدة لمقاتلتهم. وكان عدد المقاتلين الذين خرجوا مع الرسول في غزوة بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلاً، منهم مائتان وسبعة من الأنصار، ومائة وستة من المهاجرين. وفي أثناء الاستعداد للمعركة تقدم المنذر بن الحباب يناقش الرسول لتغيير المكان الذي يوجد فيه العرب المسلمون، وعمل القوم برأيه وتم تغيير المكان. بعد انتهاء المعركة اجتمع المجاهدون للتشاور في الأمر المتعلق بالأنفال والأسرى فتباينت الآراء حيث رأى الرسول وأبو بكر وطائفة من المسلمين أخذ الفداء، بينما رأى آخرون وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رفض الفداء وهكذا تباينت الآراء حتى نزل قول الله تعالى: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا اتَّخَذْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَمَا مَبْنًى بَعْدَ وَإِذَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} ^{٣٨٤}. بعدها كان الرأي بالإجماع بعدم أخذ الفداء.

وفي معركة أخرى حينما علم الرسول بقدوم كفرة قريش ومن معهم لقتال المسلمين، جمعهم للتشاور في الأمر، فكانت آراء الأغلبية منهم الخروج إليهم لملاقاتهم خارج المدينة، وكان من بينهم حمزة بن عبد المطلب، وسعد بن عباد، والنعمان بن مالك. أما الرأي الآخر فكان على رأسه رأي الرسول الذي أكد على البقاء في المدينة نتيجة حصانتها، ولكن في النهاية اقتنع الجميع بمن فيهم الرسول بالرأي الأول فخرج حوالي ١٠٠٠ ألف مجاهد لمقاتلة المعتدين ^{٣٨٥}.

^{٣٨٤} محمد ، ٤ .

^{٣٨٥} فرج محمد ألهوني ، النظم الإدارية والمالية في الدولة العربية الإسلامية . طرابلس ، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٧م ، ص ٣٦ .

لقد كانت الشورى هي القوة التي ساندت الحق في فترة رسول الله وستظل قوة مهابة ومقدرة من بعده عند المستخلفين في الأرض، ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر التزاماً بها حتى ولو كان القرار المترتب عليها مخالفاً لرأيه. ففي غزوة الأحزاب طرح الرسول على المسلمين الأمر بينهم شورى حتى يقرر كل منهم بإرادته الخروج أو عدم الخروج لملاقاة الأعداء. وعندما خرج المجاهدون منهم للجهاد تشاوروا في أفضل الخطط القتالية، مما جعل سلمان الفارسي يطرح فكرته الحربية التي تعلمها من الفرس وهي حفر خندق كبير شمال المدينة المنورة، وأقرها الجميع مما جعل النصر حليفهم^{٣٨٦}. وعليه فرأي الفرد قوة ورأي الجميع أكثر قوة.

إن أمر الحرب شورى بين من يخصصهم الأمر، فلا يجوز فيه الإجبار من أحد مما جعل الرسول لا يتجاوز التحريض على الجهاد بعد أن أذن له وللمؤمنين بذلك، ومن لا يرغب في ذلك يكون مع الخوالب. ولهذا لم يكن للرسول جيوشاً نظامية كما هو حال المجتمعات من بعده، لأن الجيوش عبارة عن موظفين مأجورين من قبل الدولة للدفاع عنها، وعندما تكتب عليهم الحرب يدخلونها متناقلين غير راضين وليس لهم حرية التخلف عن تنفيذ الأوامر التي تصدر لهم، وهم لا رأي لهم فيها مما يجعل الهزائم العسكرية علامة من علامات الجيوش النظامية. ولهذا لا خير في متباطئ متناقل مصداقاً لقوله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم: {فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرص المؤمنين}^{٣٨٧}. إن المسلمين لم يخوضوا المعارك إلا في حالة إكراههم على ذل أو باطل، ولهذا حاربوا الفرس لأن كسرى أرسل إلى عامله في اليمن يأمره بتأديب الرسول أو ضرب عنقه وإرسال رأسه إليه، وحاربوا الروم لأنهم أرسلوا طلائعهم إلى تبوك^{٣٨٨}.

^{٣٨٦} يعقوب محمد المليجي، مبدأ الشورى في الإسلام. الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، ص ٩٣.

^{٣٨٧} النساء، ٨٣.

^{٣٨٨} عباس محمود العقاد، بحوث إسلامية. بيروت، المجلد الخامس، دار الكتاب العربي، ٢٢٨.

برغم الخسارة الحربية للمسلمين في بعض المعارك التي خاضوها ضد زبانية العصر الجاهلي (الكفار) إلا أن الانتصارات كانت هي الحليف الأكثر تكراراً لهم وذلك نتيجة الإيمان بالقضية التي جاهدوا في سبيلها بالقوة، قوة العقيدة وقوة التوحيد وقوة الحجة وقوة النفس وقوة الإرادة. والفرق كبير بين من يقاتل من أجل قضية ومن يقاتل من أجل حكومة. فالذي يقاتل من أجل قضية دينية أو وطنية فهو يقاتل في حقيقة الأمر من أجل كرامة شخصية يكون لها اعتبار بين الناس ويكون لها اعتبار في المستقبل الخالد مما يحقق للمقاتل النصر أو الاستشهاد، أما الذي يقاتل بغير قضية فلا يكون له اعتبار لا في الحاضر ولا في المستقبل، مما يجعله في حالة استسلام وهزيمة ويكون الندم له رفيقاً.

من خلال العرض السابق تتضح أسباب إعلان الحرب بالقوة في الآتي:

- ١- أي اعتداء من العدو على الأمة أو الوطن يستوجب الدفاع على كل مواطن ومواطنة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾^{٣٨٩}.
- ٢- الدفاع عن الدين واجب لا خيار عنه والقتال من أجله جهاد والموت في سبيله استشهاد، ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا وَمَالِكُمْ لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾^{٣٩٠}.
- ٣- نقض العهد: في حالة توقيع اتفاق صلح أو عهد أمان بين الأمة وغيرها من الأمم الأخرى، ثم تنقض الأمم الأخرى عهدها مع الأمة بالخداع أو النفاق، يحق عليهم القول وهو إعلان الحرب قال تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَكُمْ مِنْ بَعْدِ وَطْعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾^{٣٩١}.

^{٣٨٩} البقرة ، ١٩٣ .

^{٣٩٠} النساء ، ٧٣ و ٧٤ .

^{٣٩١} التوبة ، ١٢ .

٤- إذا حاول الأعداء إشعال نار الفتنة بين أبناء الأمة، كما هو حال اليهود عندما حاولوا الفتنة بين الأوس والخزرج (بين المهاجرين والأنصار) حيث وجب قتالهم مصداقا لقول الله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾^{٣٩٢}.

٥- في حالة الردة: إذا ارتدت أي أمة من الأمم الإسلامية أو أي طائفة من الطوائف أو الجماعات عن الدين وجب قتالها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿لِيَأْيِهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^{٣٩٣}. وقد سبق وأن ارتدت عن الدين الإسلامي منذ بداية ظهوره ثلاث فرق من العرب وهم بنو مُدَلج وكان رئيسهم نو الحمار الأسود العنسي الذي تنبأ في اليمن، وبنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب تنبأ وحاربه أبوبكر رضي الله عنه بجند المسلمين وهلك، وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد، تنبأ فبعث له رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى أن أسلم بعد هروبه إلى الشام وحسن إسلامه^{٣٩٤}.

وعليه فالقوي هو الذي تستمد القوة منه، والقوي هو الذي لا يقارن وذلك لانعدام الشبيه والمثيل،

والأحاسيس قوة إيقاظ المشاعر بما يدور في المحيط النفسي والمحيط الاجتماعي والمحيط البيئي، من خلال كل ما يُلاحظ أو يُشاهد أو يُسمع أو يُلمس أو يُشم أو يُذاق. إنها القوة المعرفية التي تمد الإنسان بالطاقة التي تجعله في حالة استيعاب أو في حالة إقصاء وتحديد مواقف قد تُتخذ في محلها وقد لا تتخذ في محلها، ولتوضيح ذلك أقول:

^{٣٩٢} البقرة ، ١٩٢ .

^{٣٩٣} المائدة ، ٥٦ .

^{٣٩٤} محمد أحمد كنعان ، مواهب الجليل من تفسير البيضاوي . بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٤م ، ص

- الإحساس قوة، تحقق الفطنة وترتبط بالمدرجات الواعية التي تجعل الأفراد والجماعات يميّزون ويتمكنون من الاختيار الحر.

- التمييز الحسي قوة، تكمن في درجة التبيّن، التي تُمكن من اكتشاف نقاط التداخل والخصوصية والاستقلالية بين المتغيرات الدخيلة والمتداخلة.

التمييز الحسي قوة مقارنة بها تُصنّف المعلومات وفقاً للدرجة والنوع والجنس، وبما يميز كل خصوصية عن غيرها، وبما يؤدي إلى كشف نقاط التمرکز المشتركة مع بعض الخصوصيات الأخرى وكذلك نقاط التشتت عنها.

- التمييز الحسي قوة استيضاح للكلمة التي تحمل دلالة ومعنى ومدى علاقتها بالموضوع حتى يتم فرز المتشابهات عن غيرها من المخالفات.

. بقوة الحس يتم التعرف على ما هو سلبي والعمل على تقاديه، وما هو إيجابي والعمل عليه أو العمل به.

- الحس قوة استدلالية تربط المشاهد المحسوس بالملاحظ المجرد الذي يُمكن من ربط علاقات بين الأشياء كما يُمكن من فصلها بمستدلالات إثباتيه.

. الحس قوة برهنة، يستند على معطيات ويصل إلى نتائج تُدرك بقوة المنطق والحُجّة.

. الحس قوة لغة وتقاوم بها تُكتب الكلمات باللامسة، وبها تُقرأ حتى من قبل فاقد البصر.

. ترتبط الأحاسيس بالوجدان الكامن الذي يتألم بما يترك أثراً سالبا على النفس، وبما يترك أثراً موجبا عليها، ولكل منهما استجابة تختلف باختلاف الأثر ونوعه ودرجة حدته أو درجة مرونته.

- الأحاسيس قوة تذهب تستقبل المعلومة وتقدمها للترجمة الفورية التي تمكنها من التمييز لتستجيب سلبيا أو تستجيب إيجابيا، وفي كلا الحالتين فالعقل هو الذي يتخذ القرار المناسب لكل فعل وفقاً لقاعدة (لكل فعل رد فعل).

- قوة الأحاسيس قوة دافعة لتكوين علاقات مع الآخرين، ولذا كلما سلمت الحواس التي بها يتم الإدراك تكوّنت علاقات موجبة بين الأنا والآخر، فالحب المتبادل بين الأطراف قوة ترابطية تجعل لغة مشتركة ومنطق مشترك بين المثى والجمع وكأنهما طرفا واحدا ما يجعل لغة (الحن هي اللغة السائدة بينهما) وجعل كل منهما يحس بالآخر وكأنه في وسط صدره. ويجعلهما على حالة من التأهب لاستقبال بعضهما في المكان والزمان المناسبين للمقام الذي جعلهما في حالة وحدة مرضاة لله تعالى، وجعل الشوق بينهما شعورا ظاهرا. ولهذا عندما تُحب أحدا تجد مكانه في القلب، وعندما تكرهه أيضا ستجده مكروها في القلب. ولذا فإن القلب في مثل هذه الحالات لا يعد مجرد مضخة للدم، بل أنه المركز الذي فيه يعيش الود بين المحبين وهو الذي فيه يحدث الفراق، لتبقى فيه الأحزان من بعده كامنة. ولذلك في القلب المكامن التي تُستثار بما يُفرح وتُستثار بما يُحزن، ولهذا فكل منهما أثره السالب وأثره الموجب على الفعل والسلوك. ولكي تتأكد ضع يديك أو إحداهما على منتصف صدرك ستجد من تُحب بقوة الإحساس إنه متمركز هناك، وإذا ما حدث لحبيب مكروه لا قدر الله فلا تحس به إلا حيث وضعت يديك على صدرك. وإلا هل هناك من يحس بحبيبه في رأسه؟.

ولذا فإن القاعدة هي:

١ . اتزان الأحاسيس.

٢ . قوة الأحاسيس.

والاستثناء هو:

١ . عدم اتزان الأحاسيس.

٢ . ضعف الأحاسيس.

القوي هو المقوي لكل قوة وهو المضعف لها، وهو المتوازن على ملكه والمسيطر عليه دون مخافة، وهو الحق الدامغ للباطل والزاهق له، إنه خالق القوة بقوته، وهو الذي تستمد منه كل

قوة. ولأنه لا قوي إلا بقوة منه، فالقوة ذوق رفيع من يستمده يزداد رفعة ويزداد ثقة بنفسه وعلى هذا الأمر كان الخليفة صاحب الذوق الرفيع بقوته العقلية التي منحها الله إياها فالذوق ملكة عقلية وقوة يتمكن من خلالها المتذوق من المعرفة الوافية، التي تُمكنه من كشف العلاقات التي تتجسد في المُذاق، وكشف العلائق التي تربطه بالمجرد، فهي لا تقتصر عند حد المشاهدة، بل تمتد لتشمل ما هو ملاحظ، ولذا ترتبط هذه الملكة الذوقية بقوة الإحساس مع ملكتي التفكير والتذكر.

في الملكة الذوقية تتعدم الغفلة وتسود الفطنة، حتى تتمكن كل خلية من التناغم مع جميع الخلايا المتماثلة معها في المكون البشري، مما يجعل الذوق محقق الرفعة بين الأنا والآخر بالتمائل.

ولهذا تتوحد الأحاسيس والمشاعر مع الخيال الذي يسعى إلى طي الهوة مع الأمل حتى تتم ملامسة القيم التي تُعزز الإرادة، وتحقق التفاعل الوجداني، بين الرغبات والطموحات التي تُمكن الفرد من اكتشاف الحُسن الممتد في المسافة بين المشاهد والمجرد.

والذوق مكوّن قيمي، له من المعايير والمقاييس ما يمد الإنسان بوضوح الرؤية ونضج القرار المترتب على ذلك، ولهذا الجمال قيمة ذوقية لا يكمن في ذاته، بل يكمن في الجميل مشاهداً أو مُجرداً، حركة أو سكونا، إظهاراً أو إدغاماً، تجويداً أو لحناً، لونا أو نغمة، وعليه لا يمكن أن يوصف الجمال بذاته، بل يوصف بالجميل الذي توحد أو اشتمل فيه.

وعليه:

- تذوق وفطن الآخرين إلى ذلك، فالذوق حاسة عقلية وملكة تنمو كلما تُنشط وتُستثار، وتضعف وتنتهي كلما تُهمل.

. لا تستغرب فالذوق قوة ذهنية تستفز كل من يفكر ذوقياً حتى تجعله متوجهاً على قمم التأمل وتُمكنه من التقييم الموضوعي بعد تعمق وانتباه عميقين.

. ميّز بذوقٍ رفيعٍ فالإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يميز بين ما فيه رفعة وبين ما لا رفعة فيه.

. عليك بمراعاة الذوق العام واحترامه إذا أردت أن تتال الاحترام والتقدير من الآخرين.

. اعتبر الخصوصيات الاجتماعية التي يرتسم الجمال فيها كما هو يرتسم بها، ولا تغفل عمّا يُدخل البهجة والفرحة في النفوس، ولا تُعمم معايير الخاصة ومقاييسك الفنية وتفرضها على معايير ومقاييس الآخرين.

. اعتمد الذوق قيمة لتبعث في نفوس العباد القوة التي تمدهم بالرفعة ولا تنظر للناس بنظرة دونية خالية من كل ذوق، فاحترم الناس تتال الاحترام منهم.

. إبدأ مع الناس من حيث هم بلطف ولباقة ذوقية إذا أردت أن تغير أحوالهم أو حالاتهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه.

. كُن فطنا فالذوق قوة قيمة يتمركز على كل الأشياء الجميلة التي تتفاعل معها.

. اعرف جيدا أن الإحساس بأثر القيم التي تُشكّلها ملكة الذوق، تختلف من شخص لآخر مما يترتّب عليه تفاوت في درجات التدوق لها، فالشخصية الواقعية مثلاً: هي التي تعتمد على العقل في تقدير وتقييم الأشياء فنقدّم على أداء الأفعال بعد أن تتبيّن وتعرف ما يجب وما لا يجب، فتكون العلاقة بينها وبين الآخرين علاقة أخذ وعطاء. أما الشخصية الأنانية، هي التي تعتمد على المصلحة الخاصة، تقمّم الأمور برواها دون مراعاة للمحيطين بها، مما يجعل علاقتها معهم علاقة مصلحة.

ولهذا فالقاعدة هي:

قوة الذوق.

والاستثناء هو:

ضعف الذوق.

وعلى الخليفة أن لا يغفل عن الحاسة التامة التي تتداخل فيها جميع الحواس، البصر والبصيرة والاستماع والإنصات والذوق والتذوق والحس والإحساس والشم واللمس.

ولذا فهي العملية التفاعلية للحواس، حول ما يُشاهد أو يُلاحظ أو يُدرك أو يُستمع له أو يُذاق أو يُشم أو يتم التفكير فيه. إنها الحاسة (القمة) التي فيها تعمل جميع الحواس في وقت واحد وبكل قوة، حتى تتجسد الحركة في الفعل والسلوك الذي يجعل المتحركين في حالة نشوة، ويقوي الإدراك، وتقوى البصيرة، ويتحقق التفاعل، ويتحقق الرقي الذوقي الذي يجعل الإنسان قمة.

وعندما يتم التداخل بين الحواس، يكون الشيء الذي ن فكر فيه ذو قيمة. ولهذا لا تحدث النقلة بحاسة واحدة، بل تحدث بسلامة الحواس واكتمالها في وحدة واحدة تامة.

وعليه، فالمس مع عقلٍ، وسمع مع بصرٍ، وشم مع ذوقٍ، وتذكر مع تفكرٍ، وشاهد مع ملاحظة حتى تكون في نُزهة ورفعة عالية وتعال الاعتراف والتقدير من الآخرين وأنت قوة في مرضاة الله تعالى.

ولذا فإن القاعدة هي:

الحاسة التامة.

والاستثناء هو:

الحاسة القاصرة.

ومع أن القاعدة هي: الحاسة التامة، والاستثناء هو: الحاسة القاصرة. إلا أن بعض الحالات قد أظهرت نجاحات هائلة باستخدامها الحاسة الرئيسية فقط. وهذه تذكرنا بالشباب الألماني الذي أصيب في حادث بشل رباعي تعطلت عنده معظم حواسه، وبإصراره تمكّن من أن يكون من أكبر مستحدثي برامج الكمبيوتر، فهو يعقد الصفقات مع الشركات والمؤسسات، وهو ملقى فوق سريره لا يستطيع التحرك ولا يستطيع التحدث، فقط يبرمج جهاز الحاسوب

بعقله، ووفقاً لمتطلبات عملائه، ولهذا الإنسان قوة بعقله وبقدرته على توجيه الملكة العقلية تجاه عمليتي التفكير والتذكر مصداقاً لقوله تعالى: {وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ} ٣٩٥.

والقوي المطلق هو الذي جعل بقوته النفس بين قوة وضعف، فهي تقوى حتى تبلغ الطمأنينة كما هو حال نفس الخليفة، وتضعف حتى تبلغ الضلال كما هو حال المفسدين في الأرض، النفس قوة باطمئنانها، وبتأديتها للعمل الصالح، وإقدامها على قول الحق وسلوكها لأفعال الخير، وكذلك عندما تحسن التصرف والمعاملة وتهتدي إلى الطريق المستقيم. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي} ٣٩٦ وفي مقابل ذلك تأتي النفس الضعيفة الأمانة بالسوء وإلحاق الضرر بالآخرين، وعندما تظهر ما لا تخفي، وعندما تشح في وقت ينبغي أن يكون فيه العطاء، وكذلك عندما تركز إلى إصدار الأحكام الظنية بغير حق. قال تعالى: {إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} ٣٩٧، وقال تعالى: {وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ} ٣٩٨، وقوله تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ} ٣٩٩.

تكمن قوة الأنفس في قدرات قابلة للنمو، واستعدادات مهياة للعمل الفعال، ومشاعر يخشاها الخوف.

ولذا فالقاعدة هي:

١ . قوة النفس .

٢ . قدرات قابلة للنمو .

٣٩٥ السجدة ٢٧ .

٣٩٦ الفجر ٢٧ . ٣٠ .

٣٩٧ يوسف ٥٣ .

٣٩٨ النساء ١٢٨ .

٣٩٩ النساء ١٥٧ .

٣ . استعدادات مهياة للعمل الفعّال .

٤ . مشاعر يخشاها الخوف .

والاستثناء هو:

١ . ضعف النفس .

٢ . قدرات غير قابلة للنمو .

٣ . استعدادات غير مهياة للعمل الفعّال .

٤ . مشاعر يُداهمها الخوف .

ولهذا يجد الخليفة أمامه قوة إذا أراد أن يعمل من أجل الخير والإصلاح في الأرض إما موجبة يستفيد من طاقاتها وإمكاناتها، فيسخرها في خلق الثقلّة للأفضل . وإما قوة سالبة، يعمل على تصحيح معلوماتها الخاطئة بمعلومات صائبة، وكذلك يعمل على تعديل سلوكها وتقويمه إلى ما يجب . ومع ذلك قد لا يُوفق ما لم يعرف مصادر القوة عند العباد الذين يستهدفهم بالإصلاح والهداية للحق .

وعليه تستمد النفس قوتها من قوة العقل وقوة الحواس وسلامتها؛ فالأفراد والجماعات الذين يُفكرون بوعي سليم يستطيعون تحديد أهدافاً واضحة ويرسمون خططهم بموضوعية ويحشدون الإمكانيات المتاحة ويسعون إلى البحث عن المزيد المفيد .

ولذا فالإرادة قوة من يمتلكها يمتلك زمام أمره . فهي النشاط الواعي الذي يُقدم عليه الإنسان الحر عن وعي وإدراك سابقين لأجل بلوغ غايات بعزيمة وإصرار وبدون تردد، ولذلك فاتخاذ القرار عن وعي وتنفيذه بكل وعي وتحمل ما يترتب عليه من أعباء يدل على ممارسة الفعل الإرادي بين الأفراد والجماعات والمجتمعات البشرية، ومع ذلك لا إرادة إلا بقدرته، وقرار، وتنفيذ، ومسؤولية، وتهيؤ نفسي .

ولهذا قوة الإرادة will هي التي تُمكن الإنسان من ممارسة الحرية .

وعليه فالقاعدة هي:

١ . قوة الإرادة.

٢ . اتخاذ القرار.

٣ . تنفيذ القرار.

٤ . حمل المسؤولية.

٥ . تنمية القدرة.

٦ . التهيؤ النفسي.

والاستثناء هو:

١ . ضعف الإرادة.

٢ . عدم اتخاذ القرار.

٣ . عدم تنفيذ القرار.

٤ . التخلي عن حمل المسؤولية.

٥ . عدم تنمية القدرة.

٦ . عدم التهيؤ النفسي.

وعليه أقول: قوة الإرادة تقوي المناعة:

وبما أن قوة الإرادة تقوي المناعة.

إذن القاعدة هي:

١ . قوة الإرادة.

٢ . قوة المناعة.

والاستثناء هو:

١ . ضعف الإرادة.

٢ . ضعف المناعة.

ووفقا لقاعدة المتوقع خذ بالقاعدة.

ووفقا لقاعدة غير المتوقع لا تهمل الاستثناء.

ولهذا كلما قويت إرادة العملاء قويت مناعتهم.

فالمناعة immunity سياج دفاعي يُحصّن الأفراد والجماعات والمجتمعات من الانهيار، والاستسلام لما لا يجب. ولهذا على الخليفة أن يستثمر قوة الإرادة من أجل تقوية بناء شخصية أبناء المجتمع الإسلامي على مبادئ وقيم تجعلهم على حالات من الاعتبار والرقى في المهارة والمسلك، حتى لا يكونوا على حالة انسحاب وضعف ووهن وركون إلى كل سالب. وفي هذا الأمر تكمن قوة القرار في اتخاذه بمسؤولية، وفي درجة الوعي والإلمام به وبالمعطيات التي تستوجب إقراره. ولذلك كل قرار يُتخذ سيظل نوايا وتصميمات مجردة إلى أن يتم الإقدام على تنفيذه، حينما يصبح القرار نافذا وذلك بتمائل العزيمة والإصرار مع الإرادة الفاعلة.

ولهذا فالقاعدة هي:

١ . قوة القرار .

٢ . الإلمام بالمعطيات .

٣ . التنفيذ الإرادي .

والاستثناء هو:

١ . ضعف القرار .

٢ . عدم الإلمام بالمعطيات.

٣ . التنفيذ غير الإرادي.

وعليه: لا تحدث الأشياء إلا بقرار . ولا تنجز المهام والأعمال إلا به.

ولهذا القرار في دائرة الممكن المتوقع هو الوعي بما يجب.

والقرار في دائرة الممكن غير المتوقع هو عدم الوعي بما يجب، مما يجعل البعض من بني آدم يقدمون على أداء ما لا يجب، وهذه معيبة لا تتال رضا الله ولا تقدير المستخلفين فيها بالحق الذي به يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويصلحون ولا يفسدون ولا يفسكون الدماء فيها بغير حق. ولذا لو لم يكن القرار سابقا على وجود الأشياء والمخلوقات ما كانت، ولهذا كان الوجود بقرار، والعدم بقرار. وإصدار الأمر بقرار والنهي بقرار.

وبما أن كل شيء بقرار.

إذن لا شيء بدونه.

وبما أننا نعرف أن كل شيء يقع في دائرة الممكن. إذن لا داعي للاستغراب.

وعليه: (كل شيء بقرار)، يساوي (كل شيء ممكن).

ولهذا لا ممكن إلا بقرار.

ولا قرار إلا بممكن.

وبما أنه لا مستحيل في دائرة الممكن. إذن علينا بقبول تحدى الصعاب دون خوف ودون تراجع.

ولذا فإن القاعدة هي:

١ . اتخاذ القرار.

٢ . تحدي الصعاب.

والاستثناء هو:

١ . عدم اتخاذ القرار .

٢ . عدم تحدي الصعاب .

ومن لا يتحدى الصعاب لا يُمكن أن يكون له مستقبل رفيع . وكذلك في عصر العولمة من لا يسرع إلى تحدي الصعاب لن يجد له مكاناً ليضع قدميه عليه، أمام الحركة السريعة للمتنافسين . مما يجعل البعض على الرصيف جالسين في دائرة المستقبل .

ولهذا كلما كان القرار الإرادي قويا وكان تنفيذه قويا، تجاوز أصحابه العقبات التي تحول دون إحداث النقلة .

ولكي نتمكن من اتخاذ القرار عن وعي علينا بمعرفة العلاقة التي تربط قوة القرار بقوة اتخاذه .

ولذا فإن قوة القرار تكمن في الآتي:

. ما يحققه ويترتب على إنجازه .

. قوة الالتزام بتنفيذه .

. استيعابه كل من يتعلق الأمر بهم أفراداً أو جماعات أو مجتمعات .

. استيعابه للمتغيرات ذات العلاقة بالموضوع .

. تجاوز محققاته لما كان متوقعا .

. إحداثه للمفاجأة الموجبة التي تُحدث استغرابا لكل من لا يتوقع .

أما قوة اتخاذ القرار فتكمن في:

. قوة القرار ذاته .

. قوة المعايير والقواعد والأسس والمبادئ .

. قوة التنفيذ.

. قوة الهدف.

. قوة الخطة.

. قوة إعداد البرامج.

. وضوحه والمستهدف من ورائه.

. الإصرار على تجاوز السلبيات.

. الاقتناع وعدم التردد بمبررات اتخاذه.

. بما يتركه من أثر موجب.

بناء على ما تقدم فإن اتخاذ القرار قوة تُمكن المستخلفين في الأرض من إحداث النقلة، وبما أن اتخاذ القرار قوة تُمكن الخليفة من إحداث النقلة.

ولأجل ذلك ينبغي أن تُحدد الأهداف بكل وضوح، وأن تُرسم السياسات المنفذة لذلك، وأن تُحشد الإمكانيات الهائلة وتستثمر على أفضل السبل، وأن يكون التطلع إلى المستقبل أمل متطور جنباً إلى جنب مع تطوّر الحاجات، حتى يتحقق الإشباع المرضي مع توفر الاختيارات لكل رغبة وفقاً للقيم والفضائل الاجتماعية والإنسانية.

ولذا فإن قوة القرار في وضوحه ووضوح المستهدف منه، وبما أن قوة القرار في وضوحه ووضوح المستهدف منه.

إن ضعف القرار في غموضه والتباس المستهدف منه.

وتأسيساً على ذلك تكون القاعدة هي:

١ . وضوح القرار.

٢ . وضوح الأهداف.

والاستثناء هو:

١ . غموض القرار .

٢ . غموض الأهداف .

ولهذا فإن الإصلاح الذي يستهدفه الخليفة في الأرض هو إحداث النقلة، ولهذا فالمجتمع الذي يجتاز الصعاب يزداد قوة، وبما أن المجتمع الذي يجتاز الصعاب يزداد قوة. إذن المجتمع الذي لم يتمكن من اجتياز الصعاب يزداد ضعفاً.

وعليه:

. اقبل بتحدي الصعاب فأنت قوة .

. لا تخاف فالضعف لا يستطيع الصمود .

. نمي قدراتك .

. اغتتم الفرصة فهي قد لا تتكرر .

. اعمل على النجاح فهو أيسر من الفشل .

- بادر وتقدم بعد كل نهاية، لتستأنف مرحلة أخرى وأنت تعيش النقلة إلى الأفضل والأجود والأحسن والأفصح والأكثر فائدة.

اللهم يا القوي أنت القوي وحدك ولا قوي غيرك فأنت القادر على كل شيء ولا شيء خارج عن نطاق قدرتك فلا متصرف في الكون إلا أنت اللهم أجعلنا أقوياء بقوتك ولا تجعلنا مستضعفين في الأرض ولا ضعفاء يوم اللقاء .

اللهم اجعل لنا حظاً من قوتك حتى نصبر على طاعتك وعبادتك فننقوى بفضلك من أجل طاعتك فيما أمرتنا والابتعاد عما نهيتنا .

اللهم قوي الفطنة فينا على الغفلة والعقل على السفه والحمق وقوي الحلم فينا على التسرع
والتهور الذي لا يليق.
اللهم يا قوي قوي هيبتنا وقوي حجتنا وفرج كربتنا، وانهض غلبتنا وتوَجنا بفرحتنا أنت القوي
سبحانك جل جلالك.

المتين

المتين اسم لله عز وجل يتضمن الشدة والقوة والقدرة والعظمة، وتنص المعاجم على أن كل صلب شديد فهو متين^{٤٠٠}، والمتين عز وجل كذلك فهو: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}^{٤٠١}.
المتين، "من وصفه العظيم الذي لا تنسب إليه قوة المخلوقات وإن عظمت"^{٤٠٢}.
المتين: هو الذي يملك النهاية في القدرة وهذا يعني: أن قدرته لا تنتهى، والمتانة هي بلوغ القدرة إلى النهاية والغاية^{٤٠٣}.

المتانة "تدل على شدة القوة والله سبحانه وتعالى من حيث إنه بالغ القدرة تامها قوي ومن حيث إنه شديدة القوة متين"^{٤٠٤}.

المتين: هو ذو الاقتدار الشديد، والمتين في صفة الله (القوي) قال ابن الأثير: "هو القوي الشديد الذي لا يلحقه في أفعاله مشقة ولا كلفة ولا تعب"، والمتانة الشدة والقوة، فهو من حيث أنه بالغ القدرة التامة قوي، ومن حيث أنه شديد القوة متين^{٤٠٥}.

المتين: ليس بصلب ولا لين، بل هو الذي لا يغفل بعلمه وحكمته ووحدانيته، وهو الذي بيده الأمر والملك الدائم الذي لا يفلت أبداً، ولذا فهو المتين القادر جل جلاله.
المتين، هو الموثوق فيه الذي يتم الاعتماد عليه بالقوة والقدرة والوحدانية دون أن يغفل أو يكل أو يمل من أن يفعل ما يريد متى ما أراد، ودون أن يكون المفعول على حساب آخر.

^{٤٠٠} جمهرة اللغة، ج ١، ص ١٩٦

^{٤٠١} فصلت ٤٢. ٤٢.

^{٤٠٢} شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج ١، ص ٤٨.

^{٤٠٣} المواقف، ج ٣، ص ٣١٠.

^{٤٠٤} المقصد الأسنى، ج ١، ص ١٢٩.

^{٤٠٥} لسان العرب، ج ١٣، ص ٣٩٨.

والمتين بالإضافة هو خليفة في الأرض للمتین المطلق، فلا يخون ولا يرتد عن إحقاق الحق وإزهاق الباطل، متين في عبادته وفي نزاهته وفي راحة رأيه يتدبر الأمر ثم يقدم عليه وهو مُتَبَيِّنٌ له ومُتَبَيِّنٌ به من أجل مستقبل أفضل.

المتين: هو الثابت على القوة المتماسكة دون أن يكون للنقص مكانة، وهو الراسخ في الظاهر والباطن، بقاءه ثابت وديمومته ثابتة، إنه المتين بسمعته، وبصره، وبقدرته وقوته، وحكمته وهيمنته، وعلمه وخبرته، وبملكه ورزقه، وبإحيائه وإماتته وبعثته، وبثوابه وعقابه.

المتين هو من يفوق بقوته قوة الآخرين ولو اجتمعت وهو المتأصل في القوة، والخليفة المتين هو الذي يمتلك القوة التي تجعله على الفضائل والقيم المرضية لله تعالى وللذات والمجتمع الذي ينتمي إليه في مرضاة الله وطاعته، وهو المتين بعلمه وبحكمته وبسلامة عقله وتفكيره وتدبره للحياة من تحمل المسؤولية وحمل الأمانة التي التزم بها وإن كانت ذات أعباء حتى يكون خليفة لله تعالى في إحقاق الحق وإزهاق الباطل وإرساء العدل بين الناس، وهو الذي لا يكون متصلبا على باطل وصلب في التمسك بالحق وممارسته مع مخافة الله تعالى في كل ما يفعله أو يسلكه أو يقدم على أدائه من واجبات.

المتين بطبيعة الحال لا يمكن أن يكون ضعيفا، ولذا فالقوة سابقة على المتانة والمتانة تأصل في القوة، وثبات عليها في جميع أوجه استخداماتها أو إظهارها. ولهذا فالضعيف هو في حاجة لامتلاك القوة والقوي في حاجة للمتانة التي تجعله لا يحيد عن معطيات القوة أبدا.

وعليه فالخليفة هو القوي المتين بإيمانه وتوحيده لله وعدم إشراكه به وبحسن أقواله وأفعاله التي تصلح ولا تفسد ولا تسفك دماء في الأرض بغير حق.

والمتين هو: الذي في إحقاق الحق لا يلين، وفي إزهاق الباطل لا يلين، وفي حفظه وهيمنته لا يلين، وهو الذي برحمته لا يكون صلبا، وبوده لا يكون صلبا، وبعزته ومجده لا يكون صلبا، وبرزقه وإحسانه لا يكون صلبا. وهو الذي بحكمة يكون عدلا، وفي قسطاسه يكون عدلا، وفي مكياله يكون عدلا. وهو الذي بعباده رحيم، وهو الذي بعفوه رحيم، وهو الذي

بنفعه رحيم، وهو الذي بإجابته رحيم، وهو الذي بعلمه وحكمته رحيم. سبحانه إنه المتين رب العالمين الذي به أمانا وعليه توكلنا وأولينا أمرنا وأسرنا وما نملك إليه.

ولأنه في إحقاقه للحق لا يلين قال تعالى: {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} ٤٠٦.

ولأنه في إزهاق الباطل لا يلين، قال: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} ٤٠٧، وقال تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} ٤٠٨.

ولأنه في حفظه وهيمته لا يلين، قال تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ رَضِيَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} ٤٠٩، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ

٤٠٦ الأنفال ٦ . ٨

٤٠٧ الأنبياء ١٦ . ٢٣

٤٠٨ الإسراء ٨١

٤٠٩ هود ٥٧ ، ٥٨

وَأَنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ^{٤١٠}.

ولأنه هو الذي برحمته لا يكون صلبا، قال: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَكَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ^{٤١١}.

ولأنه ودود فلا يكون صلبا: قال تعالى: {لَوْ يَا قَوْمِ لَآ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَبَعِيدٍ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ^{٤١٢}.

ولأنه بعزته وحمده فلا يكون صلبا، قال تعالى: {الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ^{٤١٣}. وقال تعالى: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ^{٤١٤}.

^{٤١٠} آل عمران ١١٨ . ١٢٠ .

^{٤١١} الأنعام ٥٤ . ٥٨ .

^{٤١٢} هود ٨٩ ، ٩٠ .

^{٤١٣} إبراهيم ١ . ٣ .

^{٤١٤} سبأ ٤ . ٦ .

ولأنه برزقه وإحسانه لا يكون صلبا، قال: {وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} ^{٤١٥}. وقال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} ^{٤١٦}.

ولأنه بحكمه يكون عدلا، قال: {وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} ^{٤١٧}، ولأنه كذلك فهو يود أن يكون الخليفة من بعده عادلا في حكمه، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} ^{٤١٨}.

ولأن المتين في قسطاسه عدل، قال: {وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} ^{٤١٩}. وقال تعالى: {وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} ^{٤٢٠}.

ولأن المتين في مكياله عدل، قال: {وَالِي مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

^{٤١٥} الذاريات ٥٥ . ٥٨ .

^{٤١٦} النساء ١٢٤ ، ١٢٥ .

^{٤١٧} المائدة ٤٩ ، ٥٠ .

^{٤١٨} النساء ٥٨ ، ٥٩ .

^{٤١٩} الإسراء ٣٥ .

^{٤٢٠} الشعراء، ١٨٢ ، ١٨٣ .

مُحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} ٤٢١ .

ولأنه هو الذي بعباده رحيمًا، قال: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} ٤٢٢ .

ولأنه هو الذي بعفوه رحيمًا، قال: {إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا} ٤٢٣ وقال تعالى: {إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا} ٤٢٤ .

ولأنه هو الذي بنفعه رحيمًا، قال: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} ٤٢٥ ، وقال تعالى: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُه كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ

٤٢١ هود ٨٤ ، ٨٥ .

٤٢٢ النساء، ١١٠ . ١١٣ .

٤٢٣ النساء، ١٤٩ .

٤٢٤ النساء ٩٨ ، ٩٩ .

٤٢٥ المائدة ١١٩ .

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ{^{٤٢٦} .

ولأنه هو الذي بإجابته رحيمًا، قال: {أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ{^{٤٢٧} .

ولأنه هو الذي بعلمه رحيم، قال: {وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَلِيمٌ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ{^{٤٢٨} .

ولأنه هو الذي بحكمته رحيمًا. قال: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ{^{٤٢٩} . وقال: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْقَلَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا{^{٤٣٠} .

^{٤٢٦} الرعد ١٦ . ١٨ .

^{٤٢٧} النمل ٦١ . ٧٣ .

^{٤٢٨} النساء ١٢ . ١٤ .

^{٤٢٩} البقرة، ٢٦٩ .

^{٤٣٠} الإسراء الإسراء، ٣٩ .

ولأنه المتين فهو الشديد، قال تعالى: {اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم} ^{٤٣١}، وقال تعالى: {ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب} ^{٤٣٢}.

ولأنه المتين فهو الفعال، قال: {فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ} ^{٤٣٣}.
ولأنه متين خلق الإنسان في أحسن تقويم،

ولأنه متين قوله حق، قال تعالى: {وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير} ^{٤٣٤}، وقال تعالى: {ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل} ^{٤٣٥}.

ولأنه متين فعله حق، قال: {إن ربك فعال لما يريد} ^{٤٣٦}، وقال تعالى: {الحق من ربك فلا تكونن من الممترين} ^{٤٣٧}، وقال تعالى: {بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون} ^{٤٣٨}.

ولأنه متين استخلافه حق، قال تعالى: {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال

^{٤٣١} المائدة ٩٨.

^{٤٣٢} الأنفال ١٣.

^{٤٣٣} هود ١٠٦ . ١٠٨.

^{٤٣٤} الأنعام ٧٣.

^{٤٣٥} الأحزاب، ٤.

^{٤٣٦} هود ١٠٧.

^{٤٣٧} البقرة ١٤٧.

^{٤٣٨} البقرة ١١٧.

إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَرَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} .^{٤٣٩}

ولأنه متين جعل الحركة والسكون، قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ} .^{٤٤٠} ، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} .^{٤٤١} ، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أُنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} .^{٤٤٢} ، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَفْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} .^{٤٤٣} .

ولأنه متين جعل لكل بداية نهاية، قال: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} .^{٤٤٤} ، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ

^{٤٣٩} البقرة ٣٠ . ٣٥ .

^{٤٤٠} الحجر ١٩ . ٢٤ .

^{٤٤١} الأنبياء ١٠٤ .

^{٤٤٢} مريم ٨ . ١١ .

^{٤٤٣} البقرة ٢٤٥ .

^{٤٤٤} يونس ٥٦ .

شُفَعَاءَكُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} ٤٥، وقال تعالى: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَالِقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} ٤٦.

أما شدته عز وجل فتجلى في صور كثيرة يرتهب منها الذين آمنوا، ويغفل عنها الغافلون، فهو:

أ- **التشديد في القوة:** يرد في موضع الحاجة إليه، وهو تشديد على صفتين:

الأولى: التشديد المادي: ويتجلى في عقاب الذين كفروا وأصروا على ذلك، كقصة أصحاب الفيل، فالمتين قادراً على صرفهم عن غايتهم قبل البدء لكنه أراد إظهار الشدة مع مثل تلك النوايا لتكون للمتین بالإضافة عبرة يهتدي بها في التصرف مع مثل هذه النوايا وما على شاكلتها قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ} ٤٧.

الثانية: التشديد المعنوي: لاسيما في مجال الجدل فعندما أنزل القرآن على العرب واجهوه بالجدل الراض فقابل المتين عز وجل فعلهم هذا بلعلم شديد القوى قال تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ} ٤٨.

ب- **عذابه شديد،** المتين سبحانه أرسل الرسل والأنبياء لهداية الناس، وأمهلهم ليؤمنوا وكتب على نفسه الرحمة: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} ٤٩، لكي

٤٤٥ الأتعام ٩٤.

٤٤٦ يس، ٧٩-٨٣.

٤٤٧ الفيل ١-٥.

٤٤٨ النجم ٤، ٥.

٤٤٩ الأتعام ١٢.

يكون ذلك حجة على الناس: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} ٤٥٠، فإذا انتفع الإنسان بالهدى فاز، وإذا أنكر خسر وكان العذاب الشديد عقاب المتين له، وهؤلاء هم:

* للكافرين عذاب شديد: {قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} ٤٥١.

* للمشركين عذاب شديد: {الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقَيْنَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ} ٤٥٢.

* للكاذبين عذاب شديد: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ٤٥٣.

ج . بأسه شديد، قال تعالى: {فَيَّمَّا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} ٤٥٤.

د - امتحانه الشديد القويم: {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} ٤٥٥، أي عند ذلك امتحن الله المؤمنين فتميز الصادق عن المنافق، والامتحان من الله ليس لاستبانة الأمر له بل لحكمة أخرى وهي أن الله تعالى عالم بما هم عليه لكنه أراد إظهار الأمر في الزمن الذي يتم الاعتراف فيه بالخطيئة أو الذنب، وفي المكان الذي لا تحجب فيه الشهادة وقول الحق.

ذ - حسابه الشديد: {وَكَايُنُ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا} ٤٥٦.

٤٥٠ النساء ١٦٥

٤٥١ يونس ٦٩، ٧٠

٤٥٢ ق، ٢٦

٤٥٣ المجادلة ١٤، ١٥

٤٥٤ الكهف ٢

٤٥٥ الأحزاب ١١

٤٥٦ الطلاق ٨

ر . حرسه الشديد: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَتَّ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا}٤٥٧، وقال تعالى: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ}٤٥٨.

ز . عقابه الشديد: {سَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}٤٥٩.

ط . أخذه الشديد: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}٤٦٠، الأخذ خلاف العطاء وهو التناول، وقد يكون الأخذ حقا، وقد يكون اعتداء على حق، ولكل جزاءه. أنه تعالى لما بين كيفية أخذ الأمم المتقدمة ثم بين أنه إنما يأخذ جميع الظالمين على ذلك الوجه أتبعه بما يزيده تأكيدا وتقوية، فقال: {إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}، فوصف ذلك العذاب بالإيلام وبالشدّة، وأخذ الله عودة إليه بالأمر حتى يكون العود من البعض طوعا، ويكون من البعض كرها.

ظ . محاله شديد: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}٤٦١، وشدّة المحال شدة قدرة وقوة مع ثبات على الأمر عند إحقاقه، وبالتالي لا أحد يفلت من هيمنته وجبروته.

وعلى الخليفة أن يفهم معنى الشدة من ذلك ويعي الحاجة إليها في مواضعها، وأن يعمل بها موقناً بجدواها في موضع الحاجة لتستقيم الأمور المتعلقة بالحياة من رزق حلال وقول حق، وفعل حق، وإصلاح في الأرض وحكم عدل، وأسرة على أخلاق وقيم وفضائل ربانية، وعلاقات بين الأفراد والجماعات والمجتمعات على الطاعة والتعاون المفيد والنافع.

٤٥٧ الجن ٨

٤٥٨ الحجر ١٦ . ١٨

٤٥٩ البقرة ٢١١

٤٦٠ هود ١٠٢

٤٦١ الرعد ١٣

وأن يكون الخليفة متيناً في إيمانه ومتيناً في سلوكه، ومتين في علمه وحكمته، ومتين في تفكيره وتذكره، ومتين مع الشدة الوافرة في مكابدة الأعداء إذا ما تجرؤوا على الدين أو تناولوا على رب العباد خالق الحياة والممات، أو تناولوا على أنبيائه ورسله، وأن يكون شديداً ومتماسكا في نفسه حتى لا يغيرها الهوى، وأن يكون متيناً في مكاشفة الباطل حتى يزهقه، ومتيناً في مناصرة الحق حتى به ينتصر.

قال تعالى: {إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} ^{٤٦٢} فنعت الرزاق بالقوة لوجود الكفران بالنعم سبب مانع يمنع النعمة فلا يرزق الكافر مع وجود الكفر منه لما رزقه إلا من له القوة؛ فلهذا نعته بذي القوة المتين فإن المتانة في القوة تضاعفها فما اكتفى سبحانه بالقوة حتى وصف نفسه بأنه المتين فيها إذ كانت القوة لها طبقات في التمكن من القوى فوصف نفسه بالمتانة وهذه الصفة في مستوى الخليفة تقال لأهل الفتوة فإن الفتوة ليس فيها شيء من الضعف إذ هي حالة بين الطفولة والكهولة وهو عمر الإنسان من زمان بلوغه إلى تمام الأربعين من ولادته يقول الله تعالى في هذا المقام: {الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة} ^{٤٦٣}، وذلك حال الفتوة وفيها يسمى فتى وما قرن معها شيئاً من الضعف ثم قال سبحانه وتعالى: {ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة} ^{٤٦٤}. وعليه علينا أن نميز بين قوتين:

القوة الأولى: قوة الإيمان وهذه تزداد مع تقدم العمر.

والقوة الثانية: قوة البدن وهذه تضعف مع تقدم العمر، وهذا الأمر هو الذي ورد معناه في الآية الكريمة السابقة.

وبناء على ذلك فإن القوة الباقية هي قوة الإيمان والقوة الفانية هي قوة البدن وهذه من طبيعة الحياة الدنيا، أما الحياة الباقية فالبقاء فيها دائم لا يلاحقه المرض ولا تلاحقه الموت، ولهذا ستكون القوة دائمة وباقية في الحالتين قوة الإيمان وقوة البدن والحمد لله رب العالمين.

٤٦٢ الذاريات ٥٨

٤٦٣ الروم ٥٤

٤٦٤ الروم ٥٤

والمتين قوي لقيامه بأمر الدنيا والآخرة دون عناء أو نصب، أما أمر الدنيا فهو الذي تدبر أمره بقوته: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} ٤٦٥، فالمتين بقوته سخر للإنسان كل هذه الظواهر الطبيعية لتكون بخدمته بقوة منه ولو تركت لحال شأنها لفسدت، فتصور إمساك السماء عن المطر أو مطرها دون توقف، وتصور أن تكون الرياح سائبة دون قوة تسييرها فهل كان بالإمكان سير السفن بأمان في البحار؟ أو أن ينتفع الإنسان من البحر لولا تسخير المتين بقوته: {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} ٤٦٦، وقيام المتين على أمر الدنيا يتطلب قوة لا يملكها إلا هو وتتجلى أعظم الدلائل في قانون التعاقب الزمني فكل شيء يتحرك بهذا النظام المسيطر عليه بقوة المتين ولولا ذلك لكان أمر الدنيا في اضطراب شديد: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} ٤٦٧، وهو الذي: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} ٤٦٨، هذا كله من قيام المتين بأمر الدنيا وعلى الخليفة المستخلف على الأرض التأمل في هذا القيام لأخذ العبرة وتعلم الدرس في كيفية قيامه بأمر الخلافة فيكون قويا يسخر كافة الإمكانيات لخدمة البشر المستخلف عليهم.

أما أمر الآخرة فالمتين قوي قادر، يبدأ من أمره للأرض: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ

٤٦٥ ابراهيم ٣٢، ٣٣

٤٦٦ النحل ١٤

٤٦٧ الأعراف ٥٤

٤٦٨ لقمان ١٠

يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^{٤٦٩} ، والمتين قوي فهو المالك لأمر الآخرة وليس لأحد غيره ولو حتى بكلام: لِيَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا^{٤٧٠} . وقيل الروح خلق أعظم من الملائكة وأشرف منهم وأقرب لرب العالمين وقيل: هو ملك، ما خلق الله عز وجل بعد العرض خلقاً أعظم منه. فالمتين في أسمائه مبالغة في الوصف بأنه قوي وهو في الله توسع لأن المتانة في الأصل نقيضة الرخاوة فاستعملت في نقيض الضعف للمبالغة في صفة القوة^{٤٧١} .

وَالْمَتِينُ الَّذِي لَهُ الْقُدْرَةُ كُلُّهَا، فهو القادر، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة، السفلية والعلوية، وبها تصرف في الظواهر والبواطن، ونفذت مشيئته في جميع البريات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قدرته، أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم، ومن قدرته وقوته، أنه يبعث الأموات بعد ما مزقهم البلى، وعصفت بترابهم الرياح، وابتلعتهم الطيور والسباع، وتفرقوا وتمزقوا في مهامه الفقار، ولجج البحار، فلا يفوته منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، فسبحان المتين^{٤٧٢} .

وقدرة المتين ظاهرة في خلقه في السموات وفي البحار وفي الجبال وهو بعد ذلك قادر عليها: لَوْ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ^{٤٧٣} ، والمتين له من القدرة ما يختص بها وحده سبحانه فهو الذي يحيي ويميت: {أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^{٤٧٤} ، ثم إنه الوحيد القادر على القيام بأمر

٤٦٩ الزلزلة ١-٨

٤٧٠ النبأ ٣٨

٤٧١ الفروق اللغوية، ج ١، ص ٤٧٦

٤٧٢ تفسير السعدي، ج ١، ص ٨١٣

٤٧٣ الزمر ٦٧

٤٧٤ يونس ٥٥، ٥٦

الروح في نوم الإنسان فهو الذي يمسك هذه الروح في منام الآدمي ثم يطلقها إن شاء وكل ذلك إلى أجل يعلمه وحده سبحانه: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} ٤٧٥.

ومن قدرة المتين التي لا يشترك فيها غيره كتبه السماوية التي ينزلها على رسله ليلغوا الناس بالحق، ولو تأمل المتأمل في هذا الأمر لوجد أن هذه الكتب فيها من السمات ما يجعلها تفوق كل مؤلف غيرها فهي خالدة إلى يوم البعث المعلوم، وهي تامة من حيث الاعتبار الموضوعي فلا تكاد تجد فيها أمرا من أمور الدنيا إلا وتجد له موضعا لاسيما في القرآن الكريم الذي لم يمسه التحريف، ولا تجد خبراً مهما من أخبار من سبق من الأقسام والحضارات إلا ووجدت له ذكراً: {كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا} ٤٧٦، وهي كاملة بمطلقيتها ومعجزاتها التي لا تفوق سعتها دوائر المقارنات، ومن حيث الاعتبار التسلسلي فهي كتب مكملة لبعضها في إطار تسلسلي تبدأ بصحف إبراهيم ثم بتوراة موسى وزبور داود: {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زُبُورًا} ٤٧٧، وصولاً إلى القرآن الكريم الذي نزل على سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ} ٤٧٨.

والمتين هو القادر الذي لا يدخله باطل، فبقدره المتين تبقى المياه دون اختلاط بين العذب منها والمالح: {وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا} ٤٧٩، ودلالة هذا على كمال قدرته عز وجل كونه على خلاف مقتضى

٤٧٥ الأنعام ٦٠

٤٧٦ طه ٩٩

٤٧٧ الإسراء ٥٥

٤٧٨ الإنعام ١١٤

٤٧٩ الفرقان ٥٣

الطبيعة فإن مقتضى طبيعة الماء أن يكون متضام الأجزاء مجتمعاً غامراً للأرض محيطاً بها من جميع جهاتها إحاطة الهواء به ومقتضى طبيعة الأرض أن تكون متضامة الأجزاء أيضاً لا غور فيها، ثم جعل بينهما برزخاً عظيماً حيث إنه مع كثرة مرور الدهور لا يتخلله ماء أحد البحرين حتى يصل إلى الآخر فيغير طعمه (وَجِجْرًا مَّحْجُورًا) أي وتتافراً مفرطاً كأن كلاهما يتعود من الآخر بتلك المقالة، والمراد لزوم كل منهما لصفته من العذوبة والملوحة فلا ينقلب البحر العذب ملحاً في مكانه ولا البحر الملح عذباً في مكانه وذلك من كمال قدرته تعالى وبالغ حكمته عز وجل فإن العذوبة والملوحة ليستا بسبب طبيعة الأرض ولا بسبب طبيعة الماء وإلا لكان الكل عذباً أو الكل ملحاً، وذكر في حكمة جعل البحر الكبير ملحاً أن لا تنتن بطول المكث وتقادم الدهور^{٤٨٠}.

والمتين ذو الشأن الرفيع العظيم، وعظم شأنه سبحانه أنه حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} ^{٤٨١}، وهو الذي ترنو إلى رحمته الخلائق فيرحم ويغفر ويرزق ويشفي سبحانه وتعالى عما يشركون فهي شؤون المتين التي وصفها بقوله سبحانه: {يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} ^{٤٨٢} فكل أهل السموات والأرض مفتقرون إليه، فيسأله أهل السموات ما يتعلق بدينهم، وأهل الأرض ما يتعلق بدينهم ودنياهم {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} أي كل وقت وحين يحدث أموراً ويجدد أحوالاً.

وعن عبد الله بن طاهر أنه دعا الحسين بن الفضل وقال له: أشكلت على ثلاث آيات، دعوتك لتكشفها لي: قوله تعالى: {فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ} ^{٤٨٣}، وقد صح أن الندم توبة، وقوله

^{٤٨٠} تفسير الالوسي، ج ١٤، ص ١١٩

^{٤٨١} البقرة ٢٥٥

^{٤٨٢} الرحمن ٢٩

^{٤٨٣} المائدة ٣١

تعالى: {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} وقد صح أن القلم قد جف بما هو كائن إلى يوم القيامة. وقوله تعالى: {وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى}٤٨٤ فما بال الأضعاف؟ فقال الحسين: يجوز أن لا يكون الندم توبة في تلك الأمة. ويكون توبة في هذه الأمة؛ لأن الله تعالى خص هذه الأمة بخصائص لم يشاركهم فيها الأمم، وقيل إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل، ولكن على حمله، وأما قوله: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) فمعناه: ليس له إلا ما سعى عدلاً، ولي أن أجزيه بوحدة ألفاً فضلاً، وأما قوله: {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} فإنها شؤون يبيديها لا شؤون يبتدئها٤٨٥.

ومن عظيم شأن المتين أنه يحتسب لنفسه ما هو لعباده، فيجعل الإنفاق له وهو لعبده ويجزي به مضاعفا إكراما للمحتاج من عباده: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ}٤٨٦، أنه تعالى أكد بهذه الآية ترغيب الناس في أن ينفقوا أموالهم في الأوجه التي ترضي الله بتركهم خيرا في الدار الدنيا، من مناصرة للحق حتى إحقاقه، ودمغ للباطل حتى إزهاقه. والأجر الكريم هو الذي يتحقق في الدار الآخرة مكرمة من الكريم المطلق جل جلاله.

وسمي ذلك الإنفاق قرضاً؛ لأنه في الدار الدنيا التي فيها المكاسب المدخلة للجنة، وفي هذا الأمر تشبيه لضمان الجزاء الأوفى من الكريم جل جلاله، {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}٤٨٧، القرض جاء مطلقاً، لا تحديد فيه، وبالتالي فهو الذي يحتوي على كل أفعال التطوع الحسان من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، وهذا يعني أن القرض عطاء، والعطاء في أساسه لا يكون إلا من الله عز وجل، وبهذه الصفة التي منحها الله لخلفائه أن فتح أمامهم أبواب العطاء وهذا لا يعني التسوية به، بل تعني تحفيزهم على

٤٨٤ النجم ٣٩

٤٨٥ تفسير الزمخشري، ج ٦، ص ٤٦٨

٤٨٦ الحديد ١١

٤٨٧ البقرة، ٢٤٥.

الإقدام على الأفعال الحسان التي هي من بعد الإيمان بالله ورُسُلُه وأداء الفرائض من صلاة وزكاة وحج وصوم، ولهذا قال تعالى: {لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} ^{٤٨٨}، ولأن القرض من بعد الإيمان بالله ورسوله وبعد العبادات فجاء ترتيب الآية بالفرائض أولاً، في قوله: {لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ} ثم جاء من بعدها في الترتيب إقراض القرض الحسن وهذا يدل على أن القرض من خارج رأس المال أي أنه من الفوائد والمكاسب الحلال، ولهذا جاء لا حقا لإقامة الصلاة وإتاء الزكاة والإيمان بالرسول صلوات الله عليهم فقال: {وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} ولأنه قرض فالقرض بطبيعته استثمار للمال الحلال المكتسب شرعا الذي باستثماره لا يكون على حساب الحاجة ومشبعاتها الأساسية، أي عندما تمتلك رغيفا من الخبز وأنت في حاجة لسد رمقك به، فهذا لا يستثمر بل يستهلك في إشباع الحاجة، أما الزائد من الرغيف فهو الذي يمكن استثماره بما يفيد وينفع المستثمرين له في طاعة الله.

ومن هذه الأفعال الحسان التي تعد قرضا حسنا:

١ . **الجهاد في سبيل الله:** الجهاد بذل كل ما هو ممكن ومتاح في سبيل إعلاء كلمة الحق، وهو القرض المستثمر والمحقق لدخول الجنة، وفي الجهاد مكابدة وتحمل للعبء والمسؤولية المترتبة عليه، وهو دائما من أجل غاية كريمة وشريفة وهي بلوغ الجنة. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ} ^{٤٨٩}.

الجهاد حقيقة قرض حسن يدخل صاحبه الجنة، وله جانبان، جانب سلوكي ظاهر أو مشاهد، وجانب عقلي كامن أو ملاحظ، فعند الإقدام على تنفيذ الفعل الجهادي، يعرض

^{٤٨٨} المائدة ١٢.

^{٤٨٩} التحريم ٩.

الشخص المجاهد نفسه إلى مواجهة الموت التي بالضرورة ستفوز عليه في نهاية الأمر الطبيعي، ومع ذلك يكتب له الاستشهاد وبعد شهيدا، فالعرب تقول من يطلب الموت تكتب له الحياة، وتعتبر الشهيد حيا، لقيامه بأعمال التمجيد، التي تجعله على الألسن الشاكرة والمثنية عليه، ولمقارعة الموت دون خوف أو تردد، وكل من يستشهد على الحق بإرادة واعية، يعترف له الجميع بأنه شهيد الحق والواجب، ويشهد له الله بذلك في قوله تعالى: ﴿لولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾^{٤٩٠}. في سبيل الله، تعني: في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل، ومن يلتزم بما أمر الله ويضحى في سبيله بالمال والنفس يعد مجاهدا.

والجانب الثاني هو الجانب المعرفي الإيماني، الذي يكون عند المجاهد القناعة بما يقوم به من فعل وسلوك جهادي بأنه الحق، والقاعدة المعرفية الإيمانية هي التي مكنته من قبول التحدي للموت، ومن الناحية الإيمانية يعد المجاهد منتصرا منذ قبوله تحدي الموت الذي يفوز عليه أولا عندما أصبح بالنسبة له لم يعد مصدر خوف كما كان، ويفوز عليه ثانية عند دخوله ميدان القتال حيث إنه يعرف لا مجال له إلا الفوز أو الاستشهاد. وفي كلتا الحالتين يعد المجاهد منتصرا، بتحقيق النصر، أو الاستشهاد في سبيله.

المجاهد متحدٍ للموت لا يخيفه خاصة عندما يصبح مطلبا، ولكي يثبت المجاهد للموت أنه لا يخافه يعلن دخوله ساحات الحرب إلى أن ينتصر أو يستشهد، وكأنه يود أن يقول للموت سيأتيك الدليل من بعدي فأفعل ما تستطيع، فأنا لا أخشاك.

هذه وجهة النظر بالنسبة للمجاهد أما بالنسبة للمشاهد فإن الأمر قد لا يكون كذلك، فالمشاهد قد يعتبر الشهيد قَدَمَ نفسه للتهلكة، وأنه مذنب بفعل ما ارتكب، وذلك لأنه لم يعرف المبررات الإيمانية والمعرفية التي جعلت من الخائف مخيفا، ولتوضيح ذلك علينا أن نعرف الفروق بين الأفعال الآتية:

^{٤٩٠} آل عمران، ١٦٩.

١ . الموت: الموت بالنسبة للإنسان لا غاية من ورائه فهو أمر لا بد وأن يُنفذ، {إنك ميت وأنهم ميتون} فالموت أمر طبيعي لا بد منه مادامت الحياة، وبعد الموت حقاً لأن الجميع متساوون في حق تملكه بالحياة، وبالتالي لن يأخذ أحد هذا الحق من الآخر أو حتى يعتدي عليه، أو ينوب عنه فيه، إذاً الموت آتٍ لا محالة، وبما أنه كذلك فلا خوف منه، لأنه لن يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك الفعل، ومرة واحدة، ولن يتكرر، ومع العلم عندما يؤدي الموت وظيفته بالقضاء على الحياة، فلا بد له من أن يُقتل ويُقبر هو الآخر، ويوم موته ستنبعث الحياة من جديد ويصبح للحياة معنى وأهمية لأنها بلا مخاوف.

الموت الذي كان يخيف الأحياء لم يعد على قيد الحياة ولن يبعث من جديد معنا، {فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره} أي بعد البعث كل من عمل عملاً يجده في انتظاره ليجازى به، وعليه إذاً لا مفر من الموت، وبأعمالنا يمكن الفرار إلى الجنة أو الجحيم. ما أجمل المنطق الذي تحتويه الآية السابقة {فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره} لن يعاقب الله أحداً إلا بما قدمت يداه وهذا منطق يجب أن يقبله المتحاورون لتكون القدوة بينهم بالتماثل.

٢ - الانتحار: الإصرار والإقدام على التخلص من الحياة في أوقات الحاجة إليها، وبعد الانتحار آخر عمل سيئ في حياة الإنسان، ولا يمكن أن يتم فعل الانتحار في زمن استخدام المنطق، والمجتمعات التي تنفث فيها ظاهرة الانتحار هي بطبيعة الحال مجتمعات تعاني من أزمت روحية أو فراغ روحي، فراغ لا يجيب على تساؤلات المنتحرين. إذاً الانتحار لم يكن في سبيل قضايا ولا في سبيل معتقدات، بل هو في حقيقة الأمر هروب من واقع أو عُسرة. والمنتحر ليس له جزاء في اليوم الآخر، بل له عقاب، والمُقدم على فعل الانتحار لن ينتظر إلا التخلص من الحالة النفسية التي يختنق بها، دون أن يكون بيده الحل، فبدل أن يلتجئ للآخر للمساعدة وفك الطوق النفسي الذي يختنق به، ينطوي على نفسه ويقبل بالانتحار الذي يثبت ضعفه أمام مواجهة المواقف التي تستوجب التصدي. إنه تنفيذ مطلب الموت بدون مقابل يستوجب الجزاء. في هذه الحالة عندما يقارن مشكلته

بالموت يفضل قبول الموت والاستسلام لها وعدم مواجهة المشكلة التي تتحداه وتخيفه إذا استمر في الحياة. إذن الفرق كبير بين المجاهد الذي تحدى الموت وبين المنتحر الذي تحدته الحياة. مع أن الاثنين أصبحا في حالة موت، إلا أن المنتحر أسباب موته الخوف والانسحاب، الخوف من المشكلة والمترتب عليها، أما الشهيد فإن حالة موته الشجاعة والإقدام.

وبناء على ذلك علينا أن نميز بين المجاهد المتين، وبين المنتحر الضعيف، فالأول له الجزاء الأوفى والثاني له العذاب. اللهم أحفظنا وزوجاتنا وأولادنا وإخواننا المسلمين والمسلمات ولا تديقنا وإياهم العذاب واجعلنا من المستخلفين في الدار الدنيا والوارثين فيها وفي الجنة.

٣ . القتال: القتال فعل قد يُكتب على الناس وهو كرها لهم، وعندما يكتب كرها، يصبح الإقدام عليه ليس باختيار، لوقاتلوا في سبيل الله الذي يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين^{٤٩١} إذاً عندما يقاتلونكم كرها فلا بد من مقاتلة من يقاتلونكم، ولا خيار في ذلك فالقتال هنا دفاع عن النفس، أو عن البلد، أو عن الدين والشرف، فالقتال واحد والدفاع مختلف، والأسباب هي التي تحدد نوع الدفاع، الاعتداء على الوطن يستوجب الدفاع عنه، والاعتداء على الشرف والكرامة يستوجب الدفاع عنهما، وهكذا. عندما تتعرض للسرقة، قد تدفعك الأسباب إلى مقاتلة المعتدي، وعندما يستتجد بك مستتجد هي الأخرى قد تجعلك في حالة مقاتلة من لا تعرفه على الإطلاق، وتجد نفسك في مواجهة قتالية لم تكن في الحسبان، وذات نتائج لا تحمد عقباها.

القتل قد يكون عقاب على فعل، القاتل يُقتل، إذاً عندما تقتل ظلماً ليس لك من مفر من أن تُقتل كعقاب على ارتكابك الفعل المحرم، فالمقاتلة قد تكون واجبة عندما تكون لأجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وقد تكون تنفيذ حكم المعاقبة، وقد تكون هكذا أمر واقع. وعلى المتحاورين أو القضاة أن يميزوا بين هذا وذاك، لكي يكون الحكم عادلاً.

^{٤٩١} البقرة، ١٩٩.

٤ . الحرب: عندما يتم الاعتداء على الحقوق والواجبات والمسؤوليات، تصبح حالة البلد بكامله حالة حرب، أي محاربة الناس في ما يجب أن يكون لهم، والحرب عادة تعد لها العدة، وتُسَخَّر لها الجيوش، وينفروا الناس للمواجهة، لإيقاف عجلة تقدم المعتدين التي قد تدهم الأخضر واليابس، والمحاربون في كثير من الأحيان يُدرَّبون على خوض المعارك، ويتقاضون المعاشات والمرتبات مقابل ذلك، أي أن الجيوش النظامية في جميع أنحاء العالم هم معدون ومدربون على خوض المعارك التي تُرسم وتخطط مسبقاً من قبل المعتدي، والتي تواجهها خطط الدفاع من قبل المعتدي عليه. أجرة تدفع للمحارب أيام السلم وأيام الحرب، ولهذا لم يكن المحارب في حالة اختيار، بل أنه في حالة تنفيذ أوامر عسكرية، ومن يتأخر عن أداء المهام الحربية قد يجد نفسه في مواجهة العقاب بالموت. وقد يتساءل البعض: لماذا في معظم المعارك الحربية يحدث الاستسلام؟ المحارب في ميدان المعركة، إذا لم يكن شريكاً في اتخاذ قرار الحرب ومقتنع بأنه على حق، لا يمكن أن يكون محارباً، فإذا عرف أن خوض الحرب من أجل الحرية، ومن أجل الجميع سيخوضها ببسالة، ولكن إذا عرف أن خوض الحرب سيطيّل عمر الحاكم الدكتاتور، أو الحاكم غير الديمقراطي أو غير الإنساني، فليس له بد من أن يستسلم للآخر حتى لا يلقي بنفسه إلى التهلكة، وفي هذه الحالة يعتبر نفسه قد هزم الحاكم في عقر داره دون أن يعلن عن ذلك.

في الحروب تنشط وسائل الإعلام في تناقل أخبار المعارك، وفي تزويرها وتشويهها، وفي كثير من الأحيان تُطمس الحقيقة، وذلك نتيجة اعتمادها على اللغة وليس على المنطق، فالمنطق من مسؤولياته إظهار الحقيقة وتبيانها من أي زيف، أما اللغة في مثل هذه الظروف تتجرد من كل منطق، لأجل أن توجع نار الحرب التي في كثير من الأحيان تتخذ بقرارات سياسية ووجهات نظر السياسيين وليس بقرارات موضوعية، اللغة تعتمد على المغالطة وتزوير الحقائق، والمنطق يعتمد على التصحيح والتصويب إلى ما يجب أن يكون. إذن اللغة الإعلامية تهدف إلى إيقاد نار الحرب ومنطق الحوار يسعى إلى إطفائها.

٥ . **الجهاد:** الجهاد عمل تطوعي مؤسس على الرغبة، والجهاد لا يخوضه إلا الواعون بالمرتب عليه، عاجلا أم آجلا، عاجلا قبول الاستشهاد (الموت) الاستشهاد تعني أن الشهيد قد كان شاهدا على المظالم وأقدم على مقاومتها بكل ما يملك من المال والنفس، لم يجبره أحد على ارتكاب الفعل الاستشهادي وبدون مقابل، وإذا كان بمقابل كان قتالا أو حربا، {انفروا خفافا وثقالا وجاهد بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله} ^{٤٩٢} أي ادفعوا مما تمتلكون أو تكتنون، وادفعوا بأرواحكم في سبيل إحقاق الحق، إذاً الشهيد هو الذي يدفع لا أن يدفع له مقابل الشهادة.

الجهاد وعي بالفعل وبمخاطره، وبعناصره، وبالمرتب عليه، وهو آخر وسيلة يتم استخدامها، بعد أن ينفذ منطق الحوار مع الظالم، فلا بد من المواجهة العلنية، التي تقصي المعتدي، والذي يقدم على الفعل الاستشهادي يكون راضيا على ما يقوم به، وفي معظم الأحيان يكون فرحا بما يقدم عليه، وتكون أسرته راضية على استشهاده إلى درجة المفاخرة به، ويسجله المجتمع الذي ينتمي إليه في سجلات أبطال التاريخ، ويكتب عند الله شهيدا.

في المجاهدة مكابدة، وتحمل مسؤولية، الوطن الذي تمتلك فيه الحقوق وتؤدي فيه الواجبات وتحمل فيه المسؤوليات، الجهاد في سبيله ضرورة قيمية، المساس بالدين الذي من عند الله تعالى، أو الاعتداء عليه، ليس بالأمر الهين كما يعتقد البعض، في سبيله يجاهد المؤمنون بأموالهم وأنفسهم، وذلك لأنه مصدر التمييز بين أحكام إحقاق الحق وأحكام إبطال الباطل. من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هناك من جاهد بربع ماله وهناك من جاهد بثلاث ماله، وهناك من جاهد بكل ماله، وهناك من جاهد بنفسه، ومنهم من جاهد بماله ونفسه، هؤلاء القدوة الحسنة يعدون مثلا حيا في أذهان المؤمنين ويعد الشهداء أحياء عند الله وعند المؤمنين.

المجاهد لا يظلم، ولا يعتدي ظلما، ولا يسعى من وراء الفعل الجهادي لأي مصلحة آنية، بل في حاجة للجزاء الأوفر الذي لم يكن من البشر الذين قد يمنون عليه في يوم من الأيام.

^{٤٩٢} التوبة، ٤١.

لقد أتضح الفارق بين من يقدّم على الانتحار وفي كثير من الأحيان ينتهي وهو غير مأسوفا عليه، وبين الذي يموت في ميادين التفضيلات، وبين الذي يموت في مواقف الرذيلة، وبين الذي يموت بانتهاء أيام الحياة، وبين المجاهد الذي كان له الاختيار وكانت له الإرادة الواعية، وكان بيده القرار، وهزم الموت الذي يخيف الغالبية، وأنتصر عليه في معركة التحدي بالاستشهاد.

الحجة، المال، النفس:

ثلاثة عناصر في منطق الحوار، من يلم بها ويعرفها يعرف معنى الجهاد، ومن لم يعرفها، لن يعرف معنى الجهاد. عندما تكون هناك قضية دينية وإنسانية، أو قضية اجتماعية ووطنية، يكون هناك موضوع للحوار، وقبل أي اعتداء أو قتال ينبغي أن يكون اللقاء الذي تُعرض فيه الحجج المنطقية، دون إعلان عداء من طرف على آخر، وإذا لم يتم ذلك مباشرة لا عيب في تدخل وسطاء المنطق، لا وسطاء اللغة، وسطاء الحكمة لا وسطاء السياسة، وعلى الجميع توخي الحذر، {جادلهم بالتّي هي أحسن} قال تعالى: جادلهم ولم يقل حاورهم، فالمجادلة فيها مكابدة ودرجة عالية من التحمل، وعدم الإسراع في الخروج من الموضوع، إلى أن تتحقق القناعات بعد مكاشفات، وحجج دامغة، ليس فيها تزوير أو تهرب من إحقاق الحق، وعلى المحاور أن لا يُستفز من قبل المحاور الآخر، فالاستفزاز قد يُنهي زمن المجادلة التي لا ينبغي أن تُهزم بالاستفزازات غير المسؤولة من قبل الآخر. أما حاورهم فيها شيء من التخفيف إذا ما قورنت بالمجادلة، في المجادلة إصرار، وعدم إعطاء الفرصة لمن يريد أن ينهي الجدل قبل الوصول إلى نتائج مقنعة، وفيها التحذير والإنذار، وفيها التواعد إذا لم يتم الاتفاق، وفيها معرفة العواقب. أما الحوار فقد لا تكون فيه مكابدة، يعتمد على قوة الحجة، التي لا تستوجب الوعيد والتهديد، وفي الحوار شفافية ومنطق اعتبار الأنا والآخر.

في حالة التعنت وفشل المجادلة، يتم تسخير الإمكانيات لكف من يمتلك القوة المهددة للحق عما يهدف إليه من مشاكل أو مآسي، والإمكانيات في كثير من الأحيان وقائية، وفي

البعض الآخر قتالية حيث يتم استخدامها إذا ما اشتعلت نار الحرب، وعندما تشتعل نار الحرب يصبح استخدام السلاح مبررا، ولأجل الحق وإعلائه يستوجب مواجهة من يريد للباطل أن يسود، فالذي يحارب من أجل إبطال الحق لا يعد شهيدا، والذي يحارب من أجل إعلاء كلمة الحق يعد شهيدا.

يعتبر المال والنفس العنصران التاليان في الاستخدام بعد عدم التفهم لما دار من حوار بين المتجادلين بالحجة، والمتجادلون عندما يفقدون قواعد الركون إلى المحاجة المنطقية، قد يضطروا إلى الخصام الذي لا طائل من ورائه إلا الاختلاف. إذن الأساس أن يتم التبادل والحوار بالتتي هي أحسن، وعندما يصل الحوار والمجادلة إلى طريق مسدود فلا بد من المواجهة العنيفة بما هو أسوأ حيث ينقسم الناس على فئتين، فئة مع الحق ، وفئة مع الباطل. وعندما يحدث الصراع قد يمتد من أصحاب الحق إلى المناصرين لهم من جهة، وبين أصحاب الباطل والمناصرين لهم من جهة أخرى. فحدود الحرب عندما تبدأ قد تكون معروفة ولكن عندما تستمر قد لا تُعرف حدودها، ولذا فعلى المتحاورين أن يضعوا في اعتباراتهم في الحوار المنطقي حدوث المتوقع وغير المتوقع حتى لا يتم الاستغراب بعدما تحدث المفاجأة.

إذن القبول بالمحاجة قبول بالسلام، والخروج عنها خروج عن السلام، وعندما يخرج أطراف الحوار عن حدود المجادلة دون تفهم لبعضهم البعض، أو دون تفهم لقضاياهم ولما يجب وما لا يجب تجاهها، فقد يحدث بينهم الصدام الذي تُسخر له كل الإمكانيات والقوة اللازمة للمواجهة أو للتصدي، وبطبيعة الحال المواجهة لن تكون إلا بالأنفس المؤيدة والمعارضة للفكرة (موضوع الاختلاف).

عندما تغيب الحجة يُفسح المجال للخصام والصدام، الذي يتطلب حشد الإمكانيات المادية من مال وعتاد، ثم بعد ذلك تحشد الأنفس القادرة على خوض الحرب، وعندما تشتعل نار الحرب، تقدم الأنفس فداء للفكرة التي تم الاعتراض عليها، أو فداء ضد الفكرة التي لا يود لها أن تنتشر وتسود بين الناس. وبرغم ذلك لا بد للحرب أن تتوقف بالمغالبة أو بالتحاور

لوقف سفك الدماء، ولأجل ذلك ينبغي أن يعود أطراف الحوار إلى طاولة التفاوض، ولن يُنهي الصدام إلا الحوار المنطقي الذي يستوجب التعرف على القيم التي تحرك كل طرف من الأطراف أو التي يدافع عنها كل طرف من الأطراف المتصادمة، ووضع معايير ومقاييس للتحكيم المنطقي والموضوعي.

والجهاد درجات أو أنواع منه:

أ. **جهاد الكلمة:** دائما الحديث بين الناس كلمة، وهذه الكلمة قد تكون طيبة لينة هادئة، وقد تكون قاسية ظالمة، وقد تكون مؤدية إلى الإصلاح وقد تكون مؤدية إلى الإفساد، قد تكون معمّرة وقد تكون مدمّرة، ولكل كلمة فعل ورد فعل، ومع ذلك سيظل الحوار والجدل قائم بين الناس حتى بلوغ الفهم والتفهم الذي يؤدي إلى التعاون والتوحد والتكيف والتوافق، وقد تكون نتائجه عدائية بعد أن تكشف الكلمة الحقيقة فيكون الصدام والخصام وقد يؤدي ذلك إلى الاقتتال بغير حق، مما يجعل للمجاهدين بالكلمة دور فعّال في إطفاء نار الفتنة، أو كبح جماح الكلمات الفاسدة التي تخرب ولا تصلح.

وعندما تشب نار الحرب بين المسلمين وغيرهم من الكفرة والمشركين سيكون للكلمة المحرّضة على الجهاد دور جهادي، ودائما الكلمة المحرّضة على الحق كلمة حق يجازي الله عليها قائلها ويحسبها لهم قرضا متضاعف مع فائق المغفرة.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} ^{٤٩٣}.

ب. **جهاد المال:** المال المكتسب بالحلال مال حلال، أولا: لأنه من عند الله، وثانيا: لأنه بأسباب الكد والجد بالعرق الذهني أو البدني، ولهذا كله حلال، وبالتالي من يجاهد بماله الحلال فهو في حقيقة الأمر يجاهد بنتاج عرقه الذي هو نتاج ما بذله من جهد وكد. قال

تعالى: {لَكِنَّ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} ^{٤٩٤}.

ج . جهاد النفس. قال تعالى: {وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} ^{٤٩٥}. بالتأكيد المستفيد من القرض الحسن هو قارضه، خاصة وأن القرض مقدم في سبيل الله، والمجازي هو الله عز وجل، وعليه فالقرض يزيد مقرضه تمتن في الدارين خليفة في الدار الدنيا، ووارث في الدار الآخرة.

وجهاد النفس يبلغ ذروته بالجهاد بها في سبيل الله تعالى، دفاعا عن الدين وعن الشرف والكرامة والوطن إذا تعرض لغزاة آتین لسفك الدماء فيه أو هناك أعراض مواطنيه.

٢ . العتق: العتق تحرير من قيود وتبعية وهذه التبعية في معظمها تؤدي للتهاكة، فعندما يكون العبد كافراً فلا يمكن أن يسمح له بالإسلام حتى وإن رغب وأحب، ولذا فمن اشترى عبداً لأجل أن يعتقه قد قدم لنفسه قرصاً حسناً مباركا قابل للمضاعفة من الله تعالى.

قال تعالى: {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ} ^{٤٩٦}. العقبة تعني مما تعني الصعاب الوعرة في القول أو في الفعل أو في السبل التي تقطع من مكان إلى مكان، ولكن العقبة في الآيات الكريمة السابقة هي محددة بفك الرقبة، أي تحرير إنسان وعتقه من العبودية التي يركن تحتها بالبيع في سبيل الحاجة فيكون عبداً قابلاً للذل، والتحرير هو تحرير من الذل، والانقياد لغير الله، ولهذا جاء التحرير من عند الله لكل الناس الذين يودهم أن يكونوا مستخلفين في الأرض ووارثين في الجنة.

^{٤٩٤} التوبة ٨٨، ٨٩.

^{٤٩٥} العنكبوت ٦.

^{٤٩٦} البلد ١١، ١٨.

وفي قوله تعالى: (أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)، المسغبة هي المجاعة، ومن يطعم قريب ليحيده عن ما ألم به من عوز وفاقة، (أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ) أي افتقارٌ وحيثُ كان المراد باقتحام العقبة هذه الأمور، فإن الذين يقوموا بالأفعال الحسان تجاه من ذكر وهم ضامرون الخير والطاعة التامة لأمر الله واستجابته فإن ذلك يعد قرصاً في موازينهم وتمتّن به أعمالهم مضاعفة.

والى جانب ما ذكر فإن للعتق أسباب وأوجه منها ما جاء في الآيات التالية: قال تعالى: لَوْ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا^{٤٩٧}، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تُوَعِّظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ^{٤٩٨}، وقال تعالى: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^{٤٩٩}.

٣ . العفو: العفو لا يتم إلا من قادر ومالك للأمر، ومن العفو يتحقق التخلص من دينٍ قد يدخل صاحبه إلى النار أو يؤدي إلى قتله إن لم يتم العفو عنه من قبل المعني الذي ارتكب

^{٤٩٧} النساء ٩٢، ٩٣.

^{٤٩٨} المجادلة ٣، ٤.

^{٤٩٩} المائدة ٨٩.

بشأنه الجرم الذي يستوجب العقاب في الدارين إن لم يتمكن من الحصول على العفو. قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدَاةٍ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ^{٥٠٠}، وقال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَأَعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^{٥٠١}، وقال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ^{٥٠٢}.

٤ . فك دين المدينين: الدين قيد على المدين، وقد يُرهن أو يُستعبد الإنسان بدين لا يستطيع رده، أو تحتل البلاد من قبل غازي بأسباب دين لم يرد، وبهذا فالدين حمل وعبء على من اقترضه وهو يعتقد أنه سيرجعه في وقته الذي قيد به، ولأسباب ومفاجآت عاتقة لنجاحه في ذلك يتعرض الإنسان أحيانا إلى مواجهة من قبل الدائن له قد تكون على حساب حياته أو حياة أولاده أو حريته وحريرتهم، ولذا جاء الدين الإسلامي ليحرر المدينين بمباركته الأعمال التي تؤدي إلى تخليص وفك دين المدينين في مقابل مرضاة الله تعالى وبهذا العمل يتمكن فاك الدين من بلوغ الجنة إذا كان غرضه بفك دين المدين الفوز بها.

٥ . الدفاع عن المظلومين: الظلم من أفعال التجني على الآخرين، والدفاع عن المظلومين دفاع عن الحق، وإزهاقا للباطل، وبالتالي فإن إحقاق الحق واجب وإزهاق الظلم واجب، ولكن إذا لم يستطع الفرد أن يدافع عن نفسه فالدفاع عنه وهو مظلوم يعد قرضا حسنا من قام به تضاعفت حسناته من الله تعالى. قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا

^{٥٠٠} البقرة ١٧٨، ١٧٩.

^{٥٠١} البقرة، ١٠٩.

^{٥٠٢} البقرة ٢١٩.

إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي دَارِ الْوَسْطَىٰ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَنُصِيبَنَّهم بِعَذَابٍ أَشَدِّ مِنَ الَّذِي كَانُوا يَكْفُرُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَنُصِيبَنَّهم بِعَذَابٍ أَشَدِّ مِنَ الَّذِي كَانُوا يَكْفُرُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَنُصِيبَنَّهم بِعَذَابٍ أَشَدِّ مِنَ الَّذِي كَانُوا يَكْفُرُونَ

لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} ٥٠٣ .
الظلم له عذاب شديد عند الله ولهذا فمن يطع الله يقاوم ظلما، ويتقي الله ربه، ويعمل صالحا يرضاه، قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} ٥٠٤ .

٦ . إطعام المساكين: الذين في حاجة ولا عائل لهم يسهم في إشباع حاجاتهم هم في حاجة لمن يقدم لهم المساعدة الهادفة التي تنقذ حياتهم من الهلاك والضياع فمن عمل تجاههم خيرا جازاه الله خيرا مضاعفا، ولهذا فمن يحث على إطعام المساكين ويعمل على إطعامهم يقرضه الله قرضا حسنا، قال تعالى: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} ٥٠ . من هنا يأخذ الخليفة قدوته الحسنة، وذلك بإطعام المسكين والأخذ بيده حتى يكون قادرا على عول نفسه وحمايتها من التهلكة قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى

٥٠٣ العنكبوت، ٣١ . ٣٨ .

٥٠٤ فاطر ٣٦ ، ٣٧ .

٥٠٥ الكهف ٧٩ .

الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةً طَعَامٌ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} ٥٠٦ .

٧ . **رد كيد الكائدين:** الكيد امتلاء بالكره والحقد والظلم، وفي الكيد مخادعة قد تكون متوقعة وقد لا تكون، وفيه مغالبة فمن فزع لأجل مناصرة مغلوب ناصره الله بالحق، وكتب له حسنة مضاعفة وفي هذا الأمر تشبيه بالقرض الذي يضاعفه الله لمن تصدق وعمل عملا صالحا فيه إنقاذ للنفس من الهلاك أو الضياع، لأجل أن يعيدها إلى ما يجب أن تكون عليه. قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} ٥٠٧، وقال تعالى: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ذَلِكَُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ} ٥٠٨، وقال تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهْلٍ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا} ٥٠٩ .

٨ . **التصدق الجاري:** التصدق إعطاء بدون منة، وبدون انتظار مقابل من المتصدق عليه، وأن يكون بنية الطاعة لله تعالى، الذي أوجب التصدق على المحتاجين، والاحتياج نقص يتطلب إشباع، وإن لم تتم عمليات الإشباع قد يخرج المحتاج عن طوره فيعتدي أو يسرق أو يقتل في سبيل إشباع حاجة، والاحتياج ابتلاء لأجل غايات نافعة، يعلمها الله ويدركها المؤمنون الذين هم في امتحان هذا الابتلاء، وذلك لاختبارهم من حيث:

. هل هم مدركون لأهمية الصدقة؟.

. هل هم مؤمنون بها حقا؟.

. هل هم يحسون بحال من هو في حاجة وهم في حالات الإشباع؟.

. هل هم مدركون حقا حق الله فيما يملكون أو أنهم غافلون؟.

٥٠٦ البقرة ١٨٣، ١٨٤ .

٥٠٧ النساء ٧٦ .

٥٠٨ الأنفال ١٧، ١٨ .

٥٠٩ الطارق ١٣ . ١٧ .

. من هو الذي يقرض الله قرضا حسنا، ومن الذي لا يقرضه قرضا حسنا؟.

ولأن الصدقات نص من عند الله تعالى فإنها ستظل مع المستخلفين في الأرض ما بقوا فيها، ولهذا فإعطاء الصدقات سيظل رفيقا للأحياء، ولهذا من يقرض الله قرضا حسنا يضاعفه له، والفقر والغنى آيات من الله تعالى: تؤكد أنه بإمكانه أن يجعل الفقير غنيا، وبإمكانه أن يجعل الغني فقيرا، ولذا تصدقوا فإن التصدق رافع للبلية. قال تعالى: {يَمْحَقُ اللَّهُ الرَّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ} ^{٥١٠} وللصدقات أوجه كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} ^{٥١١}، وقال تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} ^{٥١٢}.

الصدقات الجارية متعددة منها بناء المساجد، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنها بناء المستشفيات والمدارس والمنارات الشرعية، ومنها بناء بيوت الأيتام وعولهم، وغيرها كثير.

قال تعالى: {وَأَتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ} ^{٥١٣}، أي يجب أن تؤتى الأموال في محبة الله من خلال الأوجه التي يرتضيها، ليكون صرفها أو إنفاقها على الحق، ولا تكون في أوجه التبذير، وذلك لأن المبذرين إخوان الشياطين مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا} ^{٥١٤}. ولهذا فمن تصدق خيرا له ومن يمتلك ولا يتصدق

^{٥١٠} البقرة ٢٧٦.

^{٥١١} التوبة ٦٠.

^{٥١٢} التوبة ١٠٤، ١٠٥.

^{٥١٣} البقرة ١٧٧.

^{٥١٤} الإسراء ٢٧.

فقد يكون ما يملكه نقمة عليه، قال تعالى: {وَإِنْ تُخَفَوْهَا وَتُوْتُوَهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} ٥١٥، والمتصدق الذي يسجل له قرضا حسنا هو الذي لا يتبع ما أعطى وتصدق به منا ولا أذى، قال تعالى: {لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى} ٥١٦، وذلك لأن الأعمال بالنيات فمن ابتغى وجه ربه نال قرضا مضاعفا مقابل ما أعطى وأوفى ابتغاء وجه ربه الأعلى مصداقا لقوله تعالى: {إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى} ٥١٧. ومن يعطي لوجه الله ويتصدق مع خالص النية الصافية لا يمكن أن يمنن ويستكثر، قال تعالى {وَلَا تَمُنَّ بِتَسْتَكْثِرُ} ٥١٨، والإنفاق الكريم والمفضل عند الله أن يكون الإنفاق مما يحب الخليفة، ومن هنا تكون المباركة والزيادة في مضاعفة الأجر والخيرات الحسان، قال تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} ٥١٩.

وعليه فالمتين جل جلاله مالك العلم والحكمة ولهذا فهو مالك الحجة الدامغة والزاهقة للباطل ومن هذه الحجج:

١- **ضرب الأمثال:** كقوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ} ٥٢٠، ويلحظ أن غالب الأمثال في القرآن كانت من الأمثال المادية المحسوسة وهذا من قوة المجادلة لأن ذلك من شأنه تقريب المعنى وتأكيده، كما أنه يخاطب العقل البشري المحدود القدرة أمام قدرته فاستخدم ما يناسب هذا العقل مع قدرته سبحانه على الإتيان بغير ذلك يقول المتين: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِمَّا رَزَقْنَا حَسَنًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

٥١٥ البقرة ٢٧١

٥١٦ البقرة ٢٦٤

٥١٧ الليل ٢٠-٢١

٥١٨ المدثر ٦

٥١٩ ال عمران ٩٢

٥٢٠ الحج ٧٣

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجَّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ٥٢١ .

وضرب الأمثال مصدره معرفة المتين بخلقه في حبه للمجادلة والمرء، قال تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} ٥٢٢، يقول عز ذكره ولقد مثلنا في هذا القرآن للناس من كل مثلاً، ووعظناهم فيه من كل عظة، واحتجنا عليهم فيه بكل حجة ليتذكروا فينبوا، ويعتبروا فيتعتوا، (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا).

٢- الاستدراج: وذلك بأن يقدم المجادل ما يقر به المُجادل فيستدرجه للقبول بالحجة والمنطق الذي له علاقة بالواقع وله أمد بعيد بأسباب الحكمة التي من ورائه. كما فعل المتين مع اليهود والنصارى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} ٥٢٣، والخطاب لأهل الكتاب، لأنهم آمنوا ببعض الكتب والرسل وكفروا ببعض. وروي أنه لعبد الله بن سلام، وأسد وأسيد ابني كعب، وثعلبة بن قيس، وسلام بن أخت عبد الله بن سلام، وسلمه ابن أخيه، ويامين بن يامين، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: يا رسول الله، إنا نؤمن بك وبكتابك وموسى والتوراة وعزيز ونكفر بما سواه من الكتب والرسل، فقال عليه السلام: «بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله، فقالوا: لا نفعل، فنزلت، فأمنوا كلهم. وقيل: هو للمنافقين، كأنه قيل: يا أيها الذين آمنوا نفاقاً آمنوا إخلاصاً» ٥٢٤. فإن قلت: كيف قيل لأهل الكتاب {والكتاب الذي أنزل من قبل} ٥٢٥، وكانوا مؤمنين بالتوراة والإنجيل؟ قلت: كانوا مؤمنين بهما فحسب، وما كانوا مؤمنين بكل ما أنزل من الكتب، فأمرنا أن يؤمنوا بالجنس كله، ولأن إيمانهم ببعض الكتب

٥٢١ النحل ٧٥ ، ٧٦

٥٢٢ الكهف ٥٤

٥٢٣ النساء ١٣٦

٥٢٤ تفسير الزمخشري، ج ١ ، ص ٤٧٥

٥٢٥ النساء ١٣٦

لا يصح إيماناً به، لأن طريق الإيمان به هو المعجزة، ولا اختصاص لها ببعض الكتب دون بعض، فلو كان إيمانهم بما آمنوا به لأجل المعجزة لآمنوا به كله، فحين آمنوا ببعضه علم أنهم لم يعتبروا المعجزة، فلم يكن إيمانهم إيماناً. وهذا الذي أراد عز وجل في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾^{٥٢٦}.

٣- **الإفحام:** الإفحام لا يكون إلا بحجة شاهدة لا يمكن أن يغض النظر عنها، وعندما تقال جدلاً، بها يُبْهت المجادل بالباطل، ولذا فإن الإفحام هو الإتيان بحجة لا يمكن ردها كما علم المتين نبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام في مجادلة النمرود: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^{٥٢٧}.

٤- **إبطال النقيض:** وهو الذي يتجه فيه إلى إثبات المطلوب بإبطال نقيضه، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾^{٥٢٨}، وهي إشارة إلى برهان التمانع كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِي وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾^{٥٢٩}.

٥- **القص:** وهي من أدلة المجادل لاسيما إذا كانت مما يؤمن به الخصم ومما كان في حدود معرفته، كما فعل المتين مع العرب بقصه لقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو يعلم أن إبراهيم جد من اشرف أجداد العرب وقد افتخروا به وانتسبوا إليه، فقص عليهم نبأه مع أبيه ليكون حجة عليهم مع ما يتبعون من دين أباهم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ

٥٢٦ النساء ١٥٠

٥٢٧ البقرة ٢٥٨

٥٢٨ الإسراء ٤٢

٥٢٩ الأنبياء ٢٢ . ٢٤

صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ
إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ
الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ
لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ
سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا^{٥٣٠}.

وعليه فالمتين هو القيوم على كل قول وفعل من أجل الاستقامة التي تجعل العبد من
المستخلفين في الأرض والوارثين في الجنة، ولذا فالمتين يدعو للاستقامة ويثيب عليها
ويحاسب على خلافها، فصراطه مستقيم: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا
السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}^{٥٣١}، وإن هذا القرآن الذي ادعوكم
إليه، وادعوكم به إلى ما يحييكم، هو صراطي ومنهاجي الذي أسلكه في مرضاة الله، لا
يَضِلُّ سالكه أبداً، ولا يهتدي تاركه إلا بعد استغفار وعودة إليه، فلا تتبعوا الطرق الباطلة
المضلة التي نهاكم الله عنها، حتى لا تتفرقوا شيعا وأحزابا، وتبعدوا عن صراط الله
المستقيم، وقد جعل الله تعالى المستقيم واحدا والسبل المخالفة متعددة؛ لأن الحق واحدٌ
والباطل كثير. ولما كان إتباع الصراط المستقيم وعدم التفرق فيه يجمع الكلمة ويعز أهل
الحق، كان التفرق فيه سبب الضعف^{٥٣٢}.

ويعلمنا المتين أن ندعوه ليهبنا المعرفة بالصراط المستقيم: {إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ
الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}^{٥٣٣}، الصراط المستقيم هو أن يكون
الإنسان معرضاً عما سوى الله مقبلاً بكلية قلبه وفكره وذكره على الله بما أمر فيتبع وينتهي
عما نهاه عنه ويتعظ، إهدنا الصراط المستقيم المراد أن يهديه الله إلى الصراط المستقيم
الموصوف بالصفة المذكورة، مثاله أن يصير بحيث لو أمر بذبح ولده لأطاع كما فعله

^{٥٣٠} مريم ٤١-٤٧

^{٥٣١} الانعام ١٥٣

^{٥٣٢} تفسير القطن، ج ٢، ص ٢٢.

^{٥٣٣} الفاتحة ٦، ٧

إبراهيم عليه السلام، ولو أمر بأن ينقاد ليزبحه غيره لأطاع كما فعله إسماعيل عليه الصلاة والسلام؛ ولو أمر بأن يرمي نفسه في البحر لأطاع كما فعله يونس عليه السلام، ولو أمر بأن يتلمذ لمن هو أعلم منه بعد بلوغه في المنصب إلى أعلى الغايات لأطاع كما فعله موسى مع الخضر عليهما السلام، ولو أمر بأن يصبر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على القتل والتفريق نصفين لأطاع كما فعله يحيى وزكريا عليهما الصلاة والسلام، فالمراد بقوله إهدنا الصراط المستقيم هو الاقتداء بأنبياء الله في الصبر على الشدائد والثبات عند نزول البلاء؛ ولا شك أن هذا مقام شديد هائل؛ لأن أكثر الخلق لا طاقة لهم به.

كما إن دلائله مستقيمة: {وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَا هُمْ فَكَانُوا هُمُ الْعَالِيِينَ وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} ^{٥٣٤}، أي دللناهما على طريق الحق عقلاً وسمعاً، وأمددناهما بالتوفيق والعصمة، ونجيناها ومن تبعهم من قومهما من الشدائد التي كانوا يعانون ويلاتهما من فرعون ومن تبعه من الضالين.

ولأن ميزانه مستقيم قال: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ} ^{٥٣٥}، نحضر الموازين العادلة التي توزن بها صحائف الأعمال كما يقضي بذلك حديث السجلات والبطاقة التي ذكره مسلم وغيره أو نفس الأعمال كما قيل، وتظهر بصور جوهريّة مشرفة إن كانت حسنات ومظلمة إن كانت سيئات، وجمع الموازين ظاهر في تعدد الميزان حقيقة، فقيل: لكل أمة ميزان، وقيل: لكل مكلف ميزان، وقيل: للمؤمن موازين بعدد خيراته وأنواع حسناته، والأصح الأشهر أنه ميزان واحد لجميع الأمم ولجميع الأعمال كطباق السموات والأرض لصحة الإخبار بذلك ^{٥٣٦}، لذلك فالمتين يدعو عباده لإقامة الموازين المستقيمة التي لا ميل ولا اعوجاج

^{٥٣٤} الصافات ١١٤-١١٨

^{٥٣٥} الأنبياء ٤٧

^{٥٣٦} تفسير الالوسي، ج ١٢، ص ٣٩٨.

فيها: {وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} ٥٣٧ .
الاستقامة من أهم ما نبه المتين عباده إليه لما فيها من فائدة للبشر، وأنبياء الله كانوا ممن نبههم الله إلى ذلك بقوله تعالى:

{فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} ٥٣٨ ، عندما بين المتين أمر المختلفين في التوحيد والنبوة، وأطنب سبحانه في شرح الوعد والوعيد أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستقامة مثل الاستقامة التي أمر بها وهذا يقتضي أمره صلى الله عليه وسلم بوحى آخر ولو غير متلو كما قاله غير واحد، والظاهر أن هذا أمر بالدوام على الاستقامة وهي لزوم المستقيم وهو المتوسط بين الإفراط والتفريط وهي كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل وسائر الأخلاق فتشمل العقائد والأعمال المشتركة بينه صلى الله عليه وسلم وبين سائر المؤمنين والأمور الخاصة به عليه الصلاة والسلام من تبليغ الأحكام والقيام بوظائف النبوة وتحمل أعباء الرسالة وغير ذلك، وقد قالوا: إن المتوسط بين الإفراط والتفريط بحيث لا يكون ميل إلى أحد الجانبين قيد عرض شعرة قال تعالى: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} ٥٣٩ ، وقال تعالى: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} ٥٤٠ .

٥٣٧ الإسراء ٣٤ . ٣٨ .

٥٣٨ هود ١١٢

٥٣٩ الإسراء، ٣٥ .

٥٤٠ الشعراء ١٨١ . ١٨٣ .

ولأن الكمال لله تعالى فقد كاد الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه أن يركن إليهم ثم عصم بالتشبت بالحق، أي لولا أن تثبتاك يا محمد بعصمتنا إياك عما دعاك إليه هؤلاء المشركون من الفتنة لكدت أن تركز إليهم.

ومن شدة عناية المتين بجعل عباده على الاستقامة في القول والعمل جعل للاستقامة نصيباً في الجزاء في الدنيا قال تعالى: {وَأَنَا مِمَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا} ٥٤١، وفي الآخرة فقال: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} ٥٤٢.

فالمتين هو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم: {الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} ٥٤٣، فالمتين القيوم نزل القرآن مصدقا لما جاءت به الكتب السماوية من قبل التوراة والإنجيل، ولأنه قيوم فإنه لا يخفى عليه صغيرة أو كبيرة في الأرض أو في السماء، وكيف تخفى عليه وهو الخالق الذي يصور الإنسان في الأرحام كيف يشاء فهو العالم الذي يعلم الظاهر والخفي: {وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} ٥٤٤.

٥٤١ الجن ١٤. ١٧.

٥٤٢ فصلت ٣٠

٥٤٣ ال عمران ١-٧

٥٤٤ طه ٧

والمتين قيوم محيط بكل المعارف والمعلومات، ومعرفته شاملة ودائمة بالمطلق قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^{٥٤٥}، وصفه تعالى بإحاطة علمه بجميع المعلومات الخفية والجلية المعلومة من باب أولى للإيدان بانطواء ما أنزله على أسرار مطوية عن عقول البشر مع ما فيه من التعريض بمجازاتهم بجناياتهم المحكية التي هي من جملة معلوماته تعالى أي ليس ذلك كما تزعمون بل هو أمر سماوي أنزله الله تعالى الذي لا يعزب عن علمه شيء من الأشياء وأودع فيه فنون الحكم والأسرار على وجه بديع لا تحوم حوله الأفهام حيث أعجزكم قاطبة بفصاحته وبلاغته وأخبركم بمغيبات مستقبلية وأمور مكنونة لا يهتدي إليها ولا يوفق إلا بتوفيق الله تعالى العليم الخبير عليها، وقوله: (إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) فهو للنتبيه على أنهم استوجبوا العذاب على ما هم عليه من الجنايات لكنه جل جلاله آخر عنهم ذلك فهو سبحانه أولاً وأبداً مستمر في المغفرة والرحمة ولذا فلا يُعَجَّل بالعقوبة.

المتين، هو القوي العظيم الذي لا يُقَهَر ولا يغلب، وهو الذي يقهر من في السموات والأرض ولا يقهره أحد سبحانه قال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾^{٥٤٦}.

المتين هو الذي يده فوق أيدي الجميع قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَا يَتَّبِعْهُ أَجْرًا عَظِيمًا سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزِينَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا

^{٥٤٥} الفرقان ٥، ٦

^{٥٤٦} الإنعام ٦١

أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يُفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا^{٥٤٧}، ومما يؤكد أن المراد ذلك أن قوله وهو القاهر فوق عباده مشعر بأن هذا القهر إنما حصل بسبب هذه الفوقية، والفوقية المفيدة لصفة القهر هي الفوقية بالقدرة لا الفوقية بالجهة، إذ المعلوم أن المرتفع في المكان قد يكون مقهوراً.

وتقرير هذا القهر من وجوه:

الأول: إنه قهار للشيء بالوجود من لا شيء.

الثاني: إنه قهار للوجود بالإفناء، ولذا فلا وجود إلا بإيجاده ولا عدم إلا بإعدامه في الممكنات. والثالث: أنه قهار لكل ضد بضده فيقهر النور بالظلمة والظلمة بالنور، والنهار بالليل والليل بالنهار. وتمام تقريره في قوله: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُدْلُّ مَن تَشَاءُ}^{٥٤٨}.

وتأمل في سائل الأحوال والصفات لتعرف أن حصول التضاد بينها يقضي عليها بالمقهورية والعجز والنقصان، وحصول هذه الصفات في الممكنات يدل على أن لها مدبراً قادراً قاهراً منزهاً عن الضد والند، مقدساً عن الشبيه والشكل. كما قال: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}^{٥٤٩}.

الرابع: أن هذا البدن مؤلف من الطبائع الأربع. وهي متنافرة متباغضة متباعدة بالطبع والخاصة فاجتماعها لا بد وأن يكون بقسر قاسر وأخطأ من قال إن ذلك القاسر هو النفس الإنسانية، لأن تعلق النفس بالبدن إنما يكون بعد حصول المزاج واعتدال الأمشاج، والقاهر

^{٥٤٧} الفتح ١٠ . ١٥ .

^{٥٤٨} ال عمران ٢١

^{٥٤٩} الأنعام ١٧ ، ١٨ .

لهذه الطبائع على الاجتماع سابق على هذا الاجتماع، والسابق على حصول الاجتماع مغاير للمتأخر عن حصول الاجتماع. فثبت أن القاهر لهذه الطبائع على الاجتماع ليس إلا الله المتين جل جلاله، فقال: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) وأيضاً فالجسد بلا روح ونفس طاهرة كثيف سفلي ظلماني فاسد عفن، والروح لطيف علوي نوراني مشرق باق طاهر نظيف، فبينهما أشد المنافرة والمباعدة. ثم إنه سبحانه جمع بينهما على سبيل القهر والقدرة، وجعل كل واحد منهما مستكماً بصاحبه منتفعاً بالآخر. فالروح تصون البدن عن العفونة والفساد والتفرق، والبدن يصير آلة للروح في تحصيل السعادات الأبدية، والمعارف الإلهية، فهذا الاجتماع وهذا الانتفاع ليس إلا بقهر الله تعالى لهذه الطبائع، وأيضاً فعند دخول الروح في الجسد أعطى الروح قدرة على فعل الضدين، ومكنة من الطرفين إلا أنه يمتنع رجحان الفعل على الترك تارة والترك على الفعل أخرى إلا عند حصول الداعية الجازمة الخالية عن المعارض. فلما لم تحصل تلك الداعية امتنع الفعل والترك فكان إقدام الفاعل على الفعل تارة وعلى الترك أخرى بسبب حصول تلك الداعية في قلبه من الله يجري مجرى القهر فكان قاهراً لعباده من هذه الجهة، وإذا تأملت هذه الأبواب علمت أن الممكنات والمبدعات والعلويات والسفليات والذوات والصفات كلها مقهورة تحت قهر الله مسخرة تحت تسخير الله تعالى^{٥٥٠}.

المتين هو الظاهر الذي يعلم بكل أمر ظاهر أو باطن، وهو المسير لكل مسير، ولذا فهو المثبت بوجوده الحق، الذي لولاه ما كان الوجود والحياة والممات والبعث، ولولا وجوده ما كان الغيب الذي لا نعلمه، ولذا فلو لم يكن المتين ما كان الغيب، الذي وحده يعلم أمره، وهنا يكون الإعجاز الكبير الذي لا يمكن للخليفة من بلوغه، فالخليفة يعلم علم المستقبل ولا يعلم علم الغيب، ولهذا فعلم المستقبل الذي هو من علم الإنسان هو كما يلي:

المستقبل هو الوقت المنتظر الذي يحتوي على الآمال وهو غير قابل للتذكّر مع أنه قابل للتفكير، والتفكير لا يهتم باستدعاء المعلومات الجاهزة، بل هو المتطلع إلى ما هو متوقع،

^{٥٥٠} تفسير الرازي، ج ٦، ص ٣١٣.

نتيجة استنتاجه واستقرائه لمضمون الماضي الذي تكمن فيه المعلومات والتجارب وتتراكم فيه الخبرة، ولذلك يستمد المستقبل تطوره وتجديده من الماضي الذي يرتبط به في الآن، ولذلك تتداخل المعلومات كما يتداخل الزمان مع الحركة، مما يجعل الحياة نسيج الأفعال في الزمان والحركة، فلا زمان بلا حركة، ولا حركة بلا زمان ولا حياة بدونهما.

المستقبل لا يحصى، وذلك لعدم تسجيله بعد في سجلات التاريخ، مع أنه مسجل كوقت في الزمان والحركة، ولهذا سيأتي بالقوة الفاعلة من خلال قوة الزمان والحركة الفلكية، فبما أن اليوم قد دخل والحركة مستمرة إلى النهاية مع الزمان، فبالضرورة سيأتي غد لا محالة، وغداً قد يكون نهاية لما سبق وقد يكون استمراراً له، وهذه بالنسبة إلينا غير معلومة مع أنها متوقعة.

المستقبل هو الذي سيأتي بعد كتابة هذه الكلمة في حالة مواصليتي الكتابة، وهو الفكرة التي ستأتي بعد ما أفكر فيه، وهو الزمان الذي فيه طموحاتنا وما نتوقع، والذي من أجله ننتفس، ونشرب، ونأكل، ونفكر، ونتعلم، ونعمل، ونتصدق، ونصلي، ونحب، ونتزوج، ونُدخر وفق حاجاتنا، ونؤمّن على أرواحنا وممتلكاتنا، ونخاف، وهو نهاية البداية وثبات الحركة، وعليه كل حركة من أجل المستقبل.

يتكوّن كل من المستقبل والحركة من زمان وفعل (محتوى ومضمون). وعليه لا يمكن أن يتحقق المستقبل بدون زمان وفعل، ولا يمكن أن تكون الحركة بدون زمان وفعل، وعندما تصل الحركة إلى لحظة النهاية، يكون العدم، وينتهي المستقبل بالنسبة إليها مادامت في حالة عدم، وعليه يستمر المستقبل كلما كانت هناك حركة، وتستمر الحركة كلما كان هناك مستقبل.

ولو لم يكن هناك مستقبل ما كان هناك أمل، ولا أمان، وما فكرنا فيما ينبغي أن نفكر فيه وهو ما يشغلنا. وبناء على ذلك ينبغي أن تكون مناهجنا مستقبلية، لكي نعرف من نحن، وما يجب علينا القيام به، ونعرف من أجل ماذا نُفكر، ومن أجل ماذا نتعلم؟ ومن أجل ماذا

نعمل، ونحلل، ونعالج؟ ولماذا طرحت هذه الأسئلة؟ وهل ينبغي أن يتجاوز تفكيرنا الزمان، أم ينبغي أن يقتصر عليه؟.

إذا كانت الإجابة بتجاوزه فإننا نفكر، وإذا كانت بالاقصرار عليه فإننا نتذكر ومنتظر، نتذكر الماضي، ومنتظر حتى يأتي الغد في لحظة الآن المستقبلية، أي نعطل قدراتنا ومواهبنا ولا نفكر، لأن الغد لم يأت بعد. كل هذه وتلك الأمثال تجعلنا نتذكر كما قال تعالى في سورة الحشر: {وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون}، وكذلك يقول تعالى في سورة الأعراف: {فاقصص القصص لعلهم يتفكرون}.

المستقبل يكمن في الزمان والحركة كما تكمن الشجرة في البذرة، مما يجعل الشجرة تكمن في الزمان المستقبل في البذرة الآن، مع أن هذه البذرة كانت في الماضي من الشجرة، وعندما تصبح البذرة شجرة مثمرة تكون البذرة في الماضي، وتكون الشجرة في الآن، وتكون الثمار في المستقبل. وهكذا في التقاء الأحبة الآن بين الحيوان المذكر مع البويضة يكمن المستقبل الذي تكمن فيه هو الآخر معاني الأمومة والأبوة والأخوة بين البشر عندما تأتي الآن المستقبلية في وقت النضج العقلي والعاطفي والوجداني للبشر من مرحلة الطفولة المبكرة إلى مرحلة الشيخوخة المتأخرة.

إن ما وقع في الآن الماضي سيكون بالضرورة حاضراً في الآن المستقبل، ولهذا لا يمكن أن يكون الماضي ولا المستقبل إلا في الآن، فالمؤمن الذي يعمل صالحاً في دنياه يعمل في حقيقة الأمر من أجل المستقبل، ومستقبله سواء أكان سالبا أو موجبا، هو ما كان له حاضرا في الماضي. إذن الماضي كأحداث وأفعال سيكون حاضرا في المستقبل (الحاضر المستمر) ويُسأل صاحبه عليه حتى يعاقب أو يجازي به، فيقول الله تعالى في سورة الأعراف: {يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوءٍ تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد}.

تؤكد هذه الآية على أن كل عمل ماض هو من أجل المستقبل، وهكذا عمل الحاضر الذي هو الآخر سيقع في الزمان الماضي إلى أن يجد نفسه في الزمن المستقبل، وذلك لأنه لم

يكن من أجل الماضي، بل أنه العمل الذي قد تم من أجل المستقبل، ولذلك يكون الماضي كالخزينة المملوءة التي لم تفتح بعد الفتحة النهائية، بل إنها في الحياة الدنيا لا تفتح إلا بمقدار استدعاء المعلومات التي يمكن أن تفيد في صنع تاريخ قريب، ولهذا ينبغي أن نعمل في حاضرنا خيراً لكي يكون لنا مستقبلاً خيراً. وكل الأعمال التي تقع في الزمن الآن تسمى في الماضي وتصبح على خير المستقبل، وحتى إن نسيها أصحابها فلا يضيع منها شيء بالنسبة إلى سجل الزمان والحركة، ليوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد}. تؤكد هذه الآية على أن كل شيء وجد يمكن إحصاؤه، ولكن لقصور القدرات البشرية عن ذلك عجزت عن إحصائه مع أنه محصي من قبل الخالق عز وجل، ولهذا كل عمل قد حدث سيكون حاضراً في المستقبل لتتم المسألة ويتحقق له الجزاء.

الوقت منتظم في الزمان كانتظام حبات المسبحة في خيطها، وبالتالي يمكن التعرف على الأوقات وحصرها وعدّها، ولكنه من غير الممكن عد الزمان، فعندما تعد واحدة من حبات المسبحة المتكونة من المائة حبة تصبح هذه الأولى في الماضي، وتكون الحبة الثانية الواقعة بين أصابعك في الآن، وتكون ٩٨ حبة واقعة في المستقبل، ولكن إذا قررت أن تكرر التسبيح أو عد حبات المسبحة أكثر من مرة واحدة، تكون الحبة التي وقعت في الزمان الماضي هي الأخرى واقعة في المستقبل وذلك لأنها هي الأخرى سيتم عدّها أو التسبيح بها مرة ثانية، وفي هذه الحالة لن يكون عدد الحبات المتبقية للتسبيح كما سبق وأن ذكرنا هي ٩٨ حبة، بل يكون عدد الحبات المتبقية ٩٩ حبة، وعلى هذا النحو يكون عدد الحبات في جميع الدورات هو ٩٩ حبة عندما تكون الاستمرارية في التسبيح على أن تكون في كل دورة تسبيحية حبة واحدة في الآن بين الأصابع، ولا يكون العد التناقصي إلى الصفر إلا في الدورة التسبيحية الأخيرة، وعليه كل الماضي هو واقع في المستقبل المعلوم بما أنه سيكون حاضراً، مصداقاً لقوله تعالى في سورة آل عمران: ليوم تجد كل نفس ما

عملت من خير محضراً وما عملت من سوءٍ تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رعوف بالعباد}.

إذاً كل ما قمنا به من أعمال سيكون حاضراً في المستقبل ونكون نحن مساءلين عنه، ولهذا لن ينتهي الماضي بعد، لأن نهايته هي في الآن المستقبلية وليست في الآن الماضية التي كنا نعتقد بأنها النهاية. ويكون قولنا إن الزمان كالخيوط والأوقات منظومة عليه كحبات المسبحة هو المثال القريب لتوضيح أحداث الماضي التي وقعت في الآن الحاضرة وأصبحت في الماضي وفق دورة الحركة والزمان فلكياً. وستكون جميعها في المستقبل قبل المساءلة والمراجعة، وتكون بالضرورة في المستقبل عند بدء المراجعة، وكل حاضر منها سيكون هو الآخر في الماضي بعد إتمام عملية المراجعة أو المساءلة. فعند دراسة الحالات الفردية من الناحية السلوكية والاجتماعية والصحية. تتطلب بالضرورة مراجعة سجل الماضي الذي يتعلق بالحالة، والذي يتضمن الأحداث والأفعال والظروف التي أثرت في السلوك أو أثرت في الحالة الصحية، أي دراسة الماضي لمعرفة الأسباب والعلل التي تحتويها الحالة مما يجعل هذه الحالة بالنسبة إلى الباحث أو الأخصائي قبل بدء الدراسة هي في المستقبل، وفي أثناء التشخيص والتحليل تكون في الحاضر، وبعد العلاج تصبح الحالة في الماضي.

ومع أن الزمان لم يكن له شكل ولا صورة كما هو حال الأجسام الأخرى المتحركة، إلا أنه هو الآخر في حالة حركة، فيقول الله سبحانه وتعالى في سورة الإسراء: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾. ولو لم يكن هناك ليلاً ونهاراً ما كانت الأيام ولا كانت الشهور ولا السنون والدهور، ولا كانت هناك حركة، أي لم يكن لدينا ما نعد من الزمان ونحن على سطح الأرض، أما رواد الفضاء عندما يخرجون عن قوانين حركة الأرض فقد تناسبهم مقاييس فيزيائية أخرى لا تعتمد على حركة الأرض، ولذلك لم يقل الله عز وجل لتعلموا عدد الزمان بل قال: ﴿لتعلموا عدد السنين﴾، ولهذا قلنا الزمان والحركة لا

يعدان، بل الذي يعد هو المتحرك الأرض والقمر والشمس وبقية الكواكب كل في فلكه، وهذه جميعها قابلة للمشاهدة والملاحظة، وهكذا حال الليل والنهار والفجر والمغرب كمواقيت تشاهد وتلحظ وبالتالي فهي تعد. والفارق بين الأجسام والمواقيت هو أن الأجسام قابلة للمس المادي، أما المواقيت الزمنية كالليل والنهار والفجر فلا يمكن لمسها مادياً، ولهذا من الممكن الاحتفاظ بشيء ما من الأجسام المادية كالأهلة والساعات الذرية في قوارير المعامل والمختبرات، ولا يمكن الاحتفاظ بشيء ما من المواقيت الزمنية في قوارير المعامل والمختبرات. وعليه لو لم يكن الزمان في حالة حركة ما كان الليل والنهار، وما كان الفجر والمغرب، وما عرفنا عدد السنين والحساب، وما عرفنا الوقت الذي تستغرقه الكواكب والنجوم والأجسام في حركتها الذاتية في مجال فلكها الذي تسبح فيه أو تمتد إليه.

والحركة والزمان شيئان لا يمكن مشاهدتهما مع أنهما يلاحظان بسهولة ويسر، فالذي يشاهد هو المتحرك وليست الحركة، الكواكب تلمس وتشاهد وتلحظ حركتها، أما الليل والنهار والفجر والمغرب فمع أنها تشاهد وتلحظ إلا أنها لا تلمس، ومع ذلك كل ما يشاهد يعد حتى لو لم يلمس كالليل والنهار، وذلك لأن لكل منهما بداية ونهاية يمكن رصدهما وتحليلهما وتسجيلهما.

الحركة والزمان كما سبق وأن وضحنا لا يمكن مشاهدتهما ولا لمسهما ولا ذوقهما ولا شمهما مع أنهما يلاحظان، ولذلك يمكننا التمييز بين الحركة والمتحرك، وبين الحركة والامتداد. فالامتداد هو مجال حركة الجسم أو الشكل، فالمثلث هو امتداد بين نقاط زواياه الثلاث، ولو لم يحدث بينها امتداد ما كان للمثلث صورة أو شكل متصل، وهكذا مجال تكوين الشكل الدائري أو الرباعي أو أي شكل من الأشكال الهندسية، فالامتداد يكون في تكوين الشكل وفي تحديد اتجاه حركة الشكل، كاتجاه حركة الأرض في دورانها حول نفسها، ودورانها حول الشمس، فهي لا تمتد إلا في مجالها الفلكي، ولهذا فالامتداد هو الذي يرسم شكل الدائرة، أما الحركة فهي الطاقة التي بها يمتد المتحرك سواء أكان المتحرك قلماً لرسم مستقيم أو منحنياً أو أي شكل، أو حركة كوكب، أو حركة كائن من الكائنات.

الزمان والحركة متناهيان حيث أنهما محصوران بين قوة الأول والآخر الذي خلقهما وجعل لهما امتداداً، ولذلك فهما المخلوقان في الآن والمكان الواحد، مما يجعل لهما أجلاً واحداً (نهاية واحدة) ولو لم نؤمن بأن الزمان متناه فكيف نؤمن إذاً باليوم الآخر؟ فالיום الآخر هو الذي لا يكون فيه الليل والنهار والفجر والمغرب (المعروفات) في حساباتنا، والتي بها تعد أيامنا وشهورنا وأعوامنا ودهورنا، والتي جميعها ستنتهي ليكون اليوم الآخر، واليوم الآخر هو الذي لم يكن مثل يومنا هذا الذي نعرفه، ولأنه الآخر فهو المختلف بالضرورة عما عرفناه في يومنا الأول. وبما أن للزمان بداية وللحركة بداية إذاً ممّا لا شك فيه ستكون لهما نهاية.

حركة الزمان تماثل حركة الأجسام في قوتها وانتظام سرعتها، ولهذا تنتظم حركة المواقيت وتتمازج مع حركة الكواكب، فلا يأتي الليل مرتين في اليوم الواحد، ولا تتأخر حركة الأرض عن ميقاتها ومكانها ليتأخر الشروق عن النهار ويتضاعف زمن الليل، بل الكل في فلك يسبحون وفق سرعة ثابتة ومدارات ثابتة. فالיום هو اليوم في كل دورة للأرض حول نفسها وحول الشمس، وذاك اليوم من العام الماضي لا يختلف عن هذا اليوم الذي يماثله من عامنا هذا، الاختلاف بينهما في المحتوى الذي تتضمنه الأيام، فمحتوى هذا اليوم قد لا يماثل محتوى العام الماضي من حيث درجة حرارته أو برودته أو من حيث الأحداث التي وقعت فيه، وعليه زمن اليوم لا يختلف وفق كل دورة سنوية، والمحتوى اليومي مختلف بين الحين والآخر، فالיום الذي ولد فيه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو اليوم الذي توفي فيه، ولذلك قلنا اليوم واحد والمحتوى مختلف.

الزمان دائرة متصلة يتواجد فيها الماضي جنباً إلى جنب مع الحاضر والمستقبل، ولو عُدنا إلى الماضي البعيد إلى أن نصل إلى النقطة الآن فلا نجد ماضياً على الإطلاق، بل نجد الاثنين معاً الآن والمستقبل، ولا نجد الماضي، وذلك لعدم تكوّنه بعد، وبعد أن فُضيت الآن أصبحت ماضياً وحدها، وكل ما عداها مستقبل، ولهذا كان المستقبل هو الأكثر والأوفر الذي لا يقارن بأي وقت آخر، لا بالماضي الذي في تعداده إلاّ الآن الواحدة، ولا بالحاضر

الذي لا يمتلك إلا اللحظة الآنية، وعليه بداية الحياة مستقبل ونهايتها مستقبل، فالمستقبل الأول هو المتكون من الحياة الدنيا، والمستقبل الآخر هو المتكون من نهايتها، مما يجعل نهاية الحياة الدنيا بداية للحياة الآخرة، والتي يكون فيها كل الماضي كمحتوى هو المستقبل الحسابي لمن وجد في اليوم الأول (الحياة الدنيا)، ولهذا لا يتم الاتفاق مع أرسطو ومؤيديه بأن كل ما هو ماضٍ قد فسد، فالزمان الماضي لم يفسد بل إنه في السجل المحفوظ الذي فيه حسابنا ما ثقل وما خف منه.

والمتين الظاهر هو البادي بكل شيء فقد خلق السموات والأرض وما فيهما ولم تكن شيئاً من قبل: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} ٥٥١.

وحجج المتين تليق به فهي نابعة من قدرته وحكمته لذا جاءت في الغالب لتناسب من أرسلت له من الأقسام ولو ارتفعت على مستوى إدراكهم لعجزوا عن الفهم ولو كانت دون ذلك لاستهزؤوا بها، وحججه مقترنة برسالاته المرسله بالأنبياء والرسل، فموسى جاء بما يفوق سحر قومه دون أن يكون مثله: {فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ} ٥٥٢، فعندما أرادوا أن يعارضوا معجزة موسى عليه السلام بأنواع من السحر، ليظهروا عند الناس أن ما أتى به موسى من باب السحر، فجمع فرعون السحرة وأحضرهم قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ، فإن قيل: كيف أمرهم بالكفر والسحر والأمر بالكفر كفر؟.

موسى عليه الصلاة والسلام أمرهم بإلقاء الحبال والعصي، ليظهر للخلق أن ما أتوا به عمل فاسد وسعي باطل، لا على طريق أنه عليه الصلاة والسلام أمرهم بالسحر، فلما ألقوا

٥٥١ الأعراف ٥٤

٥٥٢ يونس ٨٠ - ٨١

حبالهم وعصبيهم قال لهم موسى ما جئتم به هو السحر الباطل قال تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ
اِنَّتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى اَلْقُوا مَا اَنْتُمْ مُلْقُونَ فَلَمَّا اَلْقَوْا قَالَ
مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ اِنَّ اللّٰهَ سَيُبْطِلُهُ اِنَّ اللّٰهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللّٰهُ الْحَقَّ
بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} ٥٥٣ .

وكانت حجة عيسى عليه الصلاة والسلام من قريب علم قومه وسعيهم للتفوق فيه، وقد
غلبهم لأن حجته من المتين فشفي من الأمراض ما عجز عنه القوم : {وَرَسُولًا اِلَىٰ بَنِي
اِسْرَائِيْلَ اَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ اَنِّي اَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَاَنْفُخُ فِيْهِ فَيَكُوْنُ
طَيْرًا بِاِذْنِ اللّٰهِ وَاُبْرِئُ الْاَكْمَهَ وَالْاَبْرَصَ وَاُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِاِذْنِ اللّٰهِ وَاُنْبِئُكُمْ بِمَا تَاْكُلُوْنَ وَمَا
تَدْخُرُوْنَ فِي بُيُوْتِكُمْ اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ اِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِيْنَ} ٥٥٤ .

أما حجة المصطفى محمد عليه الصلاة والسلام فقد اختارها المتين بذات المستوى لكل
حججه أي من قريب الفهم مع تفوق واضح، فإذا كان العرب أصحاب لغة بلاغة وأسلوب
فقد جاء القرآن ليتغلب على كل ملكاتهم وأفحهم عندما دعاهم إلى الإتيان بسورة من مثله:
{وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلٰى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ وَاَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ
اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ} ٥٥٥ .

وعلى الخليفة أن يكون من العارفين بالحجج وبتأثيرها وأن يختار الأقوى والأوضح منها وهو
يحتاج من يشاء في أمور الوجدانية وأمور الرسالة الخاتمة وأمور الدين، وان لم يلم بذلك
فعلية الاستعانة بالصالح ليقوم بأمر الإفهام والتمييز لأهمية ذلك، فالحجج من أكثر ما يوقع
في النفس الإنسانية الأثر على سبيل القبول أو الرفض، وعليه بالمجادلة بالتالي هي أحسن
قال تعالى: {وَجَادِلْهُمْ بِالتِّي هِيَ اَحْسَنُ اِنْ رَبَّكَ هُوَ اَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيْلِهِ وَهُوَ اَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِيْنَ وَاِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوْا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصّٰبِرِيْنَ وَاصْبِرْ

٥٥٣ يونس ٧٩ . ٨٢ .

٥٥٤ ال عمران ٤٩

٥٥٥ البقرة ٢٣

وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا
وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} ^{٥٥٦}.

المتين يبطش بأعداء الدين المستحقين لذلك بكفرهم وعنادهم وإصرارهم على الكفر قال
تعالى: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ} ^{٥٥٧}.

وبطش المتين موقوت أحيانا قال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا
حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ} ^{٥٥٨}.

وقد نبه المتين عباده إلى هذا النوع من البطش رحمة منه بالعباد ولكي لا تكون للناس على
الله حجة قال: {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا
تَشْعُرُونَ} ^{٥٥٩}، ولو سأل سائل عن حكمة ذلك يكون الجواب أن في الإمهال رحمة من
الرحمن عسى أن يكون العود عن الكفر والإلحاد فتنزل الرحمة بدل العذاب، أما البغته فهي
مرحلة بعد البلاغ والتنبيه، وقاعدة المتين في ملكه وعدله سبحانه أنه يقرن بطشه بالتنبيه
المسبق: {مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} ^{٥٦٠}، وعلى الخليفة فهم ما في الوعي والتنبيه
للرعية من أهمية في سير أمور الحياة وتمييز الخبيث من الطيب والمطيع من العاصي
لكي تستقيم له أمور دينه ودنياه فيقوم بأمر الخلافة على أكمل وجه.

اللهم يا المتين يا من جعلت صلاتك رحمة على سيدنا محمد اجعلنا عليه دائما من
المصلين والمسلمين، اللهم أنت المتين ذو الاقتدار الكامل وذو القوة التامة، وأنت خير
الرازقين ترزق من تشاء بغير حساب، سبحانه رزقك ما له من نفاذ، بيدك الخير إنك على
كل شيء قدير، فارزقنا قوة منك نكون بها عوناً على الخير، ودرءاً للشر، واجعلنا في الخير

^{٥٥٦} لنحل ١٢٥ . ١٢٨ .

^{٥٥٧} البروج ١٢

^{٥٥٨} هود ٨٢ ، ٨٣

^{٥٥٩} الزمر ٥٥

^{٥٦٠} الإسراء ١٥

بنيانا مرصوصا وسدا محفوظا ندفع بأهل الخير إلى الخير، ونمنع أهل الشر عن الشر، حتى تتحقق خلافتك على الأرض.

اللهم يا المتين متن الإيمان في قلوب المسلمين حتى تطمئن قلوبهم، ومتن القول الحق في ألسنتهم حتى يدمغ الباطل، ومتن العلم في عقولهم حتى تُثار دروبهم وتستقيم أعمالهم، ومتن اسمك في عقولهم وقولك في إنصاتهم حتى يرشدون، إنك أنت المتين جل جلالك.

الْوَلِي

الولي اسم من أسماء الله الحسنى، وهو من يتولى الأمر ويتولى الخلق ومن يتولى الحياة والموت والبعث. وفي مختار الصحاح جاء اسم الْوَلِيِّ بمعنى القريب، وهو ما يقاربك^{٥٦١}. الْوَلِيُّ: في أسماء الله تعالى: الْوَلِيُّ هو النَّاصِرُ، و: الْمُتَوَلَّى لِأُمُورِ الْعَالَمِ وَالْخَلَائِقِ وَالْقَائِمُ بِهَا. وَالْوَلَايَةُ النَّصْرَةُ وَلَا يَمْلِكُهَا إِلَّا اللَّهُ الْوَلِيُّ جَل جَلَالِهِ. وَالْوَلِيُّ الْمَطْلُوقُ اللَّهُ وَمَنْ يَتَّبِعُهُ يَكُونُ وَلِيًّا بِالإِضَافَةِ مَتَخَلِّقًا بِأَخْلَاقِ هَذَا الْاسْمِ الْعَظِيمِ، فَيَتَدَاخَلُ الْمَعْنَى الإِلَهِيَّ بِوَجْهِ الإِطْلَاقِ مَعَ الْمَعْنَى الْإِنْسَانِيَّ بِوَجْهِ الاسْتِحْقَاقِ إِنْ أَطَاعَ

^{٥٦١} الصحاح في اللغة ٢،٢٩٥

الولي بالإضافة الولي المطلق ومن هذا التداخل الذي لا يصعب على صاحب الذوق السليم والفكر المستنير أن يعرف الفروق بين المطلق والمضاف.

الولي: "هو الذي يتولى عباده عموماً بتدبيرهم ونفوذ القدر فيهم، ويتولى عباده بأنواع التدبير، وهو الولي الذي صرف لخلقه ما ينفعهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، وقد سمي الله نفسه بهذا الاسم فهو من الأسماء الحسنى"^{٥٦٢}.

الولي من العباد: هو المستخلف في الأرض وهو من يحب الله عز و جل ويحب أوليائه وينصره وينصر أوليائه وبعادي أعداءه، ويحق الحق ويعمل على إزهاق الباطل^{٥٦٣} الولي النصير. وفي القرآن العزيز: {والله ولي المؤمنين}^{٥٦٤}، والولي بالإضافة المطيع، وهو التابع إيماناً لمن أولى أمره إليه.

في عرف أهل أصول الدين: "هو العارف بالله تعالى، بأسمائه، وصفاته، على حسب ما يمكنه، المواظب على الطاعات، المجتنب للمعاصي، المعرض عن الأنهماك في اللذات والشهوات"^{٥٦٥}.

فالولي اسم من أسماء الله تعالى بمعنى الناصر أو النصير، وهو المتولي لجميع أمور الخلائق والمتصرف فيها.

والناصر بالإطلاق هو الله سبحانه وتعالى الذي ينصر من يواليه ومن ينصره، ولا يوجد من يوالي الله مثل الخليفة سيد الخلق صلى الله عليه وسلم الذي أوقف حياته لنصرة الحق ولنصرة الدين الحنيف، لذا فالله ينصر من ينصره، وإن ظن البعض أن الله لن ينصر النبي صلى الله عليه وسلم فهذا الظن وهم محض، يقول الله تعالى: {مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ

^{٥٦٢} شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج ١، ص ١٠٦.

^{٥٦٣} المقصد الأسنى، ج ١، ص ١٣٠.

^{٥٦٤} آل عمران، ٦٨

^{٥٦٥} القاموس الفقهي - ج ١، ص ٣٩٠.

يُنْصِرُهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ^{٥٦٦}

والولي هو المتولي لأوامر الولي المطلق (الله) سبحانه وتعالى وهو الخليفة الذي أخذ على عاتقه حمل الأمانة فيدعو إلى المعروف وينهى عن المنكر.

ومعلوم أن البشر كثيرون ولكن الذي حمل الأمانة وتولى مشقتها وأحد وهو الإنسان الذي يتسم بصفات الإنسان الأمثل أو النموذج الأصوب وهو بهذا المعنى إنسان وأحد فرد في كل زمان يصلح الله به فساد المفسدين من جنسه، ويمكن أن يتبعه آخرون على درجات متفاوتة من صلاحه ورغبته في التعمير بشكل إنساني يؤدي الأمانة التي استخلفه الله عليها، ألم نسمع قول الله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا^{٥٦٧} فالأمانة هي مجموع أوامر الله ونواهيه التي لم يقدر على حملها المخلوقات العظيمة من سموات وجبال وأراض فحملها الإنسان وتولى أمرها فتولاه الله بالعناية والرعاية والحفظ والنصرة وكان سمياً قريباً منه لأنه سبحانه الولي النصير، فمن ظلم نفسه بكفره ونفاقه فلن يتولاه الله لأنه خالف معنى الأمانة، ومن آمن فسيؤيده الله ويرحمه ويغفر له تقصيره إن قصر وينصره ويقويه مع كل توفيق.

فإنه ينصر من ينصره في الدنيا وهذا من المتوقع المشاهد مشاهدة عينية نصراً ملموساً مادياً، أما النصر في الآخرة فكيف يكون وما هيأته؟ بالتأكيد سيكون نصراً مؤزراً، وهذا في تصورنا سيكون بالمقام المحمود الذي لا ينبغي إلا لعبد من عباد الله، وبالجنة التي ترضى من تولى الله ونصر دينه في الدنيا، فيكون المقام المحمود للنبي صاحب المنهج الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ورضا الله بحسن ثوابه لمن اتبع ذلك المنهج وعمل

^{٥٦٦} الحج، ١٥

^{٥٦٧} الأحزاب، ٧٢، ٧٣

به في إصلاح الأرض محل الخلافة رغم الشدائد والمصاعب التي واجهت من أراد أن ينصر الله.

ولذا فالولي هو الناصر في الشدائد، وعند تأزم المواقف عندما تبلغ القلوب الحناجر عندما تتوقف أسباب الأرض، تنتزل أسباب الولي الناصر الذي لا تمنعه أسباب، ولا توصل أمام نصره أبواب وهذه كلمته لمن يواليه يطمئنهم ويثبت قلوبهم: {فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ} ^{٥٦٨} وهذا الارتباط التلازمي بين المولى اسم الفاعل من الولي المزيد بالهمزة والنصير صيغة المبالغة التي تدل مع المشتق السابق (المولى) على التمكن واكتمال الفعل، وهذا نجده في عموم القرآن ليدل دلالة لا لبس فيها على أن نصر الولي لا انفكاك فيه لأولياء الولي الذين اتبعوه ونصروه، وهذا الوعد الذي يأتي من قدير كبير جليل هو ما جعل المؤمنين الذين طردوا وشردوا ونهبت أموالهم يلوذون بجناب الولي، حتى أن الناس قد جمعوا ليكيدوهم ويهزموهم فما زادهم ذلك إلا ثباتا وإيمانا يقول الله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} ^{٥٦٩} وهذا الموقف الثابت لا يفسره إلا الإيمان بقوله تعالى الذي يخاطب به المؤمنين: {وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} ^{٥٧٠} فالنفي والاستثناء بما وإلا يؤكدان في صرامة أن الله هو الولي الذي ينصر المؤمنين به المنفذين لمنهجه المتبعين لنبيه صلى الله عليه وسلم.

فالمنهج الواضح البين الذي لا شك فيه ولا لبس في معانيه هو الذي ارتضاه الله منهجا لتحقيق الخلافة المثلى على الأرض بعد الزيف الذي لحق بما أرسل به الأنبياء إلى الأمم السابقة، لذا يؤكد الله على هذه الجزئية ويخاطب الأمة جميعها من خلال خطابه للمثل الأعلى والقدوة الحسنة للأمة - للنبي صلى الله عليه وسلم - فيقول موجها ومؤكدا على عدم الانحراف ولو قليلا نحو المناهج السابقة لأنه لا فائدة فيها ولن يتحقق من ورائها صلح

^{٥٦٨} الأنفال، ٤٠

^{٥٦٩} آل عمران ١٧٣.

^{٥٧٠} البقرة، ١٠٧

بين المناهج، ولن يرضى أصحاب تلك المناهج حتى بإتباع منهجهم لأنها لا تعترف إلا بنفسها: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ اتَّبَعْتُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} ٥٧١.

و الله الولي ينصر من اتبع المنهج الصحيح الذي أنزله الله على الأنبياء السابقين الذين اجتمع أمرهم في سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أبو الأنبياء من بعده، لذا ستكون الحجة الواهية لمن خالف وأفسد أنهم يتبعون ملة إبراهيم، لكن الله الولي يبطل حجتهم ويقول: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} ٥٧٢ فالذين يتبعون النبي الخاتم هم أولى الناس بإبراهيم لأنهم يقيمون التوحيد الخالص وهو أول وأهم ركن لوجود الإنسان على الأرض، وهذا الركن لن يتحقق بصفاء ونقاء إلا بإتباع المنهج الصحيح الذي يتأتى بالإيمان المطلق بالله ربا واحدا أحدا ناصرا وليا للمؤمنين الذين آمنوا بالنبي الخاتم.

ولأن الله ولي من والاه ونصير من نصره فهو يبعد الظالمين عن مدار رحمته لأنهم ظلموا أنفسهم فليس لهم بسبب ظلمهم من ولي ولا نصير، لذا يبطل السؤال لماذا لم يجعل الله الناس أمة واحدة؟.

والولي هو المدبر الحكيم للعالم وما فيه. فليتبع الإنسان ببصره في ملك الله، سواء كان هذا الملك في داخل الإنسان أو خارجه ليتبين أن الله الذي تولى أمر الكون قد جعل كل ما فيه بحكمة قال الله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} ٥٧٣ يا لها من قدرة تدعو إلى السجود الروحي والقلبي

٥٧١ البقرة ١٢٠.

٥٧٢ آل عمران ٦٨.

٥٧٣ الملك ١.٤

والجسدي لمن يتأمل ويستشعر برهبة وعظمة وجلال حكمة الله وتدبيره لأمر العالم وما فيه، فلن تجد العيون نقصا تلحقه بتدبير الولي القدير الحكيم، ومحتم عليها أن تعود حسيرة طائعة لرب العالمين إن كانت لأصحاب قلوب مؤمنة أو تعود صاغرة ذليلة إن كانت لأصحاب القلوب الكافرة.

ومن تتوهم نفسه أن العالم ليس له مدبر يتولى أمره فلن يعود ذلك عليه إلا بالكد والتعب البدني والنفسي والحسرة، فولي العالم ومدبره قال وقوله الحق: {سُنُّرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ} ^{٥٧٤} سنري هؤلاء المشركين دلائلنا على صدقك، وأنه وعد الله لعباده جميعا، وذلك بأن نطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون ومن خفايا أنفسهم على السواء. فقد كشف العلم عن أمور كثيرة عن الأرض وما عليها، وعن النظام الشمسي وما فيه، وأن هذه الأرض وما حولها ما هي إلا ذرات صغيرة في الكون العظيم، وإن كل المعلومات المتعارف عليها والاكتشافات ما هي إلا ذرة من علم الله الواسع. {وَمَا أُوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} ^{٥٧٥}. وكذلك سنري هؤلاء المشركين وقائعنا بالبلاد والفتوحات التي تمت على يدي الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه، وعلى يدي خلفائه وأصحابه الكرام {حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} ^{٥٧٦} وإن كل ما جاء به الرسول الكريم هو الحق. {أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} كفى بالله شهيدا على أفعال عباده وأقوالهم، وعلى صدق محمد فيما أخبر به عنه، ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التي أوضحها سبحانه في هذه السورة وفي كل القرآن، وفيها البيان الكافي لإثبات وحدانيته، وتنزيهه عن كل نقص!! ثم بين الله سبب عنادهم واستكبارهم بعد كل ما تقدم من حجج وبيّنات فقال تعالى: {أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ} إنهم في شك عظيم من البعث والجزاء ولقاء ربهم،

^{٥٧٤} فصلت ٥٣ ، ٥٤

^{٥٧٥} الإسراء ، ٨٥

^{٥٧٦} فصلت ٥٣ .

ولذلك كفروا، والله تعالى محيطٌ بكل صغير وكبير، لا يفوته شيء في هذا الكون الكبير،
واليه مردّ الجميع.

والولي من الناس: هو من ينصر الله وينصر شرعه على الأرض وهو ما يدور البحث في
معنى من معانيه، وكما سبق أن أوردنا تعريفاً له من القاموس الفقهي "هو العارف بالله
تعالى، بأسمائه، وصفاته، على حسب ما يمكنه، المواظب على الطاعات، المجتنب
للمعاصي، المعرض عن الأنهماك في اللذات والشهوات"^{٥٧٧}.

والله الولي المطلق ينصر وليه الذي من صفاته موافقة ما أمر به الله، واجتناب ما نهى عنه
الله فيقول الله في الحديث القدسي الذي يرويه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قَالَ رَسُولُ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ: "مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ
عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ
فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ
الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ
تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"^{٥٧٨}.

والله سبحانه وتعالى قريب الذات والفعل، أما قريب الذات فهو يقول عن نفسه جل وعلا:
﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي
لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^{٥٧٩}. والسؤال الوارد في الآية إما أنه كان سؤالاً عن ذات الله تعالى، أو عن
صفاته، أو عن أفعاله.

* أما السؤال عن الذات: فهو أن يكون السائل ممن يجوز التشبيه، فيسأل عن القرب والبعد
بحسب الذات.

^{٥٧٧} القاموس الفقهي، ج ١، ص ٣٩٠.

^{٥٧٨} صحيح البخاري، ج ٢٠، ص ١٥٨.

^{٥٧٩} - البقرة ١٨٦

* وأما السؤال عن الصفات: فهو أن يكون السائل سأل عن أنه تعالى هل يسمع دعاءنا فيكون السؤال واقعاً على كونه تعالى سميعاً، أو يكون المقصود من السؤال أنه تعالى كيف أذن في الدعاء، وهل أذن في الدعاء، وهل أذن في أن ندعوه بجميع الأسماء، أو ما أذن إلا بأن ندعوه بأسماء معينة، وهل أذن لنا أن ندعوه كيف شئنا، أو ما أذن بأن ندعوه على وجه معين، كما قال تعالى: {وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا} ٥٨٠.

* وأما السؤال عن الأفعال فهو أن يكون السائل سأل الله تعالى أنه إذا سمع دعاءنا فهل يجيبنا إلى مطلوبنا، وهل يفعل ما نسأله عنه فقوله سبحانه: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} ٥٨١ هذا الأمر يحتمل كل هذه الوجوه، إلا أن حمله على السؤال عن الذات أولى لوجهين: الوجه الأول: أن ظاهر قوله: (عَنِّي) يدل على أن السؤال وقع عن ذاته لا عن فعله. والوجه الثاني: أن السؤال متى كان مبهماً والجواب مفصلاً، دل الجواب على أن المراد من ذلك المبهم هو ذلك المعين، فلما قال في الجواب: (فَأِنِّي قَرِيبٌ) علمنا أن السؤال كان عن القرب والبعد بحسب الذات ٥٨٢.

وهو قريب الفعال ومنها ما ذكر سبحانه:

١ - **علمه قريب:** {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ} ٥٨٣، أي المحتضر المفهوم من الكلام (مَنْكُمْ) من أولئك الذين يظنون أنهم أقرب إلي المحتضر، والأقرب دائماً هو الله جل جلاله بأمره وبقدرته وبجنده المسخرون الذين يرونا ولا نحن نراهم، وهو على كل شيء قدير، والمراد بالقرب أيضاً علمه الكامل

٥٨٠ - الإسراء ١١٠ ، ١١١ .

٥٨١ البقرة ١٨٦ .

٥٨٢ - تفسير الرازي، ج ٣ ، ص ١٠٩

٥٨٣ - الواقعة ٨٣-٨٥

بكل شيء، وما يلم بالشيء من معاناة ومن حساب وعذاب وثواب، سبحانه أنه الولي الأقرب، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُؤْسُوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} ٥٨٤.

٢ - علمه بأمر الساعة: قال تعالى: {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا} ٥٨٥، لما بين حالهم في الدنيا أنهم يلغون ويهانون ويقتلون أراد أن يبين حالهم في الآخرة فذكرهم بالقيامة وذكر ما يكون لهم فيها فقال يسألك الناس عن الساعة أي عن وقت القيامة (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ) علمها لا يتبين، ولذا فإن الله أخفاها لحكمة هي امتناع المكلف عن الاجترار وخوفهم منها في كل وقت. ثم قال تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا} إشارة إلى التخويف، وذلك لأن قول القائل الله يعلم متى يكون الأمر الفلاني ينبئ عن إبطاء الأمر، ألا ترى أن من يطالب مديناً بحقه فإن استمهله شهراً أو شهرين ربما يصبر ذلك، وإن قال له اصبر إلى أن يقدم فلان من سفره يقول الله يعلم متى يجيء فلان، ويمكن أن يكون مجيء فلان قبل انقضاء تلك المدة فقال ههنا: (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا) يعني هي في علم الله فلا تستبطنوها فرما تقع عن قريب ٥٨٦.

٣ - قريب الإجابة: والولي قريب الإجابة لكل عباده المحسن منهم والمسيء لأنه رب العالمين وليس رب الصالحين فقط، وتكون الإجابة قريبة متى حصل من العبد ما يقربها ويحببه الولي عز وجل وهو الاستغفار والتوبة، يقول جل وعلا: {وَالَّذِي تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ} ٥٨٧، وكل من يدعو الله مخلصاً تكون له الإجابة، وخاصة المضطر الذي يعرف لا مفرج للكرب غيره، حتى وإن كان غافلاً ثم عاد بعقله

٥٨٤ ق، ١٦.

٥٨٥ - الأحزاب ٦٣

٥٨٦ - تفسير الرازي، ج ١٢، ص ٣٨٣

٥٨٧ - هود ٦١.

لعقله وأدرك أنه لا إله إلا هو القادر على كل شيء فتكون له الإجابة الشافية، قال تعالى: {أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِنَّهٗ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} ^{٥٨٨}، سبحانه لا إله إلا هو الملك المتعال القادر المجيب الفعال لما يريد. وعليه فإن الولي جل جلاله دائماً قريب بدعوة أو بدون دعوة وهو المجيب لمن دعاه واستغفره وتاب إليه سبحانه جل جلاله.

٤ - نصره قريب: وذلك لمن آمن بالله ونصره حق الإيمان ولم ينفذ إلى عقيدته شيء من الشك في نصر الله: {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمْنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} ^{٥٨٩}، أما إذا دخل الشك في نفس المؤمن فإن النصر ثابت القرب بقدر الولي ولكن الذي يتأخر شعور المؤمن بهذا النصر بقدر شكه في قرب نصر الله، وهذا ما حصل في غزوة الخندق فالنصر حاصل وقريب ولكن شك المؤمنين أبعدهم عن الشعور به قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} ^{٥٩٠}، فمعنى الكلام: أم حسبتم أنكم أيها المؤمنون بالله ورسله تدخلون الجنة، ولم يصبكم مثل ما أصاب من قبلكم من أتباع الأنبياء والرسول من الشدائد والمحن والاختبار، فتبطلوا بما ابتلوا واختبروا به من "البأساء" - وهو شدة الحاجة والفاقة والضراء وهي العلل والأوصاب ، ولم تزلزلوا زلزالهم - يعني: ولم يصبهم من أعدائهم من الخوف والرعب شدة وجهدٌ حتى يستبطل القوم نصر الله إياهم، فيقولون: متى

^{٥٨٨} النمل ٦٢.

^{٥٨٩} - الصف ١٢ . ١٤.

^{٥٩٠} - البقرة ٢١٤

الله ناصرنا؟ ثم أخبرهم الله أن نصره منهم قريبٌ، وأنه مُعليهم على عدوهم، ومظهرهم عليه، فنَجَزَ لهم ما وعدهم، وأعلى كلمتهم، وأطفأ نار حرب الذين كفروا^{٥٩١}، بينما في بدر كان الإيمان بقرب النصر موجودا فكان الإحساس بالنصر القريب المتحقق على الأرض: {إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ}^{٥٩٢}.

٥ . **قريب الرحمة:** الولي سبحانه رحمان رحيم بجميع خلقه يثيبهم على أعمالهم الصالحة ويبدل لهم سيئاتهم حسنات: {ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}^{٥٩٣} فلا بد أن تكون رحمته قريب بمصداق قول الولي عز وجل: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}^{٥٩٤}. والمعنى إن الرحمة القريبة هي رحمة الله ولأن الله قريب مجيب الدعاء فهو يعلم بحركتنا وسكوننا، لذا فلو لم يكن قريب ما كان مجيب، ولأنه ذو الرحمة فهو القريب المجيب بها على دعوة الداعي واستغفاره وتوبته. الله قريب من الداعين بلسان ذاكر شاكر وقلب حاضر طاهر سبحانه لا إله إلا هو جل جلاله قريب رحيم مجيب.

٦ - **عذابه قريب:** ولأنه الله تعالى ولي أمرنا وحالنا فهو القريب الذي لا يغيب وهو السميع للقريب والبعيد، أعني مجيب قريب للمؤمن وقريب من الكافر والمشرك وهو سميع عليم بكل سر وعلائية، ولأنه كذلك فهو القريب الذي يملك الإجابة متى ما شاء أجاب. ولذلك كان

٥٩١ - تفسير الطبري، ج ٤ ، ص ٢٨٨

٥٩٢ - ال عمران ١٢٢ . ١٢٧ .

٥٩٣ - الأعراف ٩٥

٥٩٤ - الأعراف ٥٦

مع المؤمن رحيم، ومع الكافر والمشارك شديد العذاب، ولهذا فكما أن رحمته قريبة كذلك عذابه قريب، وأكثر ما يكون العذاب القريب مع المصيرين على المعصية وهي معادلة طردية مفادها كلما كان الاستغفار والتواب كانت الرحمة وكلما كان الإصرار والعند كان العذاب قال تعالى: {وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ} ٥٩٥، أما في قوله تعالى: {إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا} ٥٩٦، فالتقدير أن الإنسان مهما عاش وعمّر فإن زمن الحياة قصير بالقياس إلى الخلود في العذاب، فعذاب الكافر قريب وإن عمّر وهو عذاب الآخرة وقربه لتحقق إتيانه فقد قيل ما أبعد ما فات وما أقرب ما هو آت، ولأن العذاب نتيجة عقاب على أفعال وأقوال كاذبة، فإن الذين يظنون بأنه لن يلحقهم العذاب في الحياة الدنيا، غفلوا عن زمانها إذا ما قورنا بالزمن الذي سيقضونه في يوم العذاب الشديد، وأعني باليوم، اليوم الدائم يوم يكون المنافقون والكفرة الفجرة في النار ويكون الخلفاء الكرام مع الحي الدائم في الجنة.

٧ . سمعه قريب: الولي هو من يتولى الأمر مباشرة، وهو الذي يعلم السر والعلانية، وهو الذي يعلم الحال وما هو عليه وما سيكون عليه قبل أن يعلمه صاحبه، ولأن الإنسان حواسه شاهدة عليه، فهل يمكن أن يكون هناك شيء بعيد؟ وإذا كانت حواسه جميعها شاهدة مع الله الحق على كل قول وفعل يبدي من الإنسان، فكيف الله أن يكون بعيدا عن مسمعه؟ قال تعالى: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ

٥٩٥ - هود ٦٤

٥٩٦ - النبأ ٤٠

كَرِيمٍ} ^{٥٩٧}، قال تعالى: {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِيهِ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} ^{٥٩٨}.

٨ . ثوابه قريب: الثواب لا يكون إلا من محسن، ولا يكون إلا من سميع، ولا يكون إلا من مجيب، ولا يكون إلا من غفور ودود وفعل لما يُريد، والمثوبة لا تكون إلا في الحياة الدنيا، فمن لا يثوب الولي عليه في الحياة الدنيا، لن يجد ثواب عليه من بعدها، والثواب فعل مترتب على أفعال تحققه من صاحب الفضل الكبير، قال تعالى: {فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضْنَا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} ^{٥٩٩}.

٩ . أجله قريب: الولي هو الكفيل بالأمر وهو الذي بيده القرار، وهو الذي بيده أمر الحياة في الوجود الحي وأمر الممات في عالم السكون، وهو الذي بيده أمر الأنبيات من جديد والحركة الدائمة، وهذه آجال لا يعلمها إلا هو، قال تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} ^{٦٠٠}، وقال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} ^{٦٠١}. إذن الأجل بيد الله الولي الحي الدائم، ولأن أمر الأجل بيده لذا فإن الأجل لم يكن ببعيد، إنه بيده وحده جل وعلا. قال تعالى: {وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا

^{٥٩٧} النور ٢٤ . ٢٦ .

^{٥٩٨} سبأ ٤٩ ، ٥٠ .

^{٥٩٩} النساء ١٦ . ١٨ .

^{٦٠٠} الأعراف ٣٤ .

^{٦٠١} النحل ٦١ .

لَكُمْ الْأَمْثَالَ وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرَهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعَدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ} ٦٠٢.

١٠. إحصانه قريب: الولي بعباده رؤوف رحيم، يغفر الذنوب ويتوب على من يُقدم حسنة في مرضاته جل جلاله، ولذلك فهو المكافي بالحسنات في مقابل الحسنات الواحدة، وهو لا يجازي السيئة إلا بمثلها قال تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} ٦٠٣.

برضا الوالدين ينال الأبناء رضا الله عليهم، وبطاعة الوالدين في غير معصية الله ينال الأبناء رضا الله عليهم، بإعطاء الصدقات وإيتاء الزكاة ينال الإنسان رضا الله عليه، وبإحقاق الحق وإزهاق الباطل ينال الخليفة أجره حسنات مرضاة من الله تعالى، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينال الخليفة رضا الله عليه، وبحكمه العدل إذا حكم بين الناس ينال رضا الله عليه، وبقول الحق ينال رضا الله عليه، وبالفعل الحق والعمل الحق والسلوك الحق ينال الخليفة رضا الله عليه. لذا إلا يكون إحصانه قريب جدا من المحسنين؟. قال تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} ٦٠٤.

١٢ - فتحه قريب: وهذا الفتح الذي يعدُّ الولي سبحانه بقره له معان متعددة فهو النصر. وفي حديث الحديبية جاء الفتح المبين مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودٌ

٦٠٢ إبراهيم ٤٤ . ٤٧.

٦٠٣ الأنعام ١٦٠.

٦٠٤ الأعراف ٥٦ ، ٥٧.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا^{٦٠٥}، وقال الزجاج: جاء في التفسير قضينا لك قضاءً مبيناً أي حكمنا لك بإظهار دين الإسلام وبالنصر على عدوك قال الأزهري: قال قتادة: أي قضينا لك قضاءً فيما اختار الله لك من مُهادنة أهل مكة وموادعتهم عام الحديبية. وقوله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}^{٦٠٦} قيل عن فتح مكة وجاء في التفسير أنه نُعِيَتْ إلى النبي نفسه في هذه السورة فأُعلِمَ أنه إذا جاء فتح مكة ودخل الناس في الإسلام أفواجاً فقد قرب أجله فكان يقول: إنه قد نُعِيَتْ إلي نفسي في هذه السورة فأمر الله أن يكثر التسبيح والاستغفار. قال تعالى: {ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين قل يوم الفتح لا ينفَعُ الذين كفروا إيمانهم ولا هم يُنظرون}^{٦٠٧} قال مجاهد: يوم الفتح ههنا يوم القيامة.

ولأن الولي علام الغيوب فهو يعلم النصر وأسبابه قبل أن يتحقق النصر، ولهذا قال تعالى: {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}^{٦٠٨}.

وقوله تعالى: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسِّرِ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا

^{٦٠٥} الفتح ١ . ٦٠٥

^{٦٠٦} النصر ١ . ٣٠٦

^{٦٠٧} السجدة ٢٨

^{٦٠٨} الصف ١٣ ، ١٤ .

آيَةٌ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} ٦٠٩ أَي فَاجَبْنَا الدَّعَاءَ ٦١٠، ومنه أيضا فتحه بمعنى ألفة القلوب بين المؤمنين: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} (٦١١) وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم ٦١٢ وهذه المعاني الدالة على الفتح خاضعة لقريظة القرب التي وعدنا به الولي فقال: {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ} ٦١٣.

وفي القاموس المحيط جاء اسم الولي المحب، باسم الودود ٦١٤. ودلائل وده لعباده أكثر مما يحصى، فالولي سبحانه وعلى الرغم من كونه غني عن العالمين في كل شيء إلا انه يريد لهم الرحمة والخير ويكره أن يصيبهم العذاب: {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَّنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} ٦١٥، بل أن الولي الودود يجازي المذنب المستغفر رحمة وودا منه: {وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} ٦١٦، ولو تأمل المتأمل في حال الولي سبحانه لأدرك أن ما من محب وودود يدنو من حدود وده لعباده، فهل تجد من أحد يعفو عن إنسان

٦٠٩ القمر ١١ . ١٥

٦١٠ لسان العرب، ج ٢، ص ٥٣٦

٦١١ الفتح ١٨

٦١٢ تفسير ابن كثير، ج ٧، ص ٣٤٠

٦١٣ الصف ١٣

٦١٤ القاموس المحيط، ج ٣، ص ٤٨٦

٦١٥ النساء ١٤٧

٦١٦ هود ٨٩ . ٩٤

وينسى ما اقترف بحقه من ذنب نسيانا تاما مطلقا؟ إلا الولي سبحانه لأنه مترفع عن صفات البشر من ثأر أو غل أو غيظ، وهل لك أن تتخيل أحدا يقبل التوبة ثم يحسب لك ما اقترفت من الذنوب حسنات مبدلاً إياها لصالحك ودا منه ومحبة؟ سوى الله المولى سبحانه وتعالى عما يصفون قال تعالى: { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخُذْ فِيهِ مَهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا }^{٦١٧}، والتبديل إما يكون في الدنيا، فيبدل الله تعالى قبائح أعمالهم في الشرك بمحاسن الأعمال في الإسلام فيبدلهم بالشرك إيماناً، وبقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنا عفة وإحصاناً، فكأنه تعالى يبشرهم بأنه يوفقهم لهذه الأعمال الصالحة فيستوجبوا بها الثواب، وأما السيئة بعينها لا تصير حسنة، ولكن التأويل أن السيئة تمحى بالتوبة وتكتب الحسنة مع التوبة والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيئات، وأما إن الله تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هذه الآية، وهذا قول سعيد بن المسيب ومكحول، ويحتجون بما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ليتمنين أقوام أنهم أكثروا من السيئات، قيل من هم يا رسول الله؟ قال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات" وعلى هذا التبديل في الآخرة، وأما أنه تعالى يبدل العقاب بالثواب فذكرهما وأراد ما يستحق بهما، وإذا حمل على ذلك كانت الإضافة إلى الله حقيقة لأن الإثابة لا تكون إلا من الله تعالى^{٦١٨}.

^{٦١٧} الفرقان ٦٨ . ٧٧ .

^{٦١٨} تفسير الرازي، ج ١، ص ٤٥٢-٤٥٣

ومن علامات وده أن جعل الود آية من آيات خلقه وذلك بأن جعل الود صفة أساسية في المخلوق ليتمكن من إعمار الأرض وينجح استخلافه عليها: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَأْنِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِعَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^{٦١٩}، والقصد من خلق الأزواج والسكون إليها وإلقاء المحبة بين الزوجين ليس مجرد قضاء الشهوة التي يشترك بها البهائم بل تكثير النسل وبقاء نوع المتفكرين الذين يؤدي بهم الفكر إلى المعرفة والعبادة التي ما خلقت السموات والأرض، ومودة الولي لعباده واسعة ومنها الآيات التالية:

- ١ . جعل من الأنفس أزواجاً .
- ٢ . وجعل بين الأنفس سكناً ووداً .
- ٣ . وجعل بين الأنفس مودة ورحمة .
- ٤ . خلقه للسموات والأرض نعمة على المخلوقين بالحركة والسكون التي تنقل السحب والرياح التي بها تتلاقح النعم التي فاض بها الولي على عباده في الأرض .
- ٥ . جعل الاختلاف في الألسن والألوان آيات إعجازية لتبيان قدرته العظيمة التي أظهرها بين الذين خلقوا من نفس واحدة، وفي هذه الاختلافات رحمة بين الناس ليحمدوه على فضله ونعمة وحسن خلقه لهم جميعاً، واختلاف الألوان والألسن علامات دالة على التنوع ولم تكن دالة على الفروق التي بها يتم التفريق بين الذين في أساس خلقهم حسن التقويم، ولذا كيف يكون ذلك والله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ الْإِيمَانِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ

الْحَاكِمِينَ} ٦٢٠. وقوله الحق قال: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) وهذه صبغة الله في خلقه الذين استخلفهم في الأرض وأورثهم فيها وفي الجنة، ولأن الاستخلاف والتوريث بالأعمال الحسنة والأفعال الحسان، اختلف الناس فمنهم من هو مؤمن مستخلف ومنهم من هو كافر ومشرك وضال، ولهذا فالذين هم في أحسن تقويم هم الذين أبقوا على طبيعة خلقهم في أحسن تقويم، إما أولئك الذين كفروا وظلوا كانوا هم في أسفل السافلين، وذلك بأسباب ضلالهم، وبأسباب تفريقهم بين العباد باللون واللغة، فاستعبدوا الناس وقهروهم وهؤلاء هم الذين ردوا الناس في أسفل السافلين، ولكن المؤمنين حقا هم الذين جاء استثنائهم من الذين ردوا إلى أسفل السافلين، وهذا الرد جاء من عند الله. أما الذين ردوا الناس أو أشاروا إليهم بالنقيصة بأسباب اللغة أو اللون فهؤلاء هم الباقون في أسفل السافلين، وليس أولئك الذين نُعتوا بما لم يكن فيهم بما أنهم حافظوا بإيمانهم على أحسن تقويم الذي هو أساس خلق الإنسان الذي كرمه الله بهذا الفضل الكبير.

ومع أن غيرنا شرح وفسر بأن أسفل سافلين يتعلق بالكبر والشيخوخة، إلا أننا لا نتفق مع ذلك كثيرا، فأعتقد أن الله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم يريد أن يكون كذلك إلا إذا استثنى نفسه بكفر أو شرك أو ضلالة من هذا الحظ العظيم الذي عليه وبه خلق، وإلا سيظل كبر العمر مرحلة عدائية بين حسن التقويم وبين الحفاظ عليه بحسن خلق وقيم وفضائل حميد وحسن طاعة وحسن هداية وحسن سيرة وحسن قول وحسن فعل. كيف يكون المؤمن الحق في مرحلة من عمره وهو يزداد في البقاء على الحق يكون على غير حسن تقويم، ولنعلم جميعا أن حسن التقويم هو: حسن صنعة وحسن قول وحسن فعل وحسن سيرة، والكبار المؤمنون حقا في معظمهم لا يفقدون ذاكرة من ذاكرتهم حتى يودعون الحياة وهم على أحسن تقويم بالطاعة والشهادة.

قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا

تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ^{٦٢١}.

٦ . ومن مودة المولى جل جلاله جعل الليل سكنا للنوم والراحة مودة من الولي العظيم فقال: { وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } ولهذا جاء الليل سكنا مصداقا لقوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا^{٦٢٢}، وقال تعالى: { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ^{٦٢٣}، وقال تعالى: { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا^{٦٢٤}.

٧ . ومن آياته العظام وواسع رحمته بوده على المستخلفين في الأرض وذلك بإعطائهم من فضائله الكريمة مصداقا لقوله تعالى: { وَابْتَغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ } والابتغاء مطلب وعمل وهو ما يكون في الظروف الطبيعية نهارا، قال تعالى: { وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ^{٦٢٥}، وقال تعالى: { وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِيَتَّبِعُوا فُضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِيَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَا لَهُ تَفْصِيلًا^{٦٢٦}، وقال تعالى: { وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا^{٦٢٧}.

٨ . ومن مودته لعباده جعل من آياته البرق علامة دالة على قدوم الرحمة ونزول الخير، وخوفهم من حدوث غير المتوقع من سيول جارفة قد تنقل حيواناتهم فيتخذون الحيطة خوفا من الهلاك وطمعا في غيئه قال تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }.

٦٢١ فصلت ٣٠ . ٣٤

٦٢٢ الأنعام ٩٥ ، ٩٦ .

٦٢٣ يونس ٦٧ .

٦٢٤ الفرقان ٤٧ .

٦٢٥ يونس ٦٧ .

٦٢٦ الإسراء ١٢ .

٦٢٧ الفرقان ٤٧ .

وفي الفروق اللغوية: الولي هو مخلص المودة^{٦٢٨}، وإخلاص الولي يتمثل في دوام الود، فبالإضافة إلى الود والرعاية في الدنيا يأتي الود الخالد إذ يمنح الولي الودود لمن صدقوا الود فأخلصوا الطاعة جائزته قال تعالى: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}^{٦٢٩}.

وفي القاموس الفقهي الولي: كل من ولي أمرا، أو قام به فهو القائم بالأمر^{٦٣٠}، الله سبحانه قائم بأمر الدنيا والآخرة فهو المبدأ والمعيد وهو المحيي والمميت، أما أمر الدنيا فقيامه به يتجلى لكل عاقل يدرك تلك القوانين البديعة التي تسير الكون فالسمااء لها قانونها الذي قدره الولي تباركت أسماؤه لصالح البشر وذلك بتناسب ثلاثي الأجرام الأرض والقمر والشمس قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبَّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رِجَالًا ثَلَاثِينَ يَجْعَلُ اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}^{٦٣١}، وهذا القانون لصالح البشر فهو يحقق لهم منافع تدل على حسن قيام الولي بالأمر، منها الوقت الذي يمثل أهمية قصوى للبشرية من حيث تنظيم الحياة بما يوفر لها مقومات إعمار الأرض قال تعالى: {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ}^{٦٣٢}، ومنافع أخرى فولولا الشمس لما زالت الظلمة، ولولا القمر لفات كثير من النعم الظاهرة بخلاف غيرهما من الكواكب فإن نعمها لا تظهر لكل أحد مثل ما تظهر نعمتهما، ثم بين كمال نفعهما في حركتهما بحساب لا يتغير ولو كانت الشمس ثابتة في موضع لما انتفع بها أحد، ولو كان سيرها غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات في

^{٦٢٨} الفروق اللغوية، ج ١، ص ٥٧٨

^{٦٢٩} المائدة ١١٩

^{٦٣٠} القاموس الفقهي، ج ١، ص ٣٩٠

^{٦٣١} الرعد ٢-٣

^{٦٣٢} الرحمن ٥

أوقاتها وبناء الأمر على الفصول، ثم بين في مقابلتها نعمتين ظاهرتين من الأرض وهما النبات الذي لا ساق له والذي له ساق، فإن الرزق أصله منه، ولولا النبات لما كان للآدمي رزق إلا ما شاء الله، وأصل النعم على الرزق الدار، النبات هو أصل الرزق لأن الرزق إما نباتي وإما حيواني كاللحم واللبن وغيرها من أجزاء الحيوان، ولولا النبات لما عاش الحيوان والنبات وهو الأصل وهو قسمان قائم على ساق كالحنطة والشعير والأشجار الكبار وأصول الثمار وغير قائم كالبقول المنبسطة على الأرض والحشيش والعشب الذي هو غذاء الحيوان.

ثانيها: هو أنه تعالى لما ذكر القرآن وكان هو كافيًا لا يحتاج معه إلى دليل آخر قال بعده قال تعالى: {الشمس والقمر بحُسابٍ والنجم والشجر} ^{٦٣٣} وغيرها من الآيات إشارة إلى أن بعض الناس إن تكن له النفس الزكية التي يغنيها الله بالدلائل التي في القرآن، فله في الآفاق آيات منها الشمس والقمر، وإنما اختارهما للذكر لأن حركتهما بحسبان تدل على فاعل مختار سخرهما على وجه مخصوص، ولو اجتمع من في العالم من الطبيعيين والفلاسفة وغيرهم وتواطئوا أن يثبتوا حركتهما على الممر المعين على الصواب المعين والمقدار المعلوم في البطء والسرعة لما بلغ أحد مراده إلى أن يرجع إلى الحق ويقول: حركهما الله تعالى كما أراد، وذكر الأرض والسماء وغيرها إشارة إلى ما ذكرنا من الدلائل العقلية المؤكدة لما في القرآن من الدلائل السمعية.

ثالثها: هو أننا ذكرنا أن هذه السورة مفتحة بمعجزة دالة عليها من باب الهيئة فذكر معجزة القرآن بما يكون جواباً لمنكري النبوة على الوجه الذي نبهنا عليه، وذلك هو أنه تعالى أنزل على نبيه الكتاب وأرسله إلى الناس بأشرف خطاب، فقال: بعض المنكرين كيف يمكن نزول الجرم من السماء إلى الأرض وكيف يصعد ما حصل في الأرض إلى السماء؟ فقال تعالى: {الشمس والقمر بحُسابٍ} إشارة إلى (أن) حركتهما بمحرك مختار ليس بطبيعي وهم وافقونا فيه وقالوا: إن الحركة الدورية لا يمكن أن تكون طبيعية اختيارية فنقول: من حرك

الشمس والقمر على الاستدارة أنزل الملائكة على الاستقامة ثم النجم والشجر يتحركان إلى فوق على الاستقامة مع أن الثقل على مذهبكم لا يصعد إلى جهة فوق فذلك بقدره الله تعالى وإرادته^{٦٣٤}.

ومن المنافع التي انعم بها الولي القائم بأمر الدنيا على الإنسان ليساعده على إعمار الأرض الضوء وهو مقدر على حاجة الإنسان فهو قوي مشع في النهار ليتمكن الإنسان من الاستفادة القصوى منه، وهو خافت قليل في الليل بما يسهم في إراحة الإنسان وتسهيل تنعمه بالراحة والنوم: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا} ^{٦٣٥} فالسراج ضوءه عرضي وضوء القمر عرضي متبدل فتشبيه القمر بالسراج أولى من تشبيه الشمس به والجواب: الليل عبارة عن ظل الأرض والشمس لما كانت سبباً لزوال ظل الأرض كانت شبيهة بالسراج، وأيضاً فالسراج له ضوء والضوء أقوى من النور فجعل الأضعف للقمر والأقوى للشمس^{٦٣٦}.

وجعل الليل سكناً قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} ^{٦٣٧}، والنهار للمعيشة: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا} ^{٦٣٨}، يضاف إلى ذلك ومن قيام الولي بأمر الدنيا أمر التسخير، وهو سوق الشيء إلى الغرض المختص به قهراً ذكره^{٦٣٩}، وقد سخر الولي لعبده الكثير، ومن ذلك البحر قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً

^{٦٣٤} تفسير الرازي، ج ١٥، ص ٥٣

^{٦٣٥} نوح ١٥ . ٢٠.

^{٦٣٦} تفسير الرازي، ج ١٦، ص ٥٧

^{٦٣٧} يونس ٦٧

^{٦٣٨} الإسراء ١٢

^{٦٣٩} التعريفات، ج ١، ص ١٧٥

تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^{٦٤٠}، ومعنى تسخير الله تعالى إياها للخلق جعلها بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها إما بالركوب أو بالغوص، و منافع البحار كثيرة والله تعالى ذكر منها في هذه الآية ثلاثة أنواع:

المنفعة الأولى: قوله تعالى: {لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا}، واعلم أن في ذكر الطري مزيد فائدة، وذلك لأنه لو كان السمك كله مالحاً، لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطري فإنه لما خرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الذي لحمه في غاية العذوبة علم أنه إنما حدث لا بحسب الطبيعة، بل بقدرة الله وحكمته حيث أظهر الضد من الضد والحمد لله على نعمه وفضائله ومودته ورحمته.

المنفعة الثانية: من منافع البحر قوله تعالى: {وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} والمراد بالحلية اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ}^{٦٤١}، والمراد: بلبسهم لبس نسائهم لأنهن من جملتهم، ولأن إقدامهن على التزين بها إنما يكون من أجلهم فكأنها زينتهم ولباسهم، ورأيت بعض أصحابنا تمسكوا في مسألة أنه لا يجب الزكاة في الحلي المباح بحديث عروة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا زكاة في الحلي) فقلت هذا الحديث ضعيف الرواية وبتقدير الصحة فيمكن أن يقال فيه لفظ الحلي لفظ مفرد محلى بالألف واللام، وقد بينا في أصول الفقه أن هذا اللفظ يجب حمله على المعهود السابق، والحلي الذي هو المعهود السابق هو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في هذه الآية وهو قوله: {وَتَسْتَخْرِجُونَ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} فصار بتقدير صحة ذلك الخبر لا زكاة في اللآلئ التي تلبس، وحينئذ يسقط الاستدلال به، والله أعلم.

المنفعة الثالثة: قوله تعالى: {وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} قال أهل اللغة: مخر السفينة شقها الماء بصدرها، وعن الفراء: أنه صوت جري الفلك بالرياح^{٦٤٢}.

^{٦٤٠} النحل ١٤

^{٦٤١} الرحمن ٢٢

^{٦٤٢} تفسير الرازي، ج ٩ ، ص ٣٦٣

والتسخير شامل وكامل لكي يكون القيام بما يلحق بالولي عز وجل قال تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ} ^{٢٤٣}، وفي إرشاد العقل السليم المراد به إما جعل المسخر بحيث ينفع المسخر له أعم من أن يكون منقاداً له يتصرف فيه كيف يشاء ويستعمله كيف يريد كعامه ما في الأرض من الأشياء المسخرة للإنسان المستعملة له من الجماد والحيوان أو لا يكون كذلك بل يكون سبباً لحصول مراده من غير أن يكون له دخل في استعماله كجميع ما في السماوات من الأشياء التي نيّطت بها مصالح العباد معاشاً أو معاداً، وأما جعله منقاداً للأمر مذلاً على أن معنى {لَكُمْ} لأجلكم فإن جميع ما في السماوات والأرض من الكائنات مسخرة لله تعالى مستتعبة لمنافع الخلق وما يستعمله الإنسان حسبما يشاء وإن كان مسخراً له بحسب الظاهر فهو في الحقيقة مسخر لله عز وجل {وَأَسْبَغَ} أي أتم وأوسع {عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ} جمع نعمة وهي في الأصل الحالة المستلذة فإن بناء الفعلة كالجلسة والركبة للهيئة ثم استعملت فيما يلائم من الأمور الموجبة لتلك الحالة إطلاقاً للمسبب على السبب، وفي معنى ذلك قولهم: هي ما ينتفع به ويستلذ ومنهم من زاد ويحمل عاقبته، وقال بعضهم: لا حاجة إلى هذه الزيادة لأن اللذة عند المحققين أمر تحمد عاقبته وعليه لا يكون لله عز وجل على كافر نعمة، وكما يقال: النعمة عبارة عن المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير، والمنفعة الحسنة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير قالوا: وإنما زدنا قيد الحسنة لأن النعمة يستحق بها الشكر وإذا كانت قبيحة لا يستحق بها الشكر، والحق أن هذا القيد غير معتبر لأنه يجوز أن يستحق الشكر بالإحسان وإن كان فعله محظوراً لأن جهة الشكر كونه إحساناً وجهة استحقاق الذم والعقاب الحظر فأبي امتناع في اجتماعهما، ألا ترى أن الفاسق يستحق الشكر لأنعامه والذم لمعصية الله تعالى فلم لا يجوز أن يكون الأمر ههنا كذلك، أما قولنا: المنفعة فلأن المضرة المحضة لا تكون نعمة، وقولنا: المفعولة على جهة الإحسان لأنه لو كان نفعاً وقصد

الفاعل به نفع نفسه لا نفع المفعول به لا يكون نعمة وذلك كمن أحسن إلى جاريته ليربح عليها، ويعلم منه حكم زيادة ويحمد عاقبته.

{ظاهرة وَبَاطِنَةٌ} أي محسوسة ومعقولة معروفة لكم وغير معروفة، وعن مجاهد النعمة الظاهرة ظهور الإسلام والنصرة على الأعداء والباطنة الإمداد من الملائكة عليهم السلام ، وعن الضحاك الظاهرة حسن الصورة وامتداد القامة وتسوية الأعضاء والباطنة المعرفة، وقيل: الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح والباطنة القلب والعقل والفهم، وقيل: الظاهرة نعم الدنيا والباطنة نعم الآخرة، وقيل: الظاهرة نحو إرسال الرسل وإنزال الكتب والتوفيق لقبول الإسلام والإتيان به والثبات على قدم الصدق ولزوم العبودية والباطنة ما أصاب الأرواح في عالم الذر من رشاش نور النور^{٦٤٤}.

الولي الحافظ إذ يجوز أن يقال الله ولي المؤمنين بمعنى أنه يلي حفظهم^{٦٤٥}، وحفظ الولي يشمل كل مخلوقاته، فالأرض ألقى فيها رواسي حفظا منه لها قال تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}^{٦٤٦}، بيان لصنعه تعالى الولي البديع في قرار الأرض إثر بيان صنعه عز وجل في قرار السماوات أي ألقى فيها جبالاتاً شوامخاً أو ثوابت كراهة {أَنْ تَمِيدَ} أو لئلا تميد أي تضطرب {بِكُمْ} لو لم يلق سبحانه وتعالى فيها رواسي لما أن الحكم اقتضت خلقها على حال لو خلت معه عن الجبال لمادت بالمياه المحيطة بها الغامرة لأكثرها والرياح العواصف التي تقتضي الحكمة هبوبها أو بنحو ذلك، وقد يعد منه حركة ثقيل عليها، وقد ذكر بعض الفلاسفة أنه يلزم بناء على كرية الأرض ووجوب انطباق مركز ثقلها على مركز العالم حركتها مع ما فيها من الجبال بسبب حركة ثقيل من جانب منها إلى آخر لتغير مركز الثقل حينئذ إلا أنه لم يظهر ذلك لكون الأثقال المتحركة عليها

^{٦٤٤} تفسير الألوسي، ج ١٥، ص ٤٧٧

^{٦٤٥} الفروق اللغوية، ج ١، ص ٥٧٧-٥٧٨

^{٦٤٦} لقمان ١٠

كلا شيء بالنسبة إليها مع ما فيها، ولعل من يعد حركة الثقيل عليها من أسباب الميد لو خلت من الجبال يقول: لا يبعد حركة ثقيل عليها كما جرى من مكان إلى آخر فاجتمع حتى صار بحراً عظيماً مع ما ينضم إلى ذلك مما تنقله الأهوية من الرمال الكثيرة والتراب يكون له مقدار يعتقد به بالنسبة إلى الأرض خالية من الجبال فتتحرك بحركته إلى خلاف جهته، ثم إن الميد لولا الرواسي بنحو المياه والرياح متصور على تقدير كون الأرض كروية كما ذهب إليه الغزالي وكذا ذهب إلى كروية السماء^{٦٤٧}.

وحفظ المولى السماء فقال: {إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ^{٦٤٨}، أي زيناها بها للزينة وللحفظ من كل شيطان أي بعيد عن الخير محترق. ولما كان القصد التعميم في الحفظ من كل عاتٍ سواء كان بالغاً في العتو أو لا قال مارد أي مجرد عن الخير عاتٍ في كل شر سواء كان بالغاً في ذلك أقصى الغايات أو كان في أدنى الدرجات^{٦٤٩}.

وعليه فالولي المطلق هو الولي بالآتي:

١ . **ولي بخلقه:** بحسن الخلق كان الإنسان مستخلفاً في الأرض بغاية الإصلاح فيها، ولأنه المخلوق في أحسن تقويم أدرك خالقه فكان له عابداً وطائعا فقال كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ^{٦٥٠}، وقال تعالى ترسيخاً لما جاء به على لسان يوسف: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ

^{٦٤٧} تفسير الالوسي، ج ١٥، ص ٤٣٠

^{٦٤٨} الصافات ٦-٧

^{٦٤٩} تفسير البيهقي، ج ٧، ص ١٠٦

^{٦٥٠} الأعراف ١٩٦-١٩٨.

وَهُمْ يَمْكُرُونَ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ^{٦٥١}. من هذه الآيات الكريمة نلاحظ الطاعة التامة للولي جل جلاله، ونلاحظ الاتكال عليه في تنفيذ الأمر، ونلاحظ الإيمان التام بما انزل، ونلاحظ الفارق الكبير بين الطائعين وبين العصاة والمشركين، ونلاحظ أن القلة هم المؤمنون حقا والكثرة هم الفاسقون والظالمون ومناقفون، وبرغم كل ذلك يثبت الله الذين استخلفوا في الأرض بالقول الثابت فيها.

ولأن الولي هو النصير والمعين، فهو قريب مجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وداعي الولي هو المؤمن به والمسلم أمره وما يملك إليه، ولهذا فالقرب قربان: قرب من السميع الحكيم الخبير إلى عبده المستخلف في الأرض، وقرب من الخليفة إلى عبده بالطاعة التامة.

وعليه، فالخليفة هو الذي أدرك قول الحق وآمن به هو كما هو، قال تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ^{٦٥٢}، وقال تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^{٦٥٣}.

٢ . ولي برزقه: خالق كل شيء هو ولي أمر كل شيء هذا قول المؤمن المستخلف في الأرض، وبذلك فهو لم يكن غافلا عن سر خلقه وما ينبغي عليه أن يقوم به، إنه الطائع له والشاكر له، والحامد له، فالحمد لله رب العالمين على خلقه ورزقه وفضائله التي لا تحصى، ولأن الرزق من عند الله فالطاعة من المحتاج لا ينبغي أن تكون إلا لمن يملك مشبعات حاجاته المتطورة والمتنوعة والمتعددة، ولذا فلو لم يكن رزاقا ما كان وليا، ولأنه

^{٦٥١} يوسف ١٠١-١٠٣.

^{٦٥٢} البقرة ١٠٧، ١٠٨.

^{٦٥٣} البقرة ٢٥٧.

الرزاق الكريم فهو الولي الذي يطاع ولا يعصى، ولو لم يكن الرزق ما كانت الحياة ولأنه المالك المطلق للرزق فهو الولي الذي يحمد على نعمائه ومكارمه وحفظه.

والخليفة هو الذي يرتزق من رزقه ويرزق آخرين منه طاعة بالتصديق والتركية والإحسان قال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} ٦٥٤.

أما أولئك الجاحدون سينالهم العذاب الشديد بجحودهم ونكرانهم للولي وكفرهم به ونفاقهم فقال تعالى فيهم: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} ٦٥٥. ولأنه الرزاق بدون منة قال تعالى: {وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ إِنْ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} ٦٥٦.

٣ . ولي بحفظه: لقد خلق الإنسان ضعيفا في حاجة للعناية والرعاية والرزق وأول ما خلق ليس له من هو سابق عليه إلا الذي خلقه جل جلاله فهو الأول والآخر، ولذا لا راعي له إلا هو، فكان له راعيا وحافظا ورازقا، وهكذا تستمر العناية والرعاية والرزق باستمرار الحياة. قال تعالى: {وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} ٦٥٧.

الله تعالى ولي بذاته، وبكتابه ولي، وبرسوله ولي، وبملائكته ولي، وهو الولي المطلق بشأن كل ولي، قال تعالى: {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا

٦٥٤ التوبة ٧٥، ٧٦.

٦٥٥ التوبة ٧٤.

٦٥٦ الداريات ٥٥ . ٥٨.

٦٥٧ سبأ ٢١، ٢٢.

طَلَعُ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ^{٦٥٨}.

ولأن الله قال أني جاعل في الأرض خليفة فكان يوسف خير خليفة حافظا له قولا وعملا وإخلاصا وطاعة وخشية فنال منه الأجر الكبير والكريم فقال: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا جُرْ الْأَخْرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ^{٦٥٩}.

٤ . ولي برعايته: الرعاية تحمّل مسؤولية بكل اهتمام ومحافظة على النوع والجنس مصداقا لقوله تعالى: {لِيَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَّبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَنَّى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا^{٦٦٠}.

^{٦٥٨} ق ، ٤ . ١٥ .

^{٦٥٩} يوسف ٥٤ . ٥٧ .

^{٦٦٠} النساء ١ . ٦ .

ولأنه ولينا برعايته فكان شافيا من المرض ورازق ومعز وذالا لمن يشاء كيف يشاء قال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ٦٦١، وفي الهداية والإطعام والإشفاء من المرض قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} ٦٦٢.

والولي بالإضافة هو من يتقي الولي المطلق في نفسه وفي الآخرين، ولا يعمل إلا صالحا يرضاه العزيز المطلق جل جلاله، قال تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوا عَلَيْهَا سُومًا وَعُمِيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَاتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} ٦٦٣.

٥ . **ولي بهيمته:** الهيمنة سيطرة تامة لا تقلت منها فالتة، ولا يحدث فيها سهو أو غفلة، ولهذا فهيمنة الرحمن على المستخلفين في الأرض هيمنة رحمة، لأجل المحافظة عليهم من كل شر، ولأجل العلم بحالهم وما يلم بهم، ولأجل كتابة ما يقولون من حق وما يفعلون من حق، وفي مقابل ذلك المهيم المطلق لا يغفل عن حال الآخرين الذين لم يستمدوا صفاتهم منه فكانت لهم الصفات غير الحسان هم وما يملكون وما يفعلون عليهم كتبة كرام يهيمنون عليهم وعلى ما يقولون ويفعلون وما يظهرون وما يبطنون إنه الولي علام الغيوب سبحانه

٦٦١ آل عمران ٢٦.

٦٦٢ الشعراء ٧٨ . ٨٠.

٦٦٣ الفرقان ٦٨ . ٧٦.

لا إله إلا هو. قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ٦٦٤.

٦ . **ولي بحسابه:** الولي بحسابه يكافئ فيجازي بالثواب أو العقاب ولكل قول وفعل حق، جزاء حق فيه أجر كريم، ولكل قول وفعل بهتان وزور له حساب وجزاء يعاقب به، ولذلك فما ربك بظلام للعبيد، قال تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} ٦٦٥، وقال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} ٦٦٦.

ولأن لكل حساب، فالخليفة مع أنه مؤمن إلا أنه هو الذي يخشى الله ويخافه، إما المشركين والكفرة لا يخافونه، فالخوف تقوى وهم لا تقوى لهم ولهذا لكل حساب، قال تعالى {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ} ٦٦٧.

ولأنه الخالق فهو الذي يحاسب خلقه، ولأنه هو الرزاق فهو الذي يحاسب عباده على ما فعلوا بما رزقهم به، ولأنه العادل فهو الذي سيحاسب عباده العادلين بالاستخلاف أو غير العادلين بالمعصية، ولكل جزاؤه فمن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد. قال تعالى: {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

٦٦٤ الحشر ٢٢ . ٢٤.

٦٦٥ آل عمران ١٨٢ . ١٨٤.

٦٦٦ فصلت ٤٦.

٦٦٧ المؤمنون ١١٧ ، ١١٨.

وَاللَّهُ يَزُرُّ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ {٦٦٨} .

٧ . **ولي بتوابه:** قال تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ} {٦٦٩} ، من كثرة ما يمنحه من توبة اتصف بالتواب، ولهذا فهو الذي يتولى الخلق وأمرهم في الدارين وهذه الولاية هي فضل منه، فلولاها لكان الهلاك هو الصفة السائدة ولأنه الولي بعبادة وما يعملون فكانت الرحمة والعناية والرعاية والولاية صفات حسان سائدة في الحياة الدنيا التي تكثر فيها المفسد والمغريات التي تجعل من بني آدم منحرفين عما يجب وهم في وجهتهم تجاه ما لا يجب. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِنَّتُمْ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} {٦٧٠} ، وقال تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَكَ وَآرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} {٦٧١} ، وقال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} {٦٧٢} .

٨ . **ولي بعقابه:** أمر العقاب بيد الولي المطلق، الذي لا يعاقب إلا على باطل ارتكب أو ذنب اقترف أو معصية وشرك وكفر به وبما أنزل وبمن أرسل، ولهذا لا معاقب على ذلك إلا هو، ولذا فهو الولي الذي بيده العقاب لمن يشاء كيف يشاء وهو الرحمن الرحيم. قال

٦٦٨ النور ٣٧ . ٣٩ .

٦٦٩ الحجرات ١٠ .

٦٧٠ الحجرات ١٢ .

٦٧١ البقرة ١٢٧ ، ١٢٨ .

٦٧٢ التوبة، ١٠٣ . ١٠٦ .

تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ قُلْ أُوذِبْتُكُمْ بَخِيرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} ٦٧٣.

والخليفة هو من يطيع الولي بتولي ما أمر به أخذًا بما يجب، وانتهاء عما يجب الانتهاء عنه، وهو الذي يعلم أن ما يقوم به من حسنات فإن الولي المطلق سيضاعفها له بعشرة أمثالها، ويعلم أن الذي يضاعف الحسنات لا يمكن أن يجازي السيئة إلا بمثلها، ولذا فالخليفة الذي اتقى ربه يعلم أن صلاته ونسكه هي لله رب العالمين. قال تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} ٦٧٤.

٩ . ولي بمناصرتة: ولأن الولي هو الحق، فالحق لا يحق إلا حقا، ولأنه لا يحق إلا حقا فهو بذاته لا يناصر إلا من يحق حقا، ولهذا جاءت مناصرتة للمستخلفين في إحقاق الحق

٦٧٣ آل عمران ١٠ . ١٥ .

٦٧٤ الأنعام ١٦٠ . ١٦٥ .

وإِذَا قَالَ الْبَاطِلُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَذِيعِدْكُمْ اللّٰهُ أَحَدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّٰهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾^{٦٧٥}، إِنْ فليعلم العباد أنه لا ولي لهم إلا هو جل جلاله، قال تعالى: ﴿وَلِيُنصِرَنَّ اللّٰهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللّٰهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلّٰهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْتَلَّةٌ وَقَصِرَ مَشِيدٍ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^{٦٧٦}.

والخليفة هو الذي يؤمن ويعلم بأن الله هو وليه وهو نصيره ولا ناصر له في إحقاق الحق إلا هو عز وجل. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّٰهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ لَقَدْ تَابَ اللّٰهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^{٦٧٧}، وقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾^{٦٧٨}.

١٠. **ولي بإماتة:** الولي جل جلاله هو الذي بيده أمر كل شيء أمر الحياة وأمر الممات وأمر البعث وهو على كل شيء قدير لا إله إلا هو، ولأن أمر الموت بيده فهو الذي يتولى به من خلق، ثم في النهاية يتولى أمر إماتته كما أمات المخلوقات، إي يوم لا يجعل على

^{٦٧٥} الأنفال ٧، ٨.

^{٦٧٦} الحج ٤٠، ٤٦.

^{٦٧٧} التوبة ١١٦، ١١٧.

^{٦٧٨} القصص ١٥.

ظهرها دابة يعلم الجميع وخاصة الذين كفروا وأشركوا إن اليوم الملك بحق هو لصاحب الحق لله الواحد القهار. قال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} ٦٧٩، وقال تعالى: {أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِن تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} ٦٨٠.

وعليه فالموت موتان:

الأولى: موت المخلوقات التي خلق الموت من أجلها لتكون الناهية لحياتها.

والثانية: موت الموت وهو حق من أجل حياة جديدة دائمة تنفيذا للأمر (كن). وتكون من بعدها الحياة السرمدية التي لا موت فيها، فقد ولى زمن الموت ولا تجد موتة أخرى غير تلك الأولى التي كانت مصداقا لقوله تعالى: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} ٦٨١. والموتة الأولى لا تعني أن هناك موت ثاني أو موت آخر، بل تعني لا وجود لموت غير الذي قضى نحبه والحمد لله الحي الدائم.

١١ . **ولي ببعثه:** البعث هو الكائن في الزمن المستقبل وفقا لعلم الغيب الذي لا نعلم منه إلا أنه سيأتي لا محالة ونحن نأمل أن نكون فيه من الوارثين في الجنة والحمد لله رب العالمين إننا من المؤمنين. ولأن الولي المطلق هو من يتولى أمر البعث، فهو بيد أمينة حافظة وقوية وقادرة بالمطلق ولا أحد يوقفها يوم تنفذ أمرها (كن). قال تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} ٦٨٢، وقال تعالى {يَا

٦٧٩ آل عمران ١٨٥.

٦٨٠ النساء ٧٨، ٧٩.

٦٨١ الدخان ٥٦، ٥٧.

٦٨٢ النمل ٦٥.

أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَقَّةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ، وقال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ وَقَالَ الَّذِينَ الْأِيمَانَ أُوْتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّفَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ} ٦٨٣.

وللولي في حفظ البشر شمول تام لأنه خالقهم وهو العارف بما يكونون وما يعلنون: {وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ} ٦٨٤، والحِفظُ هو رعاية تامة مع فطنة وعدم غفلة، وأول وجوه هذا الحفظ الشامل إرسال الحفظة قال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ إِلَّا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} ٦٨٥، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً، فالمراد أن من جملة حفظه لعباده إرسال الحفظة عليهم وهؤلاء الحفظة هم المشار إليهم بقوله تعالى: {لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} ٦٨٦، وقوله تعالى: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} ٦٨٧، وقوله تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ} ٦٨٨ والمقصود

٦٨٣ الروم ٥٥ . ٦٠ .

٦٨٤ - القصص ٦٩

٦٨٥ - الأنعام ٦١-٦٢

٦٨٦ - الرعد ١١

٦٨٧ - ق ٨

٦٨٨ - الانفطار ١٠-١١

من حضور هؤلاء الحفظة ضبط الأعمال وتسجيلها وحفظها إلى يوم يبعثون لتكون دليلا موجبا أو دليلا سالبا على أصحابها.

ولأن الولي عادل في ملكه فهو لا يظلم أحدا كان كتابه لا يغادر كبيرة ولا صغيرة من أجل الحق وإحقاؤه وفقا لكل قول ولكل فعل، قال تعالى: {مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} ^{٦٨٩}، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن مع كل إنسان ملكين: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، فإذا تكلم الإنسان بحسنة كتبها من على اليمين، وإذا تكلم بسيئة قال من على اليمين لمن على اليسار انتظره لعله يتوب منها، فإن لم يتب كتب عليه.

والقول الأول: أقوى لأن قوله تعالى: { وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً } يفيد حفظة الكل من غير تخصيص .

وذكروا في فائدة جعل الملائكة موكلين على بني آدم وجوهاً منها:

الوجه الأول: أن الله جاعل فوق كل ذي علم عليم.

والوجه الثاني: أن الولي له المشيئة في أن يعمل ما يشاء كيف شاء.

والوجه الثالث: ليكون الشهود من خارج النوع لا يتأثرون بصلة وهم على منظومة عقلية لا تعمل مع منظومة البشر وإن عملت عليها.

الوجه الرابع: ليتترك الإنسان مخيلا فيما آتاه الله من نعم جعل الملائكة في دائرة انعدام الرؤية البشرية حتى لا يجعل الرقيب عليه مجانبا للمشاهدة والحركة وشغل الحيز الذي ستم فيه الأفعال المرضية أو غير المرضية.

ومن وجوه الحفظ في الدنيا نصرة الأنبياء بحفظهم، والأمثلة كثيرة ولكن لتأمل حفظ الولي لخاتم الأنبياء والرسول عندما تأمر عليه عتاة الكفر ليقتلوه: {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} ^{٦٩٠}، وقيل: نزلت في بني مخزوم وذلك: أن أبا جهل

٦٨٩ - الكهف ٤٩

٦٩٠ يس ٩

حلف لئن رأى محمدا يصلي ليرضخن رأسه فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمغه به فلما رفع يده أثبتت إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها بجهد فرجع إلى قومه فأخبرهم فقال مخزومي آخر : أنا أقتله بهذا الحجر فذهب فأعمى الله عينيه^{٦٩١}.

ومن وجوه حفظ الولي سبحانه لعباده بيانه لحدود الطاعة والمعصية ليتعلم المؤمنون فيحافظوا على عدم تجاوز الحدود حفظا لهم من العذاب الأدنى والأكبر، يقول الولي: **لَوَالِدِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ**^{٦٩٢}، وقال تعالى: **لَوَالِدِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ**^{٦٩٣}.

أما حفظ الولي للمؤمنين في الآخرة فهو من أعظم وجوه الحفظ في يوم تشخص فيه الأبصار، وآياته كثيرة منها قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ**^{٦٩٤} وهذه الآية معجزة في بيان صورة الحفظ وذلك للمبنى العلائقي الدقيق بين هول جهنم وغضب نيرانها وهيجانها وبين حفظ الولي للمؤمنين حيث أبعدهم الله عنها حتى أنهم لا يسمعون أخف أصواتها وهو الحسيس، ولفظة حسيس من صور الإعجاز القرآني لما حملت من قدرة تعبيرية عالية فالإضافة إلى دلالتها اللغوية نستشعر دلالتها الصوتية الموافقة للدلالة اللغوية فمقطع السين والياء فيه خفوت في الصوت لا يخفى على اللبيب مما خلق مناباة عظيمة بين اللفظة وأدائها وهذا من بعض صور الإعجاز القرآني.

^{٦٩١} تفسير الزمخشري، ج ٥ ، ص ٤٢١

^{٦٩٢} المعارف ٣٢ . ٣٥ .

^{٦٩٣} المؤمنون ٥

^{٦٩٤} - الأنبياء ١٠١-١٠٢

والولي هو معين المستخلفين فيها، كما نص سبحانه وتعالى: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} ٦٩٥، وقد جعل الولي التعاون بمثابة النظام الأساسي للعلاقة بين البشر: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} ٦٩٦.

وقد أعان الولي عباده في كل وقت وضرب لنا أمثلة لتكون عبرة لذوي الألباب، ففي بدر أعان الولي عبادة بملائكة لم يروها قال تعالى: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ} ٦٩٧، وهذا هو العون المباشر، وهناك الكثير من صور العون غير المباشر وذلك بتهيئة أسباب العون كما حدث مع سيدنا موسى في قوله تعالى: {قَالَ سَتَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ الْعَالِبُونَ} ٦٩٨، أي نقويك ونعينك بأخيك، تقول العرب إذا أعزَّ رجل رجلاً وأعانه ومنعه ممن أراده بظلم: قد شدَّ فلان على عضد فلان، وهو من عاضده على أمره إذا أعانه ٦٩٩.

ومثال آخر للعون غير المباشر ويتمثل في قصة ذي القرنين كما جاء في قوله تعالى: {ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا أَتُونِي زُرًّا الْحَدِيدَ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا فَمَا اسطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} ٧٠٠.

٦٩٥ - ال عمران ٦٨

٦٩٦ - المائدة ٢

٦٩٧ - ال عمران ١٢٤

٦٩٨ - القصص ٣٥

٦٩٩ - تفسير الطبري، ج ١٩، ص ٥٧٨

٧٠٠ - الكهف ٩٢-٩٧

والإنسان وإن علا وان كان من الصابرين المؤمنين فلا غنى له عن عون الولي سبحانه لأن الضعف فيه غالب إذا ما قورن بالقوة المطلقة لله تعالى فلا بد له من طلب عون الولي سبحانه، وتبقى قصة سيدنا يعقوب من انصاع الأمثلة على ضعف الإنسان وحاجته الدائمة إلى عونه سبحانه: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾^{٧٠١}، إن إقدامه على الصبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى، لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع وهي قوية والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا، فكأنه وقعت المحاربة بين الصنفين، فما لم تحضر إعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة^{٧٠٢}.

وطلب عون الولي جل وعلا أمر تطلبه الفطرة السليمة المؤمنة التي تعرف أن الولي سبحانه قادر وحده على تقديم العون لمن يطلبه منه لأنه الولي الذي لا ولي غيره ولأنه قادر على تقديم العون دون أن يحصل نقص في قدرته أو ملكه أو أن يأبى حاشاه سبحانه إجابة من يطلبه بالعون، فهو وحده من يستحق أن يطلب منه العون وهذا ما حصل مع كل الأنبياء والرسل فقد طلبوا العون من الولي سبحانه ومنهم سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^{٧٠٣}، أمرهم أولاً بالاستعانة بالله وذلك لأن من عرف أنه لا مدبر في العالم إلا الله تعالى انشرح صدره بنور معرفة الله تعالى وحينئذ يسهل عليه أنواع البلاء، ولأنه يرى عند نزول البلاء أنه إنما حصل بقضاء الله تعالى وتقديره^{٧٠٤}.

أما أمور الدنيا والآخرة فالولي يعلم كل مؤمن طريق العون عليهما بقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^{٧٠٥}، وإنما خصهما بذلك لما

٧٠١ - يوسف ١٨

٧٠٢ - تفسير الرازي، ج ٩، ص ١١ .

٧٠٣ - الأعراف ١٢٨

٧٠٤ - تفسير الرازي، ج ٧، ص ٢٢٠

٧٠٥ - البقرة ١٥٣

فيهما من المعونة على العبادات، أما الصبر فهو قهر النفس على احتمال المكاره في ذات الله تعالى وتوطئتها على تحمل المشاق وتجنب الجزع، ومن حمل نفسه وقلبه على هذا التذليل سهل عليه فعل الطاعات وتحمل مشاق العبادات، وتجنب المحظورات ومن الناس من حمل الصبر على الصوم، ومنهم من حمله على الجهاد لأنه تعالى ذكر بعده قال تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ وَلَنُبَلِّغَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} ٧٠٦ وأيضاً فلأنه تعالى أمر بالثبوت في الجهاد فقال: {إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} ٧٠٧ وبالثبوت في الصلاة أي في الدعاء فقال: {وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} ٧٠٨، إلا أن القول الذي اخترناه أولى لعموم اللفظ وعدم تقييده، والاستعانة بالصلاة لأنها يجب أن تفعل على طريق الخضوع والتذلل للمعبود والإخلاص له، ويجب أن يوفر همه وقلبه عليها وعلى ما يأتي فيها من قراءة فيتدبر الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ومن سلك هذه الطريقة في الصلاة فقد ذل نفسه لاحتمال المشقة فيما عداها من العبادات ولذلك قال: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} ٧٠٩، ولذلك نرى أهل الخير عند النوائب متفقيين على الفرع إلى الصلاة، وروي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة: ثم قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} ٧١٠،

٧٠٦ - البقرة ١٥٤ . ٥٧ .

٧٠٧ - الأنفال ٤٥

٧٠٨ - آل عمران ١٤٧

٧٠٩ - العنكبوت ٤٥

٧١٠ - البقرة ١٥٣

يعني في النصر لهم كما قال تعالى: {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} ٧١١ فكأنه تعالى ضمن لهم إذا هم استعانوا على طاعته بالصبر والصلاة أن يزيدهم هدى وتوفيقاً وتسديداً وأطافاً كما قال: {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا} ٧١٢.

الولي: الناصر ينصر عباده الصالحين المستخلفين في الأرض لإصلاحها وإعمارها دون فساد ولا سفك دماء فيها بغير حق، قال الله عز وجل: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} ٧١٣، إنه الناصر بالقوة الحق التي تدمغ الباطل حتى تزهقه، ونصرة الولي هبة منه للمؤمنين يبشرهم به لتطمئن قلوبهم: {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} ٧١٤.

ونصر الولي للمؤمنين ظاهر لكل ذي لب أما المعاند فيكفي قول الولي بحقه: {مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ} ٧١٥، فالمعنى أنه تعالى ناصر لرسوله صلى الله عليه وسلم في الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه وفي الآخرة بإعلاء درجته وإدخال من صدقه جنات تجري من تحتها الأنهار والأنتقام ممن كذبه وإذاقته عذاب الحريق لا يصرفه سبحانه عن ذلك صارف ولا يعطفه عنه عاطف فمن كان يغيظه ذلك من أعاديته وحساده ويظن أن لن يفعلته تعالى بسبب مدافعته ببعض الأمور ومباشرة ما يرده من المكاييد فليبالغ في استقراغ المجهود وليتجاوز في الجهد كل حد معهود فقصارى أمره خيبة مساعيه وعمم مقدماته ومبادهيه وبقاء ما يغيظ على حاله ودوام شجوه وبلباله، وقد وضع مقام هذا الجزاء. قوله سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ

٧١١ - البقرة ١٣٧

٧١٢ - مريم ٧٦

٧١٣ - البقرة ٢٥٧

٧١٤ - الصف ١٣

٧١٥ - الحج ١٥

يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ^{٧١٦} أَي فليمدد حبلاً إلى السماء إي إلى أعلى ثُمَّ لِيَقْطَعْ، أَي ليختنق كما فسره بذلك ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من قطع إذا اختنق كان أصله قطع نفسه بفتحيتين أو أجله ثم ترك المفعول نسياً منسياً فصار بمعنى اختنق لازم خنق، وذكروا أن قطع النفس كناية عن الاختناق، وقيل المعنى ليقطع الحبل بعد الاختناق على أن المراد به فرض القطع وتقديره كما أن المراد بالنظر في قوله تعالى: {فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ} تقدير النظر وتصويره وإلا فبعد الاختناق لا يتأتى منه ذلك أي فليقدر في نفسه النظر هل يذهبن كيده غيظه أو الذي يغيظه من النصر، ويجوز أن يراد فلينظر الآن أنه إن فعل ذلك هل يذهب ما يغيظه، وجوز أن يكون المأمور بالنظر غير المأمور الأول ممن يصح منه النظر، وأن يكون الكلام خارجاً مخرج التهكم كما قيل إن تسمية فعله ذلك كيداً خارجة هذا المخرج، وقال جمع: إن إطلاق الكيد على ذلك لشبهه به فإن الكائد إذا كاد أتى بغاية ما يقدر عليه وذلك الفعل غاية ما يقدر عليه ذلك العدو الحسود، ونقل عن ابن زيد أن المعنى فليمدد حبلاً إلى السماء المظلة وليصعد عليه ثم ليقطع الوحي عنه صلى الله عليه وسلم، وقيل: ليقطع المسافة حتى يبلغ عنان السماء فيجهد في دفع نصره عليه الصلاة والسلام النازل من جهتها^{٧١٧}.

ونصر الولي لعباده المؤمنين أمر كتبه على نفسه وصدق به في كل كتبه ورسالاته قال تعالى: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدُمَّتْ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ^{٧١٨}، أما قوله تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} فقال

^{٧١٦} الحج ١٤، ١٥.

^{٧١٧} - تفسير الالوسي، ج ١٣، ص ٢٢

^{٧١٨} - الحج ٤٠

بعضهم من ينصره بتلقي الجهاد بالقبول نصرته لدين الله تعالى، وقال آخرون: بل المراد من يقوم بسائر دينه، وإنما قالوا ذلك لأن نصرته الله على الحقيقة لا تصح، وإنما المراد من نصرته الله نصرته دينه كما يقال في ولاية الله وعداوته مثل ذلك وفي قوله: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} وعد بالنصر لمن هذه حاله ونصر الله تعالى للعبد أن يقويه على أعدائه حتى يكون هو الظافر ويكون قائماً بإيضاح الأدلة والبيّنات، ويكون بالإعانة على المعارف والطاعات، وفيه ترغيب في الجهاد من حيث وعدهم النصر، ثم بين تعالى أنه قوي على هذه النصرته التي وعدها المؤمنين، وأنه لا يجوز عليه المنع وذلك لأنه صاحب العزة قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ٧١٩.

والولي هو من لا يترك أمراً هو منه، وبذلك يتجلى إحسان الولي في كثير من الوجوه منها:

١- **الإحسان المباشر:** ويتجسد في توليه سبحانه العباد بإحسانه رحمة منه، وآياته كثيرة فكل إنسان إنما يعيش على هذه الأرض بإحسان الولي عليه لكن أكثر الناس لا يشكرون، والقلّة من الشاكرين من يعرفون إحسان الولي عليهم كسيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام: {وَرَأَوْتَهُ الَّذِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} ٧٢٠، أي: إن الله ربي أحسن مثواي إذ نجاني من الجب، وأقامني في أحسن مقام. وإما أن يكون ضمير الشأن وغني بربه سيده العزيز فلا يصلح لي أن أخونه، وقد أكرم مثواي فهو بعيد جداً، إذ لا يطلق نبي كريم على مخلوق أنه ربه، ولا بمعنى السيد، لأنه لم يكن في الحقيقة مملوكاً له، وما أحسن هذا التتصل من الوقوع في السوء. استعاذ أولاً بالله الذي بيده العصمة وملكوت كل شيء، ثم نبه على أن إحسان الله أو إحسان العزيز الذي سبق منه لا يناسب أن يجازى بالإساءة، ثم نفى الفلاح عن

٧١٩ آل عمران ٦.

٧٢٠ - يوسف ٢٣

الظالمين وهو الظفر والفوز بالبغية فلا يناسب أن أكون ظالماً أضع الشيء غير موضعه،
وأعدى ما حده الله تعالى لي^{٧٢١}.

ومن الإحسان المباشر للولي أنه يكون في عون المحسن في الدنيا ولا يتركه وحده جزاءً
لإحسانه: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}^{٧٢٢}.

٢- **الجزء على الإحسان في الدنيا والآخرة:** وهو من إحسان الولي لعباده وتقديراً من
الولي المحسن لإحسان عباده وإكباراً للإحسان قال تعالى: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا
الْإِحْسَانُ}^{٧٢٣}، أي هل جزاء من أتى بالفعل الحسن إلا أن يؤتى في مقابلته بفعل حسن،
لكن الفعل الحسن من العبد ليس كل ما يستحسنه هو، بل الحسن هو ما استحسنته الله منه،
فإن الفاسق ربما يكون الفسق في نظره حسناً وليس بحسن بل الحسن ما طلبه الله منه،
كذلك الحسن من الله هو كل ما يأتي به مما يطلبه العبد كما أتى العبد بما يطلبه الله تعالى
منه، واليه الإشارة بقوله تعالى: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ
مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي
أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ}^{٧٢٤}، وقال تعالى: {لِلَّذِينَ
أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا
أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ
جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَيْلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا
تَعْبُدُونَ}^{٧٢٥}، وعليه فكل فعل خير شأنه من حالة الحسن إلى ما هو أحسن منه، ولذلك فهل
جزاء من أثبت الحسن في عمله في الدنيا إلا أن يثبت الله الحسن فيه وفي أحواله في

٧٢١ - تفسير البحر المحيط، ج ٧، ص ١

٧٢٢ - النحل ١٢٨

٧٢٣ - الرحمن ٦٠

٧٢٤ - الزخرف ٧٠ . ٧٣ .

٧٢٥ - يونس ٢٦ . ٢٨ .

الدارين وبالعكس هل جزاء من أثبت الحسن فينا وفي صورنا وأحوالنا إلا أن نثبت الحسن فيه أيضاً، ولهذا فإن الأفعال والصفات الحسان بالمطلق هي لله تعالى الذي يتولى أمورنا في الدارين رعاية وحفظاً.

والمؤمن لا شك في أنه يثاب بالجنة فيكون له من الله الإحسان جزاء له ومن جازى عبداً على عمله لا يأمره بشكره، ولأن التكليف لو بقي في الآخرة فلو ترك العبد القيام بالتكليف لاستحق العقاب، والعقاب ترك الإحسان لأن العبد عبد الله في الدنيا ما دام وبقي يليق بكرمه تعالى وأن يحسن إليه في الآخرة ما دام وبقي، فلا عقاب على تركه بلا تكليف، وقد عبدنا الله تعالى في الدنيا لنعم قد سبقت له علينا، فهذا الذي أعطانا الله تعالى ابتداءً نعمة وإحساناً فله علينا شكره وحمده، فيقولون الحمد لله، ويذكرون الله ويثنون عليه فيكون نفس الإحسان من الله تعالى في حقهم سبباً لقيامهم بشكره، فيعرضون هم على أنفسهم عبادته تعالى فيكون لهم بأدنى عبادة شغل شاغل عن الحور والقصور والأكل والشرب فلا يأكلون ولا يشربون ولا يتتابذون ولا يلعبون فيكون حالهم كحال الملائكة في يومنا هذا لا يتناكحون ولا يلعبون، فلا يكون ذلك تكليفاً مثل هذه التكاليف الشاقة ، وإنما يكون ذلك لذة زائدة على كل لذة في غيرها^{٧٢٦}.

وقد جعل الولي سبحانه الإحسان من دواعي الأمن في يوم الفرع الأكبر جزاءً منه على إحسانهم في الدنيا: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^{٧٢٧}.

٣- الأمر بالإحسان: لأنه ولي محسن لعباده فقد أمرهم به وحثهم عليه فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ

^{٧٢٦} - تفسير الرازي، ج ١٥، ١٠٩،

^{٧٢٧} - البقرة ١١٢.

وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُثَبِّتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} ٧٢٨ ،
 ومعلوم أن وصية الله هي أمر واجب التحقيق وليس لمؤمن إذا أمر الله أن يعصي أمره
 سبحانه: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ
 أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا} ٧٢٩ .

والإحسان عند الولي سبحانه من أسس العمل الصالح الذي ينجي وخلاف الإحسان عنده
 الفساد فمن أحسن فهو مصلح ومن يعمل غير الإحسان فقد افسد، وإذا افسد عصى أمر
 ربه بأن لا يفسد في الأرض ولا يفسك الدماء فيها بغير حق، قال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ
 اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي
 الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} ٧٣٠ .

والإحسان الذي يأمر به الولي المحسن على نوعين هما:

الأول: إحسان قولي: إحسان القول فهو ما ذكره الولي في محكم كتابه في قوله تعالى:
 {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
 بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} ٧٣١ ، أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال،
 فبلتي هي أحسن حتى تحببهم فيما أمر الله تعالى، والإحسان دائما وجهه حسن، مع الرفق
 واللين وحسن خطاب فلا إكراه في الدين بعد أن تبين الرشد من الغي، كذلك قوله تعالى:
 {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا
 مُّبِينًا} ٧٣٢ ، فأمر الله تعالى نبيه أن يوصي المؤمنين بالرفق بالكفار واللطف بهم في القول،
 وأن لا يعاملوهم، بمثل أفعالهم وأقوالهم، اعتمادا لقوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ

٧٢٨ - الأحقاف ١٥ .

٧٢٩ - الأحزاب ٣٦ .

٧٣٠ - القصص ٧٧ .

٧٣١ - النحل ١٢٨ .

٧٣٢ - الإسراء ٥٣ .

الرُّشْدُ مِنَ الْعِيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^{٧٣٣}.

والثاني إحسان عملي: أما إحسان الفعل فهو كثير فكل ما يرضاه الله سبحانه وتعالى
ويأمر به من الأفعال فهو من الإحسان، فالأنفاق في سبيله دون من أو أذى من الإحسان:
{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}^{٧٣٤}، وإحسان العمل له عظيم الجزاء عند الولي جل وعلا:
لَوْلَا مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ أَحْسَنُوا
بِالْحُسْنَىٰ^{٧٣٥}.

إذن الإحسان العملي أن يقدم الخليفة على أداء الأفعال التي ترضي الله فيصلح ولا يفسد،
ويعمر الأرض ولا يدمر فيها شيئاً، وإذا حكم بين الناس يحكم عدلاً، وإذا كسب تصدق
وزكى، وإذا جاء الاعتداء على الدين جاهد بماله ونفسه في سبيل إحقاق الحق وإزهاق
الباطل، وهكذا يكون له في كل فعل حسنات مضاعفات وله أجر كريم من الولي الذي لا
يفارقه أبداً.

الولي في أسماء الله تعالى: المتولّي لأمر العالم وهو مالك الأشياء جميعها المتصرف
فيها كيف شاء ومتى ما شاء، وولينا سبحانه وتعالى ملك الملك كله وهو المتصرف فيه
يهبه لمن يشاء وينزعه عن من يشاء وما أكثر الأمثلة على هذه الإرادة فهل من معتبر: {قُلِ
اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَعَزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ
تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ
وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}^{٧٣٦}، مالك
الملك معناه القادر على القدرة وبيده كل خير وكل نعمة، والمعنى إن قدرة الخلق على كل

^{٧٣٣} البقرة ٢٥٦.

^{٧٣٤} - البقرة ٢٦٢

^{٧٣٥} - النجم ٣١

^{٧٣٦} - آل عمران ٢٧

ما يقدرون عليه ليست إلا بأقدار الله تعالى فهو الذي يقدر كل قادر على مقدوره، ويملك كل مالك مملوكه، قال صاحب «الكشاف» {مالك الملك} أي يملك جنس الملك فيتصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون، والملك جاء مطلق فهو ملك كل شيء، وبالتالي لا شيء خارج عن ملكه ومهما عددنا لن نبلغ إحصاء ملكه، ولهذا كل شيء عنده وكل شيء منه سبحانه إنه الملك المتعال. ولذا فالملك ملكه مادة وروح ونفس وحكمة ورسالة وكتاب سبحانه مالك الملك. قال تعالى: {فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا} ^{٧٣٧}، والروح والنفس والنبوة من أعظم مراتب الملك فأمر الروح بيده لا يعلمه إلا هو، وأمر النفس كذلك ليس بهين، وأمر النبوة أمر عظيم، والأنبياء أمرهم نافذ في البواطن والظواهر، فأما على البواطن فلأنه يجب على كل أحد أن يقبل دينهم وشريعتهم، وأن يعتقد أنه هو الحق، وأما على الظواهر فلأنهم لو تمردوا واستكبروا لاستوجبوا القتل.

وقد يكون المراد من الملك، ما يسمى ملكاً في العرف، وهو عبارة عن مجموع أشياء أحدها: تكثير المال والجاه، أما تكثير المال فيدخل فيه ملك الصامت والناطق والدور والضياع، والحرث، والنسل، وأما تكثير الجاه فهو أن يكون مهيباً عند الناس، مقبول القول، مطاعاً في الخلق والثاني: أن يكون بحيث يجب على غيره أن يكون في طاعته، وتحت أمره ونهيه والثالث: أن يكون بحيث لو نازعه في ملكه أحد، قدر على قهر ذلك المنازع، وعلى غلبته، ومعلوم أن كل ذلك لا يحصل إلا من الله تعالى، أما تكثير المال فقد نرى جمعاً في غاية الكياسة لا يحصل لهم مع الكد الشديد، والعناء العظيم قليل من المال، ونرى الأبله الغافل قد يحصل له من الأموال ما لا يعلم كميته، وأما الجاه فالأمر أظهر، فإننا كثيراً من الملوك بذلوا الأموال العظيمة لأجل الجاه، وكانوا كل يوم أكثر حقارة ومهانة في أعين الرعية، وقد يكون على العكس من ذلك وهو أن يكون الإنسان معظماً في العقائد مهيباً في القلوب، ينقاد له الصغير والكبير، ويتواضع له القاصي والداني، وأما القسم الثاني وهو كونه واجب الطاعة، فمعلوم أن هذا تشريف يشرف الله تعالى به بعض عباده، وأما القسم

الثالث، وهو حصول النصرة والظفر فمعلوم أن ذلك مما لا يحصل إلا من الله تعالى ، فكم شاهدنا من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، وعند هذا يظهر بالبرهان العقلي صحة ما ذكره الله تعالى من قوله {تَوْتِيَ الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ} ٧٣٨ .

فمصدر ملك الولي سبحانه من قدرته، وهو خالص له وليس لأحد قدرة على الاشتراك في شيء من ملك الولي فلو سأل سائل فما بال ملوك الدنيا وأغنيائها ممن يملكون من حرث الدنيا ما لا يملكه غيرهم ولا ينازعهم فيه أحد؟ بطبيعة الحال أن هذا الملك مؤقت وملك الله دائم، قال تعالى: {فَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} ٧٣٩ .

ولكن الملك المؤقت كيف هو مؤقت؟.

إنه مؤقت بأمور ثلاثة:

الأمر الأول: أنه يزول بسلب الولي هذا الملك: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاءُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأَحْيِطْ بِثَمَرِهِ فَأُصْبِحَ يُقَلَّبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أُنْفِقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ

٧٣٨ - تفسير الرازي، ج ٤ ، ص ١٦٢

٧٣٩ الشورى ٣٦ . ٣٩ .

عُرُوشَهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةً يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا} ٧٤٠.

والأمر الثاني: حين تحضر الوفاة ويذهب بهذا الملك إلى حفرة فهل يحمل معه من ملكه شيء؟ يومها لا ينفعه ملك ولا يدفع عنه بشر يومها الكل يعرف أن الله وحده هو النافع فمن ثقلت موازينه في عيشة راضية ومن خفت فأمه هاوية، ولهذا جاء قوله تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمْ آيِنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ فَكَبَّكُوا فِيهَا هُمُ وَالْعَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّبُكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} ٧٤١.

والأمر الثالث: يوم تقوم الساعة فهل يبقى من ملك غير الولي سبحانه مناديا: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} ٧٤٢.

وملك الولي خالص له لا يشترك معه أحد في ملكه: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا} ٧٤٣.

وملك الولي من صنعه فهو الخالق فكيف يكون الملك لغير صاحبه يا أولي الأبواب؟ قال تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} ٧٤٤.

٧٤٠ - الكهف ٣٢ - ٤٤

٧٤١ - الشعراء ٨٨ . ١٠٧ .

٧٤٢ - غافر ١٦

٧٤٣ - الفرقان ١ - ٢

٧٤٤ - الإنعام ٧٣

والولي عارف بإسرار ملكه ودقائقه وهو تحت قدرته محكم أمره وليس لأحد غيره أن يدانيه في ذلك ولو بقليل: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ} ^{٧٤٥}، أي ذلك الذي فعل هذه الأشياء من فطر السموات والأرض وإرسال الأرواح وإرسال الرياح وخلق الإنسان من تراب وغير ذلك له الملك كله فلا معبود إلا هو لذاته الكامل ولكونه ملكاً والملك مخدوم بقدر ملكه، فإذا كان له الملك كله فله العبادة كلها، ثم بين ما ينافي صفة الإلهية، وهو قوله: {والَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ}، وههنا أن الله تعالى ذكر لنفسه نوعين من الأوصاف هما:

الأول: أن الخلق بالقدر والإرادة.

والثاني: الملك واستدل بهما على أنه إله معبود كما قال تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ} ^{٧٤٦}، ذكر الرب والملك ورتب عليهما كونه إلهاً أي معبوداً، وذكر فيمن أشركوا به سلب صفة وأحدة وهو عدم الملك بقوله تعالى: {والَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ} ولم يذكر سلب الوصف الآخر لوجهين:

الأول: أن كلهم كانوا معترفين بأن لا خالق لهم إلا الله وإنما كانوا يقولون بأن الله تعالى فوض أمر الأرض والأرضيات إلى الكواكب التي الأصنام على صورتها وطوالعها فقال: لا ملك لهم ولا ملّكهم الله شيئاً ولا ملكوا شيئاً.

والثاني: أنه يلزم من عدم الملك عدم الخلق لأنه لو خلق شيئاً لملكه فإذا لم يملك قطميراً ما خلق قليلاً ولا كثيراً ^{٧٤٧}.

النافع {وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} أي: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم ^{٧٤٨}، ولأنه الولي الحميد فهو النافع لمن اهتدى والضار لمن ضل، ومن آياته الكثير الذي يظهر

^{٧٤٥} - فاطر ١٣

^{٧٤٦} - الناس ١-٣

^{٧٤٧} تفسير الرازي، ج ١، ص ٤٥٨

^{٧٤٨} - ابن كثير، ج ٧، ص ٢٠٧

فضل الولي على من تولاهم قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُكَّ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} ٧٤٩، وهذا نفع الدنيا أما نفع الآخرة فهو ما نص عليه الولي سبحانه وتعالى بقوله: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ٧٥٠، والصدق الذي قابله الولي بالنفع صدق كلي بمعنى أن المصطلح لا يقصد به الصدق ضد الكذب فحسب وإنما يقصد به كل الصدق في القول والفعل، أما صدق القول: {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ} ٧٥١، وسَيَحْلِفُونَ أي المتخلفون عن الغزو أي سيحلفون عند رجوعك من غزوة تبوك بالله قائلين {لَوِ اسْتَطَعْنَا} أو سيحلفون قائلين بالله لو استطعنا لفعلنا، وقيل: لا حاجة إلى تقدير القول لأن الحلف من جنس القول وهو أحد المذهبين المشهورين، والمعنى لو كان لنا استطاعة من جهة العدة أو من جهة الصحة أو من جهتيهما معاً حسبما عن لهم من التعلل والكذب ٧٥٢.

وأما صدق الفعل فهو العمل بما يرضي الولي ويقرب إليه: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} ٧٥٣.

٧٤٩ - البقرة ١٦٤

٧٥٠ - المائدة ١١٩، ١٢٠

٧٥١ - التوبة ٤٢، ٤٣

٧٥٢ - تفسير الالوسي، ج ٧، ص ٢٤٣

٧٥٣ - الأحزاب ٢٣، ٢٤

الولي هو الوكيل، والولي الوكيل يتولى كل أمور العبد إلا أن العبد قليل ما يتفكر في ذلك، فهو الذي يرزق مصداقا لقوله تعالى: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} ^{٧٥٤}، فالرزق أمر توكل به الولي فلا بد للعبد من الانشغال بأمر اخطر من التفكير بالرزق إلا أن بعض الناس ينشغل بغير ذلك فيأخذه واهم الأفكار إلى النظر في شؤون الناس والاعتراض على توزيع الولي للرزاق بين عباده فيسأل لماذا أنا فقير وفلان غني؟ لماذا فلان يولى فلان الأمر وأنا لا؟ غافلا عن قول الولي سبحانه: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَةَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} ^{٧٥٥}.

والولي توكل بكل الأمور بنفسه ولم يترك لأحد سواه أن يقوم مقامه في أمر صغير أو كبير قال تعالى: {نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} ^{٧٥٦}.

وأمر الموت والحياة مما توكل الولي به ولا شأن لأحد سواه فهو الذي بيده الأمر كله: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ} ^{٧٥٧}، وكذلك أمر هيئتهم وقدرتهم فهو من شؤون الولي قال تعالى: {نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا} ^{٧٥٨}، فنحن خلقناهم تدل على انعدام الغير، وشددنا أسرهم أي أحكنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق والأسر في الأصل الشد والربط وأطلق على ما يشد به ويربط كما هنا وإرادة الأعصاب والعروق لشبهها بالحبال المربوط بها ووجه الشبه ظاهر ومن هنا قد يقول العارف من كان أسره من ذاته وسجنه دنياه في حياته فليشك مدة عمره وليتأسف على وجوده بأسره والمراد شدة الخلق وكونه موثقاً حسناً {وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ} أي أهلكناهم وبدلنا أمثالهم في شدة الخلق

^{٧٥٤} - طه ١٣٢

^{٧٥٥} - الزخرف ٣٢

^{٧٥٦} - فصلت ٣١

^{٧٥٧} - ق ٤٣

^{٧٥٨} - الإنسان ٢٨

{تَبْدِيلًا} بديعاً لا ريب فيه يعني البعث والنشأة الأخرى فالتبديل في الصفات لأن المعاد هو المبتدأ ولكون الأمر محققاً كائناً جيء بإذا وذكر المشيئة لإبهام وقته ومثله شائع كما يقول العظيم لمن يسأله الأنعام إذا شئت أحسن إليه ويجوز أن يكون المعنى وإذا شئنا أهلكتناهم وبدلنا غيرهم ممن يطيع فالتبديل في الذوات وإذا لتحقق قدرته تعالى عليه وتحقق ما يقتضيه من كفرهم المقتضي لاستئصالهم فجعل ذلك المقدر المهدد به كالمحقق وعبر عنه بما يعبر به عنه^{٧٥٩}.

الولي هو الوارث لملكه من سماوات وأرضين ومن فيهنّ وما بينهنّ يقول الولي تعالى: {والذين آمنوا ولم يُهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء} ^{٧٦٠} والولي الوارث هو المالك المتصرف في خلقه فهو عائد إليه فلا ملك إلا ملكه وعليه يرث الولي كل شيء، فهو يرث الأرض ومن عليها من كل أصناف المخلوقات وما فيها من موارد قال تعالى: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ} ^{٧٦١}.

والولي يرث الأشياء كلها وذلك يكون بإعادتها إلى أصلها قبل الخلق: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ} ^{٧٦٢}، أي إلحاقها بما خلقه الله تعالى في البدء فكانه رجع إلى أصله ودخل في عداد خالص ملك الله تعالى على ما كان أولاً وهذا معنى الإرث^{٧٦٣}.

والولي هو الله المعنق الذي بيده أمر الخلائق، فهو المعنق من النار في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فقد ترك لنا عبرة في قصة سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام يقول

٧٥٩ - تفسير الالوسي، ج ٢٢، ص ٣١

٧٦٠ - الأنفال ٧٢

٧٦١ - مريم ٣٩ . ٤٠ .

٧٦٢ - القصص ٥٨

^{٧٦٣} تفسير الالوسي، ج ١٥، ص ١٦٣

الولي سبحانه: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} ^{٧٦٤} ، والقصة شديدة الأثر على
المعتبر لعنق الولي لعباده الصالحين، اللهم اجعلنا من عتقائك يا ولينا، فقد جمعوا له
الحطب الكثير حتى أن المرأة لو مرضت قالت: إن عافاني الله لأجعلن حطباً لإبراهيم ،
ونقلوا له الحطب على الدواب أربعين يوماً، فلما اشتعلت النار اشتدت وصار الهواء بحيث
لو مر الطير في أقصى الهواء لاحترق، ثم أخذوا إبراهيم عليه السلام ورفعوه على رأس
البنيان وقيدوه، ثم اتخذوا منجنيقاً ووضعوه فيه مقيداً مغلولاً، فصاحت السماء والأرض ومن
فيها من الملائكة إلا الثقلين صيحة وأحدة، أي ربنا ليس في أرضك أحد يعبدك غير
إبراهيم، وإنه يحرق فيك فأذن لنا في نصرته، فقال سبحانه: إن استغاث بأحد منكم فأغيثوه،
وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه، فخلوا بيني وبينه، فلما أرادوا إلقاءه في النار ، أتاه
خازن الرياح فقال: إن شئت طيرت النار في الهواء، فقال إبراهيم عليه السلام: لا حاجة بي
إليكم، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: «اللهم أنت الواحد في السماء، وأنا الواحد في
الأرض، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري، أنت حسبنا ونعم الوكيل» وقيل إنه حين ألقى
في النار قال: «لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين، لك الحمد ولك الملك، لا شريك لك»
ثم وضعوه في المنجنيق ورموا به النار، فأناه جبريل عليه السلام وقال: يا إبراهيم هل لك
حاجة، قال: أما إليك فلا؟ قال: فاسأل رب، قال: حسبي من سؤالي، علمه بحالي. فقال الله
تعالى: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} قال ابن عباس رضي الله عنهما في
رواية مجاهد: ولو لم يتبع برداً سلاماً لمات إبراهيم من بردها، قال: ولم يبق يومئذ في الدنيا
نار إلا طفئت ^{٧٦٥}.

٧٦٤ - الأنبياء ٦٩

٧٦٥ - تفسير الألوسي، ج ١٢ ، ص ٤٢٦

أما عتق الآخرة فليس لأحد غير الولي أن يعتق أحدا وإن كان حبيب قال تعالى: {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} ^{٧٦٦}.

لكن الولي كتب على نفسه عتق عباده المتقين من نار نعوذ بنور وجهه من نفحات لهيبها فكيف بها؟ لا الله إلا الله: {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا فَوَرَّبُّكَ لَنَحْشُرُهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا} ^{٧٦٧}.

وعليه، الولي في أسماء الله تعالى هو الناصر، وقيل: المتولي لأمر العالم والخلائق والقائم بها.

- والولي النصير. وفي القرآن العزيز: {والله ولي المؤمنين} ^{٧٦٨}

- والولي السيد، المحب، والصديق، وفي الكتاب المجيد: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منه إن الله لا يهدي القوم الظالمين} ^{٧٦٩}

- والولي المطيع. يقال: المؤمن ولي الله.

- في عرف أهل أصول الدين: "هو العارف بالله تعالى، بأسمائه، وصفاته، على حسب ما يمكنه، المواظب على الطاعات، المجتنب للمعاصي، المعرض عن الأنهماك في اللذات والشهوات" ^{٧٧٠}.

^{٧٦٦} ٧٦٦ - عيس ٣٣-٣٧

^{٧٦٧} مريم ٦٣-٧٢

^{٧٦٨} آل عمران، ٦٨.

^{٧٦٩} المائدة، ٥١.

^{٧٧٠} القاموس الفقهي، ج ١، ص ٣٩٠.

فالولي اسم من أسماء الله تعالى بمعنى الناصر أو النصير، وهو المتولي لجميع أمور الخلائق.

والناصر بالإطلاق هو الله سبحانه وتعالى الذي ينصر من يواليه ومن ينصره، ولا يوجد من يوالي الله مثل سيد الخلق صلى الله عليه وسلم الذي أوقف حياته لنصرة الحق ولنصرة الدين الحنيف، لذا فالله ينصر من ينصره، وإن ظن البعض أن الله لن ينصر النبي صلى الله عليه وسلم فهذا الظن وهم محض، يقول الله تعالى: {مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ} ^{٧٧١}.
فالله ينصر من ينصره في الدنيا وهذا من المتوقع المشاهد مشاهدة عينية نصرًا ملموسًا ماديا، أما النصر في الآخرة فكيف يكون وما هيأته؟ بالأكد سيكون نصرًا مؤزرا وهذا في تصورنا سيكون بالمقام المحمود الذي لا ينبغي إلا لعبد من عباد الله.

فالولي هو الناصر في الشدائد، والناصر في إحقاق الحق، وعندما تبلغ القلوب الحناجر عندما تتوقف أسباب الأرض، تنتزل أسباب الولي الناصر الذي لا تمنعه أسباب، ولا توصل أما نصره أبواب وهذه كلمته لمن يواليه يطمئنهم ويثبت قلوبهم: {فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ} ^{٧٧٢} وهذا الارتباط التلازمي بين المولى اسم الفاعل من الولي المزيد بالهمزة والنصير صيغة المبالغة التي تدل مع المشتق السابق (المولى) على التمكن واكتمال الفعل ، وهذا نجده في عموم القرآن ليدل دلالة لا لبس فيها على أن نصر الولي لا انفكاك فيه لأولياء الولي الذين اتبعوه ونصروه، وهذا الوعد الذي يأتي من قدير كبير جليل في هو ما جعل المؤمنين الذين طردوا وشردوا ونهبت أموالهم يلوذون بجناب الولي، حتى أن الناس قد جمعوا ليكيدهم ويهزمهم فما زادهم ذلك إلا ثباتا وإيمانا يقول الله تعالى: {الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ

^{٧٧١} الحج، ١٥

^{٧٧٢} الأنفال، ٤٠

الْوَكِيلُ} ^{٧٧٣} وهذا الموقف الثابت لا يفسره إلا الإيمان بقوله تعالى الذي يخاطب به المؤمنين به: {وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} ^{٧٧٤} فالنفي والاستثناء بما وإلا يؤكدان في صرامة أن الله هو الولي الذي ينصر المؤمنين به المنفذين لمنهجه المتبعين لنبيه صلى الله عليه وسلم.

فالمنهج الواضح البين الذي لا شك ولا ظن فيه ولا لبس في معانيه هو الذي ارتضاه الله منها لتحقيق الخلافة المتلى على الأرض بعد الزيف الذي لحق بما أرسل به الأنبياء إلى الأمم السابقة، لذا يؤكد الله على هذه الجزئية ويخاطب الأمة جميعها من خلال خطابه للمثل الأعلى والقُدوة الحسنة للأمة - للنبي صلى الله عليه وسلم - فيقول موجها ومؤكدا على عدم الانحراف ولو قليلا نحو المناهج السابقة لأنه لا فائدة فيها ولن يتحقق من ورائها صلح بين المناهج، ولن يرضى أصحاب تلك المناهج حتى بإتباع منهجهم لأنها لا تعترف إلا بنفسها: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} ^{٧٧٥}.

و الله الولي ينصر من اتبع المنهج الصحيح الذي أنزله الله على الأنبياء السابقين الذين اجتمع أمرهم في سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أبو الأنبياء من بعده ، لذا ستكون الحجة الواهية لمن خالف وأفسد أنهم يتبعون ملة إبراهيم ، لكن الله الولي يبطل حجبتهم ويقول: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} ^{٧٧٦} فالذين يتبعون النبي الخاتم هم أولى الناس بإبراهيم لأنهم يقيمون التوحيد الخالص وهو أول وأهم ركن لوجود الإنسان على الأرض ، وهذا الركن لن يتحقق بصفاء ونقاء إلا بإتباع

^{٧٧٣} آل عمران ١٧٣.

^{٧٧٤} البقرة، ١٠٧.

^{٧٧٥} البقرة ١٢٠.

^{٧٧٦} آل عمران ٦٨.

المنهج الصحيح الذي يتأتى بالإيمان المطلق بالله ربا وأحداً واحداً ناصراً ولياً للمؤمنين الذين آمنوا بالنبى الخاتم.

ولأن الله ولي من والاه ونصير من نصره فهو يبعد الظالمين عن مدار رحمته لأنهم ظلموا أنفسهم فليس لهم بسبب ظلمهم من ولي ولا نصير، لذا يبطل السؤال لماذا لم يجعل الله الناس أمة واحدة؟

فيقول الله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} ^{٧٧٧} فهم قد تركوا ملة إبراهيم وحادوا النبى الخاتم صلى الله عليه وسلم بل آذوه بمحاربتهم له وتكذيبهم له وغير ذلك مما نراه حتى الآن من رسوم بذيئة وإصرار على باطل هاو لا مناص من ذلك، فهم قد حرّموا أنفسهم من ولاية الولي النصير (وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) والولي هو المدبر الحكيم للعالم وما فيه. فليتبع الإنسان ببصره في ملك الله، سواءً كان هذا الملك في داخل الإنسان أو خارجه ليتبين أن الله الذي تولى أمر الكون قد جعل كل ما فيه بحكمة قال الله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} ^{٧٧٨} يا لها من قدرة تدعو إلى السجود الروحي والقلبي والجسدي لمن يتأمل ويستشعر برهبة وعظمة وجلال حكمة الله وتدبيره لأمر العالم وما فيه ، فلن تجد العيون نقصاً تلحقه بتدبير الولي القدير الحكيم ، ومحتم عليها أن تعود حسيمة طائعة لرب العالمين إن كانت لأصحاب قلوب مؤمنة أو تعود صاغرة ذليلة إن كانت لأصحاب القلوب الكافرة.

ومن تتوهم نفسه أن العالم ليس له مدبر يتولى أمره فلن يعود ذلك عليه إلا بالكد والتعب البدني والنفسي والحسرة ، فولي العالم ومدبره قال وقوله الحق: {سُنُّرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ

^{٧٧٧} الشورى ٨.

^{٧٧٨} الملك ١٠، ٤

وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعْنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْلَمْ يُكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۖ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۖ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ۗ^{٧٧٩} سنري هؤلاء المشركين دلائلنا على صدقك، وأنه وعدُ الله لعباده جميعاً، وذلك بأن نطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون ومن خفايا أنفسهم على السواء. فقد كشف العلم عن أمور كثيرة عن الأرض وما عليها، وعن النظام الشمسي وما فيه، وأن هذه الأرض وما حولها ما هي إلا ذرة صغيرة تابعة للشمس، التي هي وما حولها ذرة صغيرة تسبح في هذا الكون الفسيح، وعرف الناس عن الجسم البشري وتركيبه وخصائصه وأسراره الشيء الكثير، وإن كل هذه المعلومات والاكتشافات ما هي إلا ذرة من علم الله. ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^{٧٨٠}. وكذلك سنري هؤلاء المشركين وقائعنا بالبلاد والفتوحات التي تمت على يدي الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه، وعلى يدي خلفائه وأصحابه الكرام (حتى يتبين لهم أنه الحق) وإن كل ما جاء به الرسول الكريم هو الحق. (أَوْلَمْ يُكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) كفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم، وعلى صدق محمد فيما أخبر به عنه، ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التي أوضحتها سبحانه في هذه السورة وفي كل القرآن، وفيها البيان الكافي لإثبات وحدانيته، وتنزيهه عن كل نقص!! ثم بين الله سبب عنادهم واستكبارهم بعد كل ما تقدم من حجج وبيّنات فقال في الختام: (أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۖ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ) إنهم في شك عظيم من البعث والجزاء ولقاء ربهم، ولذلك كفروا، والله تعالى محيطٌ بكل صغير وكبير، لا يفوته شيء في هذا الكون الكبير، وإليه مردّ الجميع^{٧٨١}.

الولي من الناس: هو من ينصر الله وينصر شرعه ويقوم الخلافة المرجوة على الأرض وهو ما يدور البحث في معنى من معانيه، وكما سبق أن أوردنا تعريفاً له من القاموس

^{٧٧٩} فصلت ٥٣، ٥٤

^{٧٨٠} الإسراء ٨٥.

^{٧٨١} تفسير القطان - ج ٣، ص ٢٠٣.

الفقهي "هو العارف بالله تعالى، بأسمائه، وصفاته، على حسب ما يمكنه، المواظب على الطاعات، المجتنب للمعاصي، المعرض عن الأنهماك في اللذات والشهوات"^{٧٨٢}.

والله الولي المطلق ينصر وليه الذي من صفاته موافقة ما أمر به الله، واجتناب ما نهى عنه الله فيقول الله في الحديث القدسي الذي يرويه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ: "مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيْتَهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"^{٧٨٣}

اللهم يا الولي أنت تتولى الأنبياء والأولياء والخلفاء والصالحين، فكن بنا يا ربنا بارا وليا وحفيا، اللهم إنا لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أو أقل وتولنا في الأمور كلها، ويا الولي أصلح لنا شئوننا في الأمور كلها، وتولنا من وساوس النفس ومن أرق الضمير ومن غلبة فساد القلوب، ورقننا إلى منازل من اتخذوك وليا وتوليت أمورهم في الظاهر والباطن، أنت يا الله يا ولي قلت: {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور}^{٧٨٤} فأخرجنا يا الله من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان والعلم، وتولنا بعنايتك وبواسع رحمتك.

اللهم إنك ولينا في الدارين فاجعلنا من المستخلفين الصالحين المصلحين ولا تجعلنا من المفسدين الضالين وتولنا وأولادنا وزوجاتنا ووالدين ومن لهم الحق علينا تولنا يا الله بالرعاية والعناية واجعلنا من الفائزين واستغفر الله من كل ذنب والحمد لله رب العالمين.

^{٧٨٢} صحيح البخاري، ج ٢٠، ص ١٥٨.

^{٧٨٣} المصدر السابق، ج ٢٠، ص ١٥٨.

^{٧٨٤} البقرة، ٢٥٧

الحميد

الحميد صفة من صفات الله الحسان، بها يحمد على ما خلق وما أعطى، وما حفظ، وما أغنى، ولذا فهو مصدر كل حمد سبحانه لا إله إلا هو.

الحميد: "هو المحمود المثني عليه والله عز و جل هو الحميد بحمده لنفسه أزلا وبحمد عباده له أبدا ويرجع هذا إلى صفات الجلال والعلو والكمال منسوبا إلى ذكر الذاكرين له فإن الحمد هو ذكر أوصاف الكمال من حيث هو كمال"^{٧٨٥}.

الحميد: "هو المحمود بكل لسان وعلى كل حال كما يقال في الدعاء الحمد لله الذي لا يحمد على الأحوال كلها سواه"^{٧٨٦}.

واسم الله الحميد "يدل على ذات الله وعلى صفة الحمد بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن وعلى صفة الحمد بدلالة التضمن"^{٧٨٧}

والخليفة هو الحميد بعقائده وأخلاقه وأعماله وأقواله، وهو المدرك أن مصدر حمده هو الله الحميد المطلق فيتوجه إليه بالحمد على ما وهب له من نعم.

الحميد لا يحمده إلا شاكر مؤمن بأنه صاحب الفضل بما خلق على من خلق، والحميد هو الذي يبارك القول الحق والفعل الحق، ويبارك الأعمال المسببة في الإصلاح والعمار في الأرض والحائلة بين بلوغ الظالم للمظلوم، والعاتقة للرقاب والفاكة لدين المدينين، والنفقة مما رُزقت به على الفقراء والمساكين، والمطفئة لنيران الفتن في كل مكان وحين. والمسبحة باسمه حمدا لله رب العالمين.

^{٧٨٥} المقصد الأسنى، ج ١، ص ١٣٠.

^{٧٨٦} تفسير أسماء الله الحسنى، ج ١، ص ٥٥.

^{٧٨٧} أسماء الله الحسنى، ج ٢١، ص ١٥.

فالحميد معطيٌ بغير منة، ولذا فهو يحمد على عطائه الكريم فالحمد، له لقد أعطانا ما أعطى من خيرات لا تعد ولا تحصى، لقد أعطانا الأرض التي خلقنا منها خلقاً، وهي ثروة وكنز لا يزول ولا يفنى حتى يدخل المستخلفون فيها إلى الجنة، أي ينقلهم إلى ما هو أفضل وأجود وأحسن وأرقى وأنفع وأفيد، سبحانه يُحمد على هذا الفضل وكل فضل لا إله إلا هو.

ولقد أعطانا السماء نتجول في آفاقها، وسمح لعقولنا بغزوها بالقوة، حتى نبلغ قصدنا من العلم والمعرفة التي تمكنا من أن نزداد ثقة بخلقنا وإيماناً بخالقنا، الذي كلما تمكنا بعزته أن نتعلم جديداً نكتشف أننا لم نؤت من العلم إلا قليلاً مصداقاً لقوله: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرِيكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَنَنْدُهِبَنَّ بِالَّذِي أُوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾^{٧٨٨}.

الحميد هو الذي أعطى كل شيء، ولم يترك ما خلق في حاجة فلقد خلق ما خلق، وخلق له رزقا وافرا، ثم هدى المخلوق إلى الرزق لتكون له الحياة بصفته التي عليها خلق إنساً أو جاناً أو ملائكة كراماً، أو طيراً أو أي كائن مخلوق وأينما خلق، فله الحمد على ما خلق وما أعطى وما هدى. قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^{٧٨٩}.

وعليه لقد خلق الشيء وخلق من الشيء أشياء لا تعد ولا تحصى إلا منه عز وجل، فقد أحصى كل شيء وعده عدا، لقد خلق الحياة والأرض، والسموات العلى، والجن والإنس، والملائكة الكرام، ولقد خلق الزمان والحركة، وخلق الإنسان في أحسن تقويم، ولقد خلق الموت، وخلق البعث، وخلق الثواب والعقاب، وخلق كل شيء سبحانه إنه ربي جل جلاله له الحمد.

^{٧٨٨}الإسراء ٨٣ . ٨٧.

^{٧٨٩}طه، ٤٩، ٥٠.

ونقول في بعض ما خلق لنحمده:

أولاً: حمده على خلق الحياة: إنها الامتداد بالحركة والسكون، وهي الولادة التي لم تتجها أم ولا أب، إنها من الحميد الأعظم الله جل جلاله، والحياة مكون عام، بها ظهر الوجود إلى حيز التفاعل والتكاثر عبر الزمان والمكان، فبعثت في الأنفس والأرواح والأجساد، وبعثت في الدار الدنيا والدار الآخرة، وبعثت في الجنة والنار، فله الحمد على بعثه للحياة التي بها أدركناه واحداً واحداً لا شريك له. قال تعالى: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا} ٧٩٠، وقال تعالى: {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} ٧٩١. إذا هذه الحياة الدنيا جنباً إلى جنب مع الحياة الآخرة، ولكل حياة خصوصيتها التي تميزها عن الأخرى، والخليفة هو الذي لا يقبل بالحياة الدنيا على حساب الآخرة وذلك لإيمانه بقوله تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} ٧٩٢.

ثانياً: حمده على خلق الأرض: بأمره عز وجل (كن) كانت الأرض، وبأمره (كن) كان أبونا آدم عليه الصلاة والسلام من الأرض، وبأمره (كن) جعل الإنسان في الأرض خليفة، وبأمره (كن) جعل في الأرض الزوجين (الذكر والأنثى)، وبأمره (كن) كانت الثمار التي تشبع الحاجات لمن خلُق سابقة على خلق آدم من التراب، وبأمره (كن) خلق الإنسان في أحسن

٧٩٠ النساء ١٠٩.

٧٩١ يونس ٦٤ . ٦٧.

٧٩٢ القصص ٧٧.

تقويم، فله الحمد على كل هذه النعم وغيرها من النعم التي انعم بها على مخلوقاته، وخص الإنسان بحمل الأمانة، فكانت منه الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

ولأن الأرض هي الكنز الذي تملأه الخيرات وتعمه ظاهراً وباطناً، وهي الطينة التي منها خلقنا، وهي التي فيها نقبر بعد الممات، وهي التي منها نبعث على الطاعة والشهادة، فهي في حاجة لمن يصلحها، ولأنها كذلك ألا تكون دائماً في حاجة لمصلحين يصلحونها بالعمار والإنتاج والعمل الصالح، وإصلاح ما أفسده السفهاء فيها من تخريب أو دمار، قال تعالى: لَوْ مَنَّ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ أَمَّنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ^{٧٩٣}. إنها الأم التي يستوجب الإخلاص فيها لتبقى إلى يوم يبعثون على الحق ولأجله، وهذه عبء حمله الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً، ولذا فالخليفة الذي استمد صفاته من صفات خالقه الحميد المطلق ليس له بد إلا أن يعمل صالحاً في مرضاته جل جلاله. قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَكِيهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ^{٧٩٤}.

فبحمده خلق الأرض كنزاً متكاملًا، يابسة وماء، بحارا ومحيطات وبحيرات، وأنهاراً تجري، والأسماك فيها نعمة على عباده الذين خلق في أحسن تقويم، وكانت النباتات على ظهرها رحمة فله الحمد على ما خلق وأعطى، وكانت الحيوانات المتنوعة مع الطيور الداجنة

^{٧٩٣}البقرة، ١٦.٨.

^{٧٩٤}الرحمن ١٦.١٠.

والطائرة تتنوع وتتعدد رحمة وزينة وجمالا ووسيلة يبلغ بها المقاصد، كل شيء على ظهر الأرض بميزان لتعتدل الحياة عليها دون مظالم ولا مغالبة، ومع ذلك لقد فضل الله الإنسان الذي خلقه في أحسن تقويم، وفضل بعضاً من عباده على بعض بالأعمال التي بها تبلغ الغايات العظام على الطاعة التامة، قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا كَلَّا نُمِدُّ هُوَلاءِ وَهَؤَلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} ^{٧٩٥}، ولهذا خُلِقَ كل شيء على ميزان العدل لأجل البقاء دون إكراه قال تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} ^{٧٩٦}، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} ^{٧٩٧}.

ثالثا: حمده على خلق السماء: قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ^{٧٩٨}، بطبيعة الخلق كانت الأرض وكان ما عليها وما فيها من خيرات كثار، ثم كانت السماوات السبع فوق بعضها طباقا، منها ما نعلمه نحن بني آدم، ومنها ما لم نعلمه بعد، وبما أننا لم نؤت من العلم إلا قليلا، والعلم منه وحده جل جلاله، فإننا سنعلم من علمه المزيد على قدر عقولنا، التي هي

^{٧٩٥}الإسراء ١٨ . ٢١ .

^{٧٩٦}الرحمن ١ . ١٦ .

^{٧٩٧}المائدة ٨ ، ٩ .

^{٧٩٨}البقرة ٢٩ .

دائماً لا تتسع لأن تحمل علمه المطلق فهي العقول التي خلقت في أحسن تقويم، ولم تخلق على الكمال، فالكمال لله وحده والحمد لله رب العالمين. قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَنَنْزِلُنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾^{٧٩٩}.

السماء برحمته كانت لنا الآفاق الواسعة التي تحوطنا من كل جانب ولا نحوطها وفيها جعل الشمس والقمر والنجوم، والضوء نهاراً والظلام ليلاً، وكل نعمة من نعم الله التي دائماً نحمده عليها، فله الحمد على واسع فضله ونعمه لنا في الأرض والسموات العلى، وفي هذا الأمر انقسم بنو آدم بين مؤمن مستخلف فيها وبين كافر ومشرِك وضال، إنهم المكذبون والجاحدون لنعم الله عليهم، فهم المستكبرون الذين لا يحمدونه أبداً، فهؤلاء جعل لهم العذاب الشديد في مقابل إدخال خلفائه الجنة، فله كل الحمد. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^{٨٠٠}.

السماء هي بيت البركة التي تنتزل على المستخلفين فيها رحمة من الرحمن الرحيم، قال تعالى: ﴿لَوْ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ أُولَئِكَ يَهْدِي لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ

^{٧٩٩}الإسراء ٨٥ . ٨٧.

^{٨٠٠}الأعراف، ٤٠ . ٤٣.

عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} ^{٨٠١}، ولأنها بيت البركة قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ} ^{٨٠٢}، ولأنها بيت البركة الذي منه تنزل على عباده الصالحين، فهي تنزل العذاب بأمره تعالى على الكفرة والمشركين الظانين بالله ظن السوء. قال تعالى: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا} ^{٨٠٣}. فله الحمد والشكر على فضله ورحمته الواسعة، التي أنعم بها على عباده الصالحين.

في السماء خلق النجوم والكواكب والشمس والقمر، والمجرات والمطر الذي ينهمر نعمة ورحمة على الخلق والحياة، بها تزينت السماء والأرض، ومنه له الحمد تستمد الطاقة لتستمر الحياة حسب ما كتب لها الخالق جل جلاله، وفي كل ذلك قال تعالى:

في النجوم: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} ^{٨٠٤}. جعل النجوم مرشدة تهدي المتقلبين دون أن يضلوا طريقهم إلى ما يهدفون بلوغه، ولذا فالخليفة هو من يستمد علمه من العليم الحكيم، ومما خلق له في الأرض والسماء، ليتمكن من معرفة شيء من علمه وحيث ما تمكن من معرفة وعلم من علمه ازداد علما وإيمانا وحمدا وشكرا له جل جلاله.

في الكواكب: قال تعالى: {إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الأَعْلَى وَيُقَدَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ

^{٨٠١}الأعراف ٩٦ . ١٠٠ .

^{٨٠٢}القدر ١ . ٦ .

^{٨٠٣}المعراج ١ . ٧ .

^{٨٠٤}الأنعام ٩٥ . ٩٧ .

الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا دِيَارِهِمْ خَلْقَنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ
بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ^{٨٠٥}.

في الشمس: قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا
الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا^{٨٠٦}، وقال تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ^{٨٠٧}.

في القمر: قال تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ
نُورًا^{٨٠٨}، قال تعالى: {وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ^{٨٠٩}، وقال تعالى: {كَلَّا
وَالْقَمَرَ^{٨١٠}.

في الفلك: قال: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ^{٨١١}،
وقال تعالى: {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ^{٨١٢}.

في الرياح: قال تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ
اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا
ثِقَالًا سَقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لِعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ^{٨١٣}، وقال تعالى: {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا
بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ

^{٨٠٥}الصافات، ٦، ١٢.

^{٨٠٦}الفرقان ٤٥.

^{٨٠٧}يسن ٣٨.

^{٨٠٨}نوح، ١٥، ١٦.

^{٨٠٩}يسن، ٣٩.

^{٨١٠}المدثر، ٣٢.

^{٨١١}الأنبياء ٣٣.

^{٨١٢}يسن ٤٠.

^{٨١٣}الأعراف ٥٦، ٥٧.

الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ
وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ
وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ^{٨١٤}.

في المطر: قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ
الْحَمِيدُ^{٨١٥}، وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ
مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ^{٨١٦}.

رابعاً: **حمده على خلق الجن:** الرحمن خلق الثقليين من الجن والإنس، وميزهما بمعطيات إدراكية فيها الصدارة للإنس الذي خلقه الرحمن في أحسن تقويم، ولهذا التميز خلقوا بما يمكنهم من الإيمان بخالقهم ويحمدونه على خلقه بعد الطاعة التامة له واحد أهدى، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ^{٨١٧}، فالحمد له الذي خلق الجن ثقل للتوازن مع ثقل الأنس على أرضه التي أوجب الإصلاح فيها ونهى عن الفساد وسفك الدماء بغير حق، إنهما الثقلان اللذان منهما المؤمنون به واحد أحد لا شريك له وهم يعترفون بأنه لم يكن له صاحبة ولا ولد، قال تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا وَأَنَا ظَنَّنا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَتِحَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا وَأَنَا كُنَّا نَقُودُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي

^{٨١٤}فاطر ٩ . ١١ .

^{٨١٥}الشورى، ٢٨ .

^{٨١٦}السجدة ٢٧ .

^{٨١٧}الذاريات ٥٦ . ٦٠ .

الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا وَآتَا ظَنَّنَا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى أَمْنَا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا^{١١٨}، وفي خلقه للجن إظهار للقوة التي تلاحظ ولا تشاهد، إنهم أقوام يرونا ولا نراهم، ومع ذلك شعرت الاتصال بهم في الاعتدال الثقلي متاحة وممكنة في دائرة المتوقع وغير المتوقع، كما هو الحال مع سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}^{١١٩}، العفريت من الجن الذي قال أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، إنه مالك من القوي قوة، بها يمكنه استدعاء عرش بلقيس، وإحضاره قبل أن ينفض مجلس سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام، ولكن بحضور من هو أقوى منه وهو من المستخلفين فيها من بني آدم عليه الصلاة والسلام وهو مؤمن بما في الكتاب من قوة مطلقة وهو على علم بها في آيات الكتاب (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ). فالحمد للحميد المطلق على ما أعطى ووهب وخلق وأظهر من القوة التي أمدد بها المؤمنين بالكتاب الذي فيه الإعجاز والآيات الكريمة، التي بها تم استحضار عرش ملكة سبأ في زمن رمش العينين.

الجن أقوام منهم المؤمنون ومنهم ما دون ذلك وهم الذين فسقوا من الأبالسة مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذِي الْمُضِلِّينَ عَضُدًا وَيَوْمَ يَقُولُ شُرَكَائِي

^{١١٨}الجن ١٣. ١.

^{١١٩}النمل ٣٩، ٤٠.

الَّذِينَ رَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا^{٨٢٠}.

إن الجن جنود الله تعالى بإيمانهم لا يقدمون على إفساد، إلا من ضل عن هداه كما هو حال إبليس عليه اللعنة إلى يوم يبعثون، ولهذا كان إبليس في الأرض فتنة مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ^{٨٢١}.

خامسا: حمده على خلق الملائكة المكرمين: الذين آمنوا باستخلاف آدم طاعة لله رب العالمين، والملائكة أمم طائعة لله تعالى، يفعلون ما يؤمرون، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ^{٨٢٢}.

وهناك علاقة قوية بين الملائكة والمستخلفين في الأرض، ولذا فللملائكة مناصرة للحق بالحق، ومبشرة بالحق لعباده الصالحين، والملائكة حلقة وصل مؤمنة تحمل الكلم دون أن تحيده عن مواضعه كما هو حال المنافقين والمشركين والضالين، وهم مقاتلون مع المستخلفين في سبيل إحقاق الحق في الأرض قال تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي

^{٨٢٠} الكهف ٥٠ . ٥٣ .

^{٨٢١} ص، ٧٥ . ٨٣ .

^{٨٢٢} البقرة ٣٠ . ٣٤ .

مَعَكُمْ فَنَبِّئُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} ٨٢٣ .

وهم حاملو العرش المقربون لله تعالى المسبحون بحمده، قال تعالى: {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ٨٢٤، الحمد لله رب العالمين على خلقك وعلمك وقدرتك وقوتك التي خلقتنا بها في أحسن تقويم حتى آمنة بك ربا واحدا لا شريك لك، لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفوا أحد، سبحانك أنت ربي أحمدك.

والملائكة الكرام يفعلون ما يؤمرون به، طاعة كاملة لله تعالى، وبذا فهم بطاعتهم يتعبدون، ويحملون عرش ربهم، فمن الملائكة المبشرين بأمر الله للمستخلفين فيها، وهم الظاهرون لعباده الصالحين كما هو الحال مع زكريا ومريم عليهما الصلاة والسلام، قال تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} ٨٢٥ .

٨٢٣ الأنفال ١٢، ١٣ .

٨٢٤ الزمر ٧٥ .

٨٢٥ آل عمران ، ٣٨ . ٤٥ .

وعليه فهناك علاقة قوية تربط الجن والإنس والملائكة وهذه العلاقة مؤسسة على طاعة الله وأمره، فمن ينادي ربه وهو مؤمن ومخلص لله تعالى، سيستجاب لطلبه سرا أو علانية، سرا بان تكون الإجابة مفعولة مباشرة، أو تكون عن طريق الملائكة المكرمين الذين قد يظهرون في صور الإنسان ذو الوقار والهيبة وهم حاملو الإجابة على الطلب الصادق، فالحمد لله رب العالمين إنك سميع قريب مجيب الدعاء.

سادسا: حمده على خلقه للحركة والزمان والمكان: قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا هَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ} ^{٨٢٦}.

وعليه لا امتداد ولا حركة إلا في حدود الممكن، ولذلك يكون الممكن هو مجال الامتداد، ومجال الحركة والزمان، ولأنه ممكن فهو متوقع الحدوث وبعد حدوثه قد يكون مساوياً لما هو متوقع وقد يكون أكثر أو أقل وعليه فالممكن ضروري الحدوث، ولكن نسبة حدوثه احتمالية مما جعلنا نفترض لها ثلاث احتمالات وهي:

الاحتمال الأول: يكون الممكن مساوياً للمتوقع.

الاحتمال الثاني: يكون الممكن أقل من المتوقع.

الاحتمال الثالث: يكون الممكن أكثر من المتوقع.

وعليه لا يكون الامتداد إلا من مجال الممكن، ولا ممكن إلا في دائرة الزمان، فما نشاهده أو نلاحظه ونحس به أو نتذوقه أو نشمه أو نسمعه فهو الواقع في حدود الممكن، ولذلك يحدث

^{٨٢٦}الحجر، ١٩ . ٣١.

الاختلاف في درجات تمييزنا لما يقع في مجال الممكن بالنسبة إلى مداركنا وقدراتنا وأحاسيسنا، فمما من يميز بين الأشياء أكثر من بعضنا وهذا يعني أن للبعض ممّا قدرة تمييزه أقل، والبعض الآخر يساويها.

وعندما نتحدث عن الممكن فلا ينبغي الإغفال عن غير الممكن حيث لا وجود لغير الممكن بالنسبة إلى الحميد جل جلاله: {وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون} ^{٨٢٧}. أما بالنسبة إلى البشر فهناك الممكن، وهناك غير الممكن، الممكن في نضج القدرة، وغير الممكن في قصورها، ولهذا قد يتوقع المفكر ما هو ممكن، ولكنه قد لا يستطيع تحقيقه نتيجة قصور إرادته وقدرته.

ولأن الله تعالى عالم الغيب والشهادة، فله الحمد على علمه بالغيب والشهادة، وله الحمد على خلقه لنا في أحسن تقويم، حتى عرفنا أنه الله الذي يحمد ويشكر على خلقه ونعمه التي ميز بها عباده عن بقية خلقه بأحسن تقويم، وله الحمد أن جعلنا في دائرة الممكن نجتهد ونبحث لأجل أن نعرف أفعال الحق الذي هو الآخر يقع في دائرة الزمان.

وعليه يقع الممكن في الزمان الحاضر والزمان المستقبل، ولا يقع في الزمان الماضي، وذلك لأن الممكن هو افتراض قابل للتحقق وليس افتراضاً محققاً، فالمحقق هو الكائن أو الكائنة، أما الممكن فهو الذي لم يكن بعد ولكنه سيتحقق في الآن أو في المستقبل ولهذا يكون الفرق واضحاً بين المحقق ككائن، وبين الممكن الذي سيتحقق. وعليه يمكننا الآن الحوار مع السؤال الذي طرح منذ زمن بعيد وهو: ما هو الأسبق في الوجود: الممكن أم الواقعي؟ وأجاب أرسطو على ذلك بأن الواقعي أسبق في الوجود من الممكن معطلاً ذلك بقوله: "إن الممكن يحتاج كي يوجد إلى واقعي يسبقه" ^{٨٢٨}. من هذه الناحية نعم لولا وجود مصدر للأمر ما كان للأمر وجود أول، ولكن من ناحية أخرى فالأمر السابق غير مطلق مما يجعلنا نقول: لا يمكن أن تتواجد الأشياء ما لم تكن ممكنة. فالله سابق الوجود على الممكن، وكل ما تحقق

^{٨٢٧} البقرة، ١١٧.

^{٨٢٨} عبداً لرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، بيروت، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٤٨، ص ٤٤٨.

من بعده وما سيتحقق هو الممكن بالنسبة إليه، والبشر كمحقق من هذا الممكن عندما يسعون إلى تحقيق ما هو ممكن من ناحية عقلية، يكون الممكن في هذه الحالة سابقاً على المحقق ذهنياً أو إدراكياً. وهكذا يكون حال الممكن الإلهي الذي لم يحقق بعد للمشاهدة والإدراك العقلي {وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون} ^{٨٢٩} بمعنى عندما يصدر الله أمراً وهو الممكن لابد وأن يتحقق في الوقت المحدد له، وفي هذه الحالة يكون الممكن سابقاً على المحقق. وعليه يكون الممكن قراراً معطياته مثبتة للتحقق، والتحقق فعل تنفيذ الممكن وهو الكائن أو الكائنة، والبشر لا يحققون إلا الممكن، أما الله فيحقق الممكن والمستحيل، فسبحان الله العظيم. قال تعالى: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جِبَاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ} ^{٨٣٠}.

الامتداد الفكري:

هو محتوى لفظي عام في مضمونة حركة، ولهذا لا يمكن أن يكون هناك امتداد بدون حركة سواء أكان هذا الامتداد جسمى أو فكرياً، والامتداد قد يكون طبيعياً كما هو عند حالات النمو، وقد يكون بالإرادة كما هو في حالات الاختيار، وقد يكون بالقوة عندما يكون في مقابلة انكماش بالمغالبة، ويعتبر الامتداد مساحياً سواء أكان فكرياً أو مادياً، وقد يكون ميسراً، وقد يكون بالقوة، وقد لا يكون، والله الحمد على نعمه في الحركة والسكون.

الامتداد في الفراغ ميسر مثله مثل الامتداد المجالي المسموح به لأنه لم يشكل أي عائق ولا يمتد خارج حدوده، وامتداد المغالبة بالقوة يؤدي إلى الاستزادة والفقدان بين الأطراف الممتدة،

^{٨٢٩} البقرة ١١٧.

^{٨٣٠} ق، ١٥٠٦.

والامتداد المساوي في الصلابة قد لا يكون. والامتداد خارج الحيز يكون على حساب حيز آخر، وعندما تتلامس الأفكار أو الأجسام الممتدة يحدث الاحتكاك بينها، وقد ينجم عنه استيعاب أو صدام يكون له تراض أو مغالبة. وهكذا تمتد الأرقام المستقلة إلى النهاية بيسر وهي متصلة، وتستقل بالآحاد وتتصل بالجموع. امتداد الواحد إلى ما بعده من أعداد يساوي جموعاً، ولهذا لا جموع إلا بالامتداد الحركي، امتداد الواحد خارج حدوده يشغل حيزاً من المترتب عليه والذي لا يمكن أن يكون إلا به (بالواحد)، ولذلك لا وجود لأي كميات إلا بالامتداد الآحاد. فلو رسمنا مستقيماً طوله ٥ سم، فإن ذلك يعني امتداد خمس وحدات متصلة بالجموع تكوّن هذا المستقيم كما في الشكل رقم (١).

أ..... ب

الشكل رقم (١)

وبما أن الوحدات الخمس منفصلة فكيف تكوّن مستقيماً متصلاً؟ تكوّن بالامتداد، امتداد الواحد إلى خارج قيمه (مجال حدوده)، بالإيجاب تجعله يتماس مع مجال القيم للعدد اثنين بالسلب، وهكذا تتصل بقية الأرقام الخمسة مسطرة مما يجعلها ترسم الخط المستقيم الذي أشرنا إليه. ولو لم تكن للأعداد نهايات بالسلب والإيجاب ما كانت هناك صلة بينها، ولهذا لا يمكن أن تتصل الأعداد بعضها ببعض لو كانت تمتد إلى ما لا نهاية. وعليه تجمع الأعداد المستقلة، وتطرح الأعداد المتصلة، والأعداد المتساوية في الكم قد لا تتساوي في المقادير. لقد عرفنا أن جمع $٢ + ٢ = ٤$ ، ولكن هل الاثنان الأولى تساوي الاثنتين الثانية في المقدار؟ ولتوضيح ذلك لو افترضنا أن الاثنتين الأولى غزالان والاثنتين الثانية أيضاً غزالان، ولكن الاثنتين الأولى عمرها سنة واحدة، والاثنتين الثانية عمرهما أربع سنوات، فهل هم في حالة تساوي قيمي أو عمري؟ وحتى من الذهب قد لا تتساوى، فهل ٥٠ جراماً من الذهب تساوي ٥٠ جراماً من الذهب؟ مع أنه من حيث الكم نعم إنهما متساويتان إلا أنه من حيث القيمة ليس بالضرورة أن تكونا متساويتين، لأن الخمسين جراماً الأولى عيارها ١٨ والثانية عيارها

٢٤. إذاً الأعداد المتساوية في الكم ليس بالضرورة أن تتساوى في العمر أو النوع أو اللون أو المقدار والكيف. وهكذا لو تحصل أحد الطلبة في مادة الفيزياء على نسبة عالية، ولتكن ٩٠%، هل هذا يعني أن كل من تحصل على هذه النسبة هو ممتاز في مادة الفيزياء؟ ليس بالضرورة أن يكون ممتازاً في المادة مع أنه ممتاز في هذا الاختبار، ولو أعيد له الاختبار باختلاف الأسئلة فقد لا يحصل على هذه النسبة العالية، وتكون النتيجة السابقة في شك لفقدانها مصادق الثبات. وعليه ينبغي أن يهتم التحليل العقلي والتفسير العلمي بعناصر الاختلاف والاتفاق بين النتائج المتساوية في الحاصل الحسابي، وألاً يقتصر على المجامع الإحصائية فقط، لأن اتصال الأعداد وتساوي محصلاتها لا يعني تساويها.

وعند دراسة المواضيع تتصل الأفكار وتتربط في نسج منهجي ينظم وحدة الموضوع، ويظهره في شكله اللائق ليحل محله بين البحوث الناجحة التي سبقته. وتتصل الأفكار والمواضيع من أجل اكتمالها، وتحلل علمياً عندما يتمكن الباحث من معرفة نقاط الاتصال والترابط بين تنقله من الكل إلى الجزء، ثم إلى المتجزئ، أو منه، إلى الجزء، ثم إلى الكل عند محاولته التعرف على العلل والأسباب الكامنة والظاهرة. ولا يمكن أن يكتمل الموضوع بدون امتداد أفكاره، ولا يمكن أن يحلل بدون معرفة نقاط اتصاله. والباحث كمتقص للحقائق لا يسترسل في دراسته، أو تشخيصه، أو علاجه للحالات ما لم تكن أفكاره متصلة، وإمامه بالموضوع متكاملًا. وهكذا تتكوّن الظواهر والمشاكل المستقلة من علل وأسباب حركية متصلة، ومن الصعب أن تحلل، أو تفسر المواضيع قيد البحث ما لم يراعي الباحثون ذلك الامتداد الحركي الذي يربطها فيما بينها. فعدم التعبير عن الكبت على سبيل المثال قد يؤدي إلى الانفجار السلوكي المتوقع وغير المتوقع، ولا غرابة في ذلك لأن الانفجار السلوكي مرتبط بكبته المفروض، ويحدث الانفجار برغبة الإنسان في التنفيس الوجداني الذي يحقق له الرضا، حتى وإن ترتب عليه ثمن عقابي، وكذلك كبت الغرائز، قد يؤدي إلى عدم الانضباط النفسي، وعدم الانضباط النفسي قد يؤدي إلى انحراف السلوك. إذاً هناك امتداد بين الكبت وعدم الانضباط، فكبت الغرائز قد يؤدي إلى التمرد والثورة على أدوات الكبت، بغرض التخلص من

سيطرتها، ويحدث الصراع نتيجة تواجه امتدادين بالقوة تجعل أحدهما يمتد على حساب الآخر إذا انهزم أو ضعف، وعندما تتعادل الكفتان قد تكون بينهما مواجهة بتماس حدود اتصال القوة المتكافئة مما يجعل لامتدادهما نهاية، وهكذا الحركة الأقوى تهز الحركة الأقل والأضعف وتكون على حسابهما. قال تعالى: {كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} ^{٨٣١}، وقال تعالى: { قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأَوْلُو بِأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذِنَةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بَجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا آذِنَةً وَهُمْ صَاغِرُونَ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ قَالَ نَكَّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ} ^{٨٣٢}

ولهذا لا امتداد إلا بحركة، وكل كائن أو جماد هو في حالة حركة كلية، أو جزئية، أو متجزئة، فالأرض على سبيل المثال ككل تتكون من أجزاء تتجزأ إلى يابسة وماء ونار وكلها تتجزأ، ولكل منها بداية ونهاية، وكلها في حركة مستمرة، وكلها تسبح بالحمد للحميد المطلق جل جلاله، أي أنها بتسبيحها تحمد الحميد تعالى على ما آتاها من ذاكرة تسبحه ولا تغفل عنه أبداً، وإذا تساءل أحد: بما أن الكل في حالة حركة، فهل للثبات وجود؟ نعم لكل حركة مستمرة ثبات في الاستمرار، ولكل مستمر نهاية يثبت عندها. وإذا تساءل آخر: لمن يكون

^{٨٣١}التوبة ٦٩.

^{٨٣٢}النمل ٣٣ . ٤١.

الثبات؟ بالتأكيد للحركة. إذا شاهدنا أي شيء ثابت كما يعتقد المشاهد على سبيل المثال للأرض والجبال، فإن ذلك الثبات يعبر عن وجود الحركة {وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب}^{٨٣٣} ولذلك لا يوجد الثابت المطلق، بل الذي يوجد السكون، والسكون دليل على وجود حركة كامنة تظهر للمشاهدة عندما تتوفر اشتراطاتها.

الحركة والسكون متلازمان، ويستوعب كل منهما الآخر، ويحمله في أحشائه، وهكذا لكل متحرك حركة، ولكل ساكن سكون، ويترتب كل منهما على الآخر، يبدأ السكون حيث تنتهي الحركة أو تتوقف، وتبدأ الحركة حيث يبدأ السكون أو يتوقف، فلا حركة إلا لسكون ولا سكون إلا لحركة، ويكمن كلّ منهما في الآخر كما تكمن البراكين في باطن الأرض، وكما تكمن الحقيقة في صدر حاملها، وكما تكمن الفراخ في البيض (كمون المتحرك في الساكن)، فالبركان لا يمكن أن ينفجر إلا بقوة الحركة الكامنة فيه، ولا يهدأ البركان ولا يتوقف إلا بقوة السكون فيه، وهكذا تكون الحقيقة كامنة في الصدور الواعية بحركتها إلى أن يتم الإدلاء بها، وبقوة وجوبها، ولهذا يعتبر الكندي الحركة هي حالة من التبدل والتغير، ولكل حركة بداية، ونهاية^{٨٣٤}. ويتم الاتفاق معه في هذا القول العلمي، بأن للحركة بداية، ونهاية، وأنها في حالة تبدل كما تتبدل الأرقام في جمعها وطرحها، وبقية حساباتها الرياضية، ولهذا لم يكن السكون عدماً للحركة، ولم تكن الحركة عدماً للسكون، بل كلّ منهما معرض للعدم، باعتبارهما وجوداً. وكما يكمن السكون في الحركة، تكمن الحركة في السكون، وكذلك تكمن الحركة في الحركة، ككمون حركة الدم في حركة القلب. ويكمن المتحرك في المتحرك، ككمون الجنين في بطن أمه، وكمون حركة الركاب في السيارة أو الطائرة، أو البالون أو السفينة، وعليه قد تكون الحركة ذاتية، وقد لا تكون (قد تكون مدفوعة، أو محمولة)، وكلها تحدث بفعل قوة.

والحركة الذاتية تنقسم على جزأين:

الجزء الأول:

^{٨٣٣} النمل، ٨٨.

^{٨٣٤} حسام محيي الدين الألوسي، فلسفة الكندي وآراء القدامى، والمحدثين فيه، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٥م، ص ١٩٥، ٢٠٥.

حركة واعية بإرادة الاطمئنان، وتحقق أهدافاً شخصية، أو ذاتية أو موضوعية، دون أن تؤثر سلباً في الآخرين، مثل إشباع الإنسان لحاجاته وهو راضٍ، ولا يمس حاجات الآخرين حتى ولو كان بإمكانه تناولها، وهذه الحركة تحقق الانسجام والتراضي، وتؤدي إلى الوحدة.

الجزء الثاني:

حركة واعية بإرادة الخوف، وتحقق أهدافاً شخصية، أو ذاتية، أو موضوعية، وتؤثر سلباً في الآخرين، مثل إشباع الإنسان لحاجاته على حساب حاجات الآخرين، وهذه الحركة تؤدي إلى الصراع والشقاق، وتؤدي إلى الفرقة، وكل ذلك يحدث من أجل المستقبل، مما يجعل للحركة مستقبلاً، وللمستقبل حركة. وتعتبر الحركة عن وجود طاقة ظاهرة أو كامنة تجعل الجسم أو الشكل في حالة حركة ثابتة، أو متغيرة، من وقت إلى آخر^{٨٣٥}.

حالات الحركة:

أولاً: الحركة الممتدة:

وهي التي تحدث عندما تمتد القوة في مجالها الذي تتمكن من الوصول إليه كلما سنحت لها الفرصة في ذلك. وقد تكون الحركة فكرية، وقد تكون مادية.

١- الحركة الفكرية:

هي التي تحدث عندما تمتد الأفكار من عقول وصدور حامليها إلى عقول وصدور أخرى، فتشغل حيزاً عندهم نتيجة امتدادها إليهم، وهكذا تمتد الأخبار، والإشاعات، وتنتشر بين الناس حسب قوة تأثيرها سلباً أو إيجاباً وحسب قوة الفكرة أو الحجة التي تتضمنها. والأفكار الموجبة عندما تمتد خارج المجال أو البعد الذي يمكنها التأثير فيه قد تحقق نتائج سالبة، فالمنادة بالوحدة العالمية إنسانياً موجبة، ولكن عندما تتجاوز أهمية البعد الاجتماعي في البناء والتنظيم تكون على حسابه، وتكون نتيجة الجهد المبذول في التنشئة الاجتماعية تساوي صفراً في حالتين.

^{٨٣٥} هادي العلوي، نظرية الحركة الجوهرية عند الشيرازي، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٩٨٣م، ص ٦٢-٧٥.

الحالة الأولى:

مهما بذل من جهد تجاه المجتمع من أجل تحقيق البعد العالمي على حساب البعد القومي لا يتحقق مما يجعل الصفر هو نتيجة الجهد المبذول.

الحالة الثانية:

تركيز الجهد التربوي على تنمية أو تطوير الاتجاهات العالمية لدى الناشئين يُضعف وعيهم بأهمية البعد القومي، وتكون النتيجة: مستقبل المجتمع يساوي صفراً، ويصبح سيره (مشيته) كالغراب الذي كان يعتقد أن بإمكانه أن يفلد الحمامة في مشيتها فنسي مشيته ومشية الحمامة.

وقد يُوجّه المجتمع كذلك فكراً أو سياسياً تجاه تحقيق البعد الاجتماعي على حساب البعد المحلي، فتكون النتيجة هي الأخرى صفرية في حالتين:

الأولى: عدم تحقيق الوحدة الاجتماعية نتيجة انسلاخ المجتمع عن مكوناته الأساسية للأمة وهي الأسرة والعشيرة والقبيلة.

والثانية: عدم تحقيق الوحدة المحلية على المستوى الاجتماعي نتيجة إهمالها في التربية الاجتماعية.

وكذلك العمل على ترسيخ التكوين الاجتماعي المحلي على حساب البعد القومي تكون النتيجة صفرية في حالتين:

الأولى: نشأت المستوى المحلي لفقدانه مجال التمدد الطبيعي (التربية القومية).

والثانية: فقدان الأمة أو فقدان الإحساس بها يجعل حياة الأفراد في خطر لفقدانهم المظلة الاجتماعية.

٢- الحركة المادية:

هي التي تمتد بقوتها الملموسة أو المحسوسة والقابلة للمشاهدة والملاحظة، ويكون لها أثراً إيجابياً، أو أثراً سلبياً باختلاف المتأثرين بها، مثل امتداد السيل الجارف في الوادي الذي يقتلع بقوة امتداده كل مهتز منتهٍ عندما يقع في طريقه، وهذه قد تكون سالبة أو موجبه،

حسب الموضوع، والمقيمين له، وباختلاف الزمان والمكان، ومع أنه قد يحدث سلبيات أو أضراراً، إلا أنه قد يحقق العمار، بارتوائه للأرض وإحيائه للأشجار أو للنباتات التي كادت أن تموت أو تختفي^{٨٣٦}. وقد تكون الحركة نتيجة انفجار بركاني يحدث بعد تمدد القوة الكامنة في بطن الأرض عندما تضعف أمامه مقاومتها، فتفتح له الطريق للخروج إلى النهاية، وحسب مجال قوته ودائرة تأثيره، وهكذا يتمدد الجنين في بطن أمه، وتتمدد النبتة من نواتها إلى النهاية، أو تنكمش إلى النهاية. وإذا سألك أحد: هل الحركة تشاهد أم تلاحظ؟ فبماذا تجيب؟ في اعتقادنا أن الحركة لا تشاهد، ولكنها تلاحظ. ولكي أجيب أتساءل: بما أن الحركة لا تشاهد، إذاً ما هو الذي يشاهد ويعتبر حركة؟ إنه المتحرك. إذاً الحركة تختلف عن المتحرك، لأن المتحرك قابل للملاحظة والملاحظة معاً، أما الحركة فتلاحظ فقط، لأنها غير ملموسة، لافتقادها إلى المادة وتجردها منها. وإذاً الحركة هي الكامنة في المتحرك، وهي التي تحدث كلما حدث لها تمدد بالقوة، يجعلها في حالة ظهور بدلاً من حالة الكمون، وهي العلاقة التي تحدث بين المتحرك والمحرك، فإذا اعتبرنا على سبيل المثال كرة القدم هي المتحركة، فمن يكون المحرك لها؟ هل هو اللاعب، أم قدم اللاعب؟ بالتأكيد لو لم يكن اللاعب محركاً للقدم ما كانت القدم محركة للكرة، إذاً هناك محرك مباشر وهو القدم، ومحرك غير مباشر وهو العقل والجسم كوحدة واحدة، وتتداخل العلاقة بين المتحرك والمحرك باتصال وانفصال، تتصل في الفكرة والدرجة، وتتفصل في الأداء والخصوصية.

تتصل حركة اللاعب وتتداخل من الفكرة التي تمتد من العقل إلى البدن، والجسد، فتحركه وفق خطة واحدة متناسقة، وبخصوصيات كل عضو من البدن، مما يجعل لليدين وللرأس والقدم حركات مختلفة، كل حسب وظيفتها، ودورها في أداء المهمة المناطة بها. وحسب هذه الأدوار يشاهد المتفرج حركة اللاعب متسقة، ولكنه يشاهد بالتحديد حركة القدم في علاقة مباشرة ومنفصلة مع الكرة في أثناء دفعها إلى الإمام، أو الخلف، أو أحد الجانبين، فتمتد

^{٨٣٦} هادي العلوي، نظرية الحركة الجوهريّة عند الشيرازي، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م، ص ٦٢-٧٥.

الكرة بقوة دفع المتحرك (القدم) إلى نقطة انتهاء القوة أو المسافة المقطوعة، ولهذا قوة الحركة هي التي تحدد الامتداد، وليس المتحرك هو الذي يحددها، مع أنه لولا المتحرك ما عرفنا الحركة ولا كانت تشغل حيزاً.

ثانياً: الحركة المنكشة:

هي الحركة التي تطوي حركة الامتداد، أو هي العودة إلى الأصل، كعودة الشجرة إلى النواة التي كانت تكمن فيها، لأن كل شجرة منتهية باعتبارها شيئاً (وكل شيء منتهٍ)، ولكن هل ستنتهي الأشجار بعد موت كل ما نبت منها؟ بالتأكيد لا. في عالم الوجود الحي ستنتهي كل الأشجار الموجودة على قيد الحياة، وحسب أعمارها الممكنة لبقائها، وستنمو أشجار أخرى منكمشة في نواها. ولهذا لا امتداد إلا من انكماش، فالانكماش هو أساس كمون القوة الممتدة. قوة النهار لا يمكن أن تمتد إلا إذا انكماش الليل، وقوة الليل هي الأخرى لا تمتد إلا إذا انكماش النهار، قال تعالى: { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }^{٨٣٧}، وقال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }^{٨٣٨} وهكذا أيضاً تكون قوة انبساط اليد التي لا يمكن أن تتم إلا إذا انتهت قوة انكماشها. ونتيجة الانكماش، والامتداد، تسبح الكواكب في فلكها، وهكذا امتد الكون لحظة الانفجار العظيم، وهي نقطة البداية، وسيعود الكون إلى الانكماش عند نقطة النهاية، مصداقاً لقوله تعالى: {يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب }^{٨٣٩}، أي يوم أن تنكش السماء، يكون الله قد أعادها إلى

^{٨٣٧} آل عمران ٢٦، ٢٧.

^{٨٣٨} يسن ٣٦ . ٤٠.

^{٨٣٩} الأنبياء، ١٠٤.

حالتها التي كانت عليها. وكما أن الامتداد لا يقتصر على المادة المشاهدة، أو الملاحظة، كذلك الانكماش لا يقتصر على ذلك، لأن كل ممتد لابد وأن ينكمش سواء أكان مادياً، أو فكرياً، فالأفكار في أساسها منكمشة في العقول والصدور، ثم تمتد من خلال الاتصال، بالتبشير، والترشيد، والتحريض، والتنظير، وبالجدل تترسخ، أو تصحح، وتكون في حالة شك إلى أن تثبت، أو تنفى. وقد تمتد أفكار وتنتشر بقوة حجتها، ثم تعود إلى الانكماش عندما تضعف حجتها. وكل من الانكماش والامتداد يتضمن قوة، ففي مرجحة القدم أثناء ضرب الكرة تنكمش بقوة في حركة إلى الخلف، لتمتد بقوة إلى الأمام لضرب الكرة ودفعها إلى الهدف، وإذا انكشمت القدم بقوة إلى أعلى وإلى الأمام يتم دفع الكرة بقوة إلى الخلف، وهكذا في حالة الجانبين، لأن القوة هي التي تظهر في حالتها الامتداد والانكماش، وهي التي لا تقاس إلا بعد الظهور من الكمون إلى الحركة.

في الفرحة والبهجة قوة تمتد إلى أن تمتلئ الصدور بها، وتنكمش الأحزان أمامها، وإذا انكمش الفرح والبهجة امتدت الأحزان والاضطرابات. ففي حالة العلاج ينبغي أن يهتم الباحث بامتداد حركة الايجابيات، وانطواء حركة السلبيات.

وبما أننا نتكلم عن الامتداد والاتصال الاجتماعي علمياً، فما هو الامتداد الاجتماعي؟ هل هو المتكوّن من المفرد والمثلى والجمع والمكان والزمان؟ أم هو أكثر من ذلك؟ فلو كان المتكون من امتداد الأفراد المتزايدين عن المثلى كان المجتمع في هذه الحالة كمّاً، وإذا كانت الجموع من كل شيء تكوّن كمّاً، فهل المجتمع هو الآخر مجرد كم؟ وهل الكمّ المجتمعي يبيّن صورة للمجتمع، أم يبين صوراً للبشر المتجمعين؟ في اعتقادنا لا تكتمل صورة المجتمع الذهنية إلا إذا تم اللقاء بين عناصره، وأن يكون بينهم تفاعل، وأن يكون لهم امتداد (امتداد ثقافي وحضاري) إذاً المجتمع هو التقاء وتفاعل امتداد مجموع الأفراد والجماعات المتفاهمين على أهمية المكان والزمان والموضوع لكل واحد منهم (إنه مجتمع الأمة الواحدة)، أما المجتمعات الأخرى فهي عبارة عن حشود مؤقتة تلتقي على مصلحة وتتفرق على مصلحة. إذاً امتداد الأفراد بأعداد هائلة بدون تفاعل الأهداف الخاصة والعامة عبارة عن حشود

(كمية) لا تعطي معنى للمجتمع، فالمجتمع كمّ وكيف، كمّ من البشر، وكيف من القيم. ولهذا المجتمع كمفهوم ضروري ذهني ولا يرسم، لأنه لم يكن مثلثاً ولا مربعاً ولا أي شكل من الأشكال الهندسية. وهكذا التطور كالمجتمع لا يرسم مع أن دلالاته ترسم بيانياً بالمنحنيات والمضلعات والأشكال الهندسية الأخرى. ويتضح التطور بمقارنة أثر المتغيرات في الموضوع عبر الزمن سواء أكان الموضوع قابلاً للملاحظة أو الملاحظة.

ثامنا: حمده على خلق الإنسان في أحسن تقويم: الحمد لله على استخلافه في الأرض لبني آدم المؤمنين، الذين يرثون نصيبهم في الدار الدنيا ويرثون نصيبهم في الجنة، والحمد له جل وعلا على خلقه العقل مرشداً للحق ومرشداً به، والحمد لله الذي جعل المستخلفين فيها بما يستمدونه من صفات الله تعالى، والحمد لله الذي جعل الحياة الدنيا مدرسة من نجاح فيها وتفوق نجاح وتفوق وفاز بالجنة، والحمد لله الذي جعل الكفار والمشركين حطب جهنم. قال تعالى: {أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ^{٨٤٠}، وقال تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} ^{٨٤١}.

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، في جماله العقلي والسمعي والبصري والحركي ليستمد صفاته من صفات الجميل المطلق في سمعه وبصره وحركته وسكونه، قال تعالى: {سُبْحَانَ

^{٨٤٠} آل عمران، ١٦٢ . ١٦٥ .

^{٨٤١} الأنبياء، ٩٤ . ٩٨ .

الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ^{٨٤٢}، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ} ^{٨٤٣}.

وعليه من مميزات خلق الإنسان في أحسن تقويم التي تستوجب أن تجعله حامدا شاكرا هي:
 - خلق النفس: وخاصة التي خص بها الخليفة قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي} ^{٨٤٤}، ولأن الذي خلق في أحسن تقويم وللأسف الشديد لم يكن بكمه العددي خليفة فمعه ما دون ذلك ومنه من هو من الأردلين ومنه أصحاب الأنفس الأمارة بالسوء. قال تعالى: {وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} ^{٨٤٥}، وهناك النفس الهاوية التي تدخل صاحبها إلى النار، وهناك النفس المنتهية عن الهوى فتفوز بمأواها في الجنة. قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ} ^{٨٤٦}.

- خلق الروح: قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} ^{٨٤٧}، وقال تعالى: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} ^{٨٤٨}.

^{٨٤٢}الإسراء ١.

^{٨٤٣}غافر، ٥٦ . ٥٨.

^{٨٤٤}الفجر، ٢٧ . ٢٩.

^{٨٤٥}يوسف ٥٣.

^{٨٤٦}النازعات ٤٠، ٤١.

^{٨٤٧}الإسراء ٨٥.

^{٨٤٨}غافر ١٥، ١٦.

- خلق البدن: الذي هو جسد من لحم وعظم ودم، قال تعالى: { وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }^{٨٤٩}، وقال تعالى: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ }^{٨٥٠}.

- خلق العقل: قال تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }^{٨٥١}، وقال تعالى: { وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنُونٌ وَغَيْرُ صِنُونٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَنْذَا كُنَّا تَرَابًا إِنَّنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }^{٨٥٢}.

ومن حمده على من خلق في أحسن تقويم اصطفاء الرسل منهم وإليهم، لأجل الهداية للحق بالحق، ولأجل الحفاظ على الاستخلاف في الأرض، لتكون بين الناس علاقات المحبة والمودة والتآلف والتعاون والتوافق على ما يجب والإقدام على أدائه وعلى ما لا يجب والابتعاد عنه، فالحمد له تعالى جعل الزوجية والأبوة والأمومة والأخوة والخوولة والجيرة روابط قيمية تجعل للوحدة معنى ودلالة والحمد لله أن كل ذلك في مرضاة الله عز وجل، والحمد لله الذي جعل لكل شرعة ومنهاج حتى أصبح الدين والعرف مصدرين أساسيين لكل تشريع.

^{٨٤٩}البقرة ٢٥٩.

^{٨٥٠}المؤمنون ١٢، ١٣.

^{٨٥١}البقرة ١٦٤.

^{٨٥٢}الرعد ٤، ٥.

تاسعا: **حمده على خلق الممات:** الموت مخلوق لملاحقة الحياة المؤقتة التي حُكم عليها بالزوال، قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} ^{٨٥٣}، والحمد لله أن الموت بيد الحي الذي لا يموت، ولذا فالحي الذي لا يموت هو الذي سيظل حيا ولا سواه ويومها يعرف الجميع أن الملك لله الواحد القهار، ويوم يأتي ذلك اليوم يكون الموت هو الآخر في خبر كان (ميتا كما ماتت المخلوقات الأخرى) ويومها تبعث الحياة الباقية ويظل الخلود وحده على قيد الحياة فالحمد له والشكر له على ما خلق وما ارتضى، وعليه فلا مخافة من الموت في الدار الدنيا، لأنه حق من حقوق الخلق، والكل ينبغي أن لا يكفر بحقه الذي خلق من أجله، والحمد لله أن الموت مرافق للحياة في الدار الآخرة. قال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} ^{٨٥٤}، وقال تعالى: {أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} ^{٨٥٥}. ولأن الموت تحت الأمر (كن) إذن لا مفر منه، فهو آتٍ ثم بعد ذلك منتهٍ ونحن الباقون في الجنة إن كنا من المستخلفين الذين آمنوا بالله وما أنزل. قال تعالى: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} ^{٨٥٦}.

الموت رحمة على المريض الذي يعاني من آلام المرض والداء، وهو رحمة على العجوز المقعد الذي نفذ صبره من الهرم الذي حال بينه وبين ممارسة حقوقه، وأداء واجباته وحمل مسؤولياته، ومع ذلك يظل لهم الحق بالرعاية والعناية مصداقا لقوله تعالى: {وَوَقَّضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفًّا وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا

^{٨٥٣} الملك ٢.

^{٨٥٤} آل عمران ١٨٥.

^{٨٥٥} النساء ٧٨.

^{٨٥٦} الجمعة ٨.

رَبَّيَانِي صَغِيرًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا^{٨٥٧}،
 وبتقديم الرعاية والعناية لهم هم حامدون لله على ما وهب لهم من أبناء. قال تعالى: {الْحَمْدُ
 لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ
 الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ وَلَا
 تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ^{٨٥٨}.

ولذا فأفضل الله لا تحصى، مما يجعل الحمد له واجبا لأفعاله الحسان، فله الحمد على ما
 أعطى ووهب، ورزق واطعم وأشفى من الأمراض، وأغنى عن الفقر إلا عنه، والحمد له على
 ما خلق من حواس تجعل المخلوق يميز بين الحق والباطل حتى يتبع الحق ويجتنب الباطل
 ويعمل على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، والحمد له بجعله الإنسان خليفة في أرضه وهو في
 أحسن تقويم مما خلق.

عاشرا: حمده على خلق البعث: البعث ولادة جديدة في عالم جديد لا نعرفه كما هو بل نعرفه
 من الوصف والشبه الذي هو عليه في آيات القرآن الكريم، إنه مفتاح الدخول للجنة أو النار
 بعد محاسبة عادلة للعباد من رب العباد، على ما قدمت أيديهم في الحياة الدنيا، قال تعالى:
 لَيَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ
 مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ
 نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ العُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ
 مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأُنبَتَتْ مِنْ كُلِّ
 رَوْحٍ بَهيجٍ^{٨٥٩}. يوم البعث يوم حق، يؤمن به المستخلفون في الأرض وهم له منتظرون
 لتكون لهم الحياة الباقية ويكونون هم الوارثون حقا، أما أولئك الكفرة المجرمون سيفاجأون
 بالحقبة التي كانوا لها منكرين وبها مكذبين، وتكون البهجة والفرحة على وجوه وألسنة

^{٨٥٧}الإسراء ٢٣ . ٢٥ .

^{٨٥٨}إبراهيم ٣٩ . ٤٢ .

^{٨٥٩}الحج ٥ .

المستخلفين المصدقين بيوم الحق الذي هم فيه مبعثون، ويومها لا تنفع المعاذير فالحق لا بد وأن يحق ولو كره المجرمون. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُفَعُّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتَهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْفَكُونَ﴾^{٨٦٠}.

في يوم البعث سيكون الثواب حقا والعقاب حقا، اللهم اجعلنا من الذين ثقلت موازينهم في الحياة الدنيا لنتمكن من الفوز بالجنة، ولا تجعلنا يا الله من الذين خفت موازينهم إنك لطيف خبير، واشهد أنك أنت الأول والآخر والظاهر والباطن وأنت على كل شيء قدير تملك الملك والأمر بيدك فارحمني بواسع رحمتك وفضلك اللهم ارضى عني وعن زوجي وأبنائي ووالدي وأخوتي وأجدادي وأحفادي وصحابتي ومشايخي الكرام وارضى عن صحابة رسول الله وارضى عن أمهاتي زوجات النبي وأصلي وأسلم على جميع أنبيائك ورسلك إنني لا أفرق بين أحد منهم وهم القائلون (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير)، وأصلي وأسلم على صاحب الرسالة الخاتمة للناس والجن كافة محمد رسول الله (توكلت على الله.. توكلت على الله.. توكلت على الله) والحمد لله رب العالمين .

الحميد من صفات الله تعالى وتقدس بمعنى المحمود على كل حال، وفي لسان العرب المحيط الحمد عام على صفاته الذاتية وعلى عطائه، ويقال فلان يتحمّد الناس بجوده أي يريهم أنه محمود فيحمد على إحسانه إلى الناس^{٨٦١}.

^{٨٦٠}الروم، ٥٥ . ٦٠ .

^{٨٦١}لسان العرب، ج ٣ ، ص ١٥٥ .

والله عز وجل حميد محمود لصفاته وأفعاله فله الحمد وحده: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ^{٨٦٢}.
والحمد ثناء اعترافي على من بيده ما يحمد عليه من قبل صاحب الحاجة، بعد أن يتمكن من
الحصول على مشبعت حاجاته المتطورة والمتعددة والمتنوعة.

والحمد نتاج قناعة بعد تحقيق المرضيات للنفس والعقل وتوجه إلى المصدر الذي كان سببا
في ذلك، وهو لفظ رضائي إرادي قد يقال فيسمع وقد يذكر في الصدور دون أن تسمعه
الأذان ويسمعه في وقته السميع العليم فتكون الزيادة بقوله تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ
لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} ^{٨٦٣}.

والحميد هو المصدر لكل حمد، فلو لم يكن الحميد ما كان الحمد له، وفي مقابل ذلك لو لم
يكن الخليفة مؤمناً ما كان خليفة حامدا شاكرًا لله رب العالمين.

الحميد كثير الحمد المستمر الذي لا ينقطع أبداً، فيحمد على حمده، والحمد واجب على
المدرك للحقيقة التي جعلت حاله على ثنائية الحاجة ومشبعاتها، والشدة والفرج، والمرض
والشفاء، والمعصية والهداية.

والحمد مخصوص للحميد لصفاته التي ذكرها في أم الكتاب وهي:

١- الرحمن الرحيم صفتان من صفات ذاته ما يقوم بهما حق القيام إلا الحميد سبحانه،
فهو الذي يقبل التوبة من عباده فيعفو عنهم: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ
السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} ^{٨٦٤}، ولأنه رحمان رحيم فهو يسبغ من فضله فيغفر للمستحق
وللعامل بموجبات الغفران: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} ^{٨٦٥}.

والغفران غير العفو فالغفران يقتضي إسقاط العقاب وإسقاط العقاب هو إيجاب الثواب فلا
يستحق الغفران إلا المؤمن المستحق للثواب، وهذا لا يستعمل فيقال غفر الله لك ولا يقال

^{٨٦٢} الفاتحة ٢.

^{٨٦٣} إبراهيم ٧.

^{٨٦٤} الشورى ٢٥.

^{٨٦٥} الفتح ١٤.

غفر زيد لك إلا شاذًا قليلاً والشاهد على شذوذه أنه لا يتصرف في صفات العبد كما يتصرف في صفات الله تعالى، ألا ترى أنه يقال استغفرت الله تعالى ولا يقال استغفرت زيدا. فالاستغفار لا يكون إلا للمصدر المطلق، وذلك لارتباطه به دون غيره.

بينما العفو يقتضي إسقاط اللوم والذم ولا يقتضي إيجاب الثواب، ولهذا يستعمل في العبد فيقال عفا زيد عن عمرو وإذا عفا عنه لم يجب عليه إثابته، إلا أن العفو والغفران لما تقارب معناه تداخلا واستعملا في صفات الله جل اسمه على وجه واحد فيقال عفا الله عنه وغفر له بمعنى واحد، وما تعدى به اللفظان يدل على ما قلنا وذلك أنك تقول عفا عنه فيقتضي ذلك إزالة شيء عنه وتقول غفر له فيقتضي ذلك إثبات شيء له^{٨٦٦}.

ومن رحمته أنه يتبع الغفران بإبدال كل السيئات التي يقترفها العبد إلى حسنات رحمة منه بعباده: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}^{٨٦٧}، ويزيد الله من فضله عباده من التائبين والعاملين بما يحب ويرضى فيصلي عليهم: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}^{٨٦٨}.

وصلاة الحميد هي من رحمته على العباد وهذه الصلاة تأتي لتحقيق للإنسان أمورا يحتاج إليها حاجة ماسة فهي تنزل السكينة: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}^{٨٦٩}، ومنها الهداية وعلامتها كتاب الله الذي فيه تتجلى أعظم صور صلاة الله على عباده: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}^{٨٧٠}، وهو

٨٦٦ الفروق اللغوية، ج ١، ص ٢٦٧.

٨٦٧ الفرقان ٧٠.

٨٦٨ الأحزاب ٤٣.

٨٦٩ الفتح ٤.

٨٧٠ الزمر ٢٣.

أكثر من ذلك فهو شفاء لما في الصدور: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^{٨٧١}، وهذا الشفاء هو رحمة من الحميد لعباده كما تشير الآية.

ومن رحمة الحميد على عباده نهج التخفيف مع الفروض، فما من فرض إلا وتجد معه تخفيفاً لغير القادر، فالصلاة تُقصر للمسافر رحمة من الحميد العالم بحاجة المسافر إلى العون، ومن يعين كعونه: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾^{٨٧٢}، والصيام يؤجل للمسافر أو المريض مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^{٨٧٣}، والحج للمستطيع فقط قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^{٨٧٤}، والزكاة للقادر ومن المال الفائض والمجمد فقط وبنسبة تُجمع الأبواب على ضالتها وهي تذهب إلى العباد المحتاجين لها فالحميد غني عنها وعن غيرها: ﴿وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالٍ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾^{٨٧٥}، وبعد ذلك فالله يعوض هذه الزكاة في الدنيا ويثيب عليها في الآخرة أجراً عظيماً: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ

^{٨٧١} الإِسْرَاءُ ٨٢.

^{٨٧٢} النِّسَاءُ ١٠١.

^{٨٧٣} البَقَرَةُ ١٨٣-١٨٤.

^{٨٧٤} آلِ عِمْرَانَ ٩٦-٩٧.

^{٨٧٥} الْأَعْرَافُ ١٥٦.

حَسَنَةً يُضَاعَفُهَا وَيُؤْتِي مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا^{٨٧٦}، فعلى الخليفة المستخلف على هذه الأرض أن ينهج ذات النهج مع الناس فيخفف عنهم ولا يثقل كاهلهم بما لا يطيقون امتثالا لنهج الحميد الذي لا يكلف إلا بقدر الطاقة والاحتمال الإنساني ويغفر لمن نسي ومن أخطأ بجهالة: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ^{٨٧٧} .

ومن رحمة الرحمن الرحيم أنه يرزق العباد دون أن يكون الكفر أو المعصية أو النفاق أو الإشراف من الأسباب المانعة للرزق لأن ربهم وخالقهم لا اله غيره فمن ذا يرزقهم سواه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ^{٨٧٨} .

وليس البشر وحدهم فحسب في هذا بل كل المخلوقات: لَوْ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ^{٨٧٩} .

ومن علامات رحمة الحميد بعباده إقراره للرحمة أساساً للعلاقات بين البشر، فقد جعل طاعة الوالدين والرحمة بهما مما يلي توحيده والإيمان به إلهاً واحداً لا شريك له تنبئها للعباد على أهمية الرحمة وضرورة إتباعها: لَوْ قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا^{٨٨٠}، وكانت الرحمة بين الزوج والزوجة من آيات الحميد: لَوْ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا

^{٨٧٦} النساء ٣٩ - ٤٠ .

^{٨٧٧} البقرة ٢٨٦ .

^{٨٧٨} فاطر ٣ .

^{٨٧٩} هود ٦ .

^{٨٨٠} الإسراء ٢٣ - ٢٤ .

وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ^{٨٨١}، ولو سأل سائل لماذا هي آية؟ الجواب يتلخص في قدرته سبحانه على إيجاد التقارب والتفاهم بين شخصين مختلفين في الطباع والخلق والعادات ومن هذا الاختلاف الذي تنشأ بعده رحمة يكون التماسل الذي يهب الذرية، ولذا فأية من استقلالية ووحدة إلى اندماج سكني بين الأنفس حتى تصبح المحبة والرحمة والألفة هي بيت الإقامة على الفرض والسنة: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ^{٨٨٢}.

وتصل الرحمة إلى أعلى الدرجات بين العباد بتقدير الحميد جل وعلا وآية من آيات رحمته سبحانه: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا^{٨٨٣}.

ومن آيات رحمة الحميد تقديمه العون لعباده: {رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا^{٨٨٤}، ويلاحظ تذيل الآية بقوله تعالى (بكم رحيمًا) دلالة قاطعة أن هذا العون إنما هو من رحمة الحميد سبحانه.

٢- مالك يوم الدين: فالملك له وحده وهو مما يحمد عليه سبحانه ولو لم يكن كذلك لكان العباد في عسر شديد من أمرهم فمن يحاسب؟ ومن يجزي؟ ومن يغفر؟ ومن يعتق؟ ومن يرحم؟ فلو تصور متصور أن الله شركاء في الملك لعرف مدى الحيف الذي سيقع على العبد وهو يسعى لإرضاء وطاعة هؤلاء الشركاء قال تعالى: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ

^{٨٨١} الروم ٢١.

^{٨٨٢} النحل ٧٢.

^{٨٨٣} الفتح ٢٩.

^{٨٨٤} الإسراء ٦٦.

يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا^{٨٨٥}، إن وجود مفسد في الأرض على أيدي بعض العباد، من صراعات على السلطة وصراعات على الثروة وصراعات على الملكية، تجعل العاقل الذي خلقه الحميد العظيم على أحسن تقويم، تجعله يحمده تعالى على وحدانيته واحداً أحداً لا شريك له، خاصة وأنه يرى بأم عينيه الفساد والفتن والافتتال بغير حق بأسباب التعدد في الملك والسلطة والثروة، وهذه من طبيعة الحياة فمن لا يؤمن لا بد وأن يكون ضالاً في قوله وفعله ومن يهتدي يهتدي للتي هي أحسن ويتقي الله ربه ويحمده ويشكره على فضله عليه، ولذا فإن كثيراً من الخُطَاءِ لِيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، قال تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاخْتُمْنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ^{٨٨٦} فالاشتراك في الملك من غير هداية واعتراف بحمد الحميد جل جلاله يورث الفساد: {أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ^{٨٨٧}، ولكانت الأرض والسماء غير الأرض والسماء التي نعرف لكثرة الشركاء واختلاف مطالبهم كما كان يعتقد كثير من المشركين الذين جعلوا لكل أمر من أمور حياتهم إليها، فجعلوا للتجارة إليها وللزراعة وللابتجاب وللمطر وغير ذلك من ترهات أفكارهم

^{٨٨٥} الإسراء ١١١.

^{٨٨٦} ص، ٢١. ٢٦.

^{٨٨٧} الأنبياء ٢١-٢٢.

ومما يسخر منها ذو اللب: {قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ^{٨٨٨}.

وللحميد حكم ما في الأولى وما في الآخرة: {وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} ^{٨٨٩}. فأما في الدنيا فحكم كل أحد سواه إنما نفذ بحكمه، فلولا حكمه لما نفذ حكم الحاكم على المذنب بإقراره سبحانه للشرائع التي يستمد منها القضاة أحكامهم الدنيوية، ومنها كان حكم الحكام على الرعية، وللزوج حكم على زوجته وعياله وغير ذلك، فهو الحاكم الحقيقي في الدنيا، وأما في الآخرة فلا شك أنه هو الحاكم، لأنه الذي يتولى الحكم بين العباد في الآخرة، فينتصف للمظلومين من الظالمين في مشهد عظيم ذكره الحميد ليرغب المؤمنين بالثواب ويحذر المنافقين والكافرين والخارجين عن الصراط المستقيم من سوء العاقبة: {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ^{٨٩٠}، فيُحمد الحميد على حسن جزاء الآخرة: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} ^{٨٩١}.

٣- المعبود وحده: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} ^{٨٩٢}، فاعلم أن العبادة عبارة عن الإتيان بالفعل بالمأمور به على سبيل التعظيم للأمر فما ثبت بالدليل أن لهذا العالم إلهاً واحداً قادراً على مقدرات لا نهاية لها، عالماً بمعلومات لا نهاية لها، غنياً عن كل الحاجات، فإنه أمر عباده ببعض الأشياء، ونهاهم عن بعضها، وأنه يجب على الخلائق طاعته والانقياد لتكاليفه فإنه لا يمكن القيام بلوازم قوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ)، دخل في هذا القول تكاليف الله تعالى بحسب هذه الشريعة، وكذلك يدخل فيه تكاليف الله تعالى بحسب الشرائع التي قد كان أنزلها الله تعالى

^{٨٨٨} سبأ ٢٧.

^{٨٨٩} القصص ٧٠.

^{٨٩٠} الزمر ٧٥.

^{٨٩١} الزمر ٧٤.

^{٨٩٢} الفاتحة ٥.

على الأنبياء المتقدمين، وأيضاً يدخل فيه الشرائع التي كلف الله بها ملائكته في السموات منذ خلق الملائكة وأمرهم بالاشتغال بالعبادات والطاعات^{٨٩٣}.

والمعبود حميد مستحق للحمد فهو الخالق للأشياء أي موجدتها فهو أصل كل شيء وهذا من أقوى موجبات الشكر عند المؤمنين ممن يتفكرون ويفكرون في أنعم الله: {وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}^{٨٩٤}، فهو خالق لكل ما في السموات والأرض من مخلوقات مميز لها كل بهيئة تناسب التكليف الذي قدره الحميد له، فالملائكة: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}^{٨٩٥}.

وهذه الهيئة تناسب الدور الذي أوكل للملائكة، أما الإنسان فقد جعل له السمع والبصر والفؤاد أي جعل له الحواس إضافة إلى القدرة العضلية ليتمكن من القيام بأمر العبادة، وجعل هذه الحواس من موجبات السؤال والحساب للعبد عن كيفية استخدامها في عبادة الحميد أم في أمر غيره؟ {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}^{٨٩٦}.

٤- المستعان وحده: {إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}^{٨٩٧}، لأنه القادر على تقديم العون لعباده بما امتلك من ملك وقوة وإرادة، فمن ملكه ينزل المطر، فهل يمتلك مخلوق أن ينزل المطر بالزمان والمكان والقدر الذي نراه في هذه الصور العظيمة لملك الله؟ وهل يستطيع آخر أن ينزل المطر في عدة أماكن في آن واحد دون عناء أو نقصان في موارد ملكه، الله وحده يقدر على ذلك من عظيم ملكه الذي لا ينقص ولا ينضب فله الحمد وحده: {وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ

^{٨٩٣} تفسير الرازي، ج ١، ص ٦.

^{٨٩٤} لقمان ٢٥.

^{٨٩٥} فاطر ١.

^{٨٩٦} الإسراء ٣٦.

^{٨٩٧} الفاتحة ٥.

مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِّ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ^{٨٩٨}، ومن ملكه الذي لا يشترك فيه أحد معه سبحانه الأرض وما عليها وما فيها، فكل ما عليها جعله المستعان منافع للناس لعلهم يشكرون الحميد الذي أعانهم بهذا على كثير من حوائج دنياهم: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا^{٨٩٩}، أما ما فيها فيتمثل في المعادن والثروات الطبيعية التي أعان الله بها عباده، وقد أشار الحميد إلى واحد من ذلك كمثّل للكثير من موارد الأرض التي قدمها الحميد المستعان جل وعلا: {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ^{٩٠٠}.

أما عونه بقوته فهو كثير مما لا يحصى ويكفي ذكر مثال واحد لينظر الإنسان إلى فعل الحميد فيحمده ويشكره في كل حين: {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ^{٩٠١}، والمثال هو ما حصل مع سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين معه حين تبعهم فرعون وجنوده فوصلوا إلى البحر: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ^{٩٠٢}، فهل هناك قوة في كل الأكوان قادرة على تقديم مثل هذا العون! وهل هناك معين يستطيع أن يفعل بالبحر ما فعل الحميد سبحانه! فالحمد لله رب العالمين.

أما عون الإرادة فله آياته البليغة الأثر في نفوس المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة، أما في الدنيا فما أكثر الأمثلة عليه ولنتذكر بعض قصة سيدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلم، فقد حُرِّمَ الذرية مع انتفاء إمكانية التعويض حسب قوانين الطبيعة، فالكبر والعجز الجسدي يمنعان تحقيق الرغبة في الذرية: {قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا

٨٩٨ العنكبوت ٦٣.

٨٩٩ الكهف ٧.

٩٠٠ الحديد ٢٥.

٩٠١ الروم ١٨.

٩٠٢ الشعراء ٦١-٦٣.

لَشَيْءٍ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةً لِلَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ^{٩٠٣}، لكن عون الحميد وبارادته سبحانه جعل من الخيال حقيقة أوجبت حمده سبحانه: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ}^{٩٠٤}.

أما العون في الآخرة فيتمثل في النجاة التي سيكتبها الله لمن يشاء من عباده لتصدق أسنتهم بحمد الحميد سبحانه وتعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ}^{٩٠٥}.

٥- الهادي إلى الصراط المستقيم: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}^{٩٠٦}، والهداية إلى الصراط المستقيم تكون في الدنيا أولاً ثم في الآخرة، فأما في الدنيا فلها سبلها وهي:

١- بالكتب السماوية: وهي من علامات الهداية الحقّة لأنها من الله سبحانه وكل ما فيها مستقيم ويهدي إلى الصراط المستقيم بالكتاب مصداقاً لقوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا}^{٩٠٧}.

٢- بالآيات: وهي من عظيم صور الهداية لذوي الأبواب، لأنهم يعقلون من خلالها الصواب ويتجنبون الخطأ فيهدون إلى الصراط المستقيم: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}^{٩٠٨}.

٣- بالعلم: وهو من علامات الهداية التي توجب الحمد للحميد سبحانه، لأنه يرقى بالعقل إلى مراتب عليا تمكنه فيما بعد من دقة التمييز بين ما يجب إتباعه وما يجب الانتهاء عنه، فبالعلم يمتلك العبد المعرفة الحقّة بالله فيكون من المهتدين: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}^{٩٠٩}، وهو ما يوجب الحمد لأنه يهدي إلى الصراط المستقيم:

٩٠٣ هود ٧٢-٧٣.

٩٠٤ إبراهيم ٣٩.

٩٠٥ فاطر ٣٤.

٩٠٦ الفاتحة ٦.

٩٠٧ الكهف ١.

٩٠٨ النمل ٩٣.

٩٠٩ فاطر ٢٨.

لَوْ لَقَدْ أَتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} ٩١٠ .

أما الهداية إلى الصراط المستقيم في الآخرة فهو من عطاء الحميد سبحانه لعباده المؤمنين: لَوْنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} ٩١١ .

٤- بالطاعة: فالطاعة تهدي إلى الصراط المستقيم إذا كانت خالصة لله وبانقياد مخلص لأوامره: لَوْلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} ٩١٢ .

و الحميد هو المحمود على كل حال ٩١٣ ، فكيف يكون الحميد محموداً على كل حال؟.

أما حال الخير فلا عجب أن يحمد سبحانه على كرم عطائه، وموجبات حمده كثيرة منها:

١ . العلم: لَوْلَا أَنَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} ٩١٤ ، فالحمد لله لمن وهب لنا الحياة وجعل لنا السمع والبصر، وجعل لنا الأفئدة، فحصلت عندنا المعرفة بإعانة هذه الحواس، وتقديره أن النفس كانت في مبدأ الخلق خالية عن جميع العلوم إلا أنه تعالى خلق السمع والبصر، فإذا أبصر الطفل شيئاً مرة بعد أخرى ارتسم في خياله ماهية ذلك المبصر، وكذلك إذا سمع شيئاً مرة بعد أخرى ارتسم في سمعه وخياله ماهية ذلك المسموع وكذا القول في سائر الحواس، فيصير حصول الحواس سبباً لحضور ماهيات المحسوسات في النفس والعقل.

٩١٠ النمل ١٥ .

٩١١ الأعراف ٤٣ .

٩١٢ النساء ٦٦-٦٨ .

٩١٣ النهاية في غريب الأثر ، ج ١ ، ص ١٠٤٣ .

٩١٤ النحل ٧٨ .

٢ . الاصطفاء للخلافة: لقد اصطفى الحميد سبحانه وتعالى آدم ليكون خليفته على الأرض فيتبع شرع الله ويعمر الأرض وينشر العدل بإقامة الحدود: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^{٩١٥}، ويجب أن نعلم أن آدم ليس هو المخصوص بهذه الخلافة وإنما جنسه عموماً أي الإنسان في كل زمان ومكان: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾^{٩١٦}، فعلى الإنسان الذي يرجو رضوان الله أن يعرف كيف يكون خليفة الله بالحق وبما يريد الحميد له وذلك بتحري الحق والابتعاد عن الباطل.

٣ . التفضيل والتكريم: فضل الحميد سبحانه الإنسان على كل مخلوقاته وكرمه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^{٩١٧}، اعلم أن المقصود من هذه الآية ذكر نعمة أخرى جليلة رفيعة من نعم الله تعالى على الإنسان وهي الأشياء التي بها فضل الإنسان على غيره وقد ذكرها الله تعالى في هذه الآية بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ واعلم أن الإنسان جوهر مركب من النفس، والبدن، فالنفس الإنسانية أشرف النفوس الموجودة على سلم التفضيل القيمي مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^{٩١٨}.

٤ . التنبيه: من نعم الحميد سبحانه على الإنسان اختصاصه بالتنبيه، والتنبيه هو الدلالة عما غفل عنه المخاطب، والتنبيه نعمة لأن الخالق الحميد عالم بخلافة فجعل النسيان من خصائص النفس الإنسانية لحكمة يعلمها سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾^{٩١٩}، ولأنه ينسى كان التنبيه من الحميد نعمة نحمده

^{٩١٥} البقرة ٣٠.

^{٩١٦} فاطر ٣٩.

^{٩١٧} الإسراء ٧٠.

^{٩١٨} التين ٤.

^{٩١٩} الزمر ٨.

عليها، ومن أهم صور التنبيه الرسالات السماوية، والآيات الإلهية، فالحميد سبحانه جعل الرسالات السماوية لغاية التنبيه للغافلين وكتب أنه بدون هذا التنبيه لا يكون هناك حساب أو عقاب، {مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} ٩٢٠، وكذلك هي الآيات جعلها الحميد لتنبيه العباد ولأخذ العبر منها: {وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا} ٩٢١.

٥ . الرزق: من عطايا الحميد الموجبة للشكر، فالحميد سبحانه عمَّ العباد بهذه النعمة ولم يختص بها أحداً دون سواه، وأمرهم فيها بأمرين:

الأمر الأول: الأكل من هذا الرزق، والأكل بمعنى الاستفادة من هذا الرزق للنفس والعيال ثم الشكر على هذه النعمة، {فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنَّ كُنْتُمْ لِبَآئِهِ تَعْبُدُونَ} ٩٢٢.

الأمر الثاني: يتمثل في الإنفاق في سبيل الله على المحتاجين الذين خصهم الله بقوله: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} ٩٢٣، وقد جعل الحميد الإنفاق على المذكورين في الآية فريضة يثاب عليها العبد ويندم لنكرانها: {وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ} ٩٢٤.

٩٢٠ الإِسْرَاءُ ١٥.

٩٢١ الكَهْفُ ١٧.

٩٢٢ النحل ١١٤.

٩٢٣ التوبة ٦٠.

٩٢٤ المنافقون ١٠.

٦ . الثواب: وهو من نعم الحميد التي ما ثقل عليها حمد بشر في أي ميزان، لان الثواب من الحميد سبحانه يفوق عمل العبد مهما كان، فالعمل منقطع والثواب دائم، والعمل محدود قليل والثواب واسع كثير، وهذا من فضل الحميد وكرمه الواسع حيث جعل الثواب مما يليق به لا مما يقابل جنس العمل بالقدر أو الوزن أو غير ذلك من المكافآت، فالحميد عالم بعدم قدرة عباده على الإتيان بالكمال في جل أعمالهم لكنه أنعم عليهم بالجنة، {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلْكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} ^{٩٢٥}، وفي الآية إشارة واضحة إلى النقص المصاحب لأعمالهم، ويتمثل في الغل الذي تمتلئ الصدور به، ففي الحقيقة أن أعمالهم فيها ما يعييبها لكنها كانت خالصة لله فتجاوز عن ذلك فأتابهم أحسن الثواب وأفرح قلوبهم به: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} ^{٩٢٦}.

وليس هذه النعم هي المستحقة للحمد بل الكثير مما لا يحصى وكله مستحق للحمد، فالحمد لله حتى يرضى والحمد لله بعد الرضى.
فكيف يُحمد الحميد على البلاء والشقاء؟ وبماذا نجيب النفوس الحائرة عن وجوب الشكر مع العناء والنصب؟.

يجب العلم بأن الحميد سبحانه عادل مع العباد لا يظلم أحدا: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ} ^{٩٢٧}، وهو لا يحب الظالمين: {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} ^{٩٢٨}، والبلاء والشقاء الذي يصب الناس

^{٩٢٥} الأعراف ٤٢ - ٤٣.

^{٩٢٦} فاطر ٣٤ - ٣٥.

^{٩٢٧} آل عمران ١٠٨.

^{٩٢٨} آل عمران ٥٧.

هو لحكم ذكرها الحميد، فالذين كفروا والمنافقين وغيرهم فإن البلاء والشقاء يصيبهم بما كسبت أيديهم قال تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} ٩٢٩، فأما الذين يعودون عن سوء العمل ينجون: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} ٩٣٠، وأما الذين يصرون على ما اقترفوا فذلك لأنفسهم: {وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} ٩٣١.

ومن نعم الحميد التي يحمد عليها أن جعل بعض ما يصيب المؤمنين من بأس وبلاء تكفيراً للذنوب، فقد يمتحن المؤمنون بضيق العيش وربما بالمرض وبشتى أنواع البأس ويكون تكفيراً لذنوبهم ألا ترى أنه أخبر عن نوح إذ قال لقومه {استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا} ٩٣٢، وعن هود {ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا} ٩٣٣، فوعدهم المطر والخصب مما يدل على أن الجذب كان تكفيراً لبعض ذنوبهم.

يُقال حميداً فهو محمودُ الفِعالِ والصفات الحسان، منزه عن النقص له كل صفات الكمال فله الحمد، وهو الرزاق الذي يرزق الغني والفقير وكلهم محتاج إلى رحمته وهو غني عنهم: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} ٩٣٤، ورزق الحميد مما لا يملك أحد أن يرزق مثله، فهو الذي ينزل الغيث: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} ٩٣٥، وهو الذي يهب الذرية بما يثير العجب والاستغراب: {وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ

٩٢٩ الروم ٤١.

٩٣٠ النساء ١١٠.

٩٣١ النساء ١١١.

٩٣٢ نوح ١٠ - ١١.

٩٣٣ هود ٥٢.

٩٣٤ فاطر ١٥.

٩٣٥ الشورى ٢٨.

إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ^{٩٣٦}، وهو الذي يهب لمن يشاء من الذرية ذكورا أو إناثا فبيده وحده تحديد نوع الجنين، ﴿وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ^{٩٣٧}، لذا وجب له الحمد، وهو الرحمن الرحيم.

فله الحمد بالشهادة بالوحدانية وبالطاعة التامة والافتداء بما هدانا إليه، وبأخذ ما أمرنا به أن يؤخذ، واجتناب ما نهانا عنه والابتعاد عما حرمه علينا بالمطلق، فبالصلاة نحمده، وبالصوم نحمده وبالزكاة نحمده، وبالحج نحمده، وبالجهاد نحمده، وبقراءة القرآن نحمده، وباسمه نسبح حامدين شاكرين له والحمد لله رب العالمين. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ^{٩٣٨}، وكذلك في الصيام قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^{٩٣٩}، وفي الحج قال: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ^{٩٤٠}، وكل هذه الأفعال من العبد هي حمد فعلي لنعم الحميد التي لا تُحصى إلا منه سبحانه. وفي كل شيء قال الحق وأمر باتباع الحق واجتناب الباطل فله الحمد جل جلاله.

^{٩٣٦} هود ٧١-٧٣.

^{٩٣٧} الشورى ٤٩ - ٥٠.

^{٩٣٨} البقرة ٢٧٧.

^{٩٣٩} البقرة ١٨٣-١٨٥.

^{٩٤٠} البقرة ١٩٧.

ومن الحمد حمد الفعل والعمل ومنه حمد اللسان وهو الثناء على الحق بما أثنى به على نفسه على لسان أنبيائه، كما حمد إبراهيم ربه، {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} ^{٩٤١}، وداوود وسليمان، {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} ^{٩٤٢}، ومما يثير الانتباه ويشد العقل للتأمل والتفكر هو اقتران الحمد في القرآن باسم واحد من أسمائه الحسنی، حيث ورد الحمد مضافاً إلى الله (الحمد لله) في إحدى وعشرين آية، ومتعلقاً به في أربع آيات منها، {وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} ^{٩٤٣}، وفي قوله: {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ} ^{٩٤٤}، ولم يضاف الحمد إلى اسم غيره من أسمائه الحسنی! ويمكن القول أن اسمه (الله) جل وعلا شامل لكل خصائص جلال الذات، ومحصى لكل ما في كمال الصفات فنسب الحمد له في كل المواضع، ولذا لا حمد إلا له.

الحميد المستوجب الحمد على ما أسبغ من نعمه، وإن لم يحمده الحامدون فهو الغني، لا ينفعه شكر ولا يضره، فمن يشكر فإنما يشكر لنفسه، {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} ^{٩٤٥}، وقد علم الحميد عباده ذلك تذكيراً لهم وتعليماً لفائدة الحمد فقال: {وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} ^{٩٤٦}، وجواب أن تكفروا محذوف لدلالة المعنى التقدير: فإنما ضرر كفركم لاحق بكم. والله تعالى متصف بالغني المطلق، والحمد سواء كفروا أم شكروا، وفي خطابه لهم تحقير لشأنهم، وتعظيم لله تعالى ^{٩٤٧}.

^{٩٤١} إبراهيم ٣٩.

^{٩٤٢} النمل ١٥.

^{٩٤٣} القصص ٧٠.

^{٩٤٤} الروم ١٧-١٨.

^{٩٤٥} لقمان ١٢.

^{٩٤٦} إبراهيم ٨.

^{٩٤٧} البحر المحيط، ج ٧، ص ١٣٧.

وهو الحميد المحمود، وإن كفره من كفره، كما قال: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} ٩٤٨، وقال تعالى: { فَكْفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ } ٩٤٩، فهو محمود في ذاته لا يضره الإعراض عن شكره بالتقرب إليه بشيء من نعمه جل جلاله ولا ينفعه فهو النافع والضرار لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يصفون.

والحميد مستوجب للحمد في كل حال، فهو مسخر الأشياء رحمة منه وعطاء لعبده: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَعُوفٌ رَحِيمٌ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ } ٩٥٠، هذه نعم ذكرها الله سبحانه فأخبر عباده بأنه سخر لهم ما يحتاجون إليه من الدواب والشجر والأنهار وجعله لمنافعهم، وعلمهم صنع الفلك وسخرها لهم في حال جريها في البحر، وهو كثير الرأفة والرحمة حيث سخر هذه الأمور لعباده وهيا لهم أسباب المعاش، تفضلاً منه على عباده وإنعاماً عليهم، وهذه كلها من موجبات حمد الحميد سبحانه إنما عددها الله سبحانه للذكرى التي تدفع للحمد، {أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } ٩٥١.

والحميد هو المرضي لعباده بالحجة القولية والفعلية والسلوكية والعملية فهو الذي يرضى عن عباده الصالحين وهم يرضون عنه لشرف ذاته وكمال صفاته، {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } ٩٥٢، ورضوا بما أنزل الله إذ رأوه،

٩٤٨ الزمر ٧.

٩٤٩ التغابن ٦.

٩٥٠ الحج ٦٣-٦٥.

٩٥١ الزمر ٩.

٩٥٢ التوبة ١٠٠.

لَوَيْرَى الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} ٩٥٣، فحمدوا الله بما هو أهله، {دَعَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأُخِرْ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ٩٥٤ .

والْحَمِيدُ يَحْمَدُ لِأَفْعَالِهِ وَسَبَقَ التَّفْصِيلُ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ حَمِيدٌ يَحْمَدُ لِأَقْوَالِهِ أَيْضاً، فَقَدْ أَنْزَلَ إِلَيْنَا كِتَاباً، {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} ٩٥٥، فِيهِ مِنَ الْأَقْوَالِ الطَّيِّبَةِ فِي الْمَعْنَى وَالْأَسْلُوبِ الَّتِي تَهْدِي وَتُخْرِجُ الْعَبْدَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} ٩٥٦، وَفِي الْقُرْآنِ آيَاتٌ تَسَاوِي بَيْنَ الْفِعْلِ الْحَسَنِ وَالْقَوْلِ الْحَسَنِ وَهِيَ دَعْوَةٌ مِنَ الْحَمِيدِ سُبْحَانَهُ لِتَعَلَّمَ الْقَوْلَ الَّذِي يَحْمَدُ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ مِنَ الْحَمِيدِ سُبْحَانَهُ وَمِنَ النَّاسِ جَمِيعاً.

الْحَمِيدُ الْمَحِيطُ بِجَمِيعِ الْكَمَالِ، فَهُوَ الْمَسْتَحَقُّ لِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ لِدَاتِهِ وَبِمَا يَفِيضُ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي يَرْبِيهِمْ وَيَتَحَمَدُ إِلَيْهِمْ بِهَا عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَكَيْفَ إِذَا سَلَكَوا سَبِيلَهُ الْوَاضِحَ الْوَاسِعَ السَّهْلَ! ٩٥٧، فَإِنَّهُ يَزِيدُ مِنَ الْعَطَاءِ لِلْمُتَّقِينَ، {وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} ٩٥٨، وَالزِّيَادَةُ هِيَ عَطَاءُ الْحَمِيدِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} ٩٥٩ .

وَالْحَمِيدُ أَيُّ الَّذِي لَهُ الْحَمْدُ الْمَحِيطُ لِإِحَاطَتِهِ بِأَوْصَافِ الْكَمَالِ فِي حَالِ الطَّاعَةِ لَهُ وَالْمَعْصِيَةِ فَإِنَّ الْعَاصِيَ عَبْدٌ لِإِرَادَتِهِ تَعَالَى، كَمَا أَنَّ الْمَطِيعَ عَبْدٌ لِأَمْرِهِ وَإِرَادَتِهِ وَلَطْفِهِ، فَلَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ مَرَادِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ خَاضِعٌ لِحُكْمِهِ فَهُوَ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ وَبِالْمُؤْمِنِينَ عَلَى حَدِّ سِوَاءٍ، {قَدْ

٩٥٣ سبأ ٦.

٩٥٤ يونس ١٠.

٩٥٥ فصلت ٤٢.

٩٥٦ الحج ٢٤.

٩٥٧ نظم الدرر، ج ٤، ص ٣٦٣.

٩٥٨ الأعراف ١٦١.

٩٥٩ يونس ٢٦.

كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ { ٩٦٠، وقد بينت الآية أدب العشرة لما ألهبت وهيجت على المفارقة للعصاة والتبرء منهم حساً ومعنى، وإظهار ذلك لهم قولاً وفعلاً، إلى أن تحصل التوبة، ومن لم يفعل ذلك كان شريكاً في الفعل فيكون شريكاً في الجزاء كما ورد، ثم لا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وجليسه، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على السنة الأنبياء، ومن فعل ما أمره الله به كان فعله جديراً بأن يكون سبب الوصلة والقرب والمودة.

الْحَمِيدُ هُوَ الْمَحْمُودُ بِإِحْسَانِهِ إِلَى خَلْقِهِ، وَإِحْسَانُ الْحَمِيدِ بِلَا حُدُودٍ فَهُوَ إِحْسَانٌ مَعْنَوِيٌّ وَمَادِيٌّ، مَعْنَوِيٌّ بِأَنْ يَصْلِحَ أَحْوَالُ النُّفُوسِ فَيَنْزِعَ مِنْهَا الْحَسَدَ وَالْبَغْضَاءَ وَكُلَّ مَا عَمِلَ فِيهِ مِنْ شَيْطَانِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ: {وَرَفَعَ أَبْوَابَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُ رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} { ٩٦١ .

وإحسان مادي لا يمكن لبشر أن يحصيه، فهو المستحق للحمد على كل أنواع الإحسان ومنه نظام الحياة الذي يعين العبد على حياة سهلة ومريحة قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} { ٩٦٢ .

٩٦٠ الممتحنة ٤-٦ .

٩٦١ يوسف ١٠٠ .

٩٦٢ الإنعام ١ .

ومنه قوانين الطبيعة التي سنها الله للتسوية على الحق والاعتدال والتوازن فلولاها لم يكن بالإمكان تعمير الأرض، كقانون المساحة السطحية التي تؤهل السفن للعوام في البحار: {قَدْ آتَيْنَاكَ آسَافًا مِّنَ الْأَرْضِ وَمَعَكَ عَلَى الْفُلِّ الْحَمْدُ لَلَّهِ الَّذِي تَجَاءَنَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} ٩٦٣ .

وختاماً أسبحة كثيرا التزاما بالأمر في قوله تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ٩٦٤ .

اللهم يا الحميد لك الثناء والحمد والشكر اللهم إنك أحسنت خلقنا فحمداً لك، وأسبغت علينا نعمك فحمداً لك يا الحميد.

اللهم أعنا على حمدك وشكرك كما ينبغي ولا تجعلنا من الغافلين، اللهم اجعلنا من الَّذِينَ يَذْكُرُونَكَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَقُولُونَ: (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ قِنَّا عَذَابَ النَّارِ).

اللهم إنك خلقت كل شيء يسبح بحمدك فاجعلنا من المسبحين بحمدك ولا تجعلنا من الضالين الغافلين المغضوب عليهم منك المكتوب عليهم سخطك وعقابك.

اللهم لك الحمد على نعمة العقل الذي وهبته لنا وحسن التقويم الذي خلقتنا عليه، والرسول الخاتم الذي اصطفيته لنا ونحن نصلي ونسلم عليه كما أمرت، ولك الحمد على استخلافك لنا في الأرض ولك الحمد على نعمك التي أنعمت بها علينا وأكرمتنا بها، ولك الحمد على الجنة التي وعدتنا بها.

المُحْصِي

المحصي المطلق "هو الذي ينكشف في علمه حد كل معلوم وعدده ومبلغه والعبد وإن أمكنه أن يحصي بعلمه بعض المعلومات فإنه يعجز عن حصر أكثرها" ٩٦٥ . إذا المحصي المطلق

٩٦٣ المؤمنون ٢٨ .

٩٦٤ التغابن ١ .

٩٦٥ المقصد الأسنى، ج ١، ص ١٣١ .

هو الله تعالى، والمحصي النسبي هو الخليفة الذي لا يمكنه أن يحصي كل شيء ولا يمكنه أن يعده، وذلك لأن هذا الصفة المطلقة في الإحصاء والعد لكل شيء من صفة الله تعالى وهو المحصي بالمطلق سبحانه جل جلاله.

المحصي هو العالم بكل أمر وهو المنبىء عن عدد كل معدود وهو القادر على كل شيء متى شاء سبحانه ما أعظم شأنه^{٩٦٦}.

أَحْصَى الشَّيْءَ أَحَاطَ بِهِ، وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا، أَي أَحَاطَ عِلْمَهُ سُبْحَانَهُ بِاسْتِيفَاءِ عَدَدِ كُلِّ شَيْءٍ^{٩٦٧}، فَهُوَ الْمَحِيطُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِكُلِّ جِزْئِيَّاتِ الْأَكْوَانِ إِحَاطَةً شَامِلَةً مِنْ حَيْثُ شَمَوْلَهَا لِلظَّاهِرِ الْمَعْلَنِ وَالْبَاطِنِ الْخَفِيِّ: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}^{٩٦٨}، فَمَا قَدَّمُوا هُوَ أَفْعَالُهُمْ وَآثَرُهُمْ وَبِهَا يُؤَاخِذُونَ وَعَلَيْهَا يُؤْجِرُونَ: {مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ}^{٩٦٩}، وَقَوْلُهُ: (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) يَحْتَمِلُ وَجُوهًا:

أحدها: أن يكون ذلك بياناً لكون ما قدموا وآثارهم أمراً مكتوباً عليهم لا يبدل، فإن القلم جف بما هو كائن فلما قال: (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا) بين أن قبل ذلك كتابة أخرى فإن الله كتب عليهم أنهم سيفعلون كذا وكذا ثم إذا فعلوه كتب عليهم أنهم فعلوه.

ثانيها: أن يكون ذلك مؤكداً لمعنى قوله: (وَنَكْتُبُ) لأن من يكتب شيئاً في أوراق ويرميها قد لا يجدها فكأنه لم يكتب فقال: نكتب ونحفظ ذلك في إمام مبين وهذا كقوله تعالى: {عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى}^{٩٧٠}.

^{٩٦٦} المواقف، ج ٣، ص ٣١٠

^{٩٦٧} لسان العرب ١٣، ١٨٣.

^{٩٦٨} يس ١٢.

^{٩٦٩} غافر ٤٠.

^{٩٧٠} طه ٥٢.

ثالثها: أن يكون ذلك تعميماً بعد التخصيص كأنه تعالى يكتب ما قدموا وآثارهم وليست الكتابة مقتصرة عليه، بل كل شيء محصي في إمام مبين، وهذا يفيد أن شيئاً من الأقوال والأفعال لا يعزب عن علم الله ولا يفوته، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزَّيْرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾^{٩٧١} يعني ليس ما في الزير منحصرأ فيما فعلوه بل كل شيء فعلوه مكتوب، وقوله (أحصيناه) أبلغ من كتبناه لأن من كتب شيئاً مفراً يحتاج إلى جمع عدده، لكن أحصيناه في مضمونها لم نترك شيئاً منه كبيراً كان أم صغيراً، أي كل شيء بحساب.

الله تعالى محصي كل شيء "فلا يفوته شيء من خلقه عدا وإحصاء كما قال تعالى وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا"^{٩٧٢}.

فالمحصي محيط بالظاهر والخفي فهو الذي جاءت بشأنه هذه الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾^{٩٧٣} وإحصاء الظاهر يتمثل في الإحاطة بتفاصيله من بدء العمل به إلى انتهائه لأن الله حي لا يغفل عن شيء في السماء ولا في الأرض، وإحاطة المحصي بالأعمال لها غايات يذكرنا بها عز وجل منها لينبأ الإنسان بأعماله الخيرة والسيئة: ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^{٩٧٤}، ومنها الإحصاء لغرض إبطال هذه الأعمال: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^{٩٧٥}، وإحباط الأعمال التي لا تتبع من الإيمان بل من العادات التي يؤمن بها البشر: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^{٩٧٦}، أي ظهر بطلان أعمالهم التي كانوا عملوها من صلة الأرحام وإغاثة

^{٩٧١} القمر ٥٢-٥٣.

^{٩٧٢} تفسير أسماء الله الحسنى، ج ١ ص ٥٥.

^{٩٧٣} النحل ١٩.

^{٩٧٤} التوبة ١٠٥.

^{٩٧٥} الفرقان ٢٣.

^{٩٧٦} الأعراف ١٤٧.

المهوفين بعدما كانت مرجوة النفع على تقدير إيمانهم بها، وحاصله أنهم لا ينتفعون بأعمالهم، (هَلْ يُجْزَوْنَ) أي لا يجزون يوم القيامة، (إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أي إلا جزاء ما استمروا على عمله من الكفر والمعاصي وتقدير هذا المضاف لظهور أن المجزي ليس نفس العمل، وقيل: إن أعمالهم تظهر في صور ما يجزون به فلا حاجة إلى التقدير.

والمحصي يحيط بكل ما يصاحب هذا العمل من متعلقات كالقول مثلاً: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} ^{٩٧٧}، فالمحصي محيط بكل ذلك فإذا كان العبد ممن أطاعوا ربهم فأحبهم الله حضر العون والتوفيق والنصر وتحقق إصلاح المحصي لهذا العمل: {يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} ^{٩٧٨}، وإذا كان عمل العبد غير ذلك من المعصية والنكران فإنه أمام أمرين:

الأول: يتمثل في منع المحصي المحيط لهذا العمل، كما حصل في قصة سيدنا إبراهيم مع النمرود، فعندما أصر النمرود على حرق سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام وشرع في التنفيذ حصل المنع من المحصي المحيط سبحانه وتعالى: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} ^{٩٧٩}.

الثاني: بالإمهال لا الإهمال ومثاله قصة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون، والمتأمل في هذه القصة يحس أن الله أمهل فرعون إذ جعل نبيه يدعو إلى دين الله باللين: {قِفْؤَلَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} ^{٩٨٠}، ثم أمهله ليرى آيات الله: {قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الرِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا

٩٧٧ يونس ٦١.

٩٧٨ الأحزاب ٧١.

٩٧٩ الأنبياء ٦٨-٧١.

٩٨٠ طه ٤٤.

تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى فَتَنَّا زُجُرًا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا
النَّجْوَى قَالُوا إِنْ هَذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقِكُمُ
الْمُتْلَى فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوْا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى^{٩٨١}، وبعد أن أصر مستكبراً
على فعل السوء أحاط المحصي بعمله: {فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْرِهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ
جَمِيعًا}^{٩٨٢}.

ومعلوم أن الإمهال فيه رحمة عظيمة من المحصي لأنه يتيح للعبد العودة والتراجع عن ما
سلف منه من سوء العمل شرط أن تكون العودة قطعية من حيث الإنتهاء عن السوء السابق
والإنقلاب إلى الإحسان اللاحق لأن المحصي المحيط أمهل لكي يحصل الإنتهاء لا الرجوع
البدال على الاستمرار: {عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم مَّا إِنَّكُمْ لَخَالِفُونَ
حَاصِرًا}^{٩٨٣}، ولو سأل سائل عن تفسير عدم إمهال المحصي للنمرود وغيره من الطغاة
والكافرين مقابل الإمهال الحاصل لفرعون؟ أن المتأمل ليرى في ذلك حكمة عظيمة من لدن
المحصي الحكيم، فرعون كان له سابق إحسان في الظاهر من أفعاله على موسى إذ رياه
في بيته إلى أن أصبح شاباً: {قَالَ أَلَمْ نُزَكِّكْ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ}^{٩٨٤}، وهذا
ما أوجب اللين والإمهال والله أعلم .

وعلى الخليفة أن يحبط أعمال المفسدين في الأرض وأن يكون على حيطة حتى لا تنتشر
المفاسد وتسوء الأخلاق وتفسد القيم وتنتهي الفضائل، ولهذه الإحاطة غايات محددة كالجاء
والتميز والمنع والإبطال وكلها من واجبات الخليفة على أن يكون حازماً مع المصرين على
عمل السوء، ويمهل من يرى فيه خيراً وإن أساء أملاً بعودته عن سوء عمله، وهذا العمل
ليس بعمل في مقابل أجره كما تفعل أجهزة الأمن بل إنه العمل بالإرادة في سبيل الحق
وإحقيقه.

^{٩٨١} طه ٥٩ - ٦٤ .

^{٩٨٢} الإسراء ١٠١ .

^{٩٨٣} الإسراء ٨ .

^{٩٨٤} الشعراء ١٨ .

أما إحصاء المخفي والإحاطة به فهو مخصوص بالمحصي عز وجل، فهو الذي يعلم السر وغيره: {وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} ^{٩٨٥}، وعلى هذا القول نقول إنه تعالى قسم الأشياء على ثلاثة أقسام: الجهر، والسر . والأخفى، فيحتمل أن يكون المراد من الجهر القول الذي يجهر به، وقد يسر في النفس وإن ظهر البعض، وقد يسر ولا يظهر على ما قال بعضهم. ويحتمل أن يكون المراد بالسر وبالأخفى ما ليس بقول وهذا أظهر فكأنه تعالى بين أنه يعلم السر الذي لا يسمع وما هو أخفى منه فكيف لا يعلم الجهر، والمقصود منه زجر المكلف عن القبائح ظاهرة كانت أو باطنة، والترغيب في الطاعات ظاهرة كانت أو باطنة، فعلى هذا الوجه ينبغي أن يحمل السر والأخفى على ما فيه ثواب أو عقاب، والسر هو الذي يسره المرء في نفسه من الأمور التي عزم عليها، والأخفى هو الذي لم يبلغ حد العزيمة، ويحتمل أن يفسر الأخفى بما عزم عليه وما وقع في وهمه الذي لم يعزم عليه، ويتحمل ما لم يقع في سره بعد فيكون أخفى من السر، ويحتمل أيضاً ما سيكون من قبل الله تعالى من الأمور التي لم تظهر، وإن كان الأقرب ما قدمناه مما يدخل تحت الزجر والترغيب. القول الثاني: أن أخفى فعل يعني أنه يعلم أسرار العباد وأخفى عنهم ما يعلمه وهو كقوله: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ} ^{٩٨٦}، فإن قيل كيف يطابق الجزاء الشرط؟ قلنا معناه إن تجهر بذكر الله تعالى من دعاء أو غيره، فاعلم أنه غني عن جهرك، وإما أن يكون نهياً عن الجهر كقوله: {وَإِذْ ذَكَرْنَاكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ} ^{٩٨٧}، وإما تعليماً للعباد أن الجهر ليس لاستماع الله تعالى، وإنما هو لغرض آخر، واعلم أن الله تعالى لذاته عالم وأنه عالم بكل المعلومات في كل الأوقات بعلم واحد وذلك العلم غير متغير، وذلك العلم من لوازم ذاته من غير أن يكون موصوفاً بالحدوث أو الإمكان ^{٩٨٨}.

^{٩٨٥} طه ٧.

^{٩٨٦} البقرة ٢٥٥.

^{٩٨٧} الأعراف ٢٠٥.

^{٩٨٨} تفسير الرازي، ج ١٠، ص ٣٥٤.

ولذا فإن الفرق كبير بين الظاهر والباطن من حيث:

أولاً: الظاهر:

الظاهر هو ما ليس بكامنٍ مما يجعله خاضعا للملاحظة والمشاهدة والتعرف عليه بشكل مباشر أو غير مباشر. ولذا فالمعلومة الظاهرة تُسهم في تحليل ظواهر من بعدها، وهكذا تُحلل المعلومات وفق البيانات المشاهدة، والملاحظة والمحسوسة، سواء كانت سلوكا، أو شكلا، أو كما، أو فعلا؛ والظاهر هو الذي يتم التوقف عنده من أجل التعرف عليه، ومع ذلك ليس كل ظاهر واضحا، بل معظم الظواهر تحتاج إلى توضيح، سواء كانت ظواهر طبيعية أم اجتماعية. والتوضيح هو تبيان ذلك الظاهر بما ظهر به عن الكامن، وبما ظهر عنه من أفعال، أو أقوال، أو إنتاج، فالإنسان قيمة كامنة في الإنسان الشكل، وهكذا السلوك تصرف ظاهر من الشكل الذي له كامن.

الظاهر هو الذي لم يعد مخفيا عن المشاهدة والملاحظة ما يجعله بين للمعاملة والتعامل الموضوعي، وهو الذي من وراء ظهوره غاية، ما يجعله قابلاً للامتداد والحركة ويتجسد في السلوك والفعل بالنسبة لما يتعلق بالحياة البشرية.

الظاهر ما ليس بكامن، فالعلاقة بينهما كالعلاقة بين النية والفعل، فالنية ساكنة كامنة إلى حين تتوفر معطياتها فتتمدد من حيز سكونها إلى الظهور في الفعل والسلوك. ومثل النواة التي فيها تكمن النخلة وعندما تغرس النواة في التربة المناسبة لنموها تظهر النخلة منها للمشاهدة والملاحظة وتنتهي النواة وتصبح هي الأخرى محمولة (كامنة) في النخلة عندما تثمر.

وعليه، فالإنسان كشكل ظاهر يصعب الحكم عليه بأنه خير أو شرير إلا بعد التعرف عليه عن قرب بالمشاهدة والملاحظة والمشاركة. وكثيرا ما يكون الظاهر نتيجة للكامن، ووسيلة للتعرف عليه. ففي التحليل النفسي يكون الظاهر وسيلة للتعرف على الكامن، ويكون الكامن غاية لإصلاح الظاهر. ولهذا يتم التعرف على الكامن بالظاهر ويتم إصلاح الظاهر بإصلاح الكامن. فالسلوك كظاهر، قد يكون أمام المشاهد سويا، أو مثالا أو فيه القدوة،

ولكنه في الواقع، قد يكون غير ذلك، فالابن، أو الابنة كثيرا ما يكونا أمام أسرتهما، وخاصة الوالدين، على خلق والتزام وأدب، ولكنهما في حقيقة الأمر قد يكونا غير ذلك من ورائهما، فمن خلفهما قد يقومان بأكبر الانحرافات السلوكية، وعندما يتم إبلاغهما (إبلاغ الأبوين) بأن أحد أبنائهما منحرفا مع الاتجاهات السلبية، فإنهما قد يفورا رافضين وبغضب هذا الإدعاء، مع أنه الحقيقة، ولذلك الحكم بالظاهر على الظاهر قد لا يؤدي إلى الصواب، والظاهر قد يكون شكل وصورة، وقد يكون قولاً أو سلوكاً، ولكل منها خطوات ينبغي أن تراعى في تقصي الحقائق. في العلوم الطبية، والتحليل النفسي، لا يتوقف الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي عند المشاهد والظاهر، إلا باعتباره نقطة الانطلاق لبداية الدراسة، أو التشخيص، أو العلاج، لأن الحكم على الظاهر بمشاهدته ووصفه، أو تحليله وكأنه غاية في حد ذاته، قد لا يؤدي إلى نتائج علمية، يمكن اعتبارها والاعتماد عليها، والظاهر قد يكون مشاهداً، وقد يكون محسوساً (لموساً ومدركاً) مثل ارتفاع حرارة المريض، التي بالمس يتم التعرف عليها، وعند قياسها يمكن تحديدها بدقة، ولكن الذي يود أن يعرفه الطبيب، أو الأخصائي النفسي والاجتماعي هو معرفة الأسباب التي تكمن وراءها، وعند مشاهدة الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي لمريض مصفر الوجه، هل يتوجه هؤلاء الأخصائيون إلى معالجة الاصفرار الظاهر؟ أم إلى البحث عما يكمن وراءه من علل، وأسباب؟ لذلك يكون الاصفرار كظاهر مؤشراً إلى البحث عن كامن، لأن الاصفرار مسبب، وبما أنه مسبب، إذن لابد وأن تكون له أسباباً، ومسببين له، ولذلك قد تكون الأسباب هي الأخرى ظاهرة بعد التعرف عليها، كأن يكون سبب الاصفرار هو مرض عضوي لا قدر الله في الكبد، أو المرارة وغيرها من المسببات الظاهرة، وقد يكون السبب غير ظاهر، كأن يكون سبب اصفرار الوجه هو الخوف من الامتحان، أو من نتائج مترتبة على ارتكاب فعل يعاقب عليه الوالدين والقانون أو المجتمع أو نتيجة مواقف قد تعرضه إلى الهلاك، وهو لم يستطع اتخاذ قراره بحرية حيالها، مثل الجندي في جبهة القتال، الذي تصدر له أوامر دخول المعارك، دون أن يكون له رأى، أو حتى وجهة نظر في ذلك.

ثانيا الكامن:

هو الذي لم يباح به بعد برغم وجوده شاغل لحيز، وهو المضمون الذي عليه الظاهر، ولهذا المعرفة العلمية والمنهج الفلسفي بصفة خاصة يهتم بالظاهر والكامن في التعرف على الأشياء أو المواقف والظواهر والحالات الفردية والجماعية والمجتمعية. الكامن ما ليس بظاهر، وفي ذلك يقول الخوارزمي في كتابه (مفاتيح العلوم) الكمون هو استتار الشيء عن الحس. ويقول إبراهيم بن سيار النظام المتكلم ألمعتزلي الكمون هو: أن تكمن بعض الأشياء في بعض. وفي نظرية التعلم هو مقياس للفترة ما بين ظهور الدافع وحدث الاستجابة.

ولذا فإن الكمون هو مكن كل حقيقة، وعلاقته بالظاهر كعلاقة السكون بالحركة، فهو الموجود في الذهن أو العقل ويشغل حيزا لا تراه العينين ولكن يدركه كل عقل ناضج سليم. وهكذا تكمن الأسرار في الصدور حتى يباح بها فتنتشر في ميادين المعرفة. الكامن في حاجة للإستثارة أو الاستفزاز وقد يظهر للعيان بما يُبدل من جُهدٍ، وقد يظهر شيء منه في فلتات اللسان؛ ومعرفة الظاهر لا تتحقق إلا بالتعرف على جوهره، على أسراره وخفاياه، فالإنسان يكمن في جوهره كما يكمن في بصماته، وعليه إن دراسة الظاهر قد لا تكون غاية في ذاته، بل الغاية فيما وراءه. ولذلك فإن تحليل البصمات لم يكن الغاية منه التعرف على البصمة، بل الغاية معرفة صاحبها أولا، ثم معرفة علاقته بالفعل المرتكب أو السلوك ثانيا، وثالثا معرفة العلل والأسباب التي دفعت الإنسان إلى ارتكابه، وهنا تكمن الحقيقة موضوع البحث. وعندما يختفي الشيء عن الحس ولم يتم التعرف عليه بالمشاهد والملاحظ، يكون كامنا في الشيء ذاته. وليس معنى ذلك أن الكامن هو الذي لا يشاهد، فكثيرا من الأشياء الكامنة يمكن مشاهدتها، ولا يمكن التعرف عليها إلا بعد معرفة مكنها، فالسارق قد يقوم بفعل السرقة، ولم يتم القبض عليه، وقد يكون بيننا عند بحثنا عن السارق وأثاره لكي يبعد عنه الجريمة أو التهمة، وكأنه لم يكن سارقا، وبعد إجراء عملية المقارنة البصماتية، تم القبض عليه فكان هو السارق.

إن الإنسان كظاهر يكمن في بصماته، كما تكمن المطر في السُحب، وكما يكمن الزيت في حبة الزيتون، وهكذا يكمن الكائن في النطفة وتكمن السنبله في البذرة. وبناء على ذلك قد يكون الكامن مشاهداً، وقد لا يكون كذلك. وقد يتوحد الكامن في الظاهر كما تتوحد الأسرة في أفرادها، والمجتمع في حشوده. ولذا فإن الزواج والطلاق والأسرة والمجتمع، لا يمكن أن تشاهد، ولكنها تُلاحظ، وإلا هل هناك من يستطيع أن يراء (يشاهد) الزواج؟. لا يمكن أن يخضع الزواج للمشاهدة، بل الذي يخضع لذلك هو التقاء الزوجين (فردين) على موضوع متفق عليه بعقد شرعي ويعلن عنه ويُدعى الناس إليه. إذن الذي تتم مشاهدته، هو الزوجين الذكر والأنثى، والعقد المكتوب بينهما على ورق، والناس الذين حضروا لأجل ذلك، وهذا كله لم يكن الزواج، بل هذه مراسم الزواج. الزواج توادد، وتقارب وجداني يسمو بالزوجين إلى التباس بعضهما، حبا واشتياقا وفق اتفاق على مستقبل مشترك في مرضاة الحي الدائم، يجعل الآخرين شاهدين على ذلك بأنه الحق، ومحرضين عليه. إذن الزواج كموضوع يكمن في العلاقة بين أسرة وأسرة، وذكر وأنثى، وهذه تُلاحظ، ولا تشاهد بالعينين. والطلاق كموضوع هو الآخر يُلاحظ، ولا يشاهد، وهكذا تكمن الأسرة والمجتمع في عناصرهما المكونة لكل منهما، ولا يخضعان للمشاهدة، لأن الذي يشاهد هم الأفراد، كبار وصغار، ذكور وإناث، وحشود من البشر، وهؤلاء لم يكونوا هم الأسرة، ولا المجتمع، مع أنهم عناصر تكوينهما، فبدون علاقات مشتركة ذات معنى لا يمكن للعناصر المشاهدة أن تعطي معنى للأسرة، أو المجتمع، ولهذا تتكون معارفنا من ظاهر وكامن وتوحد بينهما. فنحن نعرف الأبوة، والأمومة، والأخوة، ونعرف الخال والجد، ونعرف أيضا أن هذه المفاهيم جميعها لا تشاهد، لأنها كامنة ومترتبة على علاقات يمكن ملاحظتها. وعليه ليس كل ما يشاهد يعد معرفة كافية، بل قد يكون الكامن هو المعرفة الوافية. ولكن من أجل المعرفة العلمية ولكي تكون متكاملة ينبغي أن لا يغفل الخليفة عن أهمية ربط المشاهد والملاحظ بالكامن حتى لا تكون معرفته قاصرة.

وللمزيد من التوضيح هل العبادات كدلائل كامنة؟ هل العبادات كسلوك مشاهد؟ فالحج على سبيل المثال، هل هو ما نشاهده من سلوك، أم أنه أكثر من ذلك؟. أن المشاهد أثناء أداء فريضة الحج هو حشود من البشر، ترتدي زيا موحدًا (الإحرام) وتقوم بحركات واحدة في مواقيت معينة، ويلحظ عليها التعاون، والإنضباط، والمساواة في أداء الفرائض، وأنه لا رئيس لهذه الحشود من البشر (الحجيج) ولا فوارق بينهم. فهل هذا السلوك المشاهد، والملاحظ هو الحج؟. في اعتقادنا السلوك الظاهر، هو السلوك العملي لأداء فريضة الحج، ولم يكن الحج في ذاته. فالحج عقيدة وإيمان بوحداية الله، واعتراف بقُدسية ذلك المكان، الذي تهدمت فيه الأصنام والأوثان، ويقين بأن ما قام به محمد عليه الصلاة والسلام من سلوك، هو الحق الذي يستوجب الإتيان. ولهذا لو لم يكن هناك مدلولًا كامنًا لفريضة الحج، ما كان هناك ظاهر سلوكيا له^{٩٨٩}.

وعليه فإن الإحاطة بالسر شامله من قبل المحصي لتشمل كل مخلوقاته وفي كل الأكوان: **﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾**^{٩٩٠}، وصفه تعالى بإحاطة علمه بجميع المعلومات الخفية والجلية المعلومة من باب أولى للإيدان بانطواء ما أنزله على أسرار مطوية عن عقول البشر مع ما فيه من التعريض بمجازاتهم بجناياتهم المحكية التي هي من جملة معلوماته تعالى أي ليس ذلك كما تزعمون بل هو أمر سماوي أنزله الله تعالى الذي لا يعزب عن علمه شيء من الأشياء^{٩٩١}.

ويدل استخدام المحصي للفظه كل في آيات القرآن الكريم على إحاطته الشاملة بالأشياء لأن دلالة لفظه كل تدل على الإحاطة^{٩٩٢}، والإحاطة هي استيعابية، والاستيعاب هو: قيمة احتوائية لا إقصائية، تعتمد تقبُّل الآخر والاعتراف بوجوده وبممارسة حقوقه وأداء واجباته وحمل مسؤولياته، دون إكراه أو إجبار. واستنادا على مبدأ التقبل يستوعب الخليفة

^{٩٨٩} الموسوعة القيمية، في مهنة الخدمة الاجتماعية، عقيل حسين عقيل ص ٣١٥..

^{٩٩٠} الفرقان ٦.

^{٩٩١} تفسير الألوسي، ج ١٤، ص ٣٧.

^{٩٩٢} المحيط في اللغة، ج ٢، ص ٢١.

بني جنسه هم كما هم لأجل أن يسهم في نقلهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه في مرضاة المحصي جل جلاله. ولذا لا تتم دراسة الحالات ولا تتم عمليات التفاوض ولا تُحل المشاكل بين الناس إلا بالاستيعاب الذي يُحفّز على التقارب ويؤدي إلى التفاهم. الاستيعاب يُمكن المستخلفين في الأرض والوارثين فيها من الإلمام بما حولهم ومتغيراته السلبية والإيجابية المؤثرة في أمرهم بشكل مباشر أو غير مباشر، ولذا ينبغي على الخليفة أن لا يغفل عن الآتي:

١ - استيعاب الإيجابيات، والتأكيد عليها، ونقلها للآخرين بوسائل مبسطة، تمكنهم من التعرف عليها، وتحفّزهم على العمل بها.

٢ - استيعاب السلبيات، وتحديدّها، وإبراز عيوبها وأسبابها والعمل على إزالتها، وتنقية الموضوع منها، وتبيان الأضرار التي قد تنجم عنها.

وبناء عليه لم يكن التحليل الاستيعابي إيقائي بالتمام، ولم يكن غرضه تثبيت المعلومات كما هي (سالبها وموجبها) بل انه تحليل تثبيتي إيزالي، به تُثبت المعلومات الموجبة، وتُزال السالبة، ولهذا يتم استيعاب المعلومات السالبة كما يتم استيعاب المعلومة الموجبة، من أجل معرفة نقاط الاتفاق والاختلاف، حتى تتم عمليات التثبيت للموجب المُفضّل، والإزالة للسالب غير المفضل.

الاستيعاب قيمة احتوائية، تقبل بالاختلافات وتعمل على احتوائها. من طبيعة الخلق لا يتساوون في القدرات والاستعدادات والمهارات ولا حتى في الرغبات والحاجات، ولا في درجة الفهم والمعرفة، ولذا فمن الضرورة سيكون الاختلاف الذي يستوجب التقدير، حتى تتم الفروق الفردية بين الناس وبعضها البعض. ولهذا كل مفردة هي في حالة نقص، ولا تستكمل إلا بآخر يستوجب الاستيعاب. وإن لم يحدث الاستيعاب تصبح الفرقة بين الناس هي السائدة، ولأجل ذلك فإن قيم المشاورة وحدها التي تمكن من الاستيعاب. وبدونها لا يمكن أن يتحقق التفهم والتفاهم بين الأفراد والجماعات والمجتمعات.

الاستيعاب عملية تفاعلية بين الأنا والآخر تعتمد على القيم الآتية:

- ١ . الفهم: فهم الموضوع أو الحالة والإلمام التام بها، من حيث تاريخها، وما يؤثر فيها بالسلب والإيجاب، وفهم متغيراتها وعللها وأسبابها ومراميها والغايات التي من ورائها.
 - ٢ . التفهّم: تفهم الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والنفسية والذوقية والثقافية التي تلم بالإنسان، ومراعاة أثارها على المستوى الفردي والجماعي والمجتمعي.
 - ٣ . الاعتراف: الاعتراف بالفرد مواطن من حيث أن له حقوق ومن حقه أن يطالب بها ويمارسها. وأنّ له واجبات ويقدم على أدائها. وأنّ له مسؤوليات فلا يتأخر عن حملها، وتحمل ما يترتب عليها من أعباء.
 - ٤ . التقدير: تحسيس ابن آدم بأنه قيمة في ذاته، وأنه مُقدّر في شخصه وفي قراراته، ومشاعره وخصوصيته، وفيما يرغب أو يقبل أو يرفض.
- وإذا تحققت الإحاطة حصل الإحصاء وهو إحاطة العلم باستقصاء العدد^{٩٩٣}، ومن وجوه هذه الإحاطة إحصاء عمل النفوس وهو غير عمل الأبدان وسبق التفصيل في أنواع النفوس وعملها في مبحث سابق، يقول عز وجل: لِيَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ^{٩٩٤}، وهذا الإيجاد إنما بقدرة المحصي من حيث الإحاطة بما سبق لهم من الأعمال التي أحصاها الله عليهم، فالخير كله محصى والشر كذلك، وفي ضوء هذا الإحصاء يكون الجزاء: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}^{٩٩٥}، وتوفية الشيء: إتمامه دون نقص، فأما الذين اتقوا وصبروا فتوفية كسبهم تكون بغير حساب: {إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب}^{٩٩٦}، وهذا يدل على الزيادة والكثرة في الجزاء بأسباب إتباع الحق، والأنتهاء عما يجب الأنتهاء عنه، أما أصحاب السيئات فلا

٩٩٣ العين، ج ١، ص ٢٢٧.

٩٩٤ آل عمران ٣٠.

٩٩٥ البقرة ٢٨١.

٩٩٦ الزمر ١٠.

يجزون إلا مثلها: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} ٩٩٧.

ومن دواعي الإحاطة الموجبة للجزاء بالخير أو الشر الإحصاء العددي، وفي ذلك عظيم الحكم من لدنه سبحانه، فهذه الأعمال التي يحصي الله عددها ستكون شاهدة يوم الحساب، ويقال أحصيت الشيء إحصاءاً إذا عدته دون غفلة مع تيقن تام بالأمور المحصية، والله تعالى محصي كل شيء فلا يفوته شيء من خلقه عدا وإحصاء، ويشير المحصي إلى هذا الإحصاء العددي في آياته المحكمات: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} ٩٩٨، وهذا الإحصاء العددي شامل للكليات والجزئيات: {لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} ٩٩٩، أما قوله تعالى: (وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ) فهو يدل على كونه تعالى عالماً بالجزئيات، وأما قوله: (وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) فهو يدل على كونه عالماً بجميع الموجودات، وبهذا علينا أن نميز بين الكل والجزء والمتداخل حتى نتبين المسألة الإحصائية في مثل هذه الأشياء:

أولاً: الجزء: الجزء هو المختزل في الكل، والمحتوى على المتجزئ والمختزل له، فكلمة رجل، تختزل كل الرجال فيها، وهي جزء من كلمة إنسان. وكلمة عصفور، تتكون من كل العصافير المتجزئة من كلمة طير، وبمختلف أنواع العصافير وأشكالها وألوانها، وأماكن تواجدها. ولذلك فهناك من ينتقل في تفكيره وتحليله من الكل إلى الجزء، وهناك من ينتقل من الجزء إلى الكل. فهذه طرق وأساليب لا ينبغي قولبتها، بل يفضل أن تكون المرونة في استعمالاتها. ولهذا لا جزء إلا من كل، ولا كل إلا وهو المركب من الأجزاء المتصلة والمنفصلة والمندمجة. فجسم الإنسان كوحدة واحدة كلي، وأطرافه أجزاء منه، والفؤاد كذلك،

٩٩٧ الأنعام ١٦٠.

٩٩٨ مريم ٩٣. ٩٥.

٩٩٩ الجن ٢٨.

والقلب جزء من الفؤاد، والبطين جزء من القلب. والإنسان كفرد، جزء من الجماعة، والجماعة جزء من المجتمع، والمجتمع جزء من الأمة، والأمة جزء من البشرية على مستوى المعمورة، وهكذا يتعدد البشر والمستخلفين فيها.

ثانيا الكُل: هو المشتمل على كل جزء ومتجزئ في دائرة النسبية والممكن المتوقع وغير المتوقع. فالإنسان كمفهوم كلي يختزل كل البشر من حيث المضمون والجوهر، وهكذا كلمة الطير تختزل كل الطيور، ومثلها كلمة النبات تختزل كل النباتات بجميع أنواعها وأشكالها، ومثلها أيضا الحيوان. فأني إنسان أعني؟ الرجال أم النساء أم الشيوخ أم الأطفال، أم ماذا أعني؟. وأي طير أعني، هل أعني بذلك الحمام، أم الصقور، أم الغربان أم ماذا؟ وأي نبات أعني؟ وأي حيوان أعني؟.

وعليه فالكل احتوائي يحمل في مكوناته الجزء والمتجزئ منه. ولهذا فهو شمولي يُطلق على كل من يشتركوا في النوع والصنف، أو الصفات والخصائص والمهن والحرف. وقد يكون الشكل كلي عندما يستقل عن غيره، وقد يكون جزءاً عندما يقارن أو يرتبط بغيره ممن تربطه به علاقات في الكم أو الكيف. فالشكل الرباعي الذي مساحته على سبيل المثال تساوى افتراضاً ٤٠٠ متر مربع، يكون طول ضلعه ٢٠ متراً. ولذلك فالمربع ككل يتجزأ إلى أربعة أجزاء، وكل جزء يتجزأ إلى ٢٠ متراً، ولهذا ينقسم الكل إلى أجزاء، والأجزاء تنقسم إلى متجزئات، وهكذا إلى النهاية. فعندما تُقطع مسافة ٥٠٠ متر عدواً، قد يُنظر إلى هذه المسافة بمنظور كلي، ولكن إذا ما قارنا هذه المسافة بمسافة ١٠٠٠ متر تصبح تلك المسافة جزء وليس بكل، وهكذا إذا ما قارنا مسافة الآلف متر بمسافة ٢٠٠٠ متر، يصبح الآلف السابق جزء من كل، وهكذا دائماً الكل يتجزأ إلى النهاية.

ومع أن كل جزء قابل لأن يتجزأ، إلا أن المعرفة التامة قد لا تتم إلا بمشاهدة وملاحظة الكل، فالفرد من البشر هو كل من حيث أنه مفردة مستقلة بذاته، فعندما يتولى حالته باحثاً أو أخصائياً اجتماعياً بالدراسة فلا بد من دراسته ككل وحدة واحدة. ولكن إذا ما قورنا من حيث الكم ببقية البشر الآخرين فيصبح مفردة متجزئة وليس بكل. وإذا ما كنت عضواً في

لجان تحكيم جميلات العالم فإنك ستنتظر للجمال ككل برغم أنك ستكون مهتما بأخذ مقاييس للجزء والمتجزئ. ومع ذلك سَتَقُومُ المُشَارِكَات من حيث التناسق الكلي حتى تستطيع أن تصدر حكماً مع الآخرين بأن هذه الفتاة أو تلك هي جميلة ككل أو كوحدة وأحدة. وبمقارنتها مع الأخريات تصبح هي الأخرى جزءاً من مجموع المشتركات في المنافسة أو التسابق الجمالي.

ثالثاً: التداخل: هو المختزل للنوع، أو الصفة، أو الشكل، أو المهنة أو الحرفة، والذي وجوده قد يؤثر فيه متغير مستقل، ويجعله مؤثراً في متغير لاحق، فكلمة ذكر تتداخل فيها عدة أنواع، باشتراكها في الذكورة. الذكر من البشر، ومن الحيوانات، والطيور، والنبات. والغضب، تتداخل فيه الحيوانات مع الإنسان، والطيور والأسماك، ولذلك الغضب كمتغير تابع يتأثر بمتغير سابق أو مستقل، ويؤثر في متغير تابع أو لاحق، والتحليل العلمي هو الذي يتبين هذه التداخلات ويبينها، ويميزها عن بعضها بالمحتوى والسلوك.

والدين كمتعقد يكون عدداً كبيراً من القيم الاجتماعية والعرف كذلك له هذه الأهمية، والثقافة المتجددة هي الأخرى ذات أثر على تطوير القيم أو تغييرها ولذلك تتداخل مصادر المعرفة في تكوين القيم وتحسينها من وقت لآخر.

ولذا فقولته تعالى: (كُلُّ شَيْءٍ) في الآيات السابقة الذكر يدل على كونه غير متناه، فلزم وقوع التناقض في الآية، قلنا: لا شك أن إحصاء العدد إنما يكون في المتناهي، فأما لفظة (كُلُّ شَيْءٍ) فإنها لا تدل على كونه غير متناه، لأن الشيء عندنا هو الموجودات، والموجودات متناهية في العدد، حيث كل شيء أحصاه وعده عداً. وقوله: (وأحصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) يقتضي كون تلك المحصيات متناهية، وحتى يزال اللبس والغموض من قضية التناهي فعلينا تبيانه بأسباب علاقته بالمحصيات.

المتناهي: لتحديد ما يدل عليه التناهي أطرح الأسئلة التالية:

هل كل شيء في الوجود له نهاية، أم لا نهاية له؟.

هل الحياة الدنيا التي نود التعرف عليها باقية إلى مالا نهاية، أم أنها منتهية؟. وبما أن الحياة منتهية إثباتاً، فإن ذلك يعنى أن كل مخلوقات منتهية، وبما أن كل مخلوقات منتهية، والمخلوقات كم عددي يمكن إحصاؤه بالنسبة للخليفة في دائرة النسبية، ويمكن إحصاؤه بالنسبة للخالق المحصي في دائرة المطلق، إذن كل كم في الدنيا مُنتهٍ حتى حبات الرمل، وقطرات الماء ورذاذه.

إن الحياة الدنيا التي نود التعرف عليها والتطور فيها لن تكون باقية إلى مالا نهاية، بل إنها منتهية. ولأننا نعرف إثباتاً أن للحياة نهاية فلا نتفق مع الذين يقولون غير ذلك. فلا تحليل إلا لوجود، ولا تحليل إلا بوجود، ولكل شيء بداية ونهاية قال تعالى: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، وهكذا يستمر الوجود، والتفكير، والتغيير، والتحليل إلى النهاية، والذين يعتقدون في وجود ألامتناهي رياضياً، هم كمن يلهث وراء السراب من أجل أن يروى ظمأه. ولهذا يحدث الاختلاف مع البعض الذين يطلون القضايا والمسائل الرياضية، وهم معتقدون في وجود ألامتناهي ، ومن أجل ذلك أ طرح السؤال الآتي:
هل ألامتناهي موجود؟.

قد تكون إجابتهم بنعم، وقد تكون بلا، فإذا كانت الإجابة بنعم. فإنهم فتحوا لنا المجال بأن نطالبهم بإثباته، وإذا أثبتوه، أثبتوا أن له بداية ونهاية، وإذا كانت له بداية ونهاية، فإنه أصبح موجوداً (المتناهي)، ولم يكن ألامتناهي، أما إذا كانت الإجابة بلا، إذن نفوا وجود ألامتناهي. وبما أنه أصبح غير موجود، إذن لا حجة لهم علينا، ولنا عليهم حجة.

والمنطق العلمي وخاصة الرياضي منه، لا يعترف بمسلمات إلا بعد إثبات. وعليه إذا اعتبروا أن ألامتناهي مسلمات، فإنهم اعترفوا بأنه مثبت، وإذا كان مثبتاً كان موجوداً، وبما أنه موجود، إذن له بداية ونهاية، وإذا كانت له بداية ونهاية، فإنه لم يكن ألامتناهي. يقول الله تعالى في سورة الحديد: {هو الأول والآخر} سبحانه وتعالى أنه البداية التي لم يكن من

قبلها شيء، والآخر بلا نهاية الذي جعل للنهار بداية ونهاية، ولليل بداية ونهاية، وللعمر بداية ونهاية، وللتفكير بداية ونهاية، ولكل الوجود بداية ونهاية. وعليه إذا كان لكل شيء بداية ونهاية، والأعداد شيء، إذن للأعداد بداية ونهاية. وإذا سلمنا بأن لكل بداية ونهاية، وان للأعداد بداية، إذن لابد وان تكون لها نهاية محصورة، ولكن هل تستطيع قدراتنا العقلية المحدودة (التي لها بداية ونهاية) أن تكتشف هذه النهاية، أو لا تكتشفها؟. هذه مسألة تتعلق بمدى استخدامنا لقدراتنا العقلية، التي تتطور وتتغير عبر الزمن إلى النهاية، فما نعتبره استحالة اليوم، قد لا يكون كذلك غدا. ولذلك لا مكانة في العلم للأحكام المطلقة مسبقا.

اللامتناهي رياضيا لا وجود له إلا افتراضا، وبما أنه افتراضا، إذن لم يكن مثبتا بعد، فالافتراضات العلمية التي تصاغ بهدف دراسة المواضيع ليست يقينية. بل أنها احتمالية شكية، قد تثبتتها الدراسة وقد تبطلها. وإذا كان لكل كم نتيجة محددة ودقيقة، أي إذا كان لأي كم هو نتيجة حاصل الجمع، أو الطرح، أو القسمة، أو الضرب، وسواء في التربيع أو التكعيب، أو غيرها من المسائل الحسابية، وبما أنه بالإمكان الحصول على هذه النتيجة كحاصل للعمليات الحسابية السابقة، إذن لا مكان بينها إلى اللامتناهي إلا افتراضا. وبما أنه كذلك، إذن لا مصادق لوجوده. وإلا هل هناك كم حسابي يقبل القسمة والجمع والطرح، ولم تكن له نتيجة (نهاية)؟.

لا وجود لذلك. ولهذا اللامتناهي لا وجود له إلا افتراضا.

إن افتراض وجود اللامتناهي، مثل الافتراض الذي يقول: (يظل المستقيم مستقيما مهما أمتد). هذا الافتراض لا مصادق له، لأن المستقيم إذا أمتد إلى المشار إليها، لا يمكن أن يكون مستقيما، بل يكون دائرة وهكذا حال أي مستقيم يبتدئ بنقطة وينتهي بنقطة.

يقول أرسطو يجب التمييز بين اللامتناهي بالقوة. وبين اللامتناهي بالفعل، وهو يقر بوجود الأول، وينكر وجود الثاني. وهذا يعني عدم اعترافه بوجود اللامتناهي إلا نظريا، أما واقعا فلا وجود له. وهذا حال الفكر اليوناني عامة الذي ينظر إلى العالم على أنه متناه. وعليه أتساءل: كيف يؤمن أرسطو بوجود اللامتناهي بالقوة، ولا يؤمن بوجود اللامتناهي بالفعل؟.

إذا كان المتناهي موجودا بالقوة يكون بالضرورة موجودا بالفعل. وإذا لم يكن موجوداً بالفعل، فلا وجود له بالقوة. وإلا هل يحق لنا أن نقول أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وهي في حقيقتها من الناحية الفعلية لا تنهى عن الفحشاء والمنكر؟. إذا كانت كذلك فإنها لم تكن الصلاة.

الصلاة هي التي تنهى عن ذلك بالقوة والفعل. وإذا وجدنا مسلماً يصلي ولم ينته عن ارتكاب الفواحش والمنكرات، فالعيب هنا لم يكن في الصلاة، بل العيب في المصلي الذي لم يدخل الإيمان قلبه بعد. ولمَّا يدخل الإيمان قلبه سينتهي عن ارتكاب كل ذلك، وتكون الصلاة في هذه الحالة حقيقة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي. قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^{١٠٠١}، وقال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾^{١٠٠٢}.

ولذا وفقاً للمنطق العلمي لكل بداية نهاية، والذي لا بداية له ولا نهاية لا يقبل القسمة ولا الجمع ولا الطرح بنتائج دقيقة ومحددة، وليس له منتصف أو مركز يحدد نزوعه وتشتته مما يجعله معدوم التعامل الحسابي.

وعليه فقد كان الإحصاء مخصوصاً بخلق الرحمن: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾^{١٠٠٣}، أي لقد أحصى الرحمن خلقه كلهم، وعدّهم عدّاً، فلا يخفى عليه مبلغ جميعهم، وعرف عددهم، فلا يعزب عنه منهم أحد (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) يقول:

^{١٠٠١} الحجرات ١٤-١٦.

^{١٠٠٢} العنكبوت ٤٥.

^{١٠٠٣} مريم ٩٤-٩٥.

وجميع خلقه سوف يرد عليه يوم تقوم الساعة وحيدا لا ناصر له من الله، ولا دافع عنه، فيقضي الله فيه ما هو قاض، ويصنع به ما هو صانع^{١٠٠٤}.

والمحصى يبين لنا آيات إحصاء العدد لتحقيق الفائدة التي تعين الخليفة في أعمار الأرض، فكل شيء خلقه المحصى بقدر معلوم: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}^{١٠٠٥}، ويبدو ذلك على عدة صور منها:

١ . موارد الحياة بيد المحصى وهو ينزلها بقدر محسوب عددياً بحيث تحصل الفائدة: {وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ}^{١٠٠٦} .

٢ . الأفلاك وحركتها: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ}^{١٠٠٧}، (لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا) لحدّ لها مؤقت مقدر تنتهي إليه من فلکها في آخر السنة، أو لمنتهى لها من المشارق والمغرب؛ فذلك حدّها ومستقرّها؛ لأنها لا تعدوه أو لحدّها من مسيرها كل يوم في مرأى عيوننا وهو المغرب، و(ذَلِكَ) الجري على ذلك التقدير والحساب الدقيق الذي تكل الفطن عن استخراجهِ وتثحير الأفهام في استنباطه، ما هو إلا تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور، المحيط علماً بكل معلوم. والمعنى: أنّ الله تعالى قسم لكل واحد من الليل والنهار وأبتيهما قسماً من الزمان، وضرب له حدّاً معلوماً، ودبر أمرهما على التعاقب، فلا ينبغي للشمس: أي لا يتسهل لها ولا يصحّ ولا يستقيم لوقوع التدبير على المعاقبة، وإن جعل لكل واحد من النيرين سلطان على حياله (أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ) فتجتمع معه في وقت واحد وتداخله في سلطانه فتطمس نوره، ولا يسبق الليل النهار يعني آية الليل آية النهار وهما النيران، فإن قلت: لم جعلت الشمس غير مدركة، والقمر غير سابق؟ قلت: لأن الشمس لا تقطع فلکها إلا في سنة، والقمر يقطع فلکه في شهر.

^{١٠٠٤} تفسير الطبري، ج ١٨، ص ٢٦١.

^{١٠٠٥} القمر ٤٩.

^{١٠٠٦} الحجر ٢١.

^{١٠٠٧} يس ٣٨-٣٩.

٣ . الليل والنهار: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِّضُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} ١٠٠٨ .

٤ . الرزق: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} ١٠٠٩ .

٥ . المطر: {وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} ١٠١٠ ،
والقدر هنا محسوب بقدر الحاجة إليه فإذا نقص حل العوز وإذا زاد أفسد وفي ذلك آية من آيات المحصي عز وجل .

٦ . جزاء الآخرة: ومثاله ما ذكر المحصي من دقه حساب الحاجة: {قَوَارِيرٍ مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا} ١٠١١ على قدر حاجتهم إلى ما فيها من شراب لا يزيد ولا ينقص ليكون ألد لشربهم .

لذا توجب على الخليفة أن يلم بإحصاء ما عنده وما يعينه على إعمار الأرض وتحقيق العدل عليها وأن يعي ما في الإحصاء من فائدة في أي عمل من أعماله على الأرض، والإحصاء دليل يقظة وتيقن ولم يكن دليل غفلة وتسيب.

ومن صور شمول الإحصاء ما ذكر المحصي عن الحيوان: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

١٠٠٨ المزمّل ٢٠ .

١٠٠٩ الشورى ٢٧ .

١٠١٠ الزخرف ١١ .

١٠١١ الإنسان ١٦ .

يُحْشَرُونَ}١١٢، والمعنى أن دبرها الله تعالى وخلقها وتكفل برزقها، والمراد أنه تعالى كما أحصى في الكتاب كل ما يتعلق بأحوال البشر، من العمر والرزق والأجل والسعادة والشقاوة فكذاك أحصى في الكتاب جميع هذه الأحوال في كل الحيوانات والدليل عليه قوله تعالى: (ما فرطنا في الكتاب من شيء)١١٣.

المحصي عليم محيط بكل أمر، فالمُحْصِي هو الذي أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ بِعِلْمِهِ فلا يَفُوتُهُ دَقِيقٌ ولا يَغْفُلُ عما هو أدق، يقول المحصي عز وجل: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يُكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)١١٤، أكد المحصي بيان كونه عالماً بكل المعلومات فقال: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)، ألم ترى لا يقصد منها رؤية البصر، بل يقصد بها الرؤية المعرفية التي يملؤها الإيمان بلا تردد، ولكنه معلوم بواسطة الدلائل، ويعلم تدل على اليقين الكامل الذي لا يشوبه شك ولا ظن، وكل من كانت أفعاله كذلك فهو عالم، ودلائل علمه كثيرة منها:

- ١- محسوسة مشاهدة في عجائب السموات والأرض، وتركيبات النبات والحيوان.
- ٢- بديهية، ولما كان الدليل الدال على كونه تعالى كذلك ظاهراً لا جرم بلغ هذا العلم والاستدلال إلى أعلى درجات الظهور والجلال، صار جارياً مجرى المحسوس المشاهد، فلذلك أطلق لفظ الرؤية فقال: (أَلَمْ تَرَ) وأما أنه تعالى عالم بجميع المعلومات، فلأن علمه علم دائم، فلو تعلق ببعض دون البعض من أن جميع المعلومات مشتركة في صحة المعلوماتية لافتقر ذلك العلم في ذلك التخصيص إلى مخصص، وهو على الله تعالى محال، فلا جرم وجب كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات، واعلم أنه سبحانه قال: (يَعْلَمُ مَا فِي

١١٢ الأنعام ٣٨.

١١٣ تفسير الرازي، ج ٦، ص ٢٧٨.

١١٤ المجادلة ٧.

السموات وَمَا فِي الْأَرْضِ) ولم يقل: يعلم ما في الأرض وما في السموات وفي رعاية هذا الترتيب سر عجيب ^{١٠١٥}.

فالمحصي هو العالم ولكن إذا أضيف العلم إلى المعلومات من حيث يحصي المعلومات ويعدها ويحيط بها سمي إحصاء والمحصي المطلق هو الذي ينكشف في علمه حد كل معلوم وعدده ومبلغه، والعبد وإن أمكنه أن يحصي بعلمه بعض المعلومات فإنه يعجز عن حصر أكثرها، فهي لا تحصى، مصداقا لقوله تعالى: {وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} ^{١٠١٦}

والمحصي هو العالمُ بِمَقَادِيرِ الْحَوَادِثِ مَا يُحِيطُ بِهِ مِنْهَا عُلُومُ الْعِبَادِ، وَمَا لَا يُحِيطُ بِهِ مِنْهَا عُلُومُهُمْ، كَالْأَنْفَاسِ وَالْأَرْزَاقِ وَالطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالْقُرْبِ، وَعَدَدِ الْقَطْرِ وَالرَّمْلِ وَالْحَصَا وَالنَّبَاتِ وَأَصْنَافِ الْحَيَوَانَ وَالْمَوَاتِ وَعَامَّةِ الْمَوْجُودَاتِ، وَمَا يَبْقَى مِنْهَا أَوْ يَضْمَحِلُّ وَيَفْنَى، وَهَذَا رَاجِعٌ إِلَى نَفْيِ الْعَجْزِ الْمَوْجُودِ فِي الْمَخْلُوقِينَ عَنِ إِدْرَاكِ مَا يَكْثُرُ مِقْدَارُهُ وَيَتَوَالَى وُجُودُهُ ^{١٠١٧} فهو القادر الذي لا يعجز عن إحصاء خلقه بالعلم والإحاطة بقدرته الكاملة التي بها أحصى كل شيء عددا، ولهذا كل شيء متناه ولا وجود في علمه وحسابه وإحصائه لما يسمونه بما لأنهاية. قال تعالى: {يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي}. ربي، الأول والآخر. وهو الواحد الذي لا يتعدد، وبالتالي لا يقع في شك الفلاسفة والرياضيين المتجادلين على النهاية واللأنهاية. ولهذا قدرات الله لا تحصى ولا تقاس بالقدرات البشرية المخلوقة، ولا هي موضع مقارنة، ولا يمكن أن تدخل في حساباتنا المتناهية بقصورها أمام قدرته. وهكذا دائما المخلوق أقل قدرة من خالقه الذي يعلم بأمر كل شيء وقد أحصى كل شيء عددا.

^{١٠١٥} تفسير الرازي، ج ١٥، ص ٢٦٩.

^{١٠١٦} إبراهيم ٣٤.

^{١٠١٧} الأسماء والصفات للبيهقي، ج ١، ص ١١٧.

وبناء على ذلك هل للأعداد بداية ونهاية؟ الأعداد مهما كبرت فإنها تبتدئ بواحد وتنتهي بواحد، إذن الواحد هو البداية، والنهاية، وإذا لم نصل بقدراتنا العقلية إلى معرفة وجود النهاية العددية، فإن ذلك لا يعنى إثبات عدم وجودها، بل انه دليل على قصور قدراتنا العقلية، والفكرية، التي لم يستخدم منها إلا القليل جدا من سعتها الإدراكية، والاستيعابية، وهذا يتطلب من الخليفة عدم اليأس، ويدفعه إلى البحث الجاد، والتقصي الدقيق، ولذلك لا نياس مثل الذين {يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور}. والآخرة هي التي تكتمل بها البداية، وتنتهي، كما تبتدئ الأعداد (أي أعداد) بواحد، وتنتهي به، مما يجعل الواحد ككل، أو كجزء هو البداية والنهاية، قال تعالى: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ١٠١٨

وما لأنهاية، هو الذي لا يشاهد، ولا يحس به، وهو احتمال، لم يخضع للإثبات، وإذا عرفناه أصبح نهاية، والأعداد سواء بالسلب، أو بالإيجاب تستمر في تضاعف إلى النهاية (نهاية الشيء المعدود، أو نهاية الذي يقوم بفعل العد).

ومثالا على ذلك: إذا اتجه أحد المتخصصين في دراسة الرياضيات من نقطة معينة على الأرض في اتجاه مستقيم، فإنه بالضرورة يصل إلى النهاية، لأن لكل بداية نهاية، ولكنه لو انحرف قليلا، أو كثيرا عن خط سيره، فإنه يجد نفسه مستمرا في اتجاهه، دون أن يمر بنقطة النهاية، وكأن الأرض ليست دائرية، وهكذا في كل دورة على الأرض إذا لم يصل إلى نقطة البداية التي وضعها أو أنطلق منها كدليل ثابت يسترشد به، وفي هذه الحالة قد يحكم على الأرض بما لأنهاية، وهو يعرف مسبقا أنها منتهية.

وعليه أتساءل: هل في دراستنا للأشياء والمواضيع في دائرتها، أو فلكها المنتهى، تكون غير منتهية؟. نحن نعرف أن كل شيء ندرسه، أو خاضعا للدراسة، لا يخرج عن حيز من الزمان، والمكان، وهو أيضا لا يخرج عن حيز تفكيرنا وقدراتنا العقلية. إذن كل ما ندرسه ونبحث فيه، هو في إطار محدود، مع فارق حدوده مع غيره، إذا قورن به، وبما أن ما

ندرسه في إطار محدود، ألا يكون لِمَ ندرسه حدود ونهايات؟ إذا قمنا بإحصاء عدد سكان الصين على سبيل المثال ، فمهما كان عددهم فإن له نهاية، لأن المكان الذي استهدفناه محدد، إذن مسبقا نعرف أن لعدد سكان الصين نهاية، مع أننا لا نعرف عددهم بعد. وإذا قمنا بتعداد سكان العالم، وحيواناته، وطيوره، وأسمائه، ونباتاته، وحتى حبات رمل، ألا نصل إلى النهاية؟ . بالتأكيد سنصل، لأن كل هذه الكائنات في رقعة جغرافية محددة بالكرة الأرضية المتناهية، إذن لا بد وأن تكون لها بداية ونهاية، مع العلم أن بعض الذين سيشاركون في التعداد قد ينتهون قبل أن يعرفوا النهاية، وإذا خرجنا بقدراتنا العقلية إلى التعرف على ما هو خارج الأرض، فإننا سنعرف بقدر ما تستوعبه عقولنا وتفكر فيه، ولا نستوعب ولا نتعرّف على ما هو خارج عنها. وبما أن لكل شيء بداية. إذن لا بد وأن تكون له نهاية. وبما أن التطور شيء (سواء كان ماديا أو مجردا) إذن لا بد وأن تكون له بداية ونهاية. وعليه لا وجود في الحياة الدنيا إلى ما لا نهاية، بل الوجود إلى النهاية، وهذا يستوجب التعرف على شيئين:

الأول: المتعرف عليه بالمتعرف به:

عندما يكون الموضوع معرفة سابقة سواء كانت هذه المعرفة مادية أو فكرية، فيكون هو المتعرف عليه، ويكون هذا الموضوع هو المعرفة التي يتم استيعابها بالعقل وهو المتعرف به. فالمتعرف عليه لو لم يكن له بداية ونهاية ما عرفناه معرفة علمية، ولهذا عندما تتوفر المعلومات عن الموضوع، يمكن التعرف عليه بالعقل باعتباره المتعرف به.

الثاني: غير المتعرف عليه بالمتعرف به:

عندما يتمكن العقل من البحث والتقصي العلمي يمكن أن يتعرف على الجديد بالمتعرف به (بالعقل)، في حدود القدرات والاستعدادات كبداية ونهاية أدراكية. وغير المتعرف عليه هو الذي لم يُكتشف بعد حتى يعتبر معرفة علمية ولهذا يُعتبر بالنسبة للمدركات العقلية مجهولا، والعقل معروف كوسيلة للتعرف به، وعندما يتعرف العقل (المتعرف به) على الجديد يصبح غير المتعرف عليه معروفا.

إن المعرفة الممكنة هي المعرفة المتاحة، أما المعرفة غير الممكنة هي المعرفة غير المتاحة. مثل معرفة اليوم الآخر في الحياة الدنيا، هي معرفة نظرية فقط، ولا يدركه إلا المؤمن. وفي الوقت ذاته لا يعرفه عمليا لأنه غير قابل للمشاهدة والملاحظة، وهذه معرفة غير متاحة. وهذه التي أطلقنا عليها (غير المتعرف عليه بالمتعرف به). وكل معلومة لم يتم التعرف عليها بعد وهي في الإمكان تدرج تحت (المتعرف عليه بالمتعرف به) إلى النهاية.

ويرتبط مفهوم الإحصاء بالقدرة والى ذلك أشار المحصي عز وجل فقال: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عِلْمَ أَنْ لَنْ تُحْصِيَهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} ١٠١٩، علم أن لَنْ تُحْصِيَهُ أي لن تُطيقوه، وقيل أراد من أطاق العمل بمقتضاها مثل من يعلم أنه سميع بصير فيكف سمعه ولسانه عما لا يجوز له وكذلك في باقي الأسماء ١٠٢٠.

والمحصي قادر على الإمام بشؤون خلقه جميعاً فهو الرزاق الذي يعلم ضعف العبد وقلة قدرته إذ يقول له: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} ١٠٢١، لحنه على الإيمان بقدرة المحصي على الإحاطة بجميع مخلوقاته والتكفل باحتياجاتهم وبرزقهم، وليس العبد فحسب وإنما جميع المخلوقات: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ

١٠١٩ المزمّل ٢٠.

١٠٢٠ لسان العرب، ج ١٤، ص ١٨٣.

١٠٢١ الأنعام ١٥١.

مُسْتَقْرَهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ {^{١٠٢٢}، وعلى الخليفة أن يكون قادر على الإيفاء بما عليه تجاه الناس من التزام فيوفر لهم سبل العيش الذي يرضاه الله وبذلك لهم الصعوبات وأن يحصي كل من استخلف عليهم فيتكفل بما يحتاجون لدينهم ودنياهم .

المحصي، ملك القوة المطلقة والقدرة المطلقة ولذا فهو القوي القادر على من أحصى وليس لأحد من العالمين قوة كقوته وإن عظم شأنه فكلهم عباده: {إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا} ^{١٠٢٣}، والمراد أنه ما من معبود لهم في السموات والأرض من الملائكة والأنس والجن إلا وهو يأتي الرحمن أي يأوي إليه ويلتجئ إلى ربوبيته عبداً منقاداً مطيعاً خاشعاً راجياً كما يفعل العبيد، ومنهم من حمله على يوم القيامة خاصة والأول أولى لأنه لا تخصيص فيه وقوله: (لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا) أي كلهم تحت أمره وتدبيره وقهره وقدرته فهو سبحانه محيط بهم، ويعلم مجمل أمورهم وتفاصيلها لا يفوته شيء من أحوالهم وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً ليس معه أحد.

وقوة المحصي من علمه عز وجل: {إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا} ^{١٠٢٤}،

(إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا) إن هؤلاء الكفار كانوا في الدنيا لا يخافون محاسبة الله إياهم في الآخرة على نعمه عليهم، وإحسانه إليهم، وسوء شكرهم له على ذلك، ولذا فهم لا يخافون حساباً ^{١٠٢٥}.

وقوله: (وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا) يقول تعالى ذكره: وكلّ شيء أحصيناه فكتبناه كتاباً، كتبنا عدده ومبلغه وقدره، فلا يعزّب عنا علم شيء منه، ونصب كتاباً، لأن في قوله:

١٠٢٢ هود ٦.

١٠٢٣ مريم ٩٣-٩٤.

١٠٢٤ النبأ ٢٧-٢٩.

١٠٢٥ تفسير الطبري، ج ٢٤، ص ١٦٨.

(أحصيناه) مصدر أثبتناه وكتبناه، كأنه قيل: وكلّ شيء كتبناه كتاباً^{١٠٢٦}. ولذا فيكون الفرق بين المكتوب والمحفوظ، المحفوظ لا يزول والمكتوب قد يزول، وليعلم الخليفة أن الإحصاء الحقيقي يكون بالعلم، ومعلوم أن العلم بالأشياء هو مما وهبه الله للخليفة فهو فيه بل إن علم الخليفة أكبر حتى من علم الملائكة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^{١٠٢٧}، وما على الخليفة إذا إلا أن يسعى لاستخراج هذا العلم من مستقره وهو العقل مستعينا بكل ما خلقه الله في هذا الكون ليصل إلى الإحصاء التام والصحيح فيكون عوناً في خلافته على الأرض .

ولأن الحفظ لا يزول فكذا الإحصاء حفظ لا يزول، والحفظ هنا شامل ودقيق: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾^{١٠٢٨}، (وكلّ شيء) من الأشياء التي من جملتها أعمالهم، أي كل شيء مما يقع عليه الثواب والعقاب فهو عام مخصوص، والإحصاء والكتب يتشاركان في معنى الضبط والحفظ، والظاهر أنه تمثيل لصورة ضبط الأشياء في علمه تعالى بضبط المحصي المُجد المتقن للضبط بالكتابة وإلا فهو عز وجل مستغن عن الضبط بالكتابة وهذا التمثيل لتفهيمنا وإلا فالأنضباط في علمه تعالى أجل وأعلى من أن يمثل بشيء^{١٠٢٩}.

ومعلوم أن من وراء هذا الحفظ حساب وميزان مما استدعى الضبط لإقرار العدل: ﴿وَوَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾^{١٠٣٠} بيان لما سيقع عند إتيان ما أنذروه، أي نقيم الموازين العادلة التي توزن بها صحائف الأعمال، وقيل: وضع الموازين تمثيلاً لأرصاء الحساب السوي والجزاء

^{١٠٢٦} تفسير الطبري - ج ٢٤ ، ص ١٦٩ .

^{١٠٢٧} البقرة ٣١ - ٣٣ .

^{١٠٢٨} النبا ٢٩ .

^{١٠٢٩} الألويسي، ج ٢٢ ، ص ١٠٧ .

^{١٠٣٠} الأنبياء ٤٧ .

على حسب الأعمال، (فَلَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ) من النفوس (شَيْئاً) حقاً من حقوقها أو شيئاً ما من الظلم، بل يوفى كلُّ ذي حق حقه إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشر، والفاء لترتيب انتفاء الظلم على وضع الموازين (وَإِنْ كَانَ) أي العمل المدلول عليه بوضع الموازين (مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ) أي مقدار حبة كائنة من خردل، أي وإن كان في غاية القلة والحقارة فإن حبة الخردل مثلٌ في الصغر، (أَتَيْنَا بِهَا) أي أحضرنا ذلك العمل المعبر عنه بمِثْقَالَ حَبَّةِ الخردل للوزن فجازينا بها من الإيتاء بمعنى المجازاة والمكافأة لأنهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء، (وكفى بنا حاسبين).

والمحصى سبحانه حافظ لما أحصى من أفعال الخلائق عموماً: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} ١٠٣١، يقول تعالى ذكره: وللكافرين عذاب مهين في يوم يبعثهم الله جميعاً، وذلك (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً) من قبورهم لموقف القيامة، والقيامة من القيام بعد رقاد مؤقت، أي بعد الموت المؤقت وهي الميتة الأولى، يصحوا العباد من موتهم فيقوموا قياماً لله الواحد القهار، (فَيُنَبِّئُهُمُ) الله (بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ). يقول تعالى ذكره: أحصى الله ما عملوا، فعده عليهم، وأثبتته وحفظه، ونسيه عاملوه. (والله على كل شيء شهيد) يقول: (وَاللَّهُ) جل ثناؤه (عَلَى كُلِّ شَيْءٍ) عاملوه، وغير ذلك من أمر خلقه (شَهِيدٌ) يعني: شاهد يعلمه ويحيط به، فلا يعزب عنه شيء منه ١٠٣٢.

ومن صور حفظ المحصي الشهود: {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} ١٠٣٣، (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ) من النفوس البارة والفاجرة كما هو الظاهر (مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ) وإن اختلفت كيفية السوق والشهادة حسب اختلاف النفوس عملاً أي معها ملكان أحدهما يسوقها إلى المحشر والآخر يشهد بعملها، وقيل السائق ملك الموت والشهيد النبي صلى الله عليه وسلم وفي

١٠٣١ المجادلة ٦.

١٠٣٢ تفسير الطبري، ج ٢٣، ص ٢٣٦.

١٠٣٣ ق ٢١.

رواية أخرى عنه السائق ملك والشهيد العمل وكلاهما كما ترى، وقيل: الشهيد الكتاب الذي يلقاه منشوراً، وقيل: السائق والشهيد ملك وأحد والعطف لمغايرة الوصفين أي معها ملك يسوقها ويشهد عليها، و الظاهر أن {سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} اسما جنس فالسائق ملائكة موكلون بذلك والشهيد الحفظة وكل من يشهد^{١٠٣٤}.

وتشهد الجوارح على الأفعال التي أحصاها المحصي عز وجل: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}^{١٠٣٥}، وهذه الجوارح انطقها المحصي جل وعلا: {وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ}^{١٠٣٦}، ويروى أن العبد يقول يوم القيامة: يا رب العزة ألسنت قد وعدتني أن لا تظلمني، فيقول الله تعالى فإن لك ذلك، فيقول العبد إني لا أقبل على نفسي شاهداً إلا من نفسي، فيختم الله على فيه وينطق أعضائه بالأعمال التي صدرت منه، واختلف الناس في كيفية الشهادة وفيه ثلاثة أقوال أحدها: أنه تعالى يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه والثاني: أنه تعالى يخلق في تلك الأعضاء الأصوات والحروف الدالة على تلك المعاني كما خلق الكلام في الشجرة والثالث: أن يظهر تلك الأعضاء أحوالاً تدل على صدور تلك الأعمال من ذلك الإنسان، وتلك الأمارات تسمى شهادات^{١٠٣٧}.

والحفظ خلاف الغفلة والمحصي لا يغفل عن شيء في السماء والأرض: {وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}^{١٠٣٨}.

^{١٠٣٤} تفسير الألوسي ١، ج ١٦، ص ٢٢٨.

^{١٠٣٥} النور ٢٤.

^{١٠٣٦} فصلت ٢١.

^{١٠٣٧} تفسير الرازي، ج ١٣، ص ٣٨٤.

^{١٠٣٨} البقرة ٧٤.

المحصي عز وجل عارف بالمقادير التي أحصاها فوضع لها مقادير مكافأة وأوفى إكراماً منه إنه الكريم فقال: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعِ يَوْمِئِذٍ آمْنُونَ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} ^{١٠٣٩}، والمحصي عارف بقدر الحسنات في الدنيا وهو المقدر لحقها، والحسنة مفردة تدل على كل حسن من الأفعال والأقوال والسيئة عكس ذلك، والتقدير الفعلي لكل منهما لا يعرفه إلا المحصي عز وجل الذي يقول: {وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ} ^{١٠٤٠}، لذا فعلى الخليفة أن يحذر من سوء التقدير لأفعاله وأفعال العباد من حوله لأن ذلك من موجبات الوقوع في الوهم.

وتقدير المحصي للأمور تقدير العارف بحدودها لأنه خالقها، أما تقدير المحصي بالإضافة فهو تقدير ظني والظن هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض ويستعمل في اليقين والشك، وقيل الظن أحد طرفي الشك بصفة الرجحان ^{١٠٤١}، وعلى هذا فالظن نوعان الأول يقيني والثاني شكّي، فإما اليقيني فقد ذكره المحصي في محكم كتابه فقال: {وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} ^{١٠٤٢}، يعني الذين يظنون أنهم ملاقوا وعد الله بالظفر، وإنما جعله ظناً لا يقيناً لأن حصوله في الجملة وإن كان قطعاً إلا أن حصوله في المرة الأولى ما كان إلا على سبيل حسن الظن ^{١٠٤٣}، وكذلك قوله تعالى وعلى سبيل مدح الظن: {وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} ^{١٠٤٤}، والظن هنا بمعنى العلم، وقالوا: لأن الظن وهو الاعتقاد الذي

١٠٣٩ النمل ٨٩-٩٠.

١٠٤٠ النور ١٥.

١٠٤١ التعريفات ١، ١٨٧.

١٠٤٢ البقرة ٢٤٩.

١٠٤٣ تفسير الرازي، ج ٣، ص ٤١٦.

١٠٤٤ البقرة ٤٦.

يقارنه تجويز النقيض يقتضي أن يكون صاحبه غير جازم بيوم القيامة وذلك كفر والله تعالى مدح على هذا الظن والمدح على الكفر غير جائز، فوجب أن يكون المراد من الظن ههنا العلم، وسبب هذا المجاز أن العلم والظن يشتركان في كون كل واحد منهما اعتقاداً راجحاً إلا أن العلم راجح مانع من النقيض والظن راجح غير مانع من النقيض، فلما اشتبها من هذا الوجه صح إطلاق اسم أحدها على الآخر^{١٠٤٥}.

أما النوع الثاني من الظن فهو الاحتمالي ويغلب عليه الشك، وهو شك آثم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾^{١٠٤٦}، وجعل المحصي الظن إثم لئلا يجترئ أحد على ظن إلا بعد نظر وتأمل، وتمييز بين حقه وباطله بأمانة بينة، مع استشعار للتقوى والحذر؛ ولو عرف لكان الأمر باجتتاب الظن منوطاً بما يكثُر من دون ما يقل، ووجب أن يكون كل ظن متصف بالكثرة مجتنباً، وما اتصف منه بالقلّة مرخصاً في تظننه. والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها.

وأما أن يكون الشك باطلاً وهو خلاف الحق: ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^{١٠٤٧}، وهذا النمط من الشك يلجأ إليه الإنسان عندما يفتقر إلى العلم بالشيء علماً قاطعاً فلا يستطيع إحصاءه والإحاطة به: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾^{١٠٤٨}، وعليه فإنه يبحث عن مصدر لعلم ظني هو في الغالب أمانيه وما تهوى نفسه: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾^{١٠٤٩}، وعليك أيها الخليفة الحذر من الوقوع في الظنون الباطلة التي تبع من الهوى الذي نهاك الله عنه وحذرك منه: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ

^{١٠٤٥} تفسير الرازي، ج ٢، ص ٢٧٦.

^{١٠٤٦} الحجرات ١٢.

^{١٠٤٧} يونس ٣٦.

^{١٠٤٨} النجم ٢٨.

^{١٠٤٩} النجم ٢٣.

النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} ١٠٠ ، ولا تتبع تحذير من إتباع الظن على حساب اليقين فكان النهي موجب الإلتباع، ويتأتى ذلك بصدق التحري عن الأشياء لأن الصدق من موجبات عون المحصي سبحانه وتعالى ورضاه: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ} ١٠١ ، وإخلاص النية في طلب العلم بالأشياء ذلك أن الإخلاص صفة لم يستطع عدو الخليفة وحاسده إبليس أن يتغلب عليها فأعلن استسلامه أمامها: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} ١٠٢ ، فإذا انجلى له العلم بالشيء أخذ به وإن بقى على الشك ترك الأخذ به لأن الشك هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك ١٠٣ ، وفي ذلك ظلم لا ينبغي للخليفة الوقوع فيه وعليه أن يتحرى العدل وأن يقيم العدل الذي أمره الله به ويترك الظلم الذي يكرهه المحصي عز وجل: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} ١٠٤ .

وتقدير الخليفة لا يمكن أن يكون قاطعاً مطلقاً للنقص الحاصل عنده في العلم المطلق، أما المحصي عز وجل فإن علمه مطلق لذلك كان تقديره للأشياء قاطعاً مجزياً مع دقة متناهية في إحصاء الأعمال: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} ١٠٥ ، وليس الإحصاء فحسب بل الجزاء عليها: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً

١٠٠ ص ٢٦ .

١٠١ المائة ١١٩ .

١٠٢ الحجر ٤٠ .

١٠٣ التعريفات ١٠٤١ .

١٠٤ الشورى ٤٠ .

١٠٥ الزلزلة ٧-٨ .

يُضَاعِفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا^{١٠٥٦} ، واستخدم الذرة لأنها أقل شيء مما يدخل في وهم البشر، أو أكثر ما يستعمل عند الوصف بالقلّة، ولم يعبر سبحانه بالمقدار ونحوه بل عبر بالمتقال للإشارة بما يفهم منه من الثقل الذي يعبر به عن الكثرة والعظم كقوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ تَأْرٌ حَامِيَةٌ^{١٠٥٧}} إلى أنه وإن كان حقيراً فهو باعتبار جزئه عظيم ، فالمحصي لا يظلمهم متقال ذرة، والظلم عند أهل اللغة وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة أو بعدول عن وقته أو مكانه ، وعليه ففي الكلام إشارة إلى أن نقص الثواب وزيادة العقاب لا يقعان منه تعالى أصلاً ، وفي ذلك حث على الإيمان والأنفاق بل إرشاد إلى أن كل ما أمر به مما ينبغي أن يفعل وكل ما نهى عنه مما ينبغي أن يجتنب^{١٠٥٨} .

وفي الإحصاء إظهار أثر معرفي، وأظهر الأثر واضح في نهج التصحيح الذي طبعه المحصي على الحياة في الأرض فما من فترة من فترات الحياة إلا وأرسل إليها رسولاً أو أكثر ليصح مسيرة البشر ويؤثر في معتقداتهم فيهديهم إلى صراط مستقيم: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا^{١٠٥٩}} ، ولهذا فإن إحصاء الأثر بعد الرسالات بأسباب العلم حيث التبشير بما أرسلوا به وقد ابغوا فلا ذنب عليهم بعد ذلك ويكون الذنب والعقاب من بعده على الذين ابغوا ولم يؤمنوا، ثم بعد أن أحصى المحصي عز وجل من قبل ومن بعد فعل الرسل وفعل الناس معهم ختم برسالة كاملة صالحة لكل الأزمان والأجناس برسالة للناس كافة هي رسالة محمد عليه الصلاة والسلام: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ^{١٠٦٠}} ،

١٠٥٦ النساء ٤٠ .

١٠٥٧ القارعة ٦ . ١١ .

١٠٥٨ تفسير الالوسي ، ج ٤ ، ص ٥٣ .

١٠٥٩ النساء ١٦٥ .

١٠٦٠ سبأ ٢٨ .

وجعلها خاتمة فأحصى فيها كل حاجات البشر إلى يوم يبعثون فكانت ظاهرة على الدين كله: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} ١٠٦١.

والمحصى يؤثر في الخلائق جميعها بإرادته فهو الذي: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ} ١٠٦٢، وهذا بمقدار إحصائي دقيق لم يستطع العقل البشري من إدراك أسرارهِ، وهو الذي يصور خلقه: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ١٠٦٣، وهو الذي صور في ظلمات الأرحام هذه البنية العجيبة، والتركيب الغريب، وركبه من أعضاء مختلفة في الشكل والطبع والصفة، فبعضها عظام، وبعضها غضاريف، وبعضها شرايين، وبعضها أوردة، وبعضها عضلات، ثم إنه ضم بعضها إلى بعض على التركيب الأحسن، والتأليف الأكمل، وذلك يدل على كمال قدرته حيث قدر أن يخلق من قطرة من النطفة هذه الأعضاء المختلفة في الطبائع والشكل واللون، ويدل على كونه عالماً من حيث إن الفعل المحكم لا يصدر إلا عن العالم المحصى لحاجات كل جزء من هذه الأجزاء لتكتمل فتكون بنية واحدة ولها هيئة تتناسب وهذه الأجزاء ١٠٦٤.

ومن أثر المحصى تصريف الرياح بما ينفع الناس فهي لواقح: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} ١٠٦٥، ولأنه المحصى فهو يعلم بعدد حبات الرمل والغبار التي تتطاير بأمره لأسباب هو يعلمها، وفي مقابل ذلك هل منا من يستطيع أن يحصي حبات الرمال والغبار المتطايرة في السماء؟ أو هل هناك من يعتقد إننا قادرين

١٠٦١ الصف ٩.

١٠٦٢ فاطر ١٣.

١٠٦٣ آل عمران ٦.

١٠٦٤ تفسير الرازي، ج ٤ ص ١٠١.

١٠٦٥ الحجر ٢٢.

على عدها ولو اجتمعنا على ذلك؟. والرياح كما تحمل بالغبار فهي تحمل بالمطر الذي هو الآخر محصي من قبل المحصي جل جلاله بحبات مائها وبرذاها وما تحمله من مرفقات أخرى لا تحصى: {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ} ١٠٦٦، والرياح هي المسيرة للفلك في البحر وفقا لقوانين الطبيعة التي عليها خلقت بالأمر (كن) قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} ١٠٦٧، وهي التي يرحم المحصي بها من يشاء ويعذب ومن يشاء وهو على كل شيء قدير: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ} ١٠٦٨.

وأثر المحصي في خلقه واضح لكل ذي لب، ففي أي خلق تتفكر وتتأمل ترى أثر المحصي الخالق، ويكفي أن تتأمل خلق الإنسان إذ يذهل العقل لحسن أثر المحصي في خلقه: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} ١٠٦٩، ومن واجب الخليفة التأثير في هذه الأرض ومن يعيش عليها بالحسن الطيب من المؤثرات فيكون عادلا ليحقق العدل الذي فيه سعادة البشر على الأرض وذلك بإقامة الحدود التي من شأنها تحقيق حياة كريمة للإنسان على الأرض: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} ١٠٧٠، وأن يكون كريماً محسناً ليخفف عن أصحاب الحاجات بعض هموم الدنيا ولا ينتظر ممن يعين جزاءً ولا شكورا آملا بجزاء الله الذي أحصى له أعماله وسيجزيه عليها: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا} ١٠٧١.

١٠٦٦ فاطر ٩.

١٠٦٧ الروم ٤٦.

١٠٦٨ فصلت ١٦.

١٠٦٩ الذاريات ٢١.

١٠٧٠ البقرة ١٧٩.

١٠٧١ الإنسان ٩.

والمحصى بصير عليم بما يحصي فهو: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ} ١٠٧٢، يقول تعالى ذكره: يعلم ما بين أيدي ملائكته ما لم يبلغوه ما هو وما هم فيه قائلون وعاملون، وما خلفهم: يقول: وما مضى من قبل اليوم مما خلفوه وراءهم من الأزمان والدهور ما عملوا فيه، قالوا ذلك كله محصى لهم وعليهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء ١٠٧٣.

والمحصى بصير بسعي الإنسان يحصيه له وعليه: {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ} ١٠٧٤، التقدير على هذا وأن سعيه سوف يرى محصى، لقوله إلا أحصاها: {مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} ١٠٧٥؛ أو محصلاً أو مجزياً.

والمحصى يختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النور واشتداد الريح وتساقط الأوراق، فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات في كل ورقة، وكيف لا يعلم وهو الذي يخلق ١٠٧٦ وقد قال جل وعلا: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} ١٠٧٧.

المحصى هو ضابط القدرة مع القوى فكل شيء في هذا الكون محصى علماً وإحاطةً وعدداً والدلائل على ذلك كثيرة منها:

١- الأنفاق: وهو محصى من حيث الإحاطة بأسبابه وكمه والجزاء له قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} ١٠٧٨.

١٠٧٢ الأنبياء ٢٨ .

١٠٧٣ تفسير الطبري، ج ١٨، ص ٤٢٨.

١٠٧٤ النجم ٣٩-٤١.

١٠٧٥ الكهف ٤٩.

١٠٧٦ الأسماء والصفات، ج ١، ص ٢٩٤.

١٠٧٧ الملك ١٤.

١٠٧٨ البقرة ٢٦١.

٢- **حسن المعاملة والتقدير المتبادل:** قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾^{١٠٧٩}. كل التحايا والتحيات في التسبيح والذكر الكريم هي محصية، ومحفوظة وعليها شهود، وتتم المحاسبة عليها إن كانت ذات حسن وملاطفة وذوق رفيع مع فائق الأدب والاحترام ينال صاحبها إثابة وإن كانت غير مقدمة ومقدرة بذلك فينال صاحبها وفقا لنيته وقوله وفعله عقابا.

٣- **التكاثر:** وهو من دلائل إحاطة المحصي بخلقه من حيث المعرفة التامة المطلقة بالنوع والعدد والزمن إحصاءً تاماً: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾^{١٠٨٠}، أي أنه تعالى يعلم كمية كل شيء وكيفيته على الوجه المفصل المبين ومتى كان الأمر كذلك امتنع وقوع التغيير في تلك المعلومات.

٤- **حسابات الكون:** قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾^{١٠٨١}، في تفسير هذا اللفظ أن هذا العالم عالم الأسباب والله تعالى إنما يخلق المعادن والنبات والحيوان بواسطة تركيب طبائع هذا العالم، فلا بد وأن يحصل من الأرض قدر مخصوص ومن الماء والهواء كذلك، ومن تأثير الشمس والكواكب في الحر والبرد مقدار مخصوص، ولو قدرنا حصول الزيادة على ذلك القدر المخصوص، أو النقصان عنه لم تتولد المعادن والنبات والحيوان فانه سبحانه وتعالى قدرها على وجه مخصوص بقدرته وعلمه وحكمته فكأنه تعالى وزنها بميزان الحكمة حتى حصلت هذه الأنواع^{١٠٨٢}، والمحصي هو الذي أحصى بعلمه هذه المقادير فوضع لكل منها مقداراً مناسباً دون زيادة أو نقصان فكان هذا الكون المتكامل.

١٠٧٩ النساء ٨٦.

١٠٨٠ الرعد ٨.

١٠٨١ الحجر ١٩.

١٠٨٢ تفسير الرازي، ج ٩، ص ٢٩٥.

٥- حركة الأفلاك: قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} ١٠٨٣.

٦- العمر: قال تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} ١٠٨٤.

٧- الأقوال والأفعال: قال تعالى: {كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوْرُثُهُمْ أَرَأَىٰ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا} ١٠٨٥.

٨- النعم: قال تعالى: {وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} ١٠٨٦، واعلم أن الإنسان إذا أراد أن يعرف أن الوقوف على أقسام نعم الله ممتنع، فعليه أن يتأمل في شيء واحد ليعرف عجز نفسه عنه ونحن نذكر منه مثالين. المثال الأول: أن الأطباء ذكروا أن الأعصاب قسمان، منها دماغية ومنها نخاعية. لو أن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا { نعمه من الكثرة لا تحصى.

المثال الثاني: أنك إذا أخذت اللقمة الواحدة لتضعها في الفم فانظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها أما الأمور التي قبلها: فاعرف أن تلك اللقمة من الخبز لا تتم ولا تكمل إلا إذا كان هذا العالم بكليته قائماً على الوجه الأصوب، لأن حبة القمح لا بد منها، وأنها لا تنبت على مناخ مناسب لنموها، ولا يحصل شيء منها إلا بعد دوران الأفلاك، واتصال بعض الكواكب ببعض على وجوه مخصوصة في الحركات، وفي كیفيتها في الجهة والسرعة والبطء ثم بعد أن تكون حبة القمح لا بد من آلات الطحن والخبز، وهي لا تحصل إلا عند تولد الحديد

١٠٨٣ لقمان ٢٩.

١٠٨٤ فاطر ١١.

١٠٨٥ مريم ٧٩-٨٤.

١٠٨٦ إبراهيم ٣٤.

في أرحام الجبال، ثم إن الآلات الحديدية لا يمكن إصلاحها إلا بآلات أخرى حديدية سابقة عليها، ولا بد من انتهائها إلى آلة حديدية هي أول هذه الآلات، فتأمل أنها كيف تكونت على الأشكال المخصوصة، ثم إذا حصلت تلك الآلات فانظر أنه لا بد من اجتماع العناصر الأربعة، وهي الأرض والماء والهواء والنار حتى يمكن طبخ الخبز من ذلك الدقيق. فهذا هو النظر فيما تقدم على حصول هذه اللقمة. وأما النظر فيما بعد حصولها: فتأمل في تركيب بدن الحيوان، وهو أنه تعالى كيف خلق الأبدان حتى يمكنها الانتفاع بتلك اللقمة، وأنه كيف يتضرر الحيوان بالأكل وفي أي الأعضاء تحدث تلك المضار، ولا يمكنك أن تعرف القليل من هذه الأشياء إلا بمعرفة علم التشريح وعلم الطب بالكلية، فظهر بما ذكرنا أن الانتفاع باللقمة الواحدة لا يمكن معرفته إلا بمعرفة جملة الأمور، والعقول قاصرة عن إدراك ذرة من هذه المباحث، فظهر بهذا البرهان القاهر صحة قوله تعالى: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) ثم إنه تعالى قال: (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) أي لو فكّر الإنسان في أمره وحاله ونفسه وروحه وبدنه، والنعم التي عليها خلق، والنعم التي خلقت له، والرحمة التي تعمه كلما التجأ إلى الرحمن الرحيم، والحركة والامتداد والزمان وهو في وسط هذا الحدث العظيم ألا يتقي الله في كل قول وكل فعل وكل عمل وكل سلوك. أفلا ينظر إلى نفسه كيف خلقت؟.

ألا ينظر لروحه كيف خلقت ومما خلقت، ولماذا لم يعلم أمرها؟.

ألا ينظر لبدنه كيف خلق؟.

ألا ينظر بعقله لعقله ليتدبر أمره الذي لو كان فاقداً له أو انه كان بدونه، كيف سيكون حاله وبما يوصف من الواصفين؟.

ألا يكون التفكير مرتين فيما يفكر فيه، أفضل من القوم على الأقوال والأفعال بالتفكير مرة واحدة؟.

ألا يكون الاعتاظ حكمة والإغفال عنه سذاجة تؤدي بصاحبها للندم يوم لا ينفع مال ولا بنون؟.

وعليه الخليفة وحده يتذكر فيحمد ربه ويشكره على النعم التي أنعم بها عليه في الدار الدنيا والنعم التي وعده بها وهو يأمل بلوغها في الدار الآخرة حتى الفوز بالجنة.

٩- **تداخل الأسباب:** المتغيرات لا شك أن الأكوام فيها من المتغيرات الكثيرة التي نشاهدها كل يوم سواء كان في مجال الطبيعة أو فيما يخص الإنسان نعلم بعضها ونجهل الكثير منها لكن الله سبحانه أحصاها كلها بعلمه، ففيما يتعلق بالطبيعة يقول المحصي عز وجل: **لَوْعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**{١٠٨٧}.

أما فيما يتعلق بالإنسان فيقول جل وعلا: **لَوْ مَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**{١٠٨٨}.

اللهم يا المحصي اجعل أعمالنا كمثلي حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة، وضاعفها لنا يا أرحم الراحمين انك على كل شيء قدير.

اللهم يا المحصي لك الحمد والشكر على ما أنعمت به علينا من نعم لا تعد ولا تحصى أنت ولينا في الدنيا والآخرة توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين.

اللهم يا المحصي اجعل صحائفنا يوم العرض عليك رحمة لنا وكل إحصاء فيها اجعله حسنة بقدرتك ورحمتك يا المحصي يا الله.

اللهم يا المحصي اجعل آخر كلمة نقولها ونحن خروج من هذه الدنيا لا إله إلا الله محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

المُبدئ

١٠٨٧ الأنعام ٥٩.

١٠٨٨ يونس ٦١.

اسم يحتوي في معناه على معاني من أسماء الله الحسنى يوحى بالقوة والقدرة والملك، وهو اسم يدل على البادئ لكل شيء، فلا يسبقه أحد بل يلحق به الكل، وهو الصانع المبدع لأن في البداية يكمن الإبداع والإعجاز، والمبدئ عز وجل قد أوجد ما لم يكن.

المبدئ: هو المعيد، وهو الموجد لكن الإيجاد إذا لم يكن مسبقاً بمثله سمي إبداعاً وإذا كان مسبقاً بمثله سمي إعادة والله سبحانه وتعالى بدأ خلق الناس ثم هو الذي يعيدهم أي يحشرهم والأشياء كلها منه بدأت وإليه تعود وبه بدأت وبه تعود^{١٠٨٩}

المبدئ: في صفات الله تعالى، فالله بدأ الخلق إحياءً ثم يميئهم ثم يعيدهم أحياءً كما كانوا^{١٠٩٠}.

فالمبدئ للشيء يكون قادراً على إعادته وتوليده مرات المرات، وهو كذلك مالك له ولأمره؛ لأنه المنشئ له فلا يمكن للمبدوء أن يخرج عن ملك المبدئ، لأن المبدئ قوي ويملك القوة التي تمكنه من إرجاع المبدوء إلى ما كان عليه قبل بدئه، ويبدئ غيره إن أراد ذلك، وقد قال هود عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)^{١٠٩١}

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَتَفَرِّغُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}^{١٠٩٢}.

وقال تعالى: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}^{١٠٩٣}.

^{١٠٨٩} المقصد الأسنى، ج ١، ص ١٣١.

^{١٠٩٠} لسان العرب، ج ٣- ص ٣١٥.

^{١٠٩١} - هود ٥٦، ٥٧.

^{١٠٩٢} - التوبة ٣٨، ٣٩.

والمتمعن في هذه الآيات يمكن أن يصل منها إلى عدة حقائق منها:

١- إن الله بدأ آياته الكريمة السابقة بالدعوة للإنفاق في سبيله، أي أنه في الحق يكون إنفاق المال، فالدعوة للإنفاق بدأت من عند المبدئ للخلق تعالى .

٢- أن الله عز وجل قادر على إعادتنا إلى ما كُنَّا عليه قبل بدء خَلْقنا من تراب بل أكثر من ذلك فيمكن أن يعيدنا إلى اللاشيء الذي بدأ منه خلق التراب الذي خُلِقنا منه وذلك عند الله عز وجل أمرٌ هَيِّنٌ لا يستغرق أكثر من الأمر (كُنْ)، وقال تعالى: في ذلك (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) ^{١٠٩٤}.

فبالأمر كن بدأ الخلق، فخلق السموات والأرض، وخلق النجوم والكواكب، وخلق البشر وكل هذا الكون الشاسع، بدأ الخلق من عدم، عن حكمة وقدرة وعلم، لا عن صدفة أو عبث، خلقٌ مقدر ومسخر وفق قوانين ثابتة لا تتحول ولا تتبدل.

وقال سبحانه وتعالى: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ^{١٠٩٥}، وقال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي بِيَدِ الْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ^{١٠٩٦}، هذا هو الخالق المبدئ الحق.

٣- إن المعاصي ومخالفة الله عز وجل وعدم تنفيذ أوامره توجب غضبه علينا حتى يغفر ويتوب على من يشاء في مرضاته.

٤- إننا لا نضر بمعصيتنا الله ولا ننفعه بطاعتنا وعبادتنا أو بضاللتنا وكفرنا فالله عز وجل هو العزيز الغني عن عباده فنحن المحتاجون إليه في حياتنا الدنيا والآخرة، وذلك باحتياجنا إلى ستره وعفوه وحلمه وكرمه فنحن الفقراء إليه عز وجل في كل أمورنا، فقد قال الله تعالى:

١٠٩٣ - محمد ٣٨ .

١٠٩٤ - النحل ، ٤٠ .

١٠٩٥ - يس ، ٨٢ ، ٨٣ .

١٠٩٦ - الروم ، ٢٧ .

لَيَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ^{١٠٩٧}.

٥- إن الله هو المالك لأمرنا ولأرواحنا وأجسادنا فنشأتنا بأمره، قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}^{١٠٩٨}، فهو الذي بدأنا من العدم، وكذلك نهايتنا بأمره وحياتنا ورزقنا وهدايتنا وكل أمورنا بأمره سبحانه وتعالى، فمن تكون البداية بيده لا بد أن تكون النهاية بيده، قال تعالى: {فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}^{١٠٩٩}. فالله عز وجل في أساس خلقنا أوجدنا من العدم لا لكي نخلّد بل لكي نحيا على الأرض لنصلح فيها ولا نسفك دماء ولا نفسد، ولأن لنا بداية لا بد وأن تكون النهاية لنا، ولأن لنا أعمال فلا بد أن نحاسب في النهاية على أعمالنا، يقول عز وجل في كتابه الكريم: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}^{١١٠٠}.

٦- إن الله عز وجل هو المبدئ والمعيد؛ فيما إنه المبدئ فهو الملك والمالك، فلو لم يكن سبحانه وتعالى مبدئاً لما كان ملكاً، ولو لم يكن كذلك قوياً لما كان عز وجل ملكاً ولا مبدئاً ولا معيداً.

فإنه سبحانه وتعالى بدأ آيته الكريمة بالدعوة للخير، وأنهاها بغناه عن من بخل وتولى، فسبحانه عز وجل الذي بيده ملكوت كل شيء.

والمبدئ في حق الله سبحانه وتعالى إذاً هو البادئ بالإطلاق لكل شيء، فلا يضاويه أحد ولا يسبقه أحد، ولا يقدر على إرجاع ما كان إلى أصله إلا هو كما جاء في قوله عز وجل: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا مَّنْ ثَلَاثَةَ آلِ نُوحٍ إِذْ أَوْفَىٰ أَيْمَانَهُمْ أَعْلَى الْبُرُوجِ كَانَتْ هُمْ عَرَفَةَ إِذِ ابْتَلَىٰ هَارُونَ أَخَاهُ إِذِ ابْتَلَىٰ هَارُونَ إِذْ قَالَ يَا قَوْمِ أَوَلَمْ يَأْتِكُمْ آيَاتُ اللَّهِ فَكَيْفَ كُنتُمْ تَعْبُدُونَ} .^{١١٠١}

١٠٩٧ - فاطر ، ١٥ ، ١٧ .

١٠٩٨ - الملك ، ١ .

١٠٩٩ - يس ، ٨٣ .

١١٠٠ - إبراهيم ، ٥١ .

١١٠١ - يس ، ٧٨ ، ٧٩ .

ومن فضل الله سبحانه وتعالى أنه سمى نفسه المبدئ، ولم يسم نفسه المبتدئ، لأن المبدئ للشيء هو المحدث له، والشيء هو المستمد من المشيئة والمكون بقوتها سواء كان وجودا أو كان عدما، ولهذا فالوجود شيء والعدم شيء وكلاهما مستمدان من المشيئة المالكة للأمر كن، وفي هذا الأمر إضافة جديدة تخالف ما سبق قوله: ألا وهي أن القول بأن الله المبدئ قد خلق الشيء من العدم هذا الأمر لا يعد صوابا بالمطلق وذلك لأن الاعتراف بالشيء يثبت شيئا، وإلا هل يمكن أن يتم الحديث عن العدم إن لم يكن العدم شيئا؟! ولأن الله هو المبدئ فكيف نقبل بوجود عدم على وجوده، حتى نقول إن الله قد خلق الأشياء من العدم. ألا يعرض ذلك المؤمنين إلى تساؤل من الكفرة والمشركين يقول لهم فيه: إذن من الذي خلق العدم حتى جاء ربكم (رب العزة جل جلاله) لتقولوا عنه إنه قد خلق الشيء من العدم؟.

بطبيعة الحال إن الله المبدئ هو الأول والآخر، فهو المالك لكل شيء، ولأنه كذلك فهو المالك للقدرة التي يوجد بها الشيء من قدرته، وهو مالك الملك الذي يستمد الشيء منه، ولهذا فانه تعالى مالك الملك يعني كل شيء بيده سواء كان وجودا أو عدما. ولأن المبدئ مالك الملك ولا وجودا لشيء خارج عن ملكه، لذا فإن الوجود معطية مثبتة في أسبقيته على العدم، أي أن العدم شيء مترتب الوجود على وجود الوجود. وإلا هل يمكن أن يكون عدما لشيء غير موجود؟!.

الشيء المطلق دائما بيد المبدئ له، والأشياء المستمدة والمتوالدة من ذلك الشيء تتكاثر وتتنوع وتتعدد، ثم تنتهي حسب الأعمار التي كتبها لها المبدئ المعيد جل جلاله، حينها تترك فراغا أو خلاء مما يجعل المتعريفين على تلك الأشياء المنتهية يشيرون إلى أنها أصبحت عدما، وذلك لعدم شغلها حيزا في ميادين الحياة والحركة والامتداد.

وتقريبا للمعنى: خلق المبدئ الشيء الذي لا نعرفه وهو المتحرك بفعل الأمر (كن) ثم منه كانت السماوات والأرضين ثم من الأرض خلق أبونا آدم عليه الصلاة والسلام خلقا مباشرا من تراب، ثم نحن من تلاقي أبينا وأمنا حواء ولدنا، وهكذا بدأ خلق الإنسان من طين، ثم

جاءنا الموت ليرافقنا وتعدم من تنتهي صلاحيته للحياة فيزول من على الأرض ويترك مكانه ومجال حركته عدما، وعليه قلنا معطية وإثباتا إن الوجود كشيء سابق على العدم كشيء آخر.

الوجود يعني امتلاء وشغل حيز في دائرة الحركة، والعدم يعني إفراغ وإخلاء وإماتة من الحركة الحرة، وكلاهما شيئان.
وبناء على المعطيات السابقة:

١ . الوجود كشيء أول: في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع يثبت نفسه أو يتم إثباته من آخر، ولكن لو لم يكن موجودا ما كان لأحد أن يبرهن على وجوده أو إثباته.
قال تعالى: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَّارًا شَقِيًّا} ١١٠٢، وقال تعالى: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ} ١١٠٣، وقال تعالى: {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ وَيَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا وَيَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} ١١٠٤، وقال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} ١١٠٥.

١١٠٢ مريم ٣٠ . ٣٢.

١١٠٣ ياسين ٦٩ ، ٧٠.

١١٠٤ المرسلات ٢٠ . ٢٨.

١١٠٥ البقرة ٢٠٤ . ١٠٩.

٢ . **العدم كشيء ثانٍ**: في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع هو فعل يحدث ولا يتأخر عن موعده وهو في حالة حركة في الاتجاه المعاكس لعقارب ساعة الوجود النسبي، ولم يكن في الاتجاه المعاكس لعقارب الساعة المنظمة للحياة والموت والبعث. ولأن العدم شيء مثبت فهو لن يكون في حاجة لمن يثبته أو يبرهن على وجوده.

قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} ١١٠٦، وقال تعالى: {وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَتُّونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} ١١٠٧، وقال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} ١١٠٨، وقال تعالى: {وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا} ١١٠٩.

٣ . **البعث كشيء ثالث**: فعل يترتب طبيعياً على قاعدتي الوجود والعدم، ولأن الوجود والعدم معطيتان لا شك فيهما إثباتاً، ولأن الوجود سابق على العدم، وأن القاعدة تقول (كل شيء يعود إلى أصله) لذا فأصل وجودنا حياً، ولأنه كذلك فلا بد أن يكون باقياً سرمدياً، ولكن هذا الأمر لا يتم إلا بعد موت الموت من الواجد الحي، ولذا فبعد أن يقبر الموت دون رجعة يقبر معها المرض والجرائم والحوادث المفاجئة والطارئة كمسببات للوهن والموت وتقبر معها الحاجة والفاقة والعازة ويقبر معها العدا والمظالم لتكون الحياة من بعدها محبة سرمدية فيها من يعيش النعيم على درجات التفوق على كل أمنية من آماني الحياة المؤقتة التي قضى عليها الموت فأصبحت نسياً منسياً والحمد لله رب العالمين.

قال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا

١١٠٦ الرحمن ٢٦ . ٢٨ .

١١٠٧ آل عمران ١٤٣ .

١١٠٨ آل عمران ١٨٥ .

١١٠٩ النساء ١٥ .

وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ
فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي
جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالْحُونِ} ^{١١١٠} ، وقال تعالى: {وَلَا تُخْزِي يَوْمَ
يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وبُرِّزَتِ
الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ
فَكُذِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْعَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا
صَدِيقٍ حَمِيمٍ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} ^{١١١١} .

فهو الذي يخلق بقدرته وإرادته من الشيء أشياء ثم يمكنه أن يعيد ذلك الشيء هو نفسه
مرات عدة حتى بعد أن يكون قد أفناه، قال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ
ضَرْبًا بِالْيَمِينِ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا
فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ
هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي
الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ
الصَّابِرِينَ} ^{١١١٢} ، وقال تعالى أيضاً: {هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ
كُنْ فَيَكُونُ} ^{١١١٣} ، فمن سهل عليه الخلق، سهل عليه إعادة الخلق، فهو لا يحتاج في أمره
هذا إلى اجتماع أو قرار يحتاج إلى تصديق ، بل هو أمر فوري من عنده عز وجل وحده لا
يشاركه أحد في ذلك، فالمبدئ للفعل هو المحدث له مضمن بالإعادة، وهو فعل الشيء
جديداً وكذلك يعيده جديداً، وهذا الأمر لا يكون إلا بيد المبدئ المعيد سبحانه جل جلاله.

^{١١١٠} المؤمنون ٩٧ . ١٠٤ .

^{١١١١} الشعراء ٨٧ . ١٠٤ .

^{١١١٢} - الصافات ، ٩٣ . ١٠٢ . .

^{١١١٣} - غافر ، ٦٨ .

وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا^{١١٥}، وقال تعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}^{١١٦}، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ وَإِنَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}^{١١٧}.

فالله عز وجل هو المبدئ المطلق الذي يبدي ويعيد، ولا يحتاج لأسباب تدعوه لبدء ما يريد إبدائه وهو القادر على إعادة ما بدأه قال تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهْلٌ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوبِدًا^{١١٨}، فهذه الآية تلفت نظرنا إلى شيئين في غاية الأهمية وهما:

الشيء الأول: خلق الإنسان، وبيان مما خلق كي لا يأخذه الغرور، ويكون دائم التذكر في خلقه، فكيف للإنسان أن يغتر بنفسه وهو يعلم مم خلق! فبيان أصل خلقه في هذه الآية الكريمة من شأنه أن يجعل الإنسان متواضعا، خاشعا، فالبدائية دائما هي الأصل في التكوين والنشأة، ومهما ارتفع المخلوق بعد ذلك وعلا شأنه لا يمكنه تغيير بدايته أو إخفائها عن أحد.

^{١١٥} النساء ٣٨ . ٤٢ .

^{١١٦} البقرة ، ٢٨٤ .

^{١١٧} يونس ٤٤ . ٤٨ .

^{١١٨} الطارق ، ٥ . ١٧ ..

الشيء الثاني: الفناء، فالخلق يعقبه الفناء، أي لا أساس للخلد في حق الإنسان أو مخلوق آخر في الحياة الدنيا، وكما أن الأصل يوحد كافة البشر، فالموت يعيد هذا التوحيد مرة أخرى، كيف ذلك؟ مَنْ مِنَ البشر يستطيع أن يغير أصل خلقه؟. بطبيعة الحال لا أحد.

ومن منهم يستطيع أن يختلف في نهايته مع غيره؟. بطبيعة الحال لا أحد.

إذاً فالبداية واحدة والنهاية واحدة، مع أنه بين البداية والنهاية تتباين طريقة حياة البشر، فمنهم من يعلو في مكانته، ومنهم من يعيش مغموراً ضعيفاً، منهم من يكون غنياً، ومنهم من يكون فقيراً ومسكيناً، ولكن هذا التباين إذا فهمه بنو البشر حقاً، لفهموا أنه اختبار وامتحان لهم، فمن تواضع مع غناه فقد فاز، ومن تواضع مع علمه الفائق فقد نجا من النار، ومن صبر على فقره وهو يسعى للخروج منه حتى الفوز وكان شاكراً راضياً كانت له الجنة، وهذا هو الخط المستقيم الواصل بين البداية والنهاية.

وحياة الإنسان ممتدة من البداية إلى النهاية، دون قدرة أي كان على الخروج من هذا الخط، كائناً من كان. ولذا فالأمر يستوجب التسليم من الذين خلقوا في أحسن تقويم، ولهذا كان الخليفة هو المؤمن على الكمال والتمام بالمبدئ المطلق.

وهذا هو خلق المبدئ بالإطلاق، الذي لا يضاهيه أي شيء، ولا يقدر على مماثلته أحد، فسهولة الخلق من العدم هي من صفات الله تعالى.

أما المبدئ بالإضافة فهو الذي يصنع من الشيء أشياء أي أنه مبدئ وبحدود أيضاً، فلا يستطيع تجاوز هذه الحدود بالقدرات البشرية التي يملكها وذلك لوجوده في دائرة النسبية، ويمكن للمبدئ بالإضافة أن يعيد ما صنعه، بل هو يكرر ما صنع وتكون صناعته أو بدئه للأشياء مسبوقة بالمادة الأساسية التي منها شكّل مصنوعه، فالمبدئ بالإضافة لا يمكنه صناعة الأشياء من العدم لأن قدرته محدودة أمام قدرة المبدئ المطلق التي لا حدود لها وعلى ذلك فالمبدئ المطلق هو السابق للأشياء وأما غيره فهو لاحق له مسبوق به، وعليه

كل لاحق هو مبدؤ، وكل مبدؤ لابد له من نهاية لبدائته فيبلى ويفنى وهذه سنة المبدئ المعيد في خلقه، وعليه فالمبدئ المطلق هو الباقي الدائم، قال تعالى : (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)^{١١١٩}، فهذه الآية الكريمة إقرار للفناء لكل المخلوقات، وإقرار لخلد الله سبحانه وتعالى، ولذلك يوصف المكذب بهذه الحقائق بأنه كافر وجاحد، وهو قاصر عن إدراك الحقائق هي كما هي، والإشارة إلى هذه الحقائق تتمركز في كل ذرة من هذا الكون بما فيه نفس الإنسان، المخلوق بالقوة، مما يجعله دائما في حاجة وسند من الخالق الأقوى الأعظم.

والمبدئ اسم من أسماء الله الحسنى التي تتصف بما لا يحصى ولا يعد ولكن للتبيان فقط أعرض منها:

أولها: المبدئ ذو قوة:

فلو لم يكن قويا ما كان الأمر بيده ولو لم يكن قويا ما كان مُبدئاً للشيء الذي يخلق من الأشياء جميعها، ولذا فالبدائية لا تحتل الضعف، والبدائية الضعيفة لا تحتل الوصول إلى النهاية، ولا بد أن تكون خالية من العيوب، والحمد لله الذي نزه نفسه عن كل ضعف أو عيب، ومهما حاولنا بعقولنا أن نحدد مدى قوته فلا يمكن أن ندركها، فقوته تفوق ما قد نصل إليه بتفكيرنا البشري المحدود، فالتفكير البشري يكون قاصراً إذا تعدى حدوده المشروعة له من الخالق عز وجل، فكيف يتعدى المخلوق على حدود خالقه! قال تعالى في محكم آياته: {إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ}^{١١٢٠}.

والله تعالى يحب خليفته قويا، مسخراً قوته في الخير والطاعة، لا يستغلها في بدء الناس بالشر، بل هي قوة تحفظ له كرامته، وكرامة دينه، قويا في نفسه، لا ييأس ولا يضعف، ولا يسمح لوسوسات الشيطان أن تطغي عليه أو تطوله، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ

^{١١١٩} الرحمن ، ٢٥ ، ٢٦ .

^{١١٢٠} النجم ، ٤ ، ٥ .

خَيْرٌ اِحْرَصَ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ
كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ" ١١٢١ .

ثانياً: المبدئ ذو مقدرة:

أي من بدأ الخلق بقدرته لا يعجز عن أي عمل آخر ولا يعدم الوسائل للوصول لنهاية ما خلق، هذه القدرة غير المحدودة في حق المبدئ هي التي تحيينا وتميتنا وترزقنا وتمنع عنا، وتمنحنا، فمن لا يملك القدرة فكيف سيبدأ؟ قال الله عز وجل في كتابه العزيز: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا} ١١٢٢ ، وقال تعالى: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} ١١٢٣ ، وقال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} ١١٢٤ . فقدرته إذاً لا يمكن أن يحدها زمان أو مكان، إنها القدرة التي ليس لها بداية ولا نهاية إنها القدرة الدائمة بدوام المبدئ المعيد عز وجل.

ومن المعروف أن للبشر قدرات متفاوتة، ولكنها جميعاً محدودة وقاصرة، مثل قصور أصحابها، ولكن مهما كانت قدرة الإنسان وفي أي مجال كانت لا بد أن يوجهها الإنسان لما هو خير وصحيح، ولذلك فالقدرة هي التي بها يصلح الخليفة الأرض وبها يصلح حاله وأمره وأمر الذين تربطه بهم علاقات أبوة وأخوة وذي قرى وعلاقات إنسانية أحبها الله وحببها إليه فله الحمد رب العرش العظيم.

١١٢١ صحيح مسلم ، ج ١٣ ، ص ١٤٢ .

١١٢٢ الإسراء ، ٩٩ .

١١٢٣ ياسين ٧٨ . ٨٣ .

١١٢٤ الحجر ٨٥ ، ٨٦ .

ثالثاً : المبدئ ذو رحمة:

تظهر بدايات الرحمة الالهية بالبشر منذ النشأة وخروجه للدنيا حيث حنان الوالدين ينتظره، وعطف الأخوة ومحبتهم ينتظره، وتبدأ رحمته عز وجل تتضح في كل مرحلة من مراحل حياته، فكل مرحلة منها تحتاج إلى رحمة الخالق، فمن رحمة الخالق جل وعلا أنه خلق الإنسان وعلمه البيان مصداقاً لقوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} ١١٢٥. ثم أهداه النجدين {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ أَيْحَسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا أَيْحَسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ} ١١٢٦، وأهداه نعمة السمع والبصر والفؤاد والعقل، قال تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} ١١٢٧، وهو رحيم بالإنسان حتى في خلق هذا الكون وهذا يتضح من كيفية تسخير الكون وسهولة العيش فيه، فمن رحمة المبدئ عند بداية خلقه أنه يسر لكل سبل العيش، فقد خلق الإنسان وبسط له سبل الحياة منذ البدء، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} ١١٢٨، فماذا يكون بعد كل هذه الرحمة التي اتسعت كل حياته؟.

وليس هذا فحسب بل أنه إذا بدأ الإنسان بارتكاب الذنب بدأ الخالق عز جل بوعدده بالمغفرة والرحمة إذا ما تاب، وهذا يوضح لنا أن بداية الخير العائد علينا هو من عند الله تعالى، أما بداية الشر العائد علينا فهو من عند أنفسنا، {أَوَلَمْآ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ

١١٢٥ الرحمن ١ . ٤ .

١١٢٦ البلد ٤ . ٢٠ .

١١٢٧ النحل ، ٧٨ .

١١٢٨ الحج ، ٦٥ .

أَتَى هَذَا قُلُّ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ١١٢٩ وأكبر رحمة لنا نحن البشر هي إرسال الرسل بالهداية والحق لنا ولكي لا يكون للناس حجة على الله تعالى، قال: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} ١١٣٠، فقد اتسعت دائرة رحمته لتشمل خلقه، مانحاً إياهم فرصاً عديدة للتوبة التي بدأ الخالق بتنبية المخلوق لها، وهذه الرحمة تبدأ ببداية نشأته.

وعلى خليفة الله أن يكون على جانب من الرحمة تكفيه لكي يرق قلبه للمسكين والفقير وابن السبيل قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} ١١٣١، وقال تعالى: {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} ١١٣٢. البدء دائماً رحمة من الرحمن الرحيم، ولذا فالخليفة هو من بدأ حياته بأفعال الرحمة والمحبة والمودة عدل في سلوكه بين الناس لا فرق بين أحد منهم ولا تفريق إلا بالتقوى المدخلة الخليفة الجنة من بعد الحياة الدنيا التي فيها أحسن عمله بالفلاح والإصلاح والطاعة للمبدئ العزيز.

فلا أجمل من أن تملأ الرحمة قلب المؤمن ليعمر ويزدهر، هذا هو الخليفة الحق، ولنا في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسوة حسنة، قال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ

١١٢٩ آل عمران ، ١٦٥ .

١١٣٠ النساء ، ١٦٥ .

١١٣١ البقرة ٢١٥ .

١١٣٢ البقرة ١٧٧ .

فَأَزْرَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا^{١١٣٣}.

رابعاً: المبدئ كريم:

الكرم قيمة إنسانية به تسد الحاجة وبه تبدأ التقوى والطاعة، وبه تقوى العلاقات بين الذين لهم حق في كل مكرمة، ولأن الكرم قيمة خير فكان فضل الله علينا كبيراً بكرمه لنا في الحياة والممات والبعث فقط أن نكون على الطاعة والشهادة التي بها يحق الحق ويزهق الباطل، ومن البداية فقد أسبغ الله بنعمه على عباده وأكرمهم بما لا يعد ولا يحصى من النعم، فكرمه سابقاً لشكرنا، وسابقاً لحمدنا له عز وجل، فهو المبدئ بكرمه، ومهما وصلت درجة خشوعنا وحبنا وشكرنا للخالق سبحانه وتعالى فلن نستطيع أن نصل لدرجة كرمه لأننا نظل اللاحقون في رد الفضل، وحتى أنه يرد شكرنا بالمزيد من الحسنات، فمثلاً من تصدق بصدقة ردها الله له مضاعفة، قال تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ^{١١٣٤}، ومن أحسن إلى الله أحسن إليه، قال تعالى: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ^{١١٣٥} وبالطبع فإن إحسان الكريم ليس بمحل مقارنة مع إحسان البشر.

وقد أحب الله تعالى، من هو كريم في إيمانه لا يبخس الله حقه، فالبخل ليس مقروناً بحب المال، بل حتى في الأعمال. قال تعالى: {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ^{١١٣٦}. قال تعالى: {أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ^{١١٣٧}. يفهم من هذه الآية الكريمة أن أساس الخلق هو إنبات الزوج الكريم

١١٣٣ - الفتح ، ٢٩ .

١١٣٤ الأنعام ، ١٦٠ .

١١٣٥ الرحمن ، ٦٠ ، ٦١ .

١١٣٦ الأنفال ٣ ، ٤ .

١١٣٧ الشعراء ٧ . ٩ .

في الأرض التي استخلف المبدئ عز وجل بني آدم فيها ليصلحوا ولا يفسكوا الدماء ولا يفسدوا فيها، ولذا فالقاعدة هي أن يبدأ الخليفة حياته بالكرم حتى توصف به ويقال عنه إن حياته كريمة، وتسجل من أعماله التي تكون من مسببات دخوله الجنة.

خامساً: المبدئ ذو ملك:

المبدئ عز وجل هو مالك لنا ونحن مملوكين له، والمملوك دائماً يكون تابعاً ومطوعاً لمالكة بالحق، لذلك لا ينبغي لأي مخلوق أن يطيع غير الذي أنشأه وخلقته في أحسن تقويم، فالمبدئ المالك بيده مفاتيح أمرنا لا يضرنا شيء بدون أمره ولا ينفعنا، ولا نملك عزاً ولا جاه بدون إذنه فهو الذي يعز من يريد ويذل العزيز بعد ضلال إذا أراد، قال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ^{١٣٨}، سبحانه أنه المالك لجميع ما نملك وهو الرحمن الرحيم، قال تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} ^{١٣٩}، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} ^{١٤٠}.

فمقابل الرزق والنعم العديدة وتدبير أمورنا، يطلب من الله عز وجل أن نتقيه، ومن الطبيعي أن يكون للمالك حقوق علينا وواجبات نحوه ينبغي أن نؤديها بإرادة، فحقه علينا الإيمان به واحد أحد لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وله الطاعة والخضوع بالعبادة أمراً ثابتاً لا حياد عنه ولا شك فيه، و{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ

^{١٣٨} آل عمران ، ٢٦ .

^{١٣٩} يونس ، ٣١ .

^{١٤٠} الأنعام ٧٣ .

يَوْمَ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} ١١٤١.

لذلك فعلى أولى الأمر من العباد أن يتذكروا، من مالكمهم في الأصل، كي لا يتجاوزوا
حدودهم في أي أمر صغيراً كان أم كبيراً، وليكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
وأصحابه مثلاً يحتذون به.

سادساً: المبدئ مصور لخلقه:

فقد صور الإنسان في أحسن صورة لأنه عز وجل خلق الإنسان من أجل استخلافه في
الأرض، فاستحق بذلك أن يصوره الله سبحانه وتعالى في أحسن الصور، قال عز وجل في
محكم آياته الكريمة: {الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} ١١٤٢، وكذلك
قوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} ١١٤٣، بل لقد بدأ بخلق الكون بتصويره في
أبهى صورة، فالتأمل في خلق الله تعالى من حوله سوف يدهشه دقة التصوير، وروعة
الخلق، فكم نوع من النباتات في الكون؟. الملايين وهي مختلفة في تصويرها، وكم نوع من
الطيور؟. العديد وجميعها ممتعة للنظر، وتناثر هذه النجوم في السماء، لها صورة مميزة في
خلقها، البحار والجبال والمحيطات كل شيء بخصوصيته ولونه، وحتى البشر تختلف
ألوانهم وأشكالهم مع اختلاف البيئات، فكل ما حولنا هو صورة مدهشة للمصور الجليل،
تدعونا للتأمل في خلقه وتدعونا لتوحيده وخشيته، قال تعالى: {الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا
وَعَرَابِيٌّ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} ١١٤٤.

١١٤١ الفاتحة ١ . ٧ .

١١٤٢ - الانفطار ، ٧ ، ٨ .

١١٤٣ - التين ، ٤ .

١١٤٤ - فاطر ، ٢٧ ، ٢٨ .

فالخليفة الحق لا ينتظر أكثر من هذا التصوير المجسد أمامه في كل جزء من هذا الكون السماء بناها ورفعها بغير عمد نراها، ولننظر في أنفسنا حتى نتقي الله ربا لا شريك له، قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ} ١١٤٥، وقال تعالى: {سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ} ١١٤٦، وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ١١٤٧.

المصور للخلق هو المبدئ لهم وجوداً، وهو العالم بأمرهم وبما يجب أن يكونوا عليه قبل أن يكونوا ولذا فهو على كل شيء قدير، ولأنه المبدئ فهو بديع السماوات والأرض مصداقاً لقوله تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} ١١٤٨، وقال تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ١١٤٩.

سابعاً : المبدئ دائماً مجيب:

إن الله تعالى مبدئ في الإجابة، إذ لا يستغيث به خليفة إلا وأجابه في الوقت المناسب للإجابة، فبعد أن بدأ بخلقنا وأنعم علينا بإجابة دعواتنا، وهذا ما أخبرنا به خالقنا سبحانه وتعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} ١١٥٠، في هذه الآية الكريمة ارتبطت إجابة الله باستجابة الخليفة

١١٤٥ السجدة ٢٧.

١١٤٦ فصلت ٥٣، ٥٤.

١١٤٧ - آل عمران ، ٦ .

١١٤٨ البقرة ١١٧، ١١٨.

١١٤٩ الأنعام ١٠١.

١١٥٠ - البقرة ، ١٨٦ .

له، واستجابة الخليفة تتكون من التسليم والتوحيد وعدم الشرك مع الطاعة لأمره فيما يجب وفيما لا يجب.

ولأن المبدئ مجيب فأسرع إجابة هي إجابة المظلوم إذا دعا ربه باعتدال الحق ولأجل إزالة ظلم وضيم. وأكثر ما يحتاجه المظلوم هو إرجاع حقه من الظالم، ولو كان ذلك بنزول مصيبة عليه، وما أسرع ما يستجيب الله تعالى لدعوة المظلوم، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ"^{١١٥١}.

وإذا درس الإنسان سيرة حياته وتتبع مواطن طاعته ومعصيته، لما كان استحق الكثير منهم إجابة الخالق دعواتهم، لكنه يبدأ عز وجل بالإجابة مانحاً هذا الإنسان فرصة للرجوع إليه. فلماذا لا نجيب السائل إذا سألنا؟. فعَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أَعْطُوا السَّائِلَ وَإِنْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ"^{١١٥٢}، لا بد أن نجيب من طلبنا إذا استطعنا، ولا نمنع أحداً مما نقدر عليه، وأن لا نترك خلفنا من يدعو علينا. ولهذا لا ينهر السائل، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^{١١٥٣}. الرزاق يرزق من يشاء بغير حساب، وذلك لأجل أن يتقى الله ربه في حق نفسه وحق الآخرين مما رزقه الله، ولأنه مرزوق فلينظر إلى السائلين بعين الذي أعطاه رزقا ولا ينهر سائلا مهما كان فالحاجة قد تضطره إلى الإلحاح ولعل في ذلك الإلحاح إذا كانت له الاستجابة تكون ساعة رحمة واستجابة على الذي تصدق وزكى وذكر ربه دعاء وصلاة وزكاة وصدقة وكلمة طيبة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾^{١١٥٤}. ولأنه جل جلاله مبدئ فهو قريب مجيب لكل من

^{١١٥١} صحيح البخاري ، ج ٨ ، ص ٣٢١ .

^{١١٥٢} موطأ مالك ، ج ٦ ، ص ١٥١ .

^{١١٥٣} الضحى ١١ . ٩ .

^{١١٥٤} الليل ١٤ . ٥ .

خلق قال تعالى: {وَالْيَاقِينُ أَصْحَابُ الْأَرْضِ الْأَعْيُنِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ مَلِكٍ وَلَا يَنْصُرُهُمْ فِيهَا مَنْ يَكْفُرُ بِهِ إِلَّا لِقَائِهِمْ فِيهَا أَلَمَتْ لَهُمْ نَارُ الْحَرِّ وَأَلَمَتْ لَهُمْ فِيهَا أَعْيُنُهُمْ كَالْحَرِّ وَأَلَمَتْ لَهُمْ فِيهَا أَرْئَامُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} ١١٥.

ثامناً : المبدئ ذو علم:

لا بداية إلا بعلم ودراية؟ فالله تعالى عليم ولا حد لعلمه، وقد أوقف مداركنا عند بداية الخلق فلا نستطيع بعلمنا أن نتجاوز هذه المرحلة، ولا نستطيع بعقلنا البشري تخطي هذه الحدود، قال تعالى في كتابه الكريم: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} ١١٥٦، قد بدأ المبدئ بتعليمنا منذ بداية الخلق حينما علم أبوانا آدم الأسماء كلها مصداقاً لقوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} ١١٥٧، وهكذا كان جل جلاله مبدئاً بتعليم الأنبياء والرسل مصداقاً لقوله تعالى: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ} ١١٥٨، فالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قد علمه ربه العليم الخبير، فنعم المولى ونعم الوكيل،

والخليفة بالضرورة أن يكون منتصفاً بحسن الخلق، وأن يكون بعيداً كل البعد عن الجهل، إذ أنه بدأ الله خاتم الرسالات بكلمة إقرأ، إذن بداية معرفة الله وطريقها هو العلم، قال تعالى:

١١٥٥ هود ٦١.

١١٥٦ - البقرة ، ٢٥٥ .

١١٥٧ - البقرة ، ٣٠ ، ٣١ .

١١٥٨ - النجم ، ١١ . ١ .

{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} ١١٥٩ .

وعليه، فالعلم بداية المعرفة الحق، والجهل ضلال، فمن أراد أن يكون على الحق فعليه بالعلم، ومن أراد غير ذلك سيجد نفسه مع الجاهلين الذين لا يميزون بين ما يجب الإلتباع وبين ما يجب الاجتناب.

ولذا فبالعلم تتقدم الشعوب وتبني حضاراتها، وبه تستتير العقول وتبني ملكاتها، وبه تستمد الحكمة الصانعة للتاريخ، وبه يحق الحق ويزهق الباطل، وبه تشبع الحاجات المتنوعة والمتطورة، وبه تدرك الآيات العظام ويسترشد بها، وبه يتم التنقل من الظاهر إلى الباطن، وبه تتراكم المعارف والعلوم والثقافات التي تسهم في الإصلاح والفلاح الأرضي لأجل أن يأخذ كل نصيبه منها قال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} ١١٦٠ .

تاسعاً : المبدئ معيد:

إن القادر على الابتداء قادر على الإعادة من حيث بدأ ولكل ما بدأ، وقد اقترن اسم الله المبدئ والمعيد في كثير من الآيات القرآنية مثل قوله تعالى: {أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَيْلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ١١٦١ ، وكذلك قوله جل وعلا: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} ١١٦٢ ، وهذا من عظمة المبدئ الذي هو قادر على فعل الشيء وقادر على إعادته دون الحاجة إلى مساعدة من غيره.

١١٥٩ - العلق ، ١ . ٥ .

١١٦٠ القصص ٧٧ .

١١٦١ - النمل ، ٦٤ .

١١٦٢ - العنكبوت ، ١٩ .

ولأن الله تعالى هو الأول وهو الآخر وهو على كل شيء قدير، فهو بطبيعة الحال هو مبدئ الأشياء ومعيدها، وإلا هل هناك من يستطيع أن يمنع المبدئ من أن يعيد ما بدأه خلقاً؟. لو كان هناك من يستطيع لفسدت، ولذا الله واحد أحد لا شريك له ولهذا لا يوجد من يملك القوة غيره، فهو المبدئ المعيد جل جلاله. قال تعالى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ١١٦٣.

عاشراً: المبدئ مُظهر:

أي هو الذي يوجد إظهاراً، وهو الذي ينهي وجوداً، يوجد الأبدان وينهيها ويوجد الأنفس ويميتها، ويوجد الروح التي لا يعلم أمرها إلا هو عز وجل، وهو مظهر ما خفي حتى في النفوس، والإظهار عكس الإخفاء فكيف سيخفي عليه جل وعلا شيء وهو الذي يبدأ بإظهار كل شيء. إنه مظهر الحق من الكتمان والجدد، ومظهر الحي من الميت قال تعالى: {تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} ١١٦٤، وقال تعالى: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} ١١٦٥.

١١٦٣ الحديد، ١ . ٣.

١١٦٤ آل عمران ٢٧.

١١٦٥ الروم ١٩ . ٢٤.

وعلى الخليفة أن يظهر المودة والصدق مع من حوله، فلا يخفي في صدره الضغينة والحسد.

والمبدئ هو المبدع أكيد، فقد صمم هذا الكون بطريقة تجعل الإنسان يبدع فيه إن استمد قوته وقدرته من القوي القادر، ولكن مهما تصل درجة إبداع الإنسان فهي لا تقاس بالإبداع الحق من الله تعالى، وهذا ما نلاحظه في الحقائق التي توصل إليها البشر، والتي تتطور من وقت لآخر، وكذلك البحوث العلمية المتنوعة والمتعددة، ولكن هذا لا يوصلنا إلى إبداع الخالق نفسه، لأنه أوجد من كل شيء كيف شاء، أما الإنسان فلم يوجد إلا ما كان له أصل في الكون، ولذا فالمبدع المطلق يوجد بالمطلق، والمبدع النسبي لا يخرج عن دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع. والأمثلة كثيرة ومتباينة في هذا المجال، فإبداع الخالق يكمن مثلاً في بصمة الإبهام عند البشر، فبرغم ملايين الناس فإننا نجد أن المبدع قد ميّز كل واحد منا ببصمة خاصة به، رغم تشابه بعض الناس في اللون والشكل والصلة الجينية الوراثية، التي تربط ذات القرى بالدم، والمتأمل حتى في ورقة الشجر أيا كان هذا النوع من الشجر، فسوف تدرك مدى إبداع الخالق فيها رغم ضآلتها إلا أنها تأخذنا إلى توحيد المبدع المصور، وهذا الطائر على مختلف أشكاله وألوانه هل من مصور غير الله يستطيع تصميم مثل هذا التنسيق المبدع؟.

وفي تركيب حواسنا الخمس فهي تنطق بإبداع المبدع إذا وعينا ذلك، كيف ذلك؟ وكيف يمكن أن نسخرها في طاعة الله عز وجل؟.

أولاً : حاسة البصر:

لقد وهب وأظهر المبدع لنا هذه النعمة بالتفاوت لحكمة هو مدركها، والبصر منبعه الروح لأن الأعمى ليس من فقد نعمة النظر، بل هو الذي وهبه الله بصرًا أطفأه هو بكفره، وطبعاً هناك فرق بين الأعمى والمقصود به الضال، والبصير المقصود به المهتدي كما في قوله عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا

مَا تَتَذَكَّرُونَ} ١١٦٦ ، فما الفائدة من بصرٍ لا يخشع لله عز وجل! فالبصير الحق هو الذي يوجّه بصره ويقلب فكره في آيات الله المبدع، فيقوده للتوحيد والطاعة، ويكفي للناظر في انسجام وتناسق أدق المخلوقات كالفرشات والطيور التي تجبر بديع خلقها الناظر إلى التأمل في دقة صنعها وإبداع صانعها، لذلك نلاحظ في كثير من الآيات القرآنية الكريمة حث من الله لإعمال البصر والبصيرة، قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} ١١٦٧ ، وقال تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} ١١٦٨ ، فبصر المؤمن الحق يجب أن يكون هكذا، وكذلك قوله تعالى في كتابه الكريم: {وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} ١١٦٩ .

إذن حاسة البصر ظاهرة لرؤية الظاهر، ولكن ليس كل ظاهر ظاهر، أي أعني ليس كل ما تشاهده العينين هو حقيقة، ولذا فلا تسلم بالظاهر بالمطلق، ولكن التسليم بما تكنه الصدور قال تعالى: {لِيَعْلَمَ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ} ١١٧٠ ، وقال تعالى: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} ١١٧١ .

ثانياً : حاسة الشم:

١١٦٦ - غافر ، ٥٨ .

١١٦٧ - القصص ، ٧٢ .

١١٦٨ - الداريات ، ٢٠ ، ٢١ .

١١٦٩ - المؤمنون ، ٨٠ .

١١٧٠ غافر ١٩ . ٢١ .

١١٧١ المائدة ١٣ .

لقد أهدانا الله عز وجل هذه الحاسة كي تقودنا لما أبدعه الخالق عز وجل حولنا من روائح متباينة تتمثل في الزهور المتنوعة في عبيرها وحسنها، حتى إننا نجد أن الله قد عوض بهذه الحاسة بعض المخلوقات الأخرى كالحیوانات عن التمييز بالعقل، فمثلا نجد أن هناك أنواعا من الحيوانات تتعرف على صغارها عن طريق هذه الحاسة، وهذا من شأنه أن يُظهر لنا مدى إبداع الخالق في خلقه، ومدى حكمته في تصوير كافة المخلوقات، وهذا في النهاية كله يصب في تسخير هذا الكون لتوجيه الإنسان لإدراك وحدانية الله سبحانه وتعالى، وعلينا أن نبتعد عن شم ما هو مكروه ومحرم، ولا يطيب لنا شم إلا ما هو طيب، وعلينا ألا نقرب هذه النعمة إلى نقمة وسخط من الله تعالى علينا.

والأنف هو الحاسة الظاهرة للشم، ولذا فإن الشم عملية معقدة تبدأ بالأنف ثم تمتد إلى الرئتين ثم إلى العقل الذي يتذوق ويميز ويقرر الاختيار والتفضيل لما هو أجود وأفضل وأحسن، ولنأخذ الحيوانات كمثال لتوضيح هذه العملية التي نضربها كمثال: فذكر المعز أو الضان أو الإبل أو البقر على سبيل المثال هذه الذكور تعرف عن طريق حاسة الشم أنثى كل نوع ما إذا كانت حائلا أو عشرة أو لقيحة من رائحة بولها، وتتم العملية بأن يشم الذكر بولها أولا ثم يختبر ما يشم مع رفع رأسه إلى أعلى فيعرف ويميز ثم يتخذ القرار بالأقدام عليها إن كانت حائل، وباجتتابها إن كانت عشرة أو لقيحة وبسرعة فائقة لم تبلغها بعد قدرة الإنسان الذي لا زال يختبر كل شيء في المختبرات والمعامل لأجل أن يعرف ويتخذ قرارا صائبا. ومن الكثير يمكن أن يقال عن كلاب معرفة الأثر التي تستخدم من قبل بني آدم لمعرفة ما لم يستطع معرفته الإنسان عن طريق حاسة الشم، ولهذا فالأنف الظاهر في القصص كغيره من الحواس الظاهرة الأخرى لا يساويه إلا أنف ظاهر، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^{١١٧٢}.

ثالثاً: حاسة اللمس:

التي تجعلنا نفرق بين ما هو ناعم وخشن، وبين ما هو بارد وساخن، والأهم هو إدراكنا للألم عن طريق هذه الحاسة، فإذا لمسنا مثلاً إناءً ساخناً قد تعترض أيدينا للاحتراق إن لم نحذر، ونشعر بالألم، ويختلف شعورنا عند لمس ما هو ناعم كالحريز مثلاً، وفي كل لمسة يختلف الشعور والإحساس، وهذا الاختلاف يجعلنا نميز والتمييز نعمة من الخالق، واختلاف اللمس بحد ذاته هو إبداع من الله تعالى، الذي بدوره يقودنا إلى طاعته وشكر نعمه، وعلينا اجتناب لمس ما لا يصح لمسه، وفي المقابل يكفي أن نلمس رأس طفل لنحسسه بالمودة والمحبة، ورأس حزين لنطمئنه بالمواساة سكينه تنقل إحساسنا وهو في حالة امتداد متصلة من القلب إلى الأيدي إلى جسمه ثم إلى قلبه ليطمأن والله الحمد. ولأن للمسح دلالة ومعنى قال تعالى: {فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ} ^{١١٣}، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنْتُمْ جُنُبًا فاطَّهَّرُوا وَإِن كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} ^{١١٤}.

رابعاً : حاسة السمع:

السمع حاسة ضرورية لبني آدم، وقد منحنا المبدع عز وجل هذه النعمة كي نعرض بسمعنا عن الباطل فلا نستمع إلا للحق، وإذا سمعنا الحق فلن ننطق إلا به، والمؤمن، كما وصف الله تعالى هو من ينطبق عليه قوله في كتابه الكريم: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْسُونَ عَلَىٰ

^{١١٣} النساء ٤٣، ٤٤.

^{١١٤} المائدة ٦، ٧.

الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} ^{١١٧٥} ، بطبيعة الحال المخاطبة أقوال تقال فتسمع ويؤخذ بأحسنها فعباد الرحمن لا يسمعون إلا الحق وإن خاطبهم الجاهلون لا يقولون إلا سلاما.

فخليفة الله في الأرض هو المبدئ بالإضافة الذي يبدأ في حياته بكف حواسه عن كل ما يغضب الله تعالى، فينوء بسمعه عن كل ما هو باطل، فيكافؤه الله تعالى في الآخرة بسماع ما طاب لهم، قال تعالى: {جَنَّتِ عَدْنِ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا لَا يُسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} ^{١١٧٦} .

وحاسة السمع لا تستمع إلا لظاهر، أما الباطن فلا تسمعه، ولكن تدركه القلوب والعقول التي تميز بين الخبيث والطيب، ولذا فالاستماع في دائرة الممكن المتوقع يمكن أن يؤدي إلى نقل الباطل ويمكن أن يؤدي إلى نقل الحقيقة ولهذا لكل فعل رد فعل، مما يجعل الفتن تطفئ أو تزداد اشتعالا، ولهذا الخليفة دائما محكما لضميره يعلم بالأشياء ويتقصى أمرها ويتعقبه من أجل معرفة صادقة وفعل سليم، والله دائما يكشف أمر المنافقين والماكرين لرسوله الكريم قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} ^{١١٧٧} ، وقال تعالى: {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا

^{١١٧٥} الفرقان ، ٦٣ .

^{١١٧٦} مريم ، ٦١ ، ٦٢ .

^{١١٧٧} المائدة ٤١ .

حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ^{١١٧٨}، وقال تعالى: {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ^{١١٧٩}.

خامساً : حاسة التذوق:

فبهذه الحاسة نستمتع بكل ما هو طيب ولذيذ، ولكن هل خطر ببالك وأنت تستمتع بما تتذوقه أن تذكر فضل الله عليك؟ أو أن تحمد الله على حسن إبداعه وخلقه وورقه الذي بين يديك؟ فالمذاقات مختلفة وبعضها متشابهة وكل مذاق له انسجام خاص داخلنا، ويختلف الناس في مذاقهم وطريقة تذوقهم ولذلك فله في خلقه شؤون.

وهذه الحواس هي نعم من المبدع عز وجل، وكلها لأبد أن توجه صاحبها لتوحيد الخالق، والتأمل في إبداعه: {قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ^{١١٨٠}.

التذوق نوعان رئيسان هما:

النوع الأول: ذوق عقلي: يميز فيه العمل الخبيث من الطيب، ولهذا فكل طيب ذو أثر طيب مرغوب ومحبيب من الذي له في الذوق حس. ولهذا يحس الخليفة في تجويد القرآن بذوق رفيع، ويحس من إخراج الكلمة الصادقة ذوق رفيع يؤثر على كل نفس صادقة ومحبة لقول الصدق وفعله، قال تعالى: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدْفُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ^{١١٨١}، وقال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا

^{١١٧٨} المائدة ٤٢، ٤٣.

^{١١٧٩} التوبة ٤٧.

^{١١٨٠} - الملك ، ٢٣ .

^{١١٨١} الحج ٢٤، ٢٥.

تَحْمِلُ مِنْ أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ
إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ^{١١٨٢}.

ولأن الخالق خلق كل شيء على نوق رفيع سواء أدركنا ذلك أم لم ندركه، فإن أدركناه
أدركنا القدرة الربانية فيه مصداقا لقوله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى
السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ
مُذَكَّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ
إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ^{١١٨٣}}. في هذه الآية الكريمة يراد أن يوجه عقل الإنسان إلى ما يحدث له
النقلة وهو معرفة الكيفية التي عليها خلقت الإبل، والكيفية التي بها السماء رفعت، والكيفية
التي عليها الجبال نصبت، والكيفية التي بها الأرض سطحت، وذلك لأجل التذكير، ومن
تذكر وعرف عرف القدرة الربانية.

النوع الثاني: ذوق وصفي: ولذا لو رجعنا لقراءة الآيات السابقة التي تدل دلالة واضحة على
خلق الإبل والسماء والجبال والأرض لعرفنا أنها ذات صفات حسان مستمدة من صاحب
الأسماء الحسنى الذي خلقها آيات إعجازية حيث لا خالق لها سواه. السماء في جمالها
وكانها الجمال في ذاته، والإبل الموصوفة به وكأنها هو في ذاته لو عرفنا الكيفية التي بها
وعليها خلقت فسبحان الله ما شاء الله ولا قوة إلا بالله.

وعليه في الحركة جمال وفي السكون جمال وفي النطق جمال وفي العمل الحسن جمال
وفي أنفسنا جمال وفي الأرض جمال وفي السماء جمال وما بينهما يملأه الجمال، ولكن يا
ترى من يرى الجمال جمالا؟. بالتأكيد لا يرى الجمال إلا الجميل في قوله وفي حسه وحسنه
وفي صدقه وعلمه وعمله وحركته وسكونه.

ولهذا فالخليفة يجب أن يستمد صفاته من صفات الله عز وجل حتى يكون مستحقاً لخلافة
المولى الواحد الأحد، وعليه أن يكون مبدياً بالحق لأن الله عز وجل هو المبدئ بالإطلاق،

^{١١٨٢} فاطر ١٠ . ١١ .

^{١١٨٣} الغاشية ١٧ . ٢٦ .

فهو المبدئ لكل هذا الكون بما فيه وما يحتويه من أشياء وهو لم يحتج لأسباب أو دوافع أو مادة أساسية ليتمكن من البدء في خلق هذا الكون، لهذا فالخليفة عليه أن يكون مبادراً بادئاً لأفعال الخير والطاعات قاصداً بها وجه الله الكريم، ولا يكون ممن لا يقومون بالفعل إلا إذا نبههم إليه أحد، فيكون بذلك غافلاً وليس مبدئاً، والغافل عن الحق لا يستحق أن يخلف الله في ملكه، وأول ما يبدأ به الخليفة هي كلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فيها يكون لعمله معنى وقبول، لأن بدون كلمة التوحيد يكون عمل الإنسان هباءً منثوراً لا يجزى عليه في الآخرة كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَوْ قَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾^{١١٨٤}، وبدون كلمة التوحيد لا يمكن أن يكون مستحقاً لخلافة خالق هذا الكون، وذلك لأن الخلافة لا تكون إلا للمؤمن الموحد المستمد صفاته من الله والملتزم بأوامره.

فيكون المبدئ بالإضافة بدايةً موحداً بالله ويكون عمله خالصاً لوجهه تعالى، وهذا التوحيد الذي يعمر به قلب الخليفة يجعله مبدئاً بأعمال الخير والإصلاح التي تؤدي إلى إعمار هذا الكون المراد له الاستخلاف فيه بالحق، والإعمار هو الذي أراده الله عز وجل وكلفنا به، وليس الإعمار المادي فقط الذي تميز به هذا الزمن من تشييد الأبراج والمصانع وغيرها دون الاهتمام بالإعمار المعنوي والروحي والاجتماعي والنفسي، فما خلقنا الله عز وجل وما استخلفنا في أرضه إلا لإعمارها من كافة الجوانب المادية والمعنوية، وهذا ما تشير إليه الآيات الكريمة التالية: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَا فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^{١١٨٥}، ففي الآية السابقة أمر ضمني بالإعمار، حيث إن الله سبحانه وتعالى يخبرنا أنه سخر لنا كل ما في هذا الكون، ثم أمرنا بعدم الإفساد فيه، وبالطبع فإن عكس الإفساد هو الإعمار، وبالتأكيد فالنهي عن الإفساد يقتضي أمراً بالإعمار، ومن الإعمار إحقاق الحق والتخلي بالفضائل والابتعاد عن الرذائل وفي ذلك نوق رفيع.

^{١١٨٤} - الفرقان ، ٢٣ .

^{١١٨٥} - الأعراف ، ٧٤ .

وعلى الخليفة أن يكون مبدئاً بإحقاق الحق وإرجاع الحق إلى أصحابه، وقول الحق ولو على نفسه، لأنه بإحقاق الحق ينتشر الحب والإخاء بين العباد، ويزداد الحرص على المصلحة العامة فيتحقق بذلك وجه من وجوه الإعمار والإصلاح في هذا الكون، ويزهق الباطل لغير رجعة.

ويكون مبدئاً في وصل الأرحام، ومسامحة الآخرين ليقوي الروابط الأسرية والاجتماعية التي أوصانا بها الخالق جل وعلا، هذا مما يجعل الخليفة كما وصفه الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - في حديثه: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُهَاجِرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ" ^{١١٨٦}، لذلك فالمبدئ بالإضافة هو من يبدأ بإصلاح نفسه أولاً وذلك بتطهيرها من الأمراض النفسية والأحقاد والضغائن والمكائد والحسد الذي يفرق بين المرء وزوجه، بذلك يصل إلى أن يكون ذو فضل على من أساء إليه بعفوه وصفحه عن الإساءة مع القدرة على رد الإساءة لكنه بدأ بالصفح لما فيه من إصلاح ما بين العباد وبينه والتزاماً بأمر الله في قوله تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} ^{١١٨٧} وبهذا يتحقق الإعمار الذي طلبه الله من الذين جعلهم خلائف الأرض معمرين لا مفسدين أو سافكي دماء فيها بغير حق.

والمأمل في هذا الكون المطلوب منا إعماره يجد أن المبدئ جعل أساس خلقه حركة وسكون وجمال يستوجب ناضرا فيه وناظر له، وهذا ما نلحظه في تصميم هذا الكون من بداية خلقه، فقد بدأ الخالق عز وجل خلق الإنسان في مراحل متباينة بدأها من نطفة تختلف في حركتها عن حركة الجنين المتكون منها، ثم يبدأ الجنين بالنمو في رحم أمه تدريجياً، وفق تصميم مبدع عظيم، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ

^{١١٨٦} موطأ مالك ، ج ٥ ، ص ٣٩٤ .

^{١١٨٧} فصلت ، ٣٤ .

اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ^{١١٨٨}، ففي الآية الكريمة توضيح لمراحل خلق الإنسان، التي يمر بها الجنين وهي بالطبع متباينة الحركة والسكون، وبالرغم من عدم استعمال الجنين وهو في رحم أمه لبعض الأجهزة داخل جسده إلا أن المبدع عز وجل يضعها فيه، مثل الرئتان فهو لا يستعملها داخل الرحم لأنه يستمد الهواء للتنفس عن طريق أمه، والمولى جل وعلا وضعهما لعلمه المسبق ببداية تحرك الرئتين فور خروجه للعالم المشاهد، وأيضاً إذا نظرنا إلى هذا الكون من المتخيل إلينا أنه ثابت مع أنه دائم الحركة، كحركة دوران الأرض والمجرات السماوية، وبالرغم من حركة وسكون الأشياء إلا أن لكل مبدوء نهاية، وهذه سنة الله في خلقه فلا يستأثر بالبقاء والخلد إلا المبدئ المطلق فهو الأول والآخر ولا نهاية له لأنه الباقي بعد فناء كل ما عداه، والمبدئ المطلق هو الذي بدأ نهاية هذا الكون، وجعل في نهايته بداية لحياة أخرى أعدها الله عز وجل لحساب عباده كل حسب عمله، ويتجسد في كل هذه المراحل حركة دائمة مستمرة وهذا أساس خلق الله للكون بين سكون وحركة.

فكيف للكافر بعد كل هذا الإبداع والتصوير والعظمة أن لا يبدأ بالتوجه إلى الخالق عز وجل، ويكفي فقط أن يسأل هذا الكافر نفسه هل يكون كل هذا الخلق المنتظم الدقيق والثابت هو مجرد صدفة، أم أنه خرج من قوة الخالق المبدئ لكل شيء؟! وهل الصدفة تُسَيِّر كل هذا النظام الكوني أو التحكيم هو الذي يسيره؟.

ومن ثمرات الإيمان باسم المبدئ الآتي: -

١ . عند ابتداء الخليفة في الأرض بالقيام بعمل ما يجب أن يتذكر دائماً أنه ليس سابق بعمله هذا بل هو لاحق، فقد سبقه الخالق عز وجل بالبده في تهيئة كل شيء من حوله في الكون وهذا بدوره يجعل الخليفة تابعاً لله سبحانه وتعالى، فما من مكتشف أو مخترع قد أظهر للعالم شيئاً من العدم فمثلاً عندما سقطت تقاحة من الشجرة على الأرض استتبط الإنسان نظرية الجاذبية الأرضية، فلم يستتبط العالم من العدم هذا القانون بل إن الخالق المبدئ أشار لوجود هذا القانون بطريقة معينة، وكذلك نجد هذا المعنى عندما اخترع

^{١١٨٨} المؤمنين ، ١٤ .

الإنسان الطائرة فهي لم تكن فكرة تولدت من العدم، بل كانت الطيور المحلقة بأجنحتها من خلق الله هي مولدة لهذه الفكرة، وذلك عندما بدأ الإنسان بمراقبة تحليق الطيور في السماء، وتوصل تدريجياً إلى تحليق الإنسان في السماء عن طريق الطائرة.

٢ . أن الخليفة في الأرض مهما كانت درجة طاعته وإحسانه وحبه لله عز وجل، فإنه لا يستطيع رد الفضل بمثله وكيف ذلك؟ فالله هو المبدئ علينا بالنعمة والعطايا ومن المعروف أن المبدئ دائماً يكون فضله أكبر من المبدوء وهو الإنسان، وقد أسبغ المبدئ المطلق علينا بنعم لا نستطيع مهما شكرنا وحمدنا أن نرد له فضله علينا، قال تعالى في كتابه الكريم: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} ١١٨٩ .

٣ . أن تكون بداية كل عمل يقوم به الخليفة خالص النية فيه لله عز وجل، فبداية كل عمل نود القيام به لا بد أن تسبقه النية، والله تعالى لا تخفى عليه النوايا، فهو يعلم السر والعلن، قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} ١١٩٠ ، وقال أيضاً: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} ١١٩١ فعمل الخالق لا يتوقف على الظاهر من الأعمال، بل إنه يكشف ما نوت الأفتدة، ولا بد للخليفة أن يبدأ بالحق الذي يرضاه الله تعالى، كما بدأ هذا الكون بالحق ، قال الله تعالى: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} ١١٩٢ ، فقد أشار الله للحق في هذه الآية عند استحالة خلق الكون بالباطل، وبالطبع الحق عكس الباطل لا يجتمعان، فإذا بدأ الخليفة نيته بالحق وبالإصلاح نال رضا الله عز وجل.

٤ . على الخليفة أن يتذكر أنه الضعيف بجانب قوة الخالق وعظمته، وإنه قوي بقوته واتكاله عليه، فمن بدأ بخلقه من طين قادر على إرجاعه متى يشاء، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ

١١٨٩ النحل ، ١٨ .

١١٩٠ التغابن ، ٤ .

١١٩١ الأنعام ، ٣ .

١١٩٢ آل عمران ، ١٩١ .

مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ} ^{١١٩٣}، فالإنسان لا يملك شيئاً أمام قوة وإرادة خالقه جل وعلا، فلا يصيبه الغرور لمجرد امتلاكه لقوة بدنية أو ذكاء حاد أو حتى عند تقلده مناصباً كبيراً، فلا بد أن يتذكر أن هناك من هو أقوى منه، بل أنه هو الذي منحه هذه الدرجة من القوة التي يملكها، ويظل الإنسان ضعيفاً لا يحتمل أن يمنع الله عليه نعمة من نعمه، قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا} ^{١١٩٤}، فمجرد تمعن الإنسان في كيفية بدئه وتكوينه سوف يصل إلى مدى قوة الله وضعف الإنسان إذا ما حاول مقارنة قوته بقوة خالقه جل جلاله، وهذا يرشدنا إلى التوجه للمولى كي نستمد منه قوتنا ونشد أزرنا به عند حلول المصائب، فالإنسان لا حول له ولا قوة إلا بالله عز وجل.

٥ . الدوام على شكر الله عز وجل، وحمده على فضله ونعمه علينا وحفظه لنا من كل سوء، فالناظر إلى هذا الكون يخرج بنتيجة طبيعية ألا وهي تسخير ما في هذا الكون كله لخدمة الإنسان وبقاء خلقه، والله لم يخلق كل هذا ليرضي الإنسان بل خلق كل هذا لأنه قادر، قال تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ} ^{١١٩٥}، فالشاكر لله قريب منه، لأنه يدرك بدء الفضل من الخالق جل وعلا عليه، وفي الأحوال العادية يشعر الإنسان بالفضل لمن قدّم له مساعدة أو جامله في أمرٍ ما، فما بالك بالذي بدأ بأفضال ونعم لا تعد ولا تحصى، وأولها نعمة الوجود، ونعمة الإيمان وإدراك الوجود، وفتح طريق التواصل بينه وبين من أراد ذلك من البشر، ومغفرة الذنوب، وغيرها من النعم الجمّة، فلا أقل من الطاعة والشكر والخشوع لهذا المبدئ الكريم، الذي بالرغم من ابتدائه بالفضل إلا إنه أيضاً يحسن لمن أحسن، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} ^{١١٩٦}.

١١٩٣ - الأُنعام ، ٢ .

١١٩٤ - النساء ، ٢٨ .

١١٩٥ - النمل ، ٧٣ .

١١٩٦ - الرحمن ، ٦٠ .

٦ . الاستعداد ليوم الميعاد، فاسم المبدئ يوحى بالبداية كما أنه يوحى بضرورة نهاية البداية، لأنه كما بدأنا سوف نرجع، قال تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} ١١٩٧، فكل ما كان عند إرادته لن يكون، وهذا يزرع الخشية في قلب الخليفة الحق، فلا يغيره طول عمره، ولا كثرة ماله وولده، بل يسعى وراء العمل الصالح الذي لن يقبل غيره عز وجل، فيعمل لآخرته ولا ينسى نفسه مع ملاهي الدنيا الكثيرة، لأن قبول الله لك هو عملك، قال تعالى في كتابه العزيز: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} ١١٩٨ .

٦ . حب العمل والاجتهاد، فقد بدأ الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام متواصلة دون تعب أو كلل، ورفعها بغير عمد ثرى مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبَّهَا عَلَىٰ بَعْضِ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَيُّذَا كُنَّا تُرَابًا أَيْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} ١١٩٩، وقال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِنَّهُ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} ١٢٠٠ وانظر إلى نتيجة هذا العمل العظيم، وهذا باعثٌ للخليفة الذي استخلفه عز وجل في الأرض أن يسير في هذه الحياة

١١٩٧ - الأنبياء ، ١٠٤ .

١١٩٨ - الكهف ، ١١٠ .

١١٩٩ الرعد ٥ . ٢ .

١٢٠٠ يونس ، ٣ .

الدقيقة، فهذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يفاضل بين المسلمين بمن هو البادئ بالخير والمعروف، "عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهَاجِرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ" ١٢٠٣، إنه دين المحبة والإخاء والتسامح وفعل الخيرات، فبالرغم من أن رد التحية هو أمر في نظر بعض الناس هين، إلا أن الرسول الكريم عليه السلام وهو الناطق بأوامر الله قد لفت نظر المسلمين أن من أراد البدء بالخير، فالطريق مفتوح أمامه، فالبادئ بالمعروف هو بادئ بالخير وهؤلاء هم المؤمنون حقاً كما أرادهم الله تعالى، قال عز وجل: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} ١٢٠٤.

وهذا عكس المبدئ بالإساءة الذي يقع عليه الذنب الأكبر. لأن من البداية تتفرع عدة تفرعات أخرى، وتعم الإساءة وتكبر على يد بادئها، فمن تعمد نشر رذيلة في المجتمع قد أفسد في الأرض، قال تعالى: {وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} ١٢٠٥، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا} ١٢٠٦، قال تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَتَّخِثُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ

١٢٠٣ موطأ مالك ، ج ٢ ، ص ٣٩٤ .

١٢٠٤ آل عمران ، ١١٠ .

١٢٠٥ النساء ١١٢ ، ١١٣ .

١٢٠٦ الأحزاب ٥٧ ، ٥٨ .

الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ} ١٢٠٧ .

فلو يتدبر الجاحد بنعم الله عز وجل والكافر بها في معني اسم المبدئ في حق الله تعالى لتكشف له عن معنى الألوهية والتوحيد، لأن من يبدأ الخلق ويوجد لهم بالقوة المقدره لابد أن يحاسبهم بعد أن يعيدهم، فهو يريد لهم أخياراً، ومن لم يكن كما يراد له أن يكون عليه سيكون العقاب دون مخافة أو لومة لائم إن الأمر بيده وهو فعال لما يريد قال تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ} ١٢٠٨، ولو تأمل الكافر في كيفية البداية والنهاية لأدرك عظمة هذا الفعال الكريم، فالمبدئ المطلق هو الذي يستطيع وما عاده لا حيلة له ولا قوة له أن يبدأ الأشياء إلا مما شاء تعالى، قال تعالى: {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ} ١٢٠٩، فالحق واضح لكل وهو الله المبدئ العظيم، وهو من عنده، والباطل سواه وهو ضعيف لا يملك من أمره شيئاً، والحق قوة وعز، حتى إن الله تعالى قد تحدى البشر بمخلوقٍ ضعيف من مخلوقاته، حتى يعرهم بقدرتهم الضئيلة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسئَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} ١٢١٠، فمن من الناس جميعاً مهما علا سلطانه، وكثر ماله، وزادت قوته يستطيع أن ينفي هذه الحقيقة؟ والعجب أنه ما يزال من يكفر بالله، ويشرك به من لا حول له ولا قوة، من لا يستطيع أن يخلق أو يبدع.

١٢٠٧ - الشعراء ، ٥٧ . ٤١ .

١٢٠٨ هو ١٠٦ . ١٠٨ .

١٢٠٩ سبأ ، ٤٩ .

١٢١٠ الحج ، ٧٣ ، ٧٤ .

إن فالخليفة الذي يستحق خلافة الله تعالى في الأرض لابد أن يؤمن أن الله صفات عليا وأسماء حسنى هي من لوازم ألوهيته، وبها يضيء قلب الخليفة بنور رباني، ولا بد أن يؤمن أن الخالق المبدئ هو كامل وموجود من قبل الوجود، والحق أيضاً لا يتغير ولا يتبدل ولا يتكرر لأنه واحد ، أما الباطل فهو على عكس الحق، فهو يتكرر ويتغير وتتعدد وجوهه، ونجد بعض الآيات القرآنية الكريمة تشير إلى هذا المعنى مثل قوله تعالى: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} ^{١٢١١} ، فالظلمات جمع وهو الباطل، والنور مفرد لأنه الحق وهو واحد لا يمكن أن يكون أكثر من واحد، وكذلك قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} ^{١٢١٢} ، لذلك فبعد أن بين الخالق عز وجل الحق من الباطل لم يعد للإنسان حجة على الله تعالى، وحق له الحسيب أن يحاسب عباده، قال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ إِلَّا لِمَنْ أَلَّاهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} ^{١٢١٣} ، فالبداية الحق تستوجب النهاية الحق من الواحد الحق جل وعلا، وكيف لا يحاسب العباد وقد خلقهم منذ البداية بنية توحيدة وعبادته، ولم يخلق هذا الكون عبثاً، وقد جاء ذلك المعنى في قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} ^{١٢١٤} ، فالموحد له جزاء والكافر له عقاب، وهذا من حق الله أن لا يترك خلقه سدى دون حساب ولا عقاب، فأين ستكون الغاية السامية التي أنشأ الخالق الكون من أجلها إذا لم يحاسب

^{١٢١١} الرعد ، ١٦ .

^{١٢١٢} الأنعام ، ١ .

^{١٢١٣} الأنعام ، ٦١ ، ٦٢ .

^{١٢١٤} ص ، ٢٧ ، ٢٨ .

عباده ، قال تعالى في كتابه الكريم: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} ١٢١٥ ، فلكل شيء في الخليقة هدف، فلا نجد كيفما توجهنا بأبصارنا أي شيء قد خلقه الله سبحانه وتعالى عبثاً، أي دون غاية أو هدف، ابتداءً من أصغر المكونات وهي الذرة، التي تتكون منها المواد، فكيف بالإنسان الذي كرمه الله بخلافته في الأرض واختار منهم الرسل والأنبياء، قال تعالى في كتابه العزيز: {تَسْبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} ١٢١٦ ، وكذلك قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} ١٢١٧ ، وفي هذه الآية إشارة إلى نقطتين مرتبطتين ببعضهما البعض، وهما:

النقطة الأولى: هي الهدف من خلق المخلوقات بدايةً هو العبادة.

النقطة الثانية: هي عبادة الله وتوحيده الرابط بين المخلوقات في علائق قيمة تستوجب التقدير والاعتراف والاعتبار.

ومن هاتين النقطتين المتلازمتين تظهر لنا علاقة الله المبدئ بالخلق بخلقه، وعلاقتهم به عز وجل.

إذن بداية استحقاق الإنسان لخلافة المولى عز وجل هي إيمان هذا الخليفة بوجود الخالق منذ الأزل، فلا يجادل ولا يشك في ذلك، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "قَالَ كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَكَتَبَ فِي الذُّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ" ١٢١٨ .

١٢١٥ آل عمران ، ١٩١ ، ١٩٢ .

١٢١٦ الإسراء ، ٤٤ .

١٢١٧ الذاريات ، ٥٦ .

١٢١٨ صحيح البخاري ، ج ٢٢ ، ص ٤٢٨ .

وإذا كانت بدايته هذا اليقين لابد أن يصل إلى النهاية الحق مع مبدئ هذا الكون ومنهيه، فيسير في هذه الحياة بالخير والمعروف، يعمل بأوامر الله وبيتعد عن نواهيه، فماذا يكون نتيجة ذلك؟.

بيقيه الثابت بأن كل شيء مرجعه إلى مبدئه عز وجل، فيثبت عند حلول المصيبة عليه، ولا ينهار ولا يضعف، وكيف يكون ضعيفاً من شد أزره العظيم المبدئ؟ فالإيمان الحقيقي في قلب المؤمن هو بمثابة درع يقيه الوقوع في الوهن والشرك، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} ١٢١٩، فالمؤمن لا يصل إلى هذه القناعة دون الاقتناع بالمبدئ الذي بدأ خلقه أصلاً من عدم.

الأجر العظيم من الخالق العظيم، فكلما زاد المؤمن وأكثر في فعل الطاعات والخيرات، فإنه يجني الحسنات المضاعفة، والزيادة في الأجر، فهو البادئ بالكرم والبادئ دائماً يفيض على المبدوء بكرمه، قال تعالى: {إِنَّ الْمُسَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ} ١٢٢٠.

فالخليفة الحق هو الذي تكون بدايته مع الله ونهايته مع الله، لا يخرج من دائرة طاعته وحبه، وذلك لكي لا يخرج من دائرة رحمته تعالى، فالحياة الدنيا دار امتحان وابتلاء، لا يصمد فيها إلا ثابت العزم والإيمان، ومن كان موحداً لا مشركاً طائعاً لا عاصياً، قوياً بعقيدته لا ضعيفاً، متوكلاً على الخالق لا على غيره ممن لا يضر ولا ينفع، شاكراً لله تعالى على كل نعمه التي أنعمها عليه، قال تعالى: {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} ١٢٢١، صابراً

١٢١٩ البقرة ، ١٥٥ . ١٥٧

١٢٢٠ الحديد ، ١٨ .

١٢٢١ الفجر ، ١٥ ، ١٦ .

على أذى الناس راجياً من المولى أجراً يقيه نار جهنم وبأس المصير، مجاهداً في سبيله بكل ما لديه، قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ} ١٢٢٢، منفقاً ما يملك في وجوه الخير والبر، لا يبخلون بشيء لعلمهم بأن الله تعالى راده إليهم؛ لأنه لا يبخر الناس حقهم بل هو بادؤهم بالكرم، والغريب هو أننا نجد من ينشغل بحساب الملايين ولا يخطر بباله أن يحسب كم عليه أن يخرج من كل هذه الملايين زكاة؟، قال تعالى: {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} ١٢٢٣، أو لا يخطر ببال هؤلاء الأثرياء الذين لا أمل لهم سوى زيادة ما لديهم أنهم لن يصلوا إلى ما وصل إليه قارون، وكيف كانت نهايته؟ هل منعت أمواله الطائلة أن تخلده وتمنع الموت عنه! قال تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} ١٢٢٤.

والخليفة أن يكون مع الله دائماً طائعاً مدركاً للحق ومتبعه، وليس وقتماً يشاء، يخاف المولى عز وجل ليأمن آخرته، فالأمان عند خليفة الله تعالى بالأعمال، فأمله بالنجاة من العذاب هو عمله الصالح، لأن الأمل يصاحب العمل.

هذا هو بداية النجاة في نهاية الأمر، حيث لا يفلح إلا خلفاؤه الذين عملوا على تأمين أنفسهم بخوفهم من الخالق، ولم يؤمنوا أنفسهم بكثرة مال، أو جاهٍ أو سلطان، فالذي يفعل ذلك هو في الحقيقة مفلس تماماً، فكم من فقير كان في الدنيا أغناه الله يوم القيامة، وكم من غني كان في الدنيا قابل الله تعالى مفلساً؟ عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم يروي ذلك، عن ربه عز وجل أنه يقول: "وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة" ١٢٢٥.

١٢٢٢ آل عمران ، ١٤٢ .

١٢٢٣ البقرة ، ٢٧٢ .

١٢٢٤ القصص ، ٧٦ .

١٢٢٥ - شعب الإيمان للبيهقي ، ج ٢ ، ص ٣٣٨ .

فبداية الأمن من سخط الله تعالى هو خوف الخليفة وخشية الله تعالى، اللهم أمنا وقنا عذاب الحريق، وكلل أعمالنا بالقبول والرضا، ولا تحجب عنا حبك، فحبك نأمن سخطك، وننال رضاك. وعليه فإن الله مبدئ بكل شيء ومنه نذكر الآتي:

١ . مبدئ بخلقه. قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} ١٢٢٦.

٢ . مبدئ بمغفرته: قال تعالى: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} ١٢٢٧، وقال تعالى: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرِيصٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاعُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} ١٢٢٨.

٣ . مبدئ برحمته: قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نَفَّالًا سَفَّاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} ١٢٢٩، وقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْأَنْفُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} ١٢٣٠، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} ١٢٣١.

٤ . مبدئ بنهيه: قال تعالى: {مَا آفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} ١٢٣٢، وقال تعالى: يَا

١٢٢٦ الحجر ٨٥، ٨٦.

١٢٢٧ النجم ٣٢.

١٢٢٨ البقرة ٢٢٥، ٢٢٦.

١٢٢٩ الأعراف ٥٧.

١٢٣٠ الروم ٤٦.

١٢٣١ الشورى، ٢٨.

١٢٣٢ الحشر ٧.

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} ١٢٣٣، وقال تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَنُلْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} ١٢٣٤.

٥ . **مبدئ برزقه:** قال تعالى: {زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} ١٢٣٥، وقال تعالى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} ١٢٣٦.

٦ . **مبدئ بعزته:** قال تعالى: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ١٢٣٧، وقال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ نُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ نَشَاءُ وَنَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ نَشَاءُ وَنُعِزُّ مَنْ نَشَاءُ وَنُذِلُّ مَنْ نَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ١٢٣٨

١٢٣٣ المائدة ٩٠ . ٩٢ .

١٢٣٤ الأنعام ١٥١ .

١٢٣٥ البقرة ٢١٢ .

١٢٣٦ الشورى ١٩ . ٢٢ .

١٢٣٧ البقرة ١٢٩ .

١٢٣٨ آل عمران ٢٦ .

٧ . **مبدئ بحفظه:** قال تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} ١٢٣٩ ، وقال تعالى: {هَذَا مَا تُوَعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَن حَسْبِيَ الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} ١٢٤٠ .

٨ . **مبدئ بعفوه:** قال تعالى: {إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا} ١٢٤١ ، وقال تعالى: {وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} ١٢٤٢ .

٩ . **مبدئ بوده:** قال تعالى: {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ} ١٢٤٣ ، وقال تعالى: {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} ١٢٤٤ .

١٠ . **مبدئ بحسن خلقه:** قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} ١٢٤٥ ، وقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ} ١٢٤٦ ، وقال تعالى: {اتَّذَعُونَ بَعْلًا

١٢٣٩ هود ٥٧ .

١٢٤٠ ق ، ٣٢ . ٣٥ .

١٢٤١ النساء ٩٨ ، ٩٩ .

١٢٤٢ الشورى ٢٩ . ٣٠ .

١٢٤٣ البروج ١٣ . ١٦ .

١٢٤٤ هود ٩٠ .

١٢٤٥ التين ٤ .

١٢٤٦ المؤمنون ، ١٢ . ١٧ .

وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ^{١٢٤٧}، وقال تعالى: {وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا^{١٢٤٨}}

١١ . مبدئ باستخلافه: قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ^{١٢٤٩}، وقال تعالى: {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ^{١٢٥٠}، وقال تعالى: {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ^{١٢٥١}.

١٢ . مبدئ بتوريثه: قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ

^{١٢٤٧} الصافات ١٢٥، ١٢٦.

^{١٢٤٨} الإسراء ٣٢ . ٣٨.

^{١٢٤٩} البقرة ٣٠ . ٣٤.

^{١٢٥٠} ص ، ٢٦.

^{١٢٥١} الحديد ٧.

أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} ١٢٥٢، وقال تعالى: {قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} ١٢٥٣، وقال تعالى: {جَنَّتِ عَدْنُ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} ١٢٥٤.

١٣ . مبدئٍ بإحيائه: قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ} ١٢٥٥، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} ١٢٥٦، وقال تعالى: {فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ١٢٥٧، وقال تعالى: {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} ١٢٥٨، وقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ١٢٥٩.

١٢٥٢ . ١١ . ١

١٢٥٣ الأعراف ١٢٨، ١٢٩.

١٢٥٤ مريم ٦١ . ٦٤.

١٢٥٥ الحج ٦٦.

١٢٥٦ التوبة ١١٦.

١٢٥٧ الروم ٥٠.

١٢٥٨ الحديد ١٧.

١٢٥٩ فصلت ٣٩.

١٤ . مبدي بألفته: قال تعالى: {وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} ١٢٦٠، وقال تعالى: {وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَلِتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} ١٢٦١ .

١٥ . مبدي بإشفائه: قال تعالى: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} ١٢٦٢، وقال تعالى: {وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} ١٢٦٣، وقال تعالى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} ١٢٦٤ .

١٦ . مبدي بلطفه: قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} ١٢٦٥، وقال تعالى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ مَنْ كَانَ

١٢٦٠ الأنفال ٦٣ .

١٢٦١ آل عمران ١٠٣ . ١٠٥ .

١٢٦٢ الشعراء ٨٠ .

١٢٦٣ النحل ٥٢ . ٥٤ .

١٢٦٤ البقرة ١٠٢ .

١٢٦٥ الحج ٦٣ ، ٧٤ .

يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ^{١٢٦٦}، وقال تعالى: { لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ^{١٢٦٧} .

١٧ . مبدئ بكرمه: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ^{١٢٦٨}، وقال تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ^{١٢٦٩}، وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ^{١٢٧٠}، وقال تعالى: {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ^{١٢٧١} .

١٨ . مبدئ بتصويره: قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ^{١٢٧٢}، وقال تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ يَعْلَمُ مَا فِي

^{١٢٦٦} الشورى ١٩، ٢٠ .

^{١٢٦٧} الأنعام ١٠٣، ١٠٤ .

^{١٢٦٨} الانفطار ٦ . ٨ .

^{١٢٦٩} الأنفال ٤ .

^{١٢٧٠} الشعراء ٧ . ٩ .

^{١٢٧١} ياسين ١١ .

^{١٢٧٢} غافر ٦٤ . ٦٦ .

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ^{١٢٧٣}، وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}^{١٢٧٤}.

١٩ . المبدئ بسلامه: قال تعالى: {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}^{١٢٧٥}، وقال تعالى: {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ}^{١٢٧٦}، وقال تعالى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}^{١٢٧٧}، وقال تعالى: {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ}^{١٢٧٨}.

اللهم يا المبدئ جعلت بدايتنا على الإيمان بك واحداً واحداً اجعل خير أعمالنا خواتمها، وجعلت بدايتنا حمل الرسالة فاجعلنا من المبشرين بها ولا تجعلنا من الغافلين، اللهم إنك تبتدئ وتعيد اجعلنا كما خلقتنا من المستخلفين فيها في أحسن تقويم، اللهم يا المبدئ للروح اجعل أرواحنا طاهرة وأنفسنا مطمئنة وأجسادنا محفوظة من عذاب النار.

اللهم يا من جعلت لكل بداية نهاية ولكل نهاية بداية وكتبت على العاقل أن ينظر بعين عقله وقلبه وقلت وقولك الحق: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}^{١٢٧٩} فيا المبدئ يا الله يا من تسمع كلامنا وترى مكاننا وتعلم سرنا وعلانيتنا ولا يخفى عليك شيء من أمرنا ونحن الفقراء المستغيثون المستجيرون الوجلون المشفقون نسألك لا تجعلنا بدعائك من الأشقيا وكن بنا رؤوفا رحيميا يا خير الحافظين ويا خير المعطين. وابدأ

^{١٢٧٣} التغابن ٣، ٤.

^{١٢٧٤} آل عمران ٦.

^{١٢٧٥} يونس ٢٥.

^{١٢٧٦} هود ٤٨، ٤٩.

^{١٢٧٧} الأنعام ٥٤.

^{١٢٧٨} يس ٥٨.

^{١٢٧٩} العنكبوت ١٩.

بالخير أعمالنا وإذا أذنبنا أبدي في قلوبنا توبة تعقبها قبول وعملا يتممه توفيق أنك المبدئ والمعيد والفعال لما يريد سبحانه جل جلالك.

المعيد

في صفات الله تعالى: المعيدُ هو الله الذي بدأ الخلقَ إحياءً ثم يميئُهم ثم يعيدُهم أحياءً كما كانوا فهو سبحانه وتعالى الذي يُعيدُ الخلق بعد الحياة إلى المماتِ في الدنيا وبعد المماتِ إلى الحياة يوم القيامة^{١٢٨٠}.

المعيد: "هو الذي يعيد الخلائق كلها ليوم الحساب كما أبدأهم كما قال تعالى وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه"^{١٢٨١}.

المعيد هو الذي يعيد الحياة بعد الموت مصداقا لقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}^{١٢٨٢}، وقال تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}^{١٢٨٣}، فكما أن الله تعالى القدرة على الخلق من عدم، فإن له القدرة على إماتة الخلق بعد ذلك، ثم إعادة خلقهم بعد الموت من جديد لحسابهم يوم الدين، فلن يُترَك الإنسان سدى، ولم يُخلَق عبثاً في هذه الدنيا، قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ

^{١٢٨٠} لسان العرب - ج ٣ ، ص ٣١٥

^{١٢٨١} تفسير أسماء الله الحسنى، ج ١، ص ٥٦.

^{١٢٨٢} الروم ٢٧.

^{١٢٨٣} البقرة ٢٨ .

فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا^{١٢٨٤}.

وقد اقترن اسم المعيد مع اسم المبدئ في عدة مواضع كما في قوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ}^{١٢٨٥}، فلا بداية بلا نهاية، وكذلك لا توجد نهاية بدون وجود بداية أصلاً، قال تعالى: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَّا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}^{١٢٨٦}، ففي هذه الآية الكريمة شرح لمراحل الخلق والإعادة، ودليل على قدرة الخالق تعالى على أن يكون معيداً للخلق من الأصل، فمن التراب خلقنا وإليه أعادنا ومنه يرجعنا، وما التساؤل الموجه في الآية للعباد إلا دليل قاطع وبرهان ساطع لمن أراد التدبر في خلق الله، والوصول إلى إيمان ثابت بوقوع إعادة الخلق للحساب، والإعادة تكون للأصل لا للصورة، فالإنسان بعينه هو الذي يعيده الله تعالى كما كان في الحياة الدنيا، وعلى نفس هيئته، فلن يتغير شكله ولا عمله، فمن كان على وجه الدنيا يُفسد ويدمر، هو بعينه من يتلقى العقاب على هذا الفساد، ولن يتغير شخص من كان يُصلح ويحسن في الحياة الدنيا عن سيجازي عن هذا الإصلاح والإحسان، ولهذا فالأول هو الآخر وهو المبدئ المعيد.

فلو لم يكن معيدا ما كان له حساب ولا ثواب وعقاب، والعود رجوع إلى قول أو فعل أو حالة أو سلوك أو تكوين، فسبحانه الذي بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير. وبالعود لا يتم الظلم، فالأشياء تصور هي كما هي، دون زيادة ولا نقصان، ولذا فالعود دليل إثبات الحقيقة سواء كانت ذات أثر سالب أو أثر موجب.

^{١٢٨٤} الإنشاق ٧ ، ١١ .

^{١٢٨٥} البروج ١٣ .

^{١٢٨٦} يس ٧٨ . ٨٣ .

فالإنسان نفسه هو الذي سيعاد خلقه من جديد دون تبديل أو تغيير فيه، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^{١٢٨٧}، فلن ينقص عمل الإنسان ولن يتبدل لأن ذلك يُعد ظلماً والله أعدل العادلين قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ وَمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِينَ نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيْتِكَ فَالْيَنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^{١٢٨٨}، والله أعدل العادلين، فهو الحاكم والفاصل بين الناس فيما كانوا فيه يختصمون في الدنيا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^{١٢٨٩}، وهذا من شأنه أن يُصبر الذين ظلموا في الحياة الدنيا وسلب حقهم، ففي اسم المعيد نبعٌ يشد أزهم لحين لقائه سبحانه وتعالى، فيحكم ويفصل بين الناس، لأن الظالم سيقف بين يديه تعالى والمظلوم كذلك، لا يخفى من أمرهما عن الله من شيء، فهو الكاشف المحاسب.

والمبدئ والمعيد اسمان متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر؛ وذلك لأنهما اتصاف لواحد أحد لا شريك له، وبذلك فالإعادة تكون لمن بدأ خلقهم من العدم، بأمره "كن"، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^{١٢٩٠}، وهو يعيد هؤلاء الخلق من الحياة إلى الموت أولاً، ويعيدهم بعد ذلك بالموت للحياة، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ

^{١٢٨٧} البقرة ٢٨١ .

^{١٢٨٨} يونس ٤٤ . ٤٩ .

^{١٢٨٩} السجدة ٢٤ ، ٢٥ .

^{١٢٩٠} غافر ٦٨ .

أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ^{١٢٩١}، وحياة الإنسان عمرها الزمني بين هذين الاسمين، بما فيها من ذنب وتوبة وصلاح وفساد.

فرحلة الإنسان إذن تبدأ مع الله وتنتهي مع الله تعالى، فهي تبتدئ بالمبدئ، وتنتهي بالمعيد، وما أقصر الزمن بين البداية والنهاية، مع شعورنا بطول الحياة في هذه الدنيا، التي خلقنا الله تعالى فيها لأنها دار ابتلاء لا دار بقاء، فهي مليئة بالملاهي والمفاسد وكيف لا تكون كذلك وقد توعد إبليس عليه لعنة الله البشر بأن يغويهم إذا وجد منهم المستمع له، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ^{١٢٩٢}، لذلك فالدنيا لا يمكن أن تكون وسيلتنا للفوز يوم الدين إذا لم نكن من المطيعين المؤمنين بيوم الميعاد مع المعيد سبحانه وتعالى.

والخليفة يؤمن بيوم العودة إيماناً منه بالمعيد جل جلاله، قال في كتابه العزيز: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ^{١٢٩٣}.

والله تعالى قد بدأ الخلق بالإنشاء والإظهار من العدم، ثم يعيده إلى الحالة الأولى، والعودة هنا ليست اختراعاً لخلق جديد، بل إعادة البشر هم أنفسهم للحساب، يومها لا يغني مال ولا ولد كان له في الدنيا، فمن الطبيعي أن الإنسان حين يكبر لابد أن يكون عائلة، فبذلك يكون فرداً ويصبح جماعة، ولكن إعادته للحساب يكون وحده، لا ينفعه ولده ولا غناه، فيلقى

١٢٩١ الملك ١، ٢ .

١٢٩٢ ص ٧٥ . ٨٣ .

١٢٩٣ آل عمران، ١١٣ . ١١٥ .

ربه عند إعادته للحساب وحيداً ليس معه إلا عمله، الذي لن يشاركه أحد فيه، سواء أكان عملاً حسناً أم عملاً سيئاً، فالعبد يكون وحيداً فرداً مع الخالق عز وجل، قال تعالى: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} ١٢٩٤، فلن يشارك الإنسان في الوقوف بين يدي الله تعالى أحد، لأن كل واحدٍ منا مسؤول عن نفسه التي بخيارها هي سيكون مصيرها يوم الحساب معروفاً.

إن كل شيء في هذا الكون قابل للانتهاء، فلا وجود للخلد في هذه الدنيا، وإن الموت محيطٌ بنا، وإذا نظرنا وجدنا هذا الكون البديع المليء بالمخلوقات ومنها الإنسان، الذي كرمه الله تعالى لحمل خلافة الأرض، ولكنه في خلقه له لم يجعل هذا الإنسان واحداً، بل تفاوت البشر في الحياة الدنيا شكلاً ولوناً ومستوى، ولكن هذا التفاوت يتلاشى بمجرد ولوج الإنسان للمثوى الأخير، فالقبر مهما اختلف بناؤه ومكانه وزمانه فإنه لا يميز بين سكانه من البشر، وهو ممر للعبور إلى حياة أخرى إما الشقاء وإما السعادة، يقوم منه الناس كالفراش المنتشر للحساب بأمر من الذي أعاد هؤلاء الخلق من جديد، قال تعالى: {الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ} ١٢٩٥، هذا هو مصير كل الخلق، مهما طال بهم الزمن، فالتفاوت الذي كان في الدنيا كان ابتلاءً وامتحاناً للبشر، فعلى الخليفة أن لا يجعل منها محلاً للتفاخر والتجبر.

فعودة الخلق للمعيد بأمره، يأمر الساعة أن تقوم متى شاء عز وجل، {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ١٢٩٦، فقدرة الله تعالى لا حدود لها، بداية من قدرته على الخلق، فهذه القدرة تتضمن قدرة الإعادة من جديد، فإذا كذب الإنسان بهذه القدرة فهو لن يستطيع الإيمان بعودته للحساب، وكم من

١٢٩٤ الأنعام ٩٤ .

١٢٩٥ القارعة ١ . ٤ .

١٢٩٦ النحل ٧٧ .

أقوام خُلِقُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَخَرَجُوا مِنْهَا دُونَ أَنْ يَدْخُلَ قُلُوبُهُمْ نُورَ الْإِيمَانِ لِاتِّبَاعِهِمُ الشَّيَاطِينَ، سِوَاءَ كَانُوا أَفْرَادًا مِثْلَ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا} ^{١٢٩٧}، أَوْ كَانُوا جَمَاعَاتٍ وَأَقْوَامًا، مِثْلَ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمِ الْمَلِكِ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ لَيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ} ^{١٢٩٨}.

والإنسان الذي ميزه الله بأحسن التقويم وجعله خليفة هو معيد بالإضافة، يعود إلى ربه في كل كبيرة وصغيرة بالوحدانية والقدرة والقوة المطلقة، ويعيد إليه كل خير، فإله تعالى هو الخالق المعيد الذي بيده الأمر والنهي والملك يتعلم في حياته وبملكة التفكير والتذكر يسترجع ما تعلم، وبذلك يدخل الامتحان وحسب ما بذل من جهد تعليمي يفوز أو يفشل، وهو كذلك يعتبر ويتعظ كلما راجع العبر التي يحملها التاريخ والقصص التي يحتويها القرآن الكريم، والحكم التي بين الناس تتناقل من جيل إلى جيل، وهو الذي بإمكانه أن يجدد نشاطه بالمران ويعيد لنفسه الطمأنينة كلما عمل على تحقيقها، وهو الذي سيكون له كتاب محمول بيمينه أو على ظهره يوم الحساب ولهذا لم يفرض في الكتاب من شيء، قال تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

^{١٢٩٧} الكهف ٣٥ ، ٣٦ .

^{١٢٩٨} الحج ٥٥ . ٥٩ .

بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بِغْتَةٍ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} ١٢٩٩ .

فعلى خليفة الله في الأرض مهما علا شأنه في هذه الدنيا، أن يتذكر مواعده الآتي لا محالة مع المعيد، وأنه خلق من أجل الإصلاح والإعمار، وأن عودته ستكون لحسابه على ما قدمت يداه، وأن ما أصابه من نعم لا بد أن تكون باب شكر وامتنان لا باب تفاخر وتكبر، لأن الإنسان إذا تميز في الدنيا بفضل ماله أو حسبه أو شكله، فلن يميزه يوم الحساب أمام المعيد إلا عمله وتقواه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} ١٣٠٠ ، فلتكن أيها الخليفة ممن يتقون الله قبل أن يعيدك إليه نادماً متحسراً، فالتقوى زاد المؤمن، فاحمل زادك معك ولا يتقلك حمله مهما طالت المسافة، فالحياة الدنيا لن تفيدك بشيء إذا فرطت بهذا الزاد، لأنها كلمح البصر تمر بسرعة ونحن نحسب الزمن يطول بنا.

إذن الخليفة هو من يؤمن بالعود ويعلم أن العود سيكون لكل شيء في مواجهة كل شيء، ولهذا يتقي الله ربه في كل قول وكل فعل وسلوك وفي كل عمل يعمله، وهو بإيمانه منتظر لذلك اليوم العظيم، الذي بالنسبة له سيكون فيه من المتنعمين وذلك بأسباب الأعمال الحسان التي قام بها في الحياة الدنيا، ويعلم أن المعيد لا يظلم أحداً قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} ١٣٠١ ، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} ١٣٠٢ ، وقال تعالى: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا

١٢٩٩ الأنعام ٣٦ . ٤٤ .

١٣٠٠ الحجرات ١٣ .

١٣٠١ النساء ٤٠ . ٤١ .

١٣٠٢ يونس ٤٤ .

أَعْنَتَ عَنْهُمْ إِلَهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَّبِعِ وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيْقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ^{١٣٠٣}.

وقد خلق الإنسان بموعد في هذه الحياة، وسيخرج منها بموعد، وسيعود بموعد، وهذه المواعيد جميعاً بيد الله لا دخل للإنسان بها وواجب عليه أن يُسلمَ بها ويرضى، وأن يؤمن بأن وعد الله حق، فقد وعدنا الله تعالى بالرجوع إليه، فكيف نجد من يكفر بهذا الوعد؟ قال تعالى: {فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ^{١٣٠٤}.

وقد بين لنا الله تعالى أن مسألة خلقنا كانت لابتلاء الإنسان والتمييز بين المحسنين والمفسدين، قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ^{١٣٠٥}، فقد خلقنا من عدم ووهب لنا الحياة بشروط وأسس حكيمة، وأوضح للإنسان كيفية السير فيها بما يرتضيه المولى عز وجل، فمن تبع هذا الطريق حُقَّ له أن يخلف الله في الأرض، ومن خالفه حلت عليه لعنة الله إلى يوم الدين، وذلك في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا

^{١٣٠٣} هود ١٠١، ١٠٨.

^{١٣٠٤} إبراهيم ٤٧، ٥٢.

^{١٣٠٥} الملك ١، ٢.

وُسْعَهَا أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبِّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ} ١٣٠٦ .

وبين بدء الخلق وإعادة الخلق للحساب تكمن مسألة ربح الإنسان وخسارته، فالبشر في هذه الحياة منقسمون إلى خاسر وربح يوم الحساب، والذي يحدد هذه المسألة هو العمل، عمل الإنسان نفسه، لأنه هو زاد الإنسان يوم الحساب، وهو الذي يرفعه أو يلقي به في الهاوية، لا المنصب والمكانة ولا المال ولا الأولاد يغني عن الإنسان شيئاً، بل عمل الإنسان في الحياة الدنيا هو الفيصل الأول والأخير، قال تعالى: {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ الضَّعْفُ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ} ١٣٠٧ ، فكيف سيربح من فضّل الدنيا ونسى الآخرة، ونشر الفساد واتبع الشيطان؟ فالربح والخسارة يومئذ ميزانهما ما قدم الإنسان وما ادخره من زادٍ لهذا اليوم العظيم، الذي هو جامعنا للحساب، لأن الله تعالى قد خلق البشر من العدم وسوّاهم وأحسن إليهم بهدف عبادته وخلافته في الأرض، فيعمرونها وينشرون فيها الحق، ولكن تفاوت الخلق في تحقيق هذا الهدف الرباني، فمنهم من عمل جاهداً في الوصول إليه، ومنهم من غفل أصلاً عنه، وهذا التفاوت المذهل والمعدل النسبي للتفاوت بين البشر، استدعى حساباً وجزاء للخلق، فالنسب المتفاوتة دائماً تخرج بنتائج متفاوتة ويكون بالتالي طرق التعامل معها كذلك، كما في قوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيهِ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ

١٣٠٦ الأعراف ٤١ . ٤٤ .

١٣٠٧ سبأ ٣٧ .

فَطُوفُهَا دَانِيَةً كُلُّوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ} ١٣٠٨ ، ففي الآية الكريمة السابقة عدة عبر من شأنها أن توظف فينا خشية الوقوف بين يدي الله تعالى منها:

أولاً: قد نبه المعيد جل جلاله الناس:

بأنهم لن يُترَكوا سدى بعد ما قدموا في الحياة الدنيا، فالموت ليس نهاية لهم، كما كان في اعتقاد بعض البشر، قال تعالى: {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَنَذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَلَيْسَ لِمَبْعُوثِينَ خَلْقًا جَدِيدًا أَوْلَمَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا} ١٣٠٩ بل الموت بداية لحياة جديدة، لا يدركونها إلا المعيد سبحانه وتعالى، أما البشر فلا يدركون إلا بعض أسرارها وخباياها، لأخذ الحيلة والعبرة والعمل جاهداً لإرضاء المعيد سبحانه وتعالى، وحتى لا يكون للناس حجة على الله، فالعلم بحرمة الأعمال يبطل أي مبرر لها، حتى إن الله تعالى لم يساو بين من يعمل الخطيئة عن علمٍ بشرونها وعقابها، وبين من يجهل بها، قال تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} ١٣١٠ .

ثانياً: البشر قسمان عند إعادتهم للحساب:

١٣٠٨ الحاقة ١٨ . ٣٢ .

١٣٠٩ الإسراء ٩٧ ، ٩٨ .

١٣١٠ النساء ١٧ ، ١٨ .

فمنهم الضال، الذي لم يدرك معنى المعيد ولم يؤمن به، وكذب بعودته وحسابه، فاستحق بذلك عذاب الجحيم، فقد غفل هذا الضال عن الإعداد ليوم القيامة، فكيف ستكون عودته دون أن يتزود بما يعينه في هذه الرحلة القصيرة؟ قال تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْأخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ١٣١١، فالغفلة عن توحيد الله وذكره وإتباع طريق الشقاء يكون الجحيم هو المصير لهم، ويقفون موقف الخائفين الذين تملئ قلوبهم الرهبة والرعب، قال تعالى: {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ} ١٣١٢، وهؤلاء هم من اتخذوا الشياطين أولياء لهم، وغرتهم الحياة الدنيا، فأفسدوا وطغوا، وتركوا أنفسهم في دروب الضلال تهيم، فتركهم الله منزوعي الأمان والشفاعة يوم الحساب، بما استحقوه من تكذيب وفساد، قال تعالى: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِيِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينِ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ} ١٣١٣، فخسارة هؤلاء يوم الدين هي برهان لهم على أن الله محاسب عادل. ومنهم المهتدي الذي بحث عن رضا المعيد، فهده الله تعالى فجعل حياته زادا يحمله معه يوم الحساب، فعمل لذلك اليوم ما ينقذه من الجحيم، قال تعالى: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} ١٣١٤، فسبيل الهداية قد وضعه الله تعالى لمن أراد أن يهتدي، قال تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ قُلْ هَلْ

١٣١١ الأعراف ١٤٦ ، ١٤٧ .

١٣١٢ النازعات ١ . ٨ .

١٣١٣ المنثر ٤٢ . ٤٩ .

١٣١٤ التوبة ١٨ .

مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ وَمَا يُتَّبَعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} ١٣١٥ ، فلا هدى بغير هدى الله، وقد جعل في تنزيل القرآن الكريم طريقاً منيراً لمن طلب الهداية، قال تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} ١٣١٦ ، فالقرآن الكريم منارة للهداية وحافظاً لكل من أراد من الضلال والفساد، والهدى لا بد أن يكون مطلب كل مؤمن باحث عن رضا الله تعالى، فبغير الهدى لا أمل له في الفوز، ولنا في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أفضل مثل نقتدي به، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَىٰ وَالنُّقَىٰ وَالْعَفَافَ وَالْغِنَىٰ" ١٣١٧

ثالثاً: البشر يومئذٍ تنكشف أعمالهم:

فلا ستار يستر خطيئتهم، ولا حجاب يمنعهم من المعيد لخلقهم، لأن الإنسان قد يستطيع أن يعيش عمره وهو يخفي ما أراد عمن حوله، لكنه لن يخفي حتى ما يجول بخاطره عن خالقه، وكيف يستطيع ذلك وهو يعلم ما في القلوب، أي يعلم السر والجهر، قال تعالى: {إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ} ١٣١٨ ، وكذلك قوله تعالى: {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} ١٣١٩ ، فالإنسان مكشوفٌ أمام المعيد في الدنيا وسيكشفه يوم الحساب، لأن الشاهد على الإنسان هو نفسه التي خلقها الله، وأنطق ما لم يكن ينطق من أعضائه، فأين سيكون المفر والمهرب يومئذٍ.

١٣١٥ يونس ٣٤ ، ٣٥ .

١٣١٦ الإسراء ٩ .

١٣١٧ صحيح مسلم ج ١٣ ، ص ٢٥٠ .

١٣١٨ الأنبياء ١١٠ .

١٣١٩ النمل ٢٥ .

رابعاً: في تعبيره عن الحياة الدنيا بأنها ما كانت إلا أيام فقط: يوضح لنا حقيقة هذه الدنيا، وحقيقة الآخرة، لأن الأيام هي ساعات وتتقضي لا تستحق أن نتناحر عليها، ولا تستحق أن تنسينا عودتنا الأكيدة يوم الدين، وهذا يدل على فنائها وضآلتها، والمؤمن الحق يتنبه لهذا فلا تأخذه هذه الأيام بعيداً عن الحق القائم، بل إن المعيد قد جعل هذه الدنيا أصغر شأنًا وأقل قيمة في قوله تعالى: {وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} ١٣٢٠، لقد اختصر المعيد لنا الحياة الدنيا في ساعة فقط، لأخذ العبرة والحيلة مما قد نخسره في هذه الساعة، فالرحلة زمنها ساعة وثمانها إما الجنة أو النار، فهل تستحق أن نخسر ونضيع من أجل هذه الساعة الفانية؟ ما أقصر الرحلة وما أكثر الغافلين عن عودتهم من هذه الرحلة خاسرين، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} ١٣٢١.

لهذا فعلى خليفة الله أن يتسابق إلى مرضاة الله، ولا ينشغل عن التفكير في الحياة التي خلق أصلاً لها، وأن لا يخفي إلا الخير والصلاح، فالقلب العامر بنور الله تعالى لن يستطيع أن يسكنه إلا المحبة والرحمة، وهذه القلوب هي الناجية من الخوف والرهبنة يوم الحساب، ويكون رصيدها كبير من الطمأنينة والسكينة من عند الله تعالى بما استحقته من صفاء ونقاء وتقوى، فالله تعالى يهدي لخلفائه الأمان في الدنيا والآخرة ويبشر النفس التي اطمأنت بالله أن مستقرها الجنة التي كان قد سعى إليها، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتِي} ١٣٢٢، وأي رجوع أروع من هذا الرجوع الآمن لرب العالمين.

خامساً: الاعتراف بالذنب يوم القيامة:

١٣٢٠ يونس ٤٥ .

١٣٢١ يونس ٧ ، ٨ .

١٣٢٢ الفجر ٢٧ . ٣٠ .

فالمذنب لن يستتره المعيد يوم القيامة، وهو في أشد الحاجة لذلك، بل سوف يعترف بما اقترفه من ذنوب الله يعلمها، {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهُ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ يَا لَيْتَنهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ} ١٣٢٣، فلا غطاء ولا ساتر ومنجي من الله ذلك اليوم العظيم للكافر العاصي الذي لم يؤمن بإعادته للحساب، وكان الله الذي خلقه أصلاً من طين غير قادر على إرجاعه! هذا هو الجهل والكفر بعينه، فسبحان الله كيف يفكرون.

فلتكن رجعتك أيها الخليفة رجعة اطمئنان وحب لله رب العالمين، لا خوف ولا رهبة ولا ندم حيث لا ينفع الندم، ناجياً بذلك من الوقوف في صفوف النادمين المتحسرين، بل لا بد أن تكون من المتشوقين للقاء المعيد، لتنعم بالجنة وبمن تحب من حولك، {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ١٣٢٤، ولا بد أيها الخليفة أن تسعى جاهداً لأن تكون ممن آمنوا بملاقاة ربهم مجهزين بما يجعلهم من أصحاب اليمين، كما في قوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَهُ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} ١٣٢٥، لا تخاف أن تخفي كتاب أعمالك في ذلك اليوم الذي يكشف كل مستور، ولا تخجل من قراءة ما فيه.

وقد بين الله تعالى للخلق جميعاً طرق الخير والصلاح، فلا حجة للناس على رب العالمين، الذي أشار في أكثر من آية قرآنية كريمة إلى مفاتيح الفوز بالآخرة، قبل أن يعيد الخلق للحساب، فقد أوضح لهم ما ينفعهم في الحياة الدنيا، قال تعالى: {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا

١٣٢٣ الحاقة ٢٥ . ٢٩ .

١٣٢٤ يونس ٩ ، ١٠ .

١٣٢٥ الحاقة ١٩ . ٢٤ .

هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ} ١٣٢٦ ، فما هي حجة الكافر بعد تأكيد الخالق على إعادة الخلق بعد مماتهم من جديد للحساب، فالآية السابقة تقرير لإعادة الخلق باختلافهم، ونستنتج منها عدة أمور هامة منها:

١- أن المعيد عز وجل قد اختصر العباد حسب ما قدموا من أعمال في مكانين لا ثالث لهما، إما الجنة وإما النار، ولكلٍ منهما مستحق لها، ويكون الحساب دقيقاً لا ظلم فيه ولا جور، فليس الصالح كالمفسد، ولا المؤمن كالكافر، لأن القانون الإلهي العادل لن يظلم أي إنسان، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} ١٣٢٧ ، فقد يتوه في هذه الدنيا الخير والشر أحياناً فلا نميز أحياناً بين الخلق، لأن مقاييس الدنيا وموازينها كثيراً ما يصيبها الضلال، وهذا يتضح في كثير من القضايا الجنائية التي إما أن تظل معلقة، وإما أن تُبرئ الجاني وتدين المظلوم، وهذا لقصر القوانين الدنيوية، وانحيازها، وعدم استنادها إلى شرع الله، فيكون الحساب حينها غير عادل، في حين أن المعيد لا يختل ميزانه العادل الرباني، ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لِيُؤْفَيَنَّهِمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} ١٣٢٨ .

٢- التأكيد على الالتزام بأوامر الله ، كالأمر بالعدل والإخلاص في الدين وموالاته الله، لنذكر سبيل الحق والصلاح، لمن أراد الفلاح في الدنيا والآخرة، لأن إتباع أوامر الله والابتعاد عن نواهيه والإيمان بما جاء به رسولنا الكريم - صلى الله عليه وسلم - من لوازم الإيمان ومفتاح دخول الجنة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} ١٣٢٩ .

١٣٢٦ الأعراف ٢٩ ، ٣٠ .

١٣٢٧ الأنبياء ٤٧ .

١٣٢٨ هود ١١١ .

١٣٢٩ الأعراف ١٥٨ .

٣- أن لكل عملٍ جزاء، فالاختلاف في مكان إقامة الإنسان الأبدية يحدده عمل الإنسان في الحياة الدنيا، إذ أن باختيار الإنسان أن يكون وليه الله تعالى، أو وليه الشيطان، ففوز الإنسان أو خسارته في الآخرة مرهون بعمل الإنسان نفسه.

إن العمل هو محدّد واضح وفاصل بين الخلق يوم القيامة، فكيف يتساوى من يصلح في الأرض ومن يفسد فيها؟ فالعمل أما أن يكون دليلاً للهدى، أو دليلاً للضياح وعلى الإنسان أن يختار، فمن تبع هدى الله فاز ومن اتبع الشيطان واتخذة ولياً قد خسر خسراناً مبيناً، قال تعالى: { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }^{١٣٣٠}، فالطرق متعددة التي من الممكن أن يسلكها الإنسان في الدنيا، لكنّ الله تعالى أوضح كل طريق فيها لمن أراد أن يتبين، فالحق واضح والضلال واضح، قال تعالى: { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ }^{١٣٣١}، فما هو رد الكافر على هذا البرهان؟ وما هي حجة الجاحد وتابع الشيطان؟

٤- أن تقرير البدء والإعادة في الآية الكريمة في قوله: { كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ } لا يترك مجال للشك بعد ذلك، أو حجة للمكذابين بهذه الحقيقة، لأن الخالق عز وجل قبل أن يحدثنا عن إعادتنا ذكرنا ببدء خلقنا لارتباط كل منهما بالآخر، وفي هذا دعوة لكل الخلق في التفكير ببداية خلقه حتى يصل إلى نتيجة حتمية وهي أن هناك هدف لهذا الخلق، لأن الخالق ليس بحاجة إلينا، فخلقنا لم يكن حاجة بل لهدف، لأن الله تعالى غني عن العباد، قال تعالى: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }^{١٣٣٢}.

^{١٣٣٠} البقرة ٢٥٧ .

^{١٣٣١} لقمان ٣٠، ٣١ .

^{١٣٣٢} الزمر ٧ .

وليت البشر حين يتدبرون في اسم المعيد يتذكرون دائماً استحالة تخليدهم على وجه الأرض، وأن هذه الحياة لها شريعة يجب عليهم الالتزام بها، وأن يستحضروا دائماً مصيرهم المحتوم بين يدي الله، فهذا من شأنه أن يفتح كل إنسان كشافاً لحساب أعماله، ليصل إلى موازنة صحيحة من شأنها أن تصحح خطأه، وتعيده إلى الطريق المستقيم، فالإنسان مخلوق ضعيف، لا بد أن يخطئ، ولا بد أن يتوه أحياناً، والله رحيم به فهو قبل أن يعيده للحساب يعده له، بتخوفه وبتذكيره بعدة أشياء منها:

عندما يتوفى شخص عزيز علينا، كنا قبل دقائق معه، لكنه فجأة يرحل عنا إلى عالم آخر، فهذه الدنيا لا يقيم فيها أحد إقامة دائمة، حتى أن صفة الخلق والأنبياء مات ولم يخلد على هذه الأرض، قال تعالى: ﴿لَوْ قَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾^{١٣٣٣}، فهل هناك من يدعي الخلود بعد ذلك؟ قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^{١٣٣٤}، هذه الحقيقة التي أقرها الله، لا سبيل بعدها للشك في ذلك الأمر.

والموت أيضاً يأتي بغتة لا يستأذن الإنسان ولا يطرق باب أحد قبل الدخول، بل هو أقرب إلينا مما نتصور، فالموت لن يمهل صاحبه لإعادة حسابه والتفكير في ما سبق وقام به، فلا يكون هناك مجال للتراجع ولا مهلة لالتقاط الأنفاس التي سنتقطع.

كذلك من سبقه في الحياة أين استقروا من أمم وحضارات، جميعها بليت وعادت للتراب، فأين الخلود الذي ينتظره؟ ألم يتدبر في العبرة من أقوام سكنوا الأرض قبله ورحلوا دون رجعة؟ قال تعالى: ﴿لَوْ قَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا

^{١٣٣٣} آل عمران ١٤٣ ، ١٤٥ .

^{١٣٣٤} العنكبوت ٥٧ .

كَانُوا لِيَوْمِئِذٍ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ
كَيْفَ تَعْمَلُونَ} ١٣٣٥ .

فاسم المعيد في حق الله تعالى يمثل أساس فهمنا لهذه الحياة الدنيا، لأن المؤمن باسم
المعيد يختصر كل المسافات للوصول لرضا الخالق عز وجل، بما أنه آمن بقدرة الله على
الإعادة فهو مؤمن بيوم الحساب ، وإذا استحضر الإنسان هذا اليوم أمام عينيه وفي قلبه
فقد نجا من الجحيم الذي أعده الله لمن كفر بإعادة خلقه للحساب، قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ
نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ إِلَّا إِنْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} ١٣٣٦ .

وخليفة الله في الأرض هو الذي يكون دائم الاستحضر لهذا الموقف العظيم يوم إعادته
للحساب، ويذكر رحمة الله به إذ بيّن له الحجج والبراهين قبل وقوع يوم الحساب كي يعمل
له ولا تتسيه هذه الدنيا لزوم الاستعداد للعودة مع المعيد عز وجل، هذا الموعد الذي لا يعلم
موعده إلا المعيد نفسه، لكنه أعلم الخلق بأنه آت لا محالة، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ
فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ إِلَّا إِنْ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ
لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} ١٣٣٧ .

والإعادة تكون على عدة حالات تختلف بعضها عن بعض وهي:

الحالة الأولى: تكون في حياة الإنسان:

١٣٣٥ يونس ١٣ ، ١٤ .

١٣٣٦ يونس ٥٤ . ٥٧ .

١٣٣٧ الشورى ١٦ . ١٨ .

فمثلاً نجد ألسنتنا تسبقنا أحياناً في ترديد جملة عندما نتعجب لتغير حالة شخصٍ ما فنقول: سبحان الذي يغير ولا يتغير، وذلك عندما يكون الإنسان في حال ويصبح في حال مناقض تماماً، كأن يكون شخصاً تاركاً للصلاة والصيام ومدمناً على الكحول أو بعض ما حرّم الله، فيصبح تقياً ورعاً يخشى الله، محسناً، وهذا لا يحدث إلا عندما يعيد الإنسان النظر بهداية من الله في تعامله مع الله، ونلاحظ أن هذه الحوادث تحدث بأبسط الأسباب أحياناً، وكم من إنسان عاصٍ أصبح تقياً ورعاً يدعو إلى خشية الله تعالى بعد أن أعاده الله من طريق الضلالة إلى طريق الهدى بعد أن وجد في نفس هذا الإنسان بذور الخير، وهذه الإعادة تحدث في حياة الإنسان، فنراه يفيق من غيبوبته ليعيش واقع الحياة ويذوق حلاوة الرجوع إلى الحق، ويذوق حلاوة الأمان بين يدي الله تعالى، كأن نجد نصرانياً يسلم ويتجه إلى الله، تاركاً ما كان يضلّه ويغويه، فيهديه سبيل المهتدين، أو نجد كافراً تطهر من كفره بنور الإيمان، قال تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} ١٣٣٨.

وهذه دعوة لأن يبحث كل إنسان عن بذرة الخير، ويتعلم كيف يرويهها من نبع اليقين بالله المعيد له.

الحالة الثانية: الله تعالى يعيد برحمته المسلم المذنب إلى رحمته:

وهذه الإعادة أيضاً تكون في حياة الإنسان، فالمسلم قد يتعرض لمغريات عدة في الدنيا، وقد لا يستطيع مقاومة بعضها، فيوسوس له الشيطان، ليقع في المعصية، ويتبع طرق الضلال التي تؤدي به إلى الخسارة في الدنيا والآخرة، لكن الله تعالى يعيده بالرحمة والهداية إلى طريق الصلاح، لذلك فإن البدء بارتكاب الذنوب ليس معناه الخروج من رحمة الله خروجاً نهائياً، لأن رحمته موجودة إذا طلبها المذنب بالتوبة، لأن باب التوبة والمغفرة ستعيده مرة أخرى لرحمة الله، فأمل الفوز برضا الله تعالى علينا لا بد أن يكون مزروعاً ومروياً بحب الله وخشيته، قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن

رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} ^{١٣٣٩} ، وهناك قسمان من المذنبين، قسم ارتكب المسلم فيه الذنب وهو مدرك له، وقسم يعمل الذنب وهو جاهل به، لا يدرك فحوى ما اقترفه ولا ما يترتب عليه من عاقبة، قال تعالى: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} ^{١٣٤٠} ، فالله تعالى معيد حتى في حياة الإنسان نفسه، لأن الخروج من حالة والرجوع بحالة هي إعادة.

الحالة الثالثة: عند خروج الإنسان من هذه الدنيا:

التي قد تكون مليئة بالمعاصي لمن طلبها، والحسنات لمن سعى وراءها، ولمن أراد اقتطاف حسناته استطاع، ومن أراد جمع المعاصي استطاع، بعد أن أوضح الخالق الحق من الباطل، قال تعالى: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا} ^{١٣٤١} ، وهناك فرق كبير بين من طلب الحسنات ومن طلب المعاصي، فالفاصل بين البشر يوم القيامة هو هذا الخيار الذي يختاره البشر بإرادتهم.

الحالة الرابعة: إعادة الخلق بصفة عامة لطريق الهداية:

وذلك بإرسال الرسل والأنبياء، لأن كل الرسالات السماوية تهدف لهداية البشر لتوحيد الله تعالى، {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} ^{١٣٤٢} ، وكل الرسالات السماوية أيضاً تبشر وتتنذر من يوم الحساب، فلم يعد لأي

١٣٣٩ الزمر ٥٣ .

١٣٤٠ النحل ١١٩ .

١٣٤١ الكهف ٥٥ . ٥٧ .

١٣٤٢ الأنعام ٤٨ .

إنسان حجة لكفره وعصيانه، قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} ١٣٤٣.

الحالة الخامسة: إعادة الحياة قد تكون فورية:

أي فور مفارقة الحياة، فقد أكرم الله تعالى وخصص لعباده الشهداء إعادتهم للحياة فور مفارقتهم لها، قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ فَرحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} ١٣٤٤، فتكريم المعيد لهؤلاء الشهداء جاء على شكل إعادة الحياة لأرواحهم كمكافأة لهم على استرخاص حياتهم في سبيل الله تعالى، وهؤلاء الشهداء يبعثون لنا رسالة واضحة تبين لنا قيمة الحياة الآخرة فعملهم في الحياة الدنيا هو نتيجة إيمانهم بالله ويقينهم بإعادة الخالق لهم.

الحالة السادسة: قد تكون الإعادة من الحياة الدنيا إليها:

وذلك بأن يتخذ أولئك البشر العصاة عبرة وعظة من ذلك، فالله عز وجل قد أماتهم وهم أحياء على وجه الدنيا، ثم أعادهم إلى الحياة مرة أخرى ليتيقنوا من قدرة الله تعالى على الخلق والإعادة، كما في قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} ١٣٤٥، وذلك من رحمة الله بعباده، عليهم يشكرون تلك النعمة التي تتجسد في فرصتهم للنجاة من الجحيم، فالقادر على إعادتهم للحياة قادر على إعادتهم للحساب إذا كانوا يتفكرون. والمعيد له دلالات واضحة للبشر إذا أرادوا فهمها ما استعصت على أحد، وما استحال ذلك عليهم لتجليها مثل:

١٣٤٣ النساء ١٦٥ .

١٣٤٤ آل عمران ١٦٩ . ١٧١ .

١٣٤٥ البقرة ٥٦ .

١ - الإعداد ليوم الحساب:

فالامتحان لا بد له من الاستعداد لمن أراد النجاح، وكيف ننال درجات عالية في كتاب أعمالنا اليومية؟ وقد أعدنا الله باسمه المعيد للوقوف بين يديه يوم تقوم الساعة، فقد قرن الله تعالى في كثير من الآيات القرآنية بين بدء الخلق وإعادته، قال تعالى: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِنُ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ} ^{١٣٤٦} ، وقال تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَتَى تُوْفِكُونَ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ^{١٣٤٧} ، والرجعة هنا هي أقوى دليل على عودتنا، فمن رحمة الله تعالى بعباده أنه لم يتركهم سدى في هذه الحياة، الضعيف يستعبده القوي، والغني يأكل حق الفقير، والصالح مثل المفسد، بل جعل لنا مقاييس للتقوى، وقوانين نسير عليها إذا أردنا النجاح والفوز يوم الحساب وهي:

إيمان مقرون بعمل صالح فحسن الخاتمة لنا سيكون بإذن الله، قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا} ^{١٣٤٨} ، فالإيمان يترجمه العمل الصالح ليصل الإنسان لحسن الخاتمة، قال تعالى: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ} ^{١٣٤٩} ، فالعمل الصالح يعبر عن قوة الإيمان وعمقه، وهذا الإيمان الذي يسكن صاحبه جنات النعيم.

^{١٣٤٦} الروم ١١ . ١٥ .

^{١٣٤٧} يونس ٣٤ . ٣٧ .

^{١٣٤٨} الكهف ٨٨ .

^{١٣٤٩} الزخرف ٧٢ ، ٧٣ .

والشكر لله تعالى على نعمه علينا، والشكر المقصود هنا لله تعالى لا يكتمل إلا بالعمل الصالح والانتفاء عن ما نهى الله تعالى، وهذا يتضح من خطاب الله لآل داوود في قوله تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوهاَ شَهْرًا وَرَوَاحُهاَ شَهْرًا وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُم عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِن عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِبٍ وَتَمَائِيلَ وَجِفَانَ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} ١٣٥٠، فقد كان الشكر بالعمل لا بالقول فقط، كما وضحته الآية السابقة.

ووضّح لنا سبل الهداية والضلال، فقبل أن يعيدنا الله تعالى للحساب فقد أوضح لنا موطن الشقاء وموطن السعادة، بعد أن أهدانا العقل للتمييز بين الحق والباطل، وطوبى لمن كان ممن أصلح واتقى، في قوله عز وجل: {فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ} ١٣٥١، وكذلك قال تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّنْ فَهْمٍ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} ١٣٥٢، فقد شرحت الآية الكريمة السابقة أن الله قد أبدع في خلق هذا الكون ليكون دليلاً لمن أراد أن يهتدي في هذه الدنيا، فكل ما في الكون ينطق بوحدانية الله تعالى وبواجب طاعته وبقدرته، وأن هذه الحياة لن تدوم فكل من عليها فان، حتى إن صفوة خلق الله الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد مات ولم يُخلد، وأن الإعادة بعد الموت والرجوع لله تعالى لينظر في أعمال العباد، وبعد كل هذا هل سيجد الكافر ما يتحجج به يوم يقوم للحساب!

٢ - مباغثة يوم الحساب للبشر:

١٣٥٠ سبأ ١٢ ، ١٣ .

١٣٥١ الأعراف ٣٠ .

١٣٥٢ الأنبياء ٣١ . ٣٥ .

وفي هذا مبعث للخوف والتشويق والانتظار، فنحن متيقنون أن يوم الحساب آتٍ لا محالة وفي أية لحظة يشاء الله، قال تعالى: {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا} ١٣٥٣، وقال تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} ١٣٥٤، والإيمان بذلك من لوازم الإيمان بالله، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} ١٣٥٥، والتشويق من شأنه أن يدفع الإنسان الصادق لحب اللقاء، لقاء المعيد عز وجل يوم الحساب، في حين أن علمها عند واضعها فقط، حتى إن جميع الرسل والأنبياء الذين جاءوا للتأكيد على قيامها وحسابنا لا يعلمون عنها، مع أنهم صفوة الخلق جميعاً، قال سبحانه وتعالى: {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا} ١٣٥٦، فالجهل بالشيء المعلن عنه دون تحديد مواعده من شأنه أن يجعل الإنسان في حالة ترقب دائم، وكذلك في حالة من الخوف والرهبة لأنك لا تخاف مما تعلمه وإنما خوفك مما ينتظر في الغيب، قال سبحانه وتعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} ١٣٥٧، فترك علم الساعة لله وحده فقط له حكمة وهدف عظيم، ولو كنا على علم بها لانقلبت موازين حياتنا، وما كنا لنحيا بشكل طبيعي، والدليل على هذا أنا نلاحظ أن هناك من يصاب بأمراض خطيرة وعلى إثرها يعطي الأطباء له مدة محددة للحياة، عندها تنقلب حياته رأساً على عقب ويفقد كل رغبة له بالعيش والاستمتاع بالحياة، ويظل في دائرة

١٣٥٣ الأحزاب ٦٣.

١٣٥٤ الشورى ١٧ . ١٩.

١٣٥٥ المائدة ٦٩ .

١٣٥٦ الأحزاب ٦٣ .

١٣٥٧ الزخرف ٦٦ .

الكتابة يدر، لكن المعيد أكد لنا قربها ووقوعها في أية لحظة، وهذا دافع لذوي الأبواب للعمل على لقاء الرحمن بقلب خاشع، مع خالقهم الذي صدق وعده.

ولكن هناك فرق بين الترقب الممزوج بالشوق للقاء الله، والترقب الممزوج بالرعب والذهول، فأما من اختلط ترقبه بالرعب والرهبه والندم فهم الذين كذبوا بهذا اليوم الموعود، كما في قوله تعالى: {إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَابًا لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا جَزَاءً وَفَاقًا إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا} ١٣٥٨.

أما فريق الأمن والطمأنينة يوم الدين فهم الذين آمنوا بهذا اليوم وجعلوا حياتهم عملاً متواصلًا للفوز بالنعيم، قال تعالى: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} ١٣٥٩.

٣- عدم السعي وراء الحياة الدنيا وملذاتها:

بذلك يكون هدف المؤمن الحق هو الفوز بالآخرة عبر الحياة الدنيا، فعلينا أن نتذكر أننا لم نأت لهذه الحياة للخلد والدوام، أو أن بزوالها نفنى ولا نعود، بل أن هناك حياةً سوف تُعاد بشكل مختلف وهي هدف وجودنا أصلاً على هذه الدنيا، فلم نترك هذه الدنيا تسرق ساعاتنا وأيامنا لهواً وعبثاً، وبالمقابل السعي وراء الآخرة وحسن الختام بالعمل الصالح والتقوى، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي فَقَالَ كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ ١٣٦٠، وهذا بمعناه الاعتدال في طلب الدنيا، فالتوازن مطلوب دائماً للبشر في حياتهم.

١٣٥٨ النبأ ١٧ ، ٣٠ .

١٣٥٩ آل عمران ٧ . ٩ .

١٣٦٠ صحيح البخاري، ج ٢٠ ، ص ٣٩ .

فعين الخليفة يجب أن لا تنظر إلى معصية، بل يكون غرضها الوصول إلى خشية الله، والغض عن ما حرم الله تعالى، لأنها في حالة ترقب ليوم الإعادة الذي في أي لحظة هو آت، فينجو من المهلكة والخسارة، وأن يكون ذلك القلب الذي لا يسهو عن ذكر المعيد، فإنه يعمر بهذا الذكر في الدنيا وينجو في الآخرة من سوء المصير، لأنه لا يفلح من كانت الدنيا كل همه، فعلى من أراد أن يدخل في خلافة الأرض بحق أن يملك عيناً يمتد بصرها إلى خارج حدود هذه الدنيا، فلا تتمتع بما هو مفسدة، لأن الحياة الدنيا ما هي إلا متاع زائل، وأن يحمل قول الله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} ١٣٦١.

٤- تصبير قلب المؤمن على البلاء:

ولا نجد أعمق من صورة قدمها لنا آل ياسر، الذين جسدوا أروع نموذج لإيمانهم بالله المعيد جل جلاله، فما صبرهم وما تحملهم على أذى الكفار ليرجعوا عن دين الله تعالى إلا ليقينهم بأن الله معيدٌ لهم وما هي إلا دار فناء لن يخسروا من أجلها دار البقاء، هذه المعادلة الصحيحة التي بُشِّرَ من أجلها آل ياسر بالجنة، عن ابن إسحاق قال: كان عمار بن ياسر وأبوه وأمه أهل بيت إسلام، وكان بنو مخزوم يعذبونهم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: "صبرا يا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة" ١٣٦٢، فالتقرير هنا بأن موعدهم قد سُجِّلَ في الجنة حيث سيلاقون هناك أجر ما آمنوا به.

وهذه الصورة الخالدة المقررة لعودة الخلق، ما هي إلا تجسيد لمعنى الإيمان بالمعيد، وإلا ما كان هذا الينبوع القوي الذي تدفق داخل نفوسهم ليشد عزيمتهم ويصبرهم على هذا البلاء الذي لولاه لما هانت عليهم الآلام وعذابهم.

وبهذه الصورة نخرج بما يمكن أن يُحَدِّثه من تغيير الإيمان بهذا الاسم، فمن شأنه أن يجعل للضعيف أملاً في حقه الذي سُلِبَ، وفي المظلوم الذي اتهم بهتاناً وزوراً، ومن شأنه أن

١٣٦١ آل عمران ١٨٥ .

١٣٦٢ المستدرك على الصحيحين للحاكم، ج ١٣، ص ١٠٤ .

يجعل المؤمن صابراً على الابتلاءات والمحن، ثابتاً عند المصائب قال تعالى: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَازِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ١٣٦٣.

فليصبر المؤمن على البلاء ويستعين بالله المعيد، ويجعل إيمانه بيوم عودته برداً يثلج صدره عند الحاجة، بهذا سيصل إلى أعلى درجات الصبر والثبات.

وقد أوضح الله لنا من خلال اسمه المعيد بعض إعداداته لنا يوم الحساب، وهذا من شأنه أن يفتح باب اختيار الدرب الذي يسلكه الإنسان، فقد ترك الله علم الساعة خافياً عن البشر، كي يسعى كلُّ بما رغب، فالمؤمن يسعى للآخرة من خلال الحياة الدنيا، والكافر يسعى للدنيا فتلهيه عن الآخرة وتنسيه إياها إلى أن يفوت الوقت لمعرفة ذلك، لكنه ترك أيضاً بعض الجوانب فيه معلوماً لنا، مثل قوله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} ١٣٦٤، وقد جاء الله بوصف الجنة والنار في كثير من الآيات القرآنية وذلك للترغيب والترهيب، وبذلك لن يكون الإنسان غافلاً أو جاهلاً بما سيلاقيه حسب ما قدم من أعماله هو يعلمها، فأما الكافر فله نار لا يفر منها لأي مكان، قال تعالى: {كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ} ١٣٦٥، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ

١٣٦٣ غافر ١٥ . ٢٠ .

١٣٦٤ آل عمران ١٣٣ .

١٣٦٥ الهمزة ٤ . ٧ .

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا} ١٣٦٦ ، أما المؤمن المهتدي فله جنة لا يمكن أن يتخيلها العقل، بل يتشوق لدخولها كل مسلم، قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا} ١٣٦٧ ، وكذلك قوله تعالى: {إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} ١٣٦٨ ، فمن بالله لا يشتهي هذا النعيم؟ ومن لا يرغب بهذه الجنة؟. بالتأكيد إلا الجاهل أو الضال والمشرك والكافر الذين لا يعلمون علم اليقين قال تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} ١٣٦٩ .

فلتكن عينك على الجنة أيها الخليفة أينما توجهت، وتذكر أنها ذات أبواب مشرعة أمامك بعملك الصالح وإيمانك بالرجوع للحساب، وأن فوقك المعيد يُعَدُّكَ لهذا اليوم العظيم الذي لا يخلف وعده مصداقا لقوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ أُولَئِكَ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ أُولَئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُونَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا السُّوْأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يُبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ

١٣٦٦ النساء ٥٦ .

١٣٦٧ النساء ٥٧ .

١٣٦٨ الصافات ٤٠ . ٤٩ .

١٣٦٩ محمد ١٧ . ١٩ .

الْمُجْرِمُونَ} ١٣٧٠، وقال تعالى: {جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} ١٣٧١.

فخليفة الله تعالى على الأرض عليه أن يستحضر هذا اليوم دائماً، فلا ينشغل بملاهي الدنيا عن عودته للقاء خالقه، هذا من شأنه أن يزوده بنورٍ وحلاوة لا يستطيع أن يتذوقها أي كان، فمن نعم الله على من ارتضاهم خلفاء له وأولياء أن يطمئن قلوبهم بحلاوة ذكره، قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} ١٣٧٢، فعلى خليفة الله أن يجعل ذكر المعيد في قلبه، وعلى لسانه، وأن يكون يوم اللقاء معه مطلب وغاية.

كذلك أوضح المعيد أنه سيعيد خلق المرء على نفس صورته التي كان عليها في الحياة الدنيا، وهو عارٍ من كل الأفاعية التي كان يرتديها أمام الناس، فلا قناع ولا حجاب بين العبد وربّه، ولا يأتيه حبيب ولا حميم، ولا يرافقه والد ولا والدة، ولا يشهد معه أحد، فلن يدافع عنه محامٍ في محكمة، بل هناك قضاء عادل والشهود هم أعضاؤه وجوارحه التي خلقها من أعادها للحساب، قال تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكَ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} ١٣٧٣، فلا كذب ولا تزوير للحقائق، ولا شهادة زور، ولا رشوة يوم الحساب، كل شيء هو كما هو فلا تبديل لخلق الرحمن والخلفاء هم أولياء الله الذين لا

١٣٧٠ الروم ٦ . ١٢ .

١٣٧١ مريم ٦١ . ٦٤ .

١٣٧٢ الرعد ٢٨ .

١٣٧٣ فصلت ٢٠ . ٢٣ .

خوف عليهم ولا هم يحزنون الله قال تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} ١٣٧٤ .

ومن المعروف أنه نحن البشر مكونين من أحاسيس ومشاعر متفرقة، ونحتاج للدفع والتثبيت أحياناً، ومن شأن اسم المعيد أن يمدنا بكل ما نحتاجه من هذه الأحاسيس، وهذه سمة وإن تكن متفاوتة في نفوسنا، فهناك من ينزلق في الأخطاء بسهولة، وهناك من يصعب انزلاقه فيها، وهناك من يضعف أمام المغريات للحظة، وهناك من يثبت ولا ينجر وراءها، لكن الله تعالى يدفعنا جميعاً لملاقاته في أحسن صورة، ويثبت قلوبنا على مبدأ الدين الحق، وتثبيت القلوب لا يأتي إلا من عند الله تعالى، وعند حاجة المؤمن للثبات يجد الله تعالى معه لا يتخلى عنه، وما أن يطلبه يجده ، وقد كان لنا في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - عبرة وعظة، فقد ثبت الله قلبه في مسيرة دعوته بالقرآن الكريم، وهذا سبب نزول القرآن مفرقاً على الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً} ١٣٧٥ ، فمع اشتداد الأزمات على الرسول - صلى الله عليه وسلم - احتاج فؤاده إلى تثبيت وتصبير على هذه المعاناة ، فكان رحمة من الله تعالى أن ثبت قلبه بالقرآن الكريم، والمؤمن دائماً معرض لامتحانات في هذه الحياة لهذا فهو بحاجة دائماً إلى دعم وتثبيت من المولى عز وجل، ليقوى إيمانه ولا يتزعزع.

إن الدنيا لا يمكن إعمارها وإصلاحها إلا على أيدي طلاب الآخرة، ولكن كيف تُطلب الآخرة؟.

١٣٧٤ الأنعام، ٦٢، ٦٣.

١٣٧٥ الفرقان ٣٢ .

أولاً: أن يكون الإنسان على يقين أن طريق الاستقامة لا يمكن أن يسلكها مع رفقاء الشيطان ومجالس اللهو، وأن لا يتخذ أعداء الله تعالى أولياء له، قال تعالى: {تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} ١٣٧٦.

وأن يكون من المحسنين، لأن من شأن الإحسان أن يجعل المرء في مراقبة دائمة لذاته، ففي حديث جبريل لما سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الإحسان قال: "أخبرني عن الإحسان". قال: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" ١٣٧٧، فمراقبة الله تعالى في كل صغيرة أو كبيرة تقوم بها، من شأنه أن يخلق لدينا مؤشراً عند الوصول لتخطي حد من حدود الله تعالى، فننتبه ونرجع، ومحاسبة النفس دائماً وسؤالها، قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} ١٣٧٨، فلن يزل من كان مع الله دائماً، وسيكون راعياً لدينه، لأن الله في قلبه وعقله، وسيسير على هذه الأرض ملازماً لأولياء الله ومبعداً عن أولياء الشيطان.

ثانياً: أن يعلم الإنسان أنه عندما يودع أنفاس الحياة، لا يبقى لديه إلا عمله الصالح، وهو الذي يجعل ذكره في الدنيا خيراً، وفي الآخرة نجاة له من الجحيم، حتى إن كل عمل سيء أو فاسد قام به الإنسان في حياته ينقطع عند ما يودع الدنيا، لكن بعض الأعمال الصالحة التي كان يقوم بها تبقى على قيد الحياة حتى إعادة الخلق للحساب، مثل الصدقات والدعاء ممن أحسن معاملتهم في الدنيا، قال تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} ١٣٧٩، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

١٣٧٦١٣٧٦ المائدة ٨٠، ٨١ .

١٣٧٧ صحيح مسلم، ج ١، ص ٢٨.

١٣٧٨ آل عمران، ١٣٣، ١٣٤ .

١٣٧٩ الجاثية ٣٠ .

الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} ١٣٨٠، والعمل الصالح هو الشاهد على العبد يوم الحساب، فلا يخفى على الله أي عمل مهما كبر أو صغر، فهناك ميزان دقيق لا يصل لدقته الحساب البشري قال تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} ١٣٨١، فالعمل الصالح يكون في عدة أشكال منها:

أ- **الإنفاق في سبيل الله**، قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} ١٣٨٢، لأن من شأن الإنفاق أن يضاعف الحسنات فيكبر عمله الصالح، ويتزايد.

ب- **قول المعروف**: فقد أمرنا الله تعالى بقول المعروف والبعد عن القول السيء الذي يحمل الأذى للناس، وأن تكون النية خالصة لوجه الله تعالى، في أي عمل يقوم به الإنسان، لأن هناك من يعمل لنيل رضا الله، وهناك من يعمل أملا في إرضاء الناس وشكرهم له، قال تعالى: {قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} ١٣٨٣.

ج- **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: قال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ

١٣٨٠ البقرة ٢٧٧ .

١٣٨١ الزلزلة ٨ . ١ .

١٣٨٢ البقرة ٢٦١ ، ٢٦٢ .

١٣٨٣ البقرة ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

وَرَسُولُهُ أَوْلَىٰكَ سَيَرِحَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^{١٣٨٤}، فمن شأن هذا أن يرفع الأمة الإسلامية إلى درجات الرقي والرفعة، وأن يحفظ حقوق البشر، ونشر الفضيلة بين المسلمين.

د- **الصبر على ابتلاء الله تعالى في الدنيا:** قال عز وجل: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرَعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ^{١٣٨٥}.

هـ- **الإكثار من ذكر الرحمن:** قال تعالى: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ^{١٣٨٦}، فمن أساسيات حب الله لعبده، هو كثرة ذكر العبد لله تعالى، فمن ذكر الله ذكره، ومن نسي الله نساه، فمن أراد محبة الله وقربه ذكره ليل نهار.

و- **الإحسان للقریب والبعید:** قال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا^{١٣٨٧}.

ز- **الجهاد وبذل النفس في سبيل الله:** قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ^{١٣٨٨}.

ثالثاً: الاستغفار: والإكثار من ذكر الله تعالى، وهذا هو الحب الذي من شأنه أن يرفع الإنسان درجات، وأن يقربه من خالقه، ويكون سبباً في نجاته عند إعادته يوم الحساب، قال تعالى: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا

^{١٣٨٤} التوبة ٧١ .

^{١٣٨٥} الرعد ٢٢ .

^{١٣٨٦} آل عمران ١٩١ .

^{١٣٨٧} النساء ٣٦ .

^{١٣٨٨} البقرة ٢١٨ .

لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارِ رَبِّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ
لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} ^{١٣٨٩}، فما قرب العبد من ربه إلا كثرة ذكره لخالقه عز وجل،
ومن لا يجف لسانه من التسبيح والحمد والاستغفار.

والله يعطي الفرص لكل تائب صادق التوبة، ويفتح أمامه أبواب من الرحمة، عَنْ أَبِي
هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "يُنزَلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى
السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَخِيرِ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي
فَأَعْطِيهِ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ" ^{١٣٩٠}.

والعمل الصالح له أشكال ووجوه لا نستطيع الإمام بها بسهولة، إذ أن كل عمل يرضاه الله
تعالى عمل صالح.

رابعاً: الخشية من المعيد الذي ينتظر الوقوف أمامه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: "لَا يَبْكِي أَحَدٌ
مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ فَتَطْعَمَهُ النَّارُ حَتَّى يُرَدَّ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ وَلَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَدُخَانٌ جَهَنَّمَ فِي مَنْخَرِي مُسْلِمٍ أَبَدًا" ^{١٣٩١}، فخشية الله تعالى غيباً من شروط المغفرة والفوز
بالجنة التي أعدها المعيد لمن يؤمنون به ويخشونه، قال تعالى: {الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ
وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ} ^{١٣٩٢}، ومع ذلك فإننا قد نصادف في هذه الدنيا أحياناً من يخافون
البشر أكثر ممن يخافون خالق البشر جميعاً، وكأن أحداً منهم بيده العقاب والجزاء، أو
الحياة والموت، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا
رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ
اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً أَيْنَمَا تُكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ

^{١٣٨٩} آل عمران ٩١ . ٩٤ .

^{١٣٩٠} موطأ مالك، ج ٢، ص ١٤٨ .

^{١٣٩١} سنن الترمذي، ج ١، ص ١٥٥ .

^{١٣٩٢} الأنبياء ٤٩ .

حَسَنَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا{^{١٣٩٣}

خامساً: الابتعاد كل البعد عن النفاق والمنافقين: فالنفاق داء يؤدي بصاحبه إلى التهلكة،
{بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُّعُونَ
عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ
بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ
الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا{^{١٣٩٤}، فهذه الصفة المنفرة في بعض الناس لابد أن
نحتاط منها، بل ونحاربها، كي لا ينفشى خطرهما بين المسلمين.

ولنا في تاريخ البشرية أكبر عظة لنا في الخلق والعدم، فكما نتداول قول أن التاريخ يعيد
نفسه، فالبشر يتكررون بكفرهم وفسادهم، وكل زمن كان له رسله وأنبياءه لهدايتهم، ومنهم
من اهتدى ومنهم من عصى، والقرآن الكريم جاء على ذكر معظم هذه الأقسام للعبارة
والعظة، فكما تكررت الحوادث زاد الفهم واستوعب الإنسان الدرس، قال سبحانه وتعالى:
{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ}{^{١٣٩٥}، وأيضاً
قوله تعالى: {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ
بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}{^{١٣٩٦}.

المعيد هو الذي بيده قرار الإعادة لما بدأ خلقا، أي أنه مالك الأمر الذي إن شاء شيئاً قال
له كن فيكون، والخليفة هو المؤمن بأن أمر الله نافذ، وبالتالي أمر العود مكتوب، ولأنه
مكتوب، فلا بد أن يتحقق بفعل الأمر (كن). قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا

^{١٣٩٣} النساء ٧٧ ، ٧٨ .

^{١٣٩٤} النساء ١٣٨ . ١٤٠ .

^{١٣٩٥} الأعراف ٩٤ .

^{١٣٩٦} الأعراف ١٦٨ .

بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا} ١٣٩٧

والعبرة قد تكون متجسدة في أشخاص بعينهم مثل قارون الذي طغى بما أعطاه الله وعصا، ونسب الفضل في كل ما لديه إلى قدرته البشرية وعمله، كما في قوله تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} ١٣٩٨، أو في أقوام كاملة، كانت قد أصبحت مثلاً وعظة لكل من أراد استيعاب الدرس، مثل قوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَبَعِيدٍ} ١٣٩٩.

والعجيب أنه بعد كل تلاحق هذه العبر، وتكرار العظات، مازلنا نجد كفرةً يعم نفوساً؟ فتطلب غير الله تعالى؟.

والمعيد يدل على أنه:

أولاً: قادراً ومهيماً:

فقدرته وهمينته واضحة في الخلق والإعادة، وهذه القدرة والهيمنة على الخلق تكون في حياتهم وفي مماتهم، فلا يخرج الإنسان من هيمنة خالقه بمجرد خروجه من الحياة، مثل الذي يخرج من سيطرة رب عمله بمجرد استقالته من العمل، فلا يعود له سلطة عليه، فرب العالمين هيمنته علينا في الحياة وخارج الحياة وبعد الحساب، وتتجسد قدرته هذه كل ليلة، لأن الإنسان حين ينام فإنه يكون بين الحياة والموت، عَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ قَالَ: "بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا وَإِذَا قَامَ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ" ١٤٠٠، ونحن لنا في رسول الله - صلى الله عليه

١٣٩٧ النساء ٤٧.

١٣٩٨ القصص ٧٦.

١٣٩٩ هود ٨٩.

١٤٠٠ صحيح البخاري، ج ١٩، ص ٣٧٤.

وسلم - مثلاً نحتذي به، وهو لا ينطق إلا بالحق، وقد جاء حديث الرسول عليه الصلاة والسلام مفسراً لقول الله تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} ١٤٠١.

ثانياً: المعيد حسيب:

فلو لم يكن حسيباً لما كان معيداً، ولما حاسب عباده على كل عملٍ مهما كُبر أو ضؤل، وحسابه يكون أحياناً معجل أو مؤجل، ولكن الحساب الكبير يكون يوم يعيد الخلق يوم القيامة، فهو مُحاسبٌ بإعادته للخلق، وعرضهم أمامه، قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ} ١٤٠٢.

فعلى خليفة الله تعالى أن يعلم أن إعادته مرتبط بحسابه، وأن يكون متيقناً بمحاسبة المعيد له، وأن يعلم أنه عند تناثر ذنوبه والغفلة عن محاسبة النفس، فلن يفيق إلا عند الموقف الأعظم، وأن يعلم أيضاً أن الله يخفي حسابه على من حاسب نفسه في الدنيا، وأن يدرك أن التحسب بالله في الدنيا دفع للمحن والبلاء، وخيرٌ له في الآخرة، ويجب عليه أن يعلم أن الله أسرع الحاسبين، وهذا دافع للخليفة كي يحاسب نفسه، قبل أن يأتي يوم الحساب الكبير، عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّىٰ عَلَى اللَّهِ" ١٤٠٣.

وَبُزْوَىٰ عَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: "حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَتَرْتَبُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا" ١٤٠٤.

ثالثاً: المعيد هو الآخر:

١٤٠١ الزمر ٤٢ .

١٤٠٢ الحاقة ١٨ .

١٤٠٣ سنن الترمذي، ج ٨، ص ٤٩٩ .

١٤٠٤ المصدر السابق، ص ٤٩٩ .

فهو الآخر الذي انتهت إليه العباد، فلا آخر بعده، فقد كان الله ولم يكن شيء غيره وكل شيء هالك إلا وجهه وهو الذي تنتهي إليه عبودية وإرادة المخلوقات، فكيف يكون المعيد للخلق وهو ليس بالآخر؟ {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ١٤٥، فإعادة العباد للحساب تتطلب أن يكون المعيد هو الآخر.

وعلى خليفة الله تعالى أن يتعلق بالحي الذي لا يموت، بالآخر المعيد، الذي سيقف أمامه يوم الحساب، فليعمل ما ينفعه في ذلك اليوم الموعود.

المعيد باقٍ:

قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} ١٤٦، كل شيء فانٍ لأن كل شيء مخلوق، فالخلق محدد ببداية ونهاية، بيد المبدئ والمعيد، لكن الخالق عز وجل لا يفنى وكيف يفنى وهو لا زمان له، بل هو قبل الزمان، وهو سبحانه متصف بالبقاء رغم الفناء لكل شيء، فكيف يفنى جل جلاله؟ إنه الحق والحق باقٍ لا يفنى وهو المعيد لكل من يفنى.

رابعاً: المعيد ودود:

إن الله تعالى يعيدنا بوجه من الضلالة إلى الهدى بوجه ورحمته للبشر، ويعيدنا بعد الممات إلى الحياة ليفصل بين المحسن والمسيء، فكل مخلوق سيأخذ حقه فلا يُظلم عنده أحد يوم الحساب، وقد ودنا المعيد بتجهيزنا ليوم الحساب، وعرض علينا بعض ما فيه من نعيم وعذاب، ومن مظاهر وده لنا هو إهداؤنا الفرص المتكررة للعودة للحق، والبعد عن الباطل، وكذلك وده ظاهر للمتقين يوم الدين الذي أعد لهم ما يستحقونه من جنات النعيم، قال تعالى: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ

١٤٥ الحديد ٣ .

١٤٦ الرحمن ٢٦ ، ٢٧ .

رَزَقَهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا^{١٤٠٧}، وهو ودود حتى للعصاة بتذكيرهم بالعبر والمواعظ التي مرت بالتاريخ البشري، ويريهم آيات عديدة في هذا الكون علمهم يفيقوا ويرجعوا إلى صوابهم، قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ^{١٤٠٨}.

فعلى خليفة الله أن يعمل على تجهيز نفسه للحساب أمام المعيد، وأن يحاسب نفسه قبل أن يُعاد للحساب، وعليه أن يكون من أرباب القلوب التي لا تحتمل وجع الذنوب، بل ترنو إلى لقاء علام الغيوب.

خامسا: المعيد مميت:

هو الذي يميت الخلق للإعادة من جديد للحياة، حياة تبدأ بالحساب، فهو معيد الحياة للخلق بعد الممات، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ^{١٤٠٩}، فمسكن الأرواح لديه عز وجل، ومصيرها العودة إليه، كيف لا وهو خالقها ومالكها؟

فليت الإنسان يحافظ على هذه الأمانة الثمينة التي أودعها الله وهي الروح فينا لحين استردادها، لا نضيعها في مسالك الضلال، ولا نهينها في اتباع الشيطان.

المعيد محي:

فهو الذي بدأ الخلق من نطفة لهدف وغاية، والغاية هي إعادة إحيائنا للحساب، فيحي الله الأجسام البالية بإعادة الأرواح إليها يوم البعث، لأن كل الخلق هو ملك لله تعالى: {أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^{١٤١٠}، فالله تعالى يحيي الإنسان في الدنيا وفي الآخرة.

سادسا: المعيد رقيب:

^{١٤٠٧} مريم ٦٠ ، ٦٣ .

^{١٤٠٨} القصص ٤٣ .

^{١٤٠٩} التوبة ١١٦ .

^{١٤١٠} النور ٦٤ .

قال تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا} ^{١٤١١}، بما أن الله معيد لخلقه فلزم ذلك أن يكون رقيباً عليهم، قال تعالى: {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} ^{١٤١٢}، لأن الحساب يوم إعادة الخلق تطلب مراقبة العباد، وعدم الغفلة عن أعمالهم، فكيف يغفل عن ذلك من لا تأخذه سنة ولا نوم؟.

فليعلم الإنسان أن كل ما يقوم به من قولٍ أو فعلٍ عليه رقيب، كي يكون يوم عودته إلى الله عليه شهيداً، فلا يُظلم، وليعلم أنه لا يحيا في هذه الدنيا ليفعل ما يريد، قال تعالى: {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} ^{١٤١٣}.

سادسا: المعيد باعث:

قال تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} ^{١٤١٤}، إن الله تعالى معيد ببعث الأرواح والأجساد يوم الحساب، لأنه باعث الموتى يوم النشور، قال تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} ^{١٤١٥}، هذا اليوم الذي كان بعض الخلق يكفرون به، ولا يلقون له بالاً، قال تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ

^{١٤١١} الأحزاب ٥٢.

^{١٤١٢} المائدة ١١٧.

^{١٤١٣} ق، ١٧، ٢١.

^{١٤١٤} البقرة ٥٥ . ٥٧.

^{١٤١٥} البقرة ٥٦ .

يَرْجِعُونَ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} ^{١٤١٦}.

فعلى خليفة المعيد جل جلاله في الأرض أن يكون على يقين أن المعيد باعث الموتى يوم الحساب، فيرقى عن المعاصي، وليعمل على تحصيل أعلى المراتب عند المعيد عز وجل.
سابعاً: المعيد قادر:

قدرة الله تعالى تتجلى في الخلق والإعادة، قال تعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَاقَةَ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ} ^{١٤١٧}، فالإعادة في حق المعيد بالإطلاق ليست مجرد تكرار لما سبق، بل خلق جديد بقدرته جل وعلا، هذه القدرة التي شملت كل شيء، والتي اتسعت للمطيع فأثابته، واتسعت للمذنب فغفرت له، واتسعت للكافر فصبرت على عقابه، لذلك علينا أن نكون قادرين على كبح جماح النفس، وقادرين على إعادة ضمائرنا للحق إذا حادت عنه، وقادرين حتى على كظم الغيظ وهو قادر على الرد والصبر على الأذى كي نكون ممن يدعوننا الله يوم الميعاد من بين الخلق، عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: " مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يُخَيِّرَهُ اللَّهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ " ^{١٤١٨}.

ثامناً: المعيد عدل:

قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} ^{١٤١٩}، فهو العادل المطلق، فهو في خلقه وتوزيعه النعم عليهم بنسبٍ متفاوتة هو عادل، وفي فنائهم وإعادتهم للحساب هو

^{١٤١٦} يس ٤٨ ، ٥٢ .

^{١٤١٧} القيامة ٣٦ ، ٤٠ .

^{١٤١٨} سنن أبي داود، ج ١٢ ، ص ٣٩٧ .

^{١٤١٩} الأنعام ١١٥ ، ١١٦ .

عادلٌ، بل حسابه للعباد يوم إعادتهم هو العدل، فكثيراً ما نرى طغاة وجبابرة ظلموا البشر وتجبروا ولم يعاقبهم أحد، وهذه الشرور المنتشرة في الأرض بلا رقيب ولا حسيب. فعلى خليفة الله تعالى أن يرضى بحكم العدل، وأن يعلم أنه ولا بد أن يحكم يوم الفصل بين العباد، فيخشى الله في الأرض ولا ينسى المعيد العدل الذي سيحاسبه على ما قدمت يداه، وأن يعدل في أقواله وأفعاله وأحكامه في الحياة الدنيا، لأنها الشاهد عليه عند إعادته للخالق عز وجل.

فليكن خليفة الله تعالى عادلاً في الأرض، لا يجور ولا يظلم، وكيف يظلم من يسعى في هذه الدنيا بذكر المعيد، فلا تتسبه هذه الدنيا أن العادل أمر بالعدل، وأن في العدل لخيرٌ كثير، إذا علمه الإنسان ما ظلم، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ عَادِلٌ وَإِنَّ أَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَشَدَّهُمْ عَذَابًا إِمَامٌ جَائِرٌ " ١٤٢٠.

فالمعيد عز وجل بيده الأمر، ولأن أمر كل شيء بيده، فهو القادر على إعادة كل أمر متى شاء وكيف شاء. قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ} ١٤٢١، وقال تعالى: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ} ١٤٢٢.

فليحذر خليفة الله تعالى على الأرض نهايته، ويجعل سعيه لحسن الخاتمة، وليكن قوله دائماً من {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} ١٤٢٣ في حياته، فلا ييأس مع إيمانه، ولا يبالي بمتاع الحياة الدنيا مع فنائمه، ويكون ممن يدركون فائدة الزمن الذي سيعيشه في هذه الدنيا، فيستغل كل لحظة فيها ليتقرب إلى خالقه أكثر، لأن الوقت إذا

١٤٢٠ مسند أحمد، ج ٢٣، ص ١٤٤ .

١٤٢١ هود ١٠٧، ١٠٨ .

١٤٢٢ البروج ١٢ . ١٩ .

١٤٢٣ البقرة ١٥٦ .

فاته لن يستطيع إرجاعه بالندم والتحسر، وأن يأخذ عبرة من ندم الكافر يوم القيامة حيث لا يقدم ندمه شيء ولا يؤخر بين يدي الله، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُنزِلَ لَهُ الرِّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ اليَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾^{١٤٢٤}، فما فائدة التحسر والندم بعد فوات زمن العمل والطاعة أيها المخلوق من تراب والعاقد إليه؟ الخلفاء وحدهم يدركون الحق وهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه قال تعالى: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلٌّ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلٌّ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^{١٤٢٥}.

ولذا فلا يجب على المستخلفين فيها أن ينسوا الطاعة وبداية خلقهم وأن لا يسهوا عن نهايتهم التي سيجني فيها كل امرئ ما عمل، وعليهم أن يتخيروا أي الفريقين يريدون؟ هل يريدون أن يكونوا ممن يسعون وراء الدنيا، أم ممن يطلبون الآخرة؟ قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾^{١٤٢٦}، اللهم اجعلنا من المستخلفين الوارثين في الدارين ولا تجعلنا من المغضوب عليهم ولا من الضالين.

^{١٤٢٤} النبأ ٣٨ ، ٤٠ .

^{١٤٢٥} الزمر ١٥ . ٢١ .

^{١٤٢٦} الشورى ٢٠ .

وما أقرب الغد أيها الإنسان اللاهث وراء ملذات هذه الدنيا الفانية، والتي تسلب منك آخرتك، فتضيع وراء وسوسات الشياطين، وتبقى فقيراً من الحسنات والخيرات.

ولكن كيف يحقق المؤمن هذه الموازنة وفوزه بالآخرة؟.

قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} ^{١٤٢٧}، فطلب الآخرة له شروط ومقاييس لا يمكن نيل الجنة بدون هذه الشروط والمقاييس التي أوضحها لنا الخالق.

واسم المعيد مرتبط بيوم القيامة، لأن إعادة الخلق لن يكون قبل قيام الساعة، قال تعالى: {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ} ^{١٤٢٨}، عند حدوث هذه الساعة ووقوفنا بين يدي المعيد عز وجل، لن نتفح الأمانى، ولا التحسر والندم، فمصير الإنسان مرهون بما قدم في حياته، {كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذُّكْرَىٰ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَدِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدًا} ^{١٤٢٩}.

فليحيا الخليفة الذي استخلفه الله في الأرض بحق ذاكرة اسم المعيد كي لا ينسى أمرين هما من أسباب فوزه بجنات عدن:

١- إن بدايته من تراب ورجوعه إليه، فلا يتكبر ولا يتجبر في الأرض، إن الله لا يحب الطغاة الذين يسعون بالفساد في هذه الأرض. قال تعالى {وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ} ^{١٤٣٠}، وقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي

^{١٤٢٧} المؤمنون ١ . ١١ .

^{١٤٢٨} طه ١٥ .

^{١٤٢٩} الفجر ٢١ . ٢٦ .

^{١٤٣٠} غافر ٢٧ .

الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} ١٤٣١ .

٢- أن هناك بعد الممات إعادة لحياة هي هدف خلقنا من الأساس. قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَّا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِّنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} ١٤٣٢ .

والمعيد بالإطلاق يحبب أولياءه الصالحين بالعودة إليه، فيسرعون لملاقاته، وتكون الحياة الدنيا عندهم ما هي إلا وسيلة لقاء بالمعيد وتقرب له عز وجل، وبهذا يكون المعيد بالإضافة محبباً للإعادة، عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ يَسْرُهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَنَّ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا إِلَّا الشَّهِيدَ لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ فَإِنَّهُ يَسْرُهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى" ١٤٣٣ .

ولذا فهناك من يبيع الحياة الآخرة ليشتري الحياة الدنيا؟ وكانهم مخلدين فيها، كالذين في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ} ١٤٣٤ .

١٤٣١ البقرة ١١ . ١٦ .

١٤٣٢ البقرة ٨٤ ، ٨٥ .

١٤٣٣ صحيح البخاري، ج ٢ ، ص ٣٦١ .

١٤٣٤ التوبة ٣٨ .

فليتتا نكون ممن يتشوقون للقاء الله، ويسعون في الأرض بهدف نيل رضاه، وليتتا نكون ممن أمنوا عذابه واستحقوا نعيمه، كما في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} ^{١٤٣٥}، وليت الدنيا تهون وتصغر في أعيننا، فلا تكون همنا ولا سبب ذنبنا.

الإنسان يبدأ ويعود إلى الله، قال تعالى: {وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا} ^{١٤٣٦}، وهذه دعوة للخليفة أن تكون بدايته مع الله ونهايته مع الله، ذلك هو طريق الفلاح والنجاح، وكيف يكون خليفة من حاد عن هذا الطريق؟.

فالله معيد للخلق للحساب، ومعيد للفرص لكي يتوب المذنب، ومعيد للحياة لأخذ العبر، ومعيد للأرواح في الأجساد بعد النوم، وبعد هذه الإعادات ماذا ينتظر أصحاب القلوب القاسية التي لا تتقن لكل هذا؟ فقد صدق الله في قوله عنهم: {فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} ^{١٤٣٧}، فما جدوى الحياة دون أن نلزمنا بالخير والصلاح، وما فائدة العيش إذا كان بدون شكرٍ للخالق عليه.

فالحياة الدنيا والآخرة مسألة بيع وشراء، وهناك فريق من البائعين لهذه الحياة والشارين بها الآخرة، وهم من قال الله فيهم: {فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} ^{١٤٣٨}، والفريق الثاني هو

^{١٤٣٥} فاطر ٣٦ ، ٣٧ .

^{١٤٣٦} النجم ٣٩ . ٤٤ .

^{١٤٣٧} البقرة ٧٣ ، ٧٤ .

^{١٤٣٨} النساء ٧٤ .

من اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، وهم الذين قال فيهم تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُقَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^{١٤٣٩}.

فعبأ لمن يشتري الفناء بالحياة، ومن يبيع الأمن ليشتري الخوف، أولئك ما رحبت تجارتهم أبدا، فبئس ما اشتروا به الآخرة.

فيا خليفة الله في الأرض، اسع فيها بالخير، واعلم أنك منذ بداية خلقك أنت في طريق العودة إلى المعيد عز وجل، هذا من شأنه أن يعيدك إلى الحق إذا ما زاحت خطاك عن الاستقامة، وانحرف عقلك نحو المفسدة، فلن يعود للحق إلا كل صاحب ضمير يحييه بذكر المعيد، الذي أحسن إليك ورحمك وغفر لك.

واعلم أن يوم الميعاد قريب، وأن لكل منا مكان هو داخله يوم الحساب، لأن الجنة تنتظر الفائزين بها بشوق، والنار يستعر لهيبها للخاسرين، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسْأَلُ عَنْهَا فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً فَقَالَ خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً فَقَالَ خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَفِيمَ الْعَمَلُ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ

أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهُ رَبُّهُ الْجَنَّةَ وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهُ رَبُّهُ النَّارَ" ١٤٤٠.

وتذكر أن تكون معيداً في حياتك، فبالدين والعلم تستطيع أن تعين على إعادة العاصي للحق، فكم من كافر بالله اعتنق الإسلام على يد من أعادوه لله من دعاة الحق والإسلام، وكن معيداً لذكر الله أمام كل متجبر اعتقد أن العالم ملكه، لعله يعيد التفكير في رحلة عودته إلى المعيد بالإطلاق، وكن معيداً لحياتك في الدنيا بالخروج من كل مفسدة ضعفت فوقعت فيها.

اللهم يا المعيد أعد للإسلام مجده وللمسلمين العزة والهيبة، وألبسنا ثوب الخيرية الذي ألبسته أجدادنا وقلت فيهم وفينا: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} ١٤٤١ فأعدنا إلى العمل بكتابك والافتداء بهدي رسولك محمد عليه الصلاة والسلام، فنعيد الحق بالحق لأهل الحق، ونبطل الباطل بالحق ليعلو الحق، اللهم يا المعيد عيد الحق لأهله وانتصر لعبادك المؤمنين فإنك تعلم ما حلّ بأمة نبيك وليس لها من دونك كاشف للبلوى، واجعلنا ممن حملوا الأمانة وأقاموا الخلافة طاعة لك واقتداءً بأنبيائك وأوليائك.

اللهم اجعلنا من الذين يعودون إليك فيما قلت وبما أمرت حتى نهتدي إلى الصراط المستقيم، اللهم يا المعيد يوم تعيدنا للتراب لا تعيدنا معذبين، ويوم تبعثنا للحياة من جديد فاجعلنا في جنان الفردوس والنعيم إنك بنا رؤوف رحيم.

١٤٤٠ موطأ مالك، ج ٣، ص ٣٧١ .

١٤٤١ آل عمران ، ١١٠

مَنْشُورٌ عَنِ امْرَأَةِ اللَّهِ الْحَسَنِيِّ

وَأَثَرَهَا فِي اسْتِخْلَافِ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ

تأليف
أ. د. عقيل حسين عقيل
جامعة القادح - كلية الآداب

الجزء السادس

الامام الحسن
عليه السلام

دار البزك
دمشق - بيروت